موسوعة

الخلق والنشوء

تأليف

حاتم ناصر الشرباتي

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الشرباتي ، حاتم ناصر

موسوعة الخلق والنشوء / تأليف حاتم ناصر الشرباتي . ـ ط٢ ـ

المنصورة : مكتبة الإيمان ،٢٠٠٦

٤٧٢ص ،١٧ x٢٤سم .

تدمك 8 ـ 247 ـ 290 ـ977

١ـ النشوء والارتقاء . ٢ ـ الخلق .

أ ـ العنوان ٥٧٧

رقـــم الإيـــداع : ٢٠٠٦/٧١٦٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إني رأيت أنه لا يكتب أحد كتاباً إلا قال في غده:

لـــو غـــير هـــذا لكـــان أحســـن..........

ولـــو زيـــد هـــذا لكان يستحسن..........

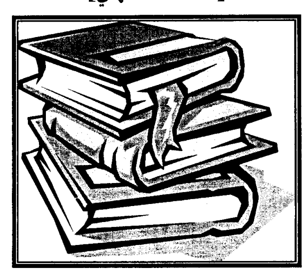
ولـــو قـــدم هـــذا لكـــان أفضـــل..........

ولـــو نـــزل هـــذا لكـــان أجمـــل..........

وهـــل مـــــن أعظـــم العبـــر............

وهو دليل على استيلاء النقص على مجموع البشر

[العماد الأصفهاني]



[الإهـــداء]

إلى والدي اللذان تعهداني وأنشآني على الدين القيم

وإلى أساتذتي الذين علموني الطريق المثلى للتفكير

وإلى زوجتي التي عاشت معي في السراء والضراء

وإلى أبنائي وأحفادي زينة الحياة الدنيا

أهدي كتابي هذا

شـــاكراً كـــل الأخوة الأعزاء الذين شجعونى على كتابة هذا البحث ونشره، وأتقدم بشـــكر خـــاص لكل من الأخ عطية عبد المعطى زاهدة لقيامه بمراجعة النّص والحث على نشــره. والأخ غالـــب بشير ياسين أبوشخدم الحسينى للتشجيع وإمدادى بمراجع قيمة، وأختى الحاجة نافذة أول من شجعنى على ذلك ولمراجعتها للنص، ولابنتى أم عبيدة ودعاء والآنســة يســرا فضـــل الحداد التى وضعت اللمسات الأخيرة على برمجة الكتاب على الحاســوب، عـــلى مـــا بذلنَ من جهد شاق فى إخراج هذا الكتاب وبرمجة طباعته على الحاسوب.

أملاً أن يفى بالمطلوب، وأن يحقق الهدف من كتابته



[مُقـدمـــة]

أحمـد الله تعـالى حمـد الشـاكرين وأتـوب إلـيه وأسـتغفره ، أحمـده تعـالى حمـد الشـاكرين القانتين ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك لـه الأحد الصمد الذي لم يلـد ولم يولـد ولم يكـن لـه كفواً أحد ، وأصلى وأسلّم على سيدنا محمد وعلى آلـه وصـحبه والـتابعين ومـن سـار عـلى هديـه إلى يـوم الدّيـن ، رب اغفـر لى ولوالـدى ولأساتذتى وأصحاب الفضل علىّ ، وأنر قلبى واشرح لى صدري ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولي ، ووفقنى لصالح الأعمال .

إنّ أسـاس العقـيدة فـى الإسـلام قـائم عـلى إعطـاء الأجوبـة المقـنعة لتسـاؤلات الإنسـان عـن أصـل وحقـيقة هـذا الوجـود ، ويركـز عـلى حقـائق ثابـتة أولهـا الإيمـان الراسـخ بـالله تعـالى خالقـا لهـذا الوجـود ومسـيراً لـه ، مشـترطاً أن يكـون هـذا الإيمـان آتـياً عـن طـريق العقـل وإعمالـه بالـتفكير المسـتنير ليصـل الإنسـان عـن طـريقه أنّ وراء تلـك الموجـودات الـثلاث (الكـون والحـياة والإنسـان) خالقـاً أوجدهـا مـن العـدم وأنّ لهـذه الحـياة الدنـيا مـا قبـلها وهـو الله تعـالى ، وأنّ لهـا مـا بعدهـا وهـو يـوم القـيامة حيـث يبعـث الإنسـان ليحاسـب عـلى مـا قدمـت يـداه كمـا أوجـب الإسـلام الإيمـان بمحمـد ﷺ ورسـالته والملائكـة والرّسـل جمـيعاً ويـوم القـيامة والقـدر خـيره وشره من الله تعالى .

أما الشيوعيّة فهى مبدأ مبنى على المادة وليس العقل ، لأنّ فكرتها الأساسية والتى تفرعت عنها كل أفكارها أنّ جميع الموجودات من كون وحياة وإنسان هى مادة فقط ، وأنّ المادة هى أصل الموجودات وأنّ التّطور المادى تبعا لوسائل الإنتاج هو المحرك الفعلى والوحيد للمجتمع وعلاقاته جميعاً ، وأن المادة أزلية واجبة الوجود لم يخلقها خالق ، وأن ليس للمادة ما قبلها ولا يوجد بعدها شيء ، فهم ينكرون فكرة الخلق وبالتالى وجود خالق خلق الموجودات أى أنهم يرفضون الناحيـة الروحية فى الأشياء من كونها مخلوقة لخالق ويعتبرون فكرة الناحية الروحية خطراً على الحياة ، وبالتالى فالدّين عندهم

إنما هو أفيون الشعوب المخدر لأمانيهم وتطلعاتهم وهو بالتالى من عوامل تخلف المجتمعات .

أما نظرتهم للفكر فهى مادية أيضا ، إذ هو عندهم انعكاس للواقع على الدّماغ كما تنعكس الصورة على صفحة المرآة ، فالمادة عندهم هى أصل الفكر وأصل الحضارة ، وهى أصل كل شيء ومن تطورها المادى توجد الأشياء ولا بد ، هذه هى حتمية التّطور عندهم .

لقد ضلّت الشيوعية الطريق لمصادمتها الفطرة التى جُبِلَ عليها الإنسان باعتمادها نظرية التّطور المادى تبعا لوسائل الإنتاج فأعمت نفسها عن حقيقة وجود خالق لهذا الكون ، وأكثر ما روّج له الشيوعيون فى دعم نظرياتهم حول إنكار الخلق كانت "نظرية داروين" تلك النظرية التى وافقت ما روجوا له من إنكار الخلق . ومع أن كثيرا ممن ابتدعوا تلك النظرية السّقيمة أو ساهم فى نشرها والترويج لها قد كفر بها بعد أن أتاه اليقين واقتنع بزيفها ، إلا أن نفرا ممن يستهويهم كلّ شاذ وغريب لا زال يتشدّق بها ، لذا رأيت أن أقوم باستعراض تلك النظرية نقاشا ومناقشة ونقضا وأن أبين صحة وحقيقة نظرة الإسلام حول الخلق .

لقد انهارت امبراطورية الشيوعية وتفسخت أركانها لفساد عقيدتها القائمة على الإلحاد ، فهى فكرة خيالية سقيمة لا تستند إلى الواقع وتتصادم مع الفطرة التى جُبل عليها الإنسان لجحودها وإنكارها وجود الخالق ، فأى مبدأ هذا الذى ينهار بعد سبعين عاما من محاولة فرضه وتطبيقه . إنه الباطل الذى يحمل جذور فنائه ، لذا فليس من المستغرب أن ينهار هذا النظام وأن ينقلب رجاله ودعاته إلى الصّف المعارض له المطالب بالإجهاز عليه .

فقد شهد العالم حديثا انهيار امبراطورية الشيوعية المتمثلة بالاتحاد السوفييتى انهيارا منبئا بفشل ذريع إذ كان هذا الانهيار ناجما عن مصادمة الشيوعية لفطرة البشر وفساد وعقم أفكارها ، ومن الأفكار والعقائد الفاسدة تلك كان عقيدة التّطور المادى وإنكار

الخلق اللذان هما الأساس العقائدى عندهم .

أمّا المبدأ الرأسمالى الديمقراطى فهو والشيوعية صنوان ، إذ هو مبدأ كفر لا يرتكز على الإيمان بالله الخالق ، لقد كان الأجدر أن يتهدم هذا النظام الفاشل لقيامه على عقيدة الكفر قبل قرينه إلا أن عمليات الترقيع والتجميل عملت على إطالة عمره وإن غدا لناظره قريب ، فسيشهد العالم قريبا إن شاء الله انهيارا ثانيا سيدمر ويزيل كل امبراطوريات الرأسمالية الديمقراطية وزوال حضارتهم واندثارها ولعنة الناس كافة لها لِما جرّت عليهم من ويلات ونكبات وانقلاب رجالها عليها وذلك لقيامها على أفكار وعقائد فاسدة ، ولعجزها عن موافقة الفطرة الإنسانية ، ولن ينسى البشر أن تلك الأنظمة كانت المغذى الناشر لكل فساد فى العالم بما فى ذلك أفكار التّطور ومعتقداته السّقيمة .

نعــم ، ستزول أنظمة الديمقراطية الفاسدة وتندرس وستصبح أثرا بعد عين لتفسح الطريق أمام نظام سماوى كامل شامل موافق لفطرة الإنسان لقيامه على الإيمان بالله تعالى خالقا ومدبراً ، ويومها فقط ستعيش الإنسانية بالأمن والاستقرار والطمأنينة .

لقد كُتب هذا البحث لأول مرّة مختصرا قبل ثلاثون سنة ليقدم للجمعية الإسلامية فى مخيم النصيرات بغزة ، حيث نال المرتبة الأولى أمام الأبحاث المقدمة يومها ، ومن يومها كنت أراقب وأراجع كل ما استجدّ من أبحاث فى موضوع البحث فأرجع للبحث أجرى عليه التعديلات والإضافات اللازمة على ضوء ما استجد من مواضيع وأبحاث .

لقد طُرِحت تساؤلات عدة فى موضوع حياة الإنسان والتباين فى وجهات النظر حوله بين الحكم الشرعى ورأى الطّب ، وحول حكم أجهزة الإنعاش الطبية الحديثة ورفعها بعد الحكم بموت الإنسان طبيا خلافا لما يراه الحكم الشرعى بعدم موت الإنسان ، وهل يعتبر رفعها فى مثل تلك الحالة قتلاً؟ وتساؤلات أخرى حول موضوع نقل الأعضاء والتبرع بها قبل أو بعد الوفاة . . .

كما استجد موضوع أطفال الأنابيب بعد أن تجاوز الموضوع مرحلة الاختبارات . . .

وأخيراً استجدت مسألة الاستنساخ البشرى بعد أن نجح العلماء فى مختبرات (بى بى إل تيرابوتيكس Terabotix . L . B . B) الإسكتلندية فى أول عملية استنساخ حيوان بالغ بإعلانهم ولادة النعجة "دللي" بطريق الاستنساخ ، ومن ثم تصريحات العالم الأمريكى (ريتشارد سيد) تصميمه على بدأ العمل فى حقل الاستنساخ البشرى والتوقعات بنجاح ذلك .

لــذا فقد تمّ إجراء تعديلات وإضافات عدّة اقتضتها ما استجد من مواضيع . وحسبى أنى قد بذلت الوُسع فى ذلك ، فمن وقف معى عند هذا الحد فقد اكتفى ، ومن طلب المزيد فالباب مُشَرّعٌ أمامه ، وعليه فقد قمت فى نهاية الكتاب بتزويد القارئ بكشف حاوٍ لأسماء المراجع التى اعتمدتها وتلك التى اعتمدها غيرى ممن سبقنى إلى الكتابة فى الموضوع ، والتى يمكن لمن شاء الرجوع إليها رغبة فى التَوَثق أو زيادة فى الفائدة والتوسع .

لقد آثرت فى بحثى هذا أن تكون جميع مواضيعه مُدَعّمَة بالأدلة وموجزة فى العبارة لتكون أبلغ فى التأثير ، وقد استدللت بأقوال وآراء علماء التّطور المادى المؤيدين لنظريات التّطور المادى المختلفة ، وكذلك آراء المعارضين لها من العلماء والمفكرين مثبتا آرائهم كما وردت فى كتبهم وأبحاثهم بالتفصيل أو بتصرف منى بالنّص حيث يقتضى الأمر ذلك ، مشيرا لكل فى موضعه .

أما فى الأبحاث المتعلقة بالفكر الإسلامى فقد تمّ الاستدلال بنصوص القرآن الكريم وما صحّ أو حَسُنَ عندى من الحديث مستبعدا أى حديث ضعيف أو موضوع ، ثمّ آراء واجتهادات وتفسيرات مشاهير الفقهاء والمفسرين ، إمّا حرفيا أو بتصرف منى بالنّص حيث يقتضى الأمر ذلك مشيرا لكل فى موضعه .

وإنى إذ أتشرف بنشر بحثى المتواضع هذا وإخراجه من محبسه فلا أدعى لنفسى الفخر بالقيام بعمل فريد متميز ، بل قد قمت بجمع ونقل وترتيب آراء من سبقنى إلى ذلك حيث لم أعثر على بحث متكامل يفى هذا الموضوع الهام حقه باستكمال كافة

جوانبه مضيفا وجهة نظرى المعتمدة وترجيحى الرأى الأرجح فى كل موضوع حيث تناولت نقاش كافة وجهات النّظر نقاشا هادفا ونقض ما يحتاج منها إلى ذلك موصلاً القارئ إلى الرأى الأرجح والأصح ، فأتى الكتاب شاملاً وافياً خلافاً لكل ما نشر فى الموضوع على ما أعلم .

لقد تم تصنيف مواضيع الكتاب من خلال خمسة أبواب ، كل باب منها يحوى عدّة فصول حسب ما يقتضيه طبيعة البحث .

لقد جرى تقسيم الباب الأول وهو "نظريات التّطور المادي" إلى خمسة عشر فصلاً تبحث فى التّطور ومذاهبه وتاريخ ومشاهير تلك المذاهب ، وجرى فيه استعراض كافة المذاهب التّطورية علماً بأنه قد جرى التركيز بصورة خاصة على مذهب " داروين " وتفصيلاته باعتباره أشهرها .

أمـــا الباب الثانى وهو " نقض نظريات التّطور المادى " فقد جرى تقسيمه إلى خمسة فصول روعى فيه أن يكون شاملاً مستعرضاً آراء مشاهير العلماء فى الموضوع .

أما الباب الثالث وهو " الإسلام وخلق الإنسان " فقد جرى تقسيمه إلى ثلاث فصول تناولت وجهة نظر الإسلام حول خلق الإنسان ، رُكز فيها على نصوص القرآن الكريم المصدر الأول فى الأدلة الشرعية ، كما حوى الفصل الثالث منها مواضيع : خلق آدم أبو البشر عليه السّلام وخلق زوجته حواء ، وخلق عيسى ابن مريم عليه السّلام ، وقصة أصحاب الكهف والرقيم ، وموضوع إعادة الحياة .

أمـــا الباب الرابع وهو "عملية الحمل والولادة وتكون الإنسان" فقد قسم إلى تسعة فصول تناولت مواضيع الزوجية والتكوين والحمل والولادة وأطوار الحَمل

وكل ما يتعلق بخلق الإنسان حسب وجهة النظر الإسلامية ، كما أُضيف إليه موضوع " من هو الأصلح للبقاء " رداً على أشهر أسس وقواعد نظريات التّطور بالصراع لبقاء الأصلح ، كما أضيف إليه موضوع نسب الإنسان مرفقا بالنماذج والأمثلة .

أمّا الباب الخامس فقد جرى تقسيمه إلى فصلين:

الفصـــــــل الأول " الإدراك الفكـــرى والتميـــيز الغريزى " والذى قُسّم إلى ستة فروع تناولت مواضيع التفكير وطرقه والتمييز الغريزى والفرق بينهما.

الفصـــــل الـــــثانى " الحياة والموت والأحكام الشرعية المتعلقة بهما " وقد قُسِّم إلى ثمانـــية فـــروع تناولت مواضيع الحياة والموت وأجهزة الإنعاش الطبـــية ونقـــل الأعضاء وأطفال الأنابيب والاستنساخ البشرى والأحكـــام الشرعية المتعلقة بكل تلك المواضيع، علما بأن كل تلـــك المواضيع مرتبطة بموضوع الخلق والنشوء لارتباطها الوثيق بنشوء الإنسان وحياته.

لـــذا فإنّ هـذا الكتاب موجه لكل مهتم بمواضيع الخلق والنشوء وبشكل خاص فهو موجه :

إلى كـلّ مـن تقلّب وجهه فى السّماء وأعمل عقله النير فى التفكر فى الموجودات الكونية ، فتوصّل إلى حقيقة أنّ لكل تلك المخلوقات خالقاً أوجدها من العدم .

وإلى كل من قصر عقله عن إدراك حقيقة هذه الحياة الدنيا فكفر أو ألحد أو تشكك

وإلى كل من لا زال يبحث عن الحقيقة ليثبتها ببرهان قاطع .

وإلى كل الباحثين عن الحقيقة بصدق وإخلاص ونزاهة .

علهم يجدون فى كتابى هذا ضالتهم المنشودة ، معيناً لهم على الوصول إلى الحق واليقين .

لقد بذلت الوُسع فى بحثى هذا:

ليكون الكافى لمن رغب فى الحقيقة .

وليكون المرشد لمن نشد ضالته .

وليكون الدليل لمن بحث عن أدلة توصله

وليكون الجواب الشافى لكل حائر أو متسائل .

وليكون الموسوعة الشاملة لبحث لم أجد فى المكتبة كتاب أعطى هذا الموضوع حقه من كل الجوانب .

وليكون المنارة للمبحرين المخلصين السائرين إلى الهدى بحزم وثبات ، تنير لهم الطريق لتوصلهم إلى شاطئ النور والسلامة .

فإن تحقق ما قصدت فالحمد والشكر لله تعالى وحده ، وإن خفى على شىء أدى إلى نقص ، فأدعو الله تعالى الصفح والمغفرة وقد اقتضت حكمته تعالى استيلاء النقص على كافة البشر .

والله تعالى أسأل حُسْنَ العمل وخير الثواب ، والحمد لله رب العالمين .

صندوق بريد [٣٧٠] **حاتم ناصر أحمد ألشرباتي**

فاكس: ٢٢٢٥٨٣٧ – ٠٢ **الأول من شهر جمادى الأولى سنة ١٤٢٤هـ**

الخليل – فلسطين **الأول من شهر تموز سنة ٢٠٠٣م**

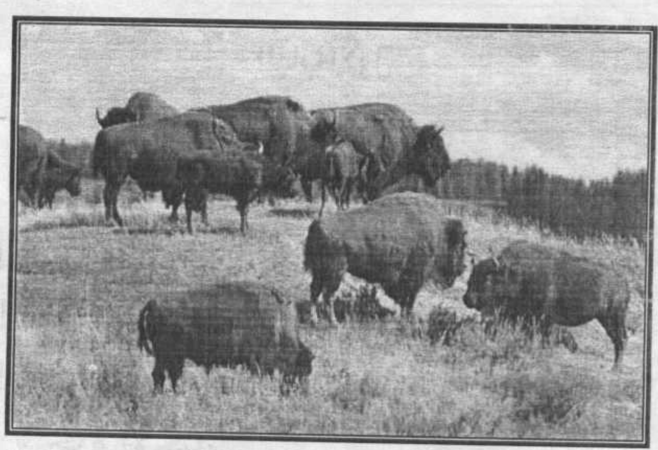


[للمبحرين المخلصين منارة]

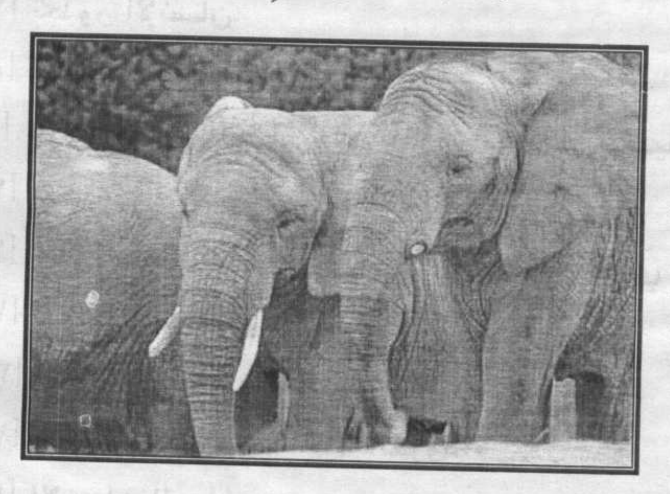
شعر جواد عبد المحسن الهشلمون

ما ضرّ لو كان القريضُ دواة ::: أهدى - كزهرٍ طيب - أبياتَ
فالزهرُ يَذبُلُ والنضار مُشوهٌ ::: والشعر يبقى الشعر بعد رفاتَ
وقد زعموا بأن الخل يندر عندما ::: تُتَصارف العملات في الطرقاتِ
فالحب خير وسيلة يرجى بها ::: نيل المصالح من قلوب ثقاتِ
قالوا.. وإن قالوا فلا أحفلْ بهم ::: فكلامهم غثٌ ولؤمٌ ذاتيَ
فالضوء يضفي للآلئ رهبة ::: والضيق يضفي للكرام سماتِ
والتبرُ يبقى التبرُ أنى وجدته ::: والجودُ يبقى أن تقلْ عثراتِ
والودَّ يبقى الودّ جسرٌ واصلٌ ::: والحبّ كل الحب لحاتم الشرباتيَ
اسم ووصفٌ قد جمعت وفي الذرا ::: عَلمٌ... وبيت واسع الغرفاتِ
لولاك يا ذا الوفاءُ فما ترى ::: في هذه الدنيا مِنَ اللذاتِ
نظر المحب إلى الحبيب تشوقاً ::: والعينُ تغني عن الكلماتِ
كلٌ يعيش لموقف يحيا له ::: ما عاش من راقت له الظلماتَ
قد سار نحو النورِ يحفر مسلكاً ::: ما عاقه صعبٌ من العقباتِ
ما عاقه عقلٌ كصخرِ جامد ::: فكأنه النقاش للصخراتِ
للمبحرين المخلصين منارةٌ ::: للسائرين إلى الهدى بثباتِ
ما عاشَ من أجل الأنا فكأنه ::: في كل عقلٍ عَقلهُ مرآةَ
جيلٌ من الشباب قد شهدوا له ::: فذٌ أبي واضحُ الطرقاتِ
شعر الوفاء أخطهُ لمعلمي ::: الحق نطلبُ أو علا الجناتَ
ما ضرَّ شِعرى خفضة أو رَفعة ::: فالشوكُ يُكمِل رَونقَ الزهراتَ

١٩٩٥/٠٣/٠٣م



﴿ إِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾(١)



(١) المؤمنون: ٢١ - ٢٢ .

الباب الأول

نظريات التطور المادى

الفصل الأول

التطـور[1] *Evolution*

إنّ التّطور يعنى التحول أو الانتقال من حال إلى حال . جاء فى "لسان العرب" : - (الطّور هو التّارة - الحال - الحد بين الشيئين ، والجمع أطوار ، والأطوار هى الحالات المختلفة والتارات والحدود واحدها طور)[2] ، وهو فى عرف علماء التطور "التحول من نوع حى إلى نوع حى آخر" .

أما جريدة " هوستتن بوست Houston Post " فقد عرّفت التطور التعريف التالي : " أنه يعنى ارتقاء الحياة من جهاز عضوى ذى خلية واحدة إلى أعلى درجات الارتقاء ، وهو بالتالي : التغير الذى طرأ على الإنسان نتيجة حلقات من التغيرات العضوية خلال ملايين السنين" [3] .

ونظرية التّطور ترتكز على ثلاث قواعد رئيسية كما حددتها "الموسوعة العالمية" .

[١] إنّ الكائنات الحيّة تتبدل أشكالها جيلاً بعد جيل تبدلاً بطيئاً ، وتنتج فى النهاية أنسالاً تتمتع بصفات غير صفات أسلافها .

[٢] إنّ هذا التّطور قديم وُجد يوم وُجدت الكائنات ، وهو السّبب فى وجود كلّ الكائنات الحيّة من حيوان ونبات فى هذا الكون وتلك التى انقرضت ، وهذا هو "التناسخ Reincarnation "[4] الذى تقول به بعض الديانات .

[٣] إنّ جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات مرتبط بعضه ببعض ارتباط صلة

---

(١) البحث منقول بتصرف عن كتاب (خلق لا تطور) - د . إحسان حقي .

(٢) لسان العرب - ابن منظور - مجلد (٤) صفحة (٥٠٧)

(٣) خلق لا تطور ، صفحة (١٣) ، نقلاً عن Houston Post

(٤) التناسخ أو التقمص هو الإيمان بأن النفس البشرية تتقمص بعد موت صاحبها جسداً آخر ، سواء أكان هذا الجسد لإنسان أو حيوان أو نبات ، وبذلك يكون لها وجود جديد أو أكثر من وجود . ومن أقدم من قال بالتناسخ الفيلسوف اليونانى " فيثاغورس " وبعض الديانات الشرقية كالهندوسية .

وقرابة ، وكلها تجتمع عند الجد الأعلى للكائنات جميعا .[١]

وفى وصف الـتّطور يقول الكاتب " بلات Platt" فى كتابه " نهر الحياة " ما يلي:

(حينما خرجت الكائنات الحيّة لتعيش فوق اليابسة انقلبت زعانفها أرجلاً وخياشيمها رئات وفلوسها جلوداً)[٢]

بقى أن نسأل : هل يحدث التّطور فى عرفهم فجأة وبدون مقدمات أم أنه يحتاج إلى زمن معين ، وإن احتاج إلى زمن فما هو الزمن اللازم للتّطور؟ . ويجيب على هذا التساؤل "دوبز هنسكي" الأستاذ فى جامعة كولومبيا فى كتابه "الوراثة وأصل الأنواع" قائلاً : (إنّ التّطور يحتاج إلى نحو مليارى سنة وإن هناك عوامل فاعلة يمكن دراستها دراسة تجريبية)[٣] .

يقول بعض علماء التّطور القدامى - وهم قليل - بأن هناك خالقاً هو الذى يحرك آلية التّطور لكن أكثر علماء التّطور وخاصة غير القدامى منهم يدّعون أن الحياة قد نشأت من مادة غير حيّة بدون أى تدخل إلهي ، أى أن المادة قد أوجدت نفسها بنفسها دون وجود خالق أوجدها ، ويقف فى مقدمة من قال بذلك " سير جولين هكسله " حيث يقول :

(إننا نقبل كل أحداث التطور، وتطور الحياة واقع وليس نظرية وهو أساس أفكارنا)[٤].

---

(١) خلق لا تطور صفحة (١٤) نقلاً عن : الموسوعة العالمية - طبعة ١٩٦٦ .*World book encyclopedia*

(٢) المصدر السابق ، صفحة (١٣ - ١٤) نقلا عن : *Ruthe Ford Platt* : *Le Fleuve de la vie* .

(٣) المصدر السابق ، صفحة (١٤) ، نقلا عن : *Dobzhansky. T* : *Genetics and the origin of Species* .

(٤) *Sir Julian Huxley* من كبار علماء التطور ، وكلمته المذكورة كان قد عبر فيها عن آراء زملائه فى الكلمة التى ألقاها فى الذكرى المؤوية للداروينية واتى أقيمت فى شيكاغو سنة ١٩٥٩ . - خلق لا تطور صفحة (١٥): نقلا عن جريدة " نيويورك تايمس " بتاريخ ١٩٥٩/١١/٢٩ .

لكن هذا القول لم ينفرد به "هكسلي" بل هو رأى مجمع عليه من كل العلماء المنادون بفكرة التطور المادي ، فنفس الفكرة لكن بألفاظ أخرى قد وردت فى كتاب "علم الحياة لك" حيث يقول :

(إن كل علماء الحياة المحترمين يقرون بأن تطور الحياة على الأرض أمر واقع)[١].

وفى تصريح لمدير إحدى الجامعات الأمريكية معبراً فيه عن رأى أكثرية الأساتذة المنادين بالتطور ورد ما يلي :

(لا بـدّ أن يكون المرء قد اعتمد على فكرة مسبقة وتمسك بها حتى يجرؤ على أن يـرفض الواقع، وإن كل من يفحص أدلة التطور لا بدّ لـه من أن يعترف بأنها واقع تاريخي)[٢].

كما أن فريقا من رجال الآوكليروس يحملون نفس الرأى ويدعون له ، وفى ذلك كتبت جريدة " ميلوكى جورنال *Milwaukee Journal*" (صرّح خورى كنيسة سان جاك الكاثوليكية مؤيداً التّطور بقوله : ليس هناك شكٌ بأن التّطور حقيقة واقعة)[٣]

لقد أصبحت فكرة التّطور مقبولة بصورة عامة فى أوساط علماء الغرب ، وذلك مما يمكن استنتاجه من أقوالهم ، ومن ذلك على سبيل المثال قول أحد رواد الفضاء نتيجة تجاربه خارج كبسولته ، وقد علقت جريدة " نيويورك تايمس " الأمريكية فى افتتاحية عددها الصادر بتاريخ ١٤ / ١١ / ١٩٦٦ على قوله بما يلي :

(إنّ كل ردود الفعل والغرائز المنطوية فى أفكار الناس وأجسامهم بفعل ملايين السنين من التّطور العضوى الأرضى قد أخضعت لتجربة قاسية بتعريضها لوسط غريب ومختلف وأعنى به الفضاء)[٤]

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن : *Biology for you - Vance Miller. B. , B. F. B* .

(٢) المصدر السابق نقلاً عن : جريدة "*New Orleans Times Picayune*" عدد ٧ / ٥ / ١٩٦٤ .

(٣) المصدر السابق نقلا عن جريدة : *Milwaukee Journal* .

(٤) المصدر السابق ، صفحة (١٦) نقلا عن : جريدة "نيويورك تايمس" فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٦/١١/١٤ .

ويؤكد نفس الأقوال عالم تطورى شهير وهو "دوبز هنسكى " حيث يقول فى كتابه " الأساس الحيوى لحرية الإنسان " : (لقد ثبت بما لا يجعل مجال للشك حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر بأن التّطور أمر واقع)[١]

وبناء عليه فالتّطور فى نظر القائلين به " وهم كثير " هو حقيقة حتمية لا نقاش فيها ولا مجال لديهم للشك بها أو الطّعن بصحتها ، وذلك يقتضينا دراسة تلك النّظرية بأدلتها ودراسة أقوال وأدلة من نادى بها وأقوال وأدلة من عارضها ، ومن ثم نحكم على صحتها أو بطلانها على ضوء ذلك ، خاصّة وأن غالبية وسائل الإعلام فى بلادنا تروج لها ، كما أصبحت مادة من المواد التى تفرضها دول المنطقة على طلابنا فى المدارس والمعاهد والجامعات كجزء من التوجيه الثقافى الذى تفرضه عليهم سفارات وأجهزة الدول الغربية بغطاء ما يسمى بالتعاون الثقافي ، ويفرضه عليهم الكافر المستعمر تثبيتا لاستعماره الثقافى بواسطة مراكزه المتعددة وأشهرها "اليونسكو" والاتفاقات الثقافية وغيرها .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١٧) نقل عن: *T. Dobzhansky , Genetics and the Origin of Species*.

الفصل الثانى

تاريخ المذاهب التطورية[١]

إنّ مذهب التّطور بالنشوء والارتقاء هو مذهب قديم ترجع جذوره إلى آلاف السنين ، فقد ظهر أثره فى أقوال علماء بابل وآشور ومصر والإغريق ، وقد أبدى بعض فلاسفة اليونان آراء يمكن وصفها بأنها تطورية ، إلا أن أى من نظرياتهم لم تُقبل إذ كانت نشازاً بين الأصوات المنادية للإيمان وذلك نظراً لأنّ الإنسان مفطور على التدين الذى هو إحدى غرائزه الفطرية الرئيسية . وعلى سبيل المثال فقد تطرق من الفلاسفة اليونانيين لموضوع التّطور" أناكسمندر *Anaximander* " المولود سنة " ٦١٠ ق . م . " قائلاً : (أما الإنسان فظهر بعد الحيوانات كلها ، ولم يخلُ من التقلبات التى ظهرت عليه ، فخلق أول الأمر شنيع الصورة ناقص التركيب ، وأخذ يتقلب إلى أن حصل على صورته الحاضرة)[٢]

وفكرة التّطور هى فكرة مصاحبة لفكرة الخلق التلقائى أو التّولد التلقائى أو التولد الذّاتي *(Spontaneous generation)* التى هى إحدى النّظريات القديمة التى وضعت قديما لتفسير أصل نشأة الكائنات الحيّة وتقول بأن تلك الكائنات قد نشأت من تفاعل بين مواد غير حيّة . ويعود تاريخ جذور الاعتقاد بالخلق التلقائى إلى العصور الغابرة ، فأرسطو[٣] أشهر الفلاسفة الإغريق كان يؤمن بالخلق التلقائي ، (فقد لاحظ أن صغار أنواع بعض الأسماك ظهرت فى برك كانت مياهها قد جفّت تماما ، فاعتقد أن صغار تلك الأسماك تنشأ من قطرات النّدى المتساقطة على أوراق الشّجر ، وينشأ بعض آخر منها من العشب

---

(١) فى تاريخ المذاهب التّطورية ، وخاصة القديم منها ، يمكن الاستزادة والإسهاب بالرجوع إلى المصادر التالية : من الإغريق إلى داروين - أوزبورن ❖ مقدمة إسماعيل مظهر على أصل الأنواع لداروين ❖ خلق لا تطور - د . إحسان حقى ❖ دائرة المعارف العربية للبستاني .

(٢) دائرة المعارف العربية للبستاني .

(٣) أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق .) هو الفيلسوف الإغريقى الشهير .

الأخضر والعشب الجاف أو من شعر الحيوانات أو من اللحم المتعفن أو من النفايات)[١] .

إنّ مثل تلك المعتقدات قد استندت على ملاحظات عابرة وغير دقيقة ، إلا أنه نظرا لمنزلة أرسطو بين علماء العصور المظلمة كعالم ومعلم فقد ظلّت تعاليمه ونتاج أفكاره تسود خلال عهود العصور المظلمة ثمّ لعدة قرون بعد ما يسمى بعصر النّهضة .

لقد ظلّ العلماء يتعلمون وينقلون عن أرسطو أكثر مما يحصلون عليه من تجاربهم واستنتاجاتهم العقلية ، فقد كانت الملاحظة المباشرة والتجارب الخاصة وإعمال العقول في التّفكر من الموجودات النّادرة في تلك العصور ، إذ كان السائد بينهم الانبهار والنّقل بلا تدبر عمن كان في نظرهم من المشاهير وكمثال عليه ننقل ما كتبه العالم فان هيلمونت *Van Helmont* في كتاب نُشر له عام ١٦٥٢ متأثراً بمقولة أرسطو الآنفة الذكر : (إنك إذا وضعت بعضاً من حبوب الحنطة مع قميص قذر في وعاء ، فإنّ فئراناً تنشأ من تفاعل حبوب القمح مع القذر العالق بالقميص)[٢]

كما أن الاعتقاد كان سائدا عن نشأة يرقات الحشرات في اللحم المتعفن ، مما أدى بالتالي إلى الاعتقاد بالخلق التلقائي ، حيث أتى بعد ذلك من أثبت بالدليل فساد تلك التّرهات ، وكان منهم الطبيب الإيطالي "فرانسيسكو ريدي *F. Redi*" الذي بدت له تلك المعتقدات غير مقبولة ، فقرر أن يختبر الأمر بنفسه ، فقام بسلسلة من التجارب على لحوم وأسماك وحيات ميتة داخل دوارق زجاجية مكشوفة وأخرى مغطاة ، وبعد إخضاعها لعدة تجارب خرج بنتائج تجاربه التي نشرها ، ومفادها : **(إنه بعد أن نشأت الحيوانات والنباتات الأولى على أرضنا فإن جميع الكائنات الأخرى نشأت عن طريق**

---

(١) عن كتاب "البيولوجيا" د . عدنان بدران وآخرين - طباعة وزارة التربية والتعليم/عمان . - وطباعة الضفة الغربية .

(٢) عن كتاب "البيولوجيا - علم الحياة" د . عدنان بدران وآخرين ، طباعة ومقرر وزارة التربية والتعليم - عمان . الصفحات (٩٢ ، ٩٣)

التّكاثر ، ولم يعد هناك خلق تلقائي)[1] إلا أن ريدى لم يتطرق إلى أصل النشأة الأولى للكائنات كما يوحى بذلك ما نشره .

أما العالم البيولوجى "لويس باستير *Louis Pasteur* " (١٨٢٢ - ١٨٥٩) وفى أثناء تجاربه وبحوثه المنصبة على محاولة دراسة عملية التخمر وعلاقة ذلك بالبكتيريا وتكاثرها بغرض استنباط طريقة لمنع الحليب وغيره من السوائل من التّعرض للفساد ، خرج بإثبات قاطع بفساد مقولة الخلق التلقائى مثبتا أن كل المخلوقات بلا استثناء قد وُجدت بطريقة خلق مباشر ومقتصر ، ونتيجة ذلك فقد قام بالدعوة إلى الإيمان بوجود خالق خلق الموجودات جميعا من العدم كما وسنّ قوانين التكاثر والتناسل وألزم المخلوقات به [2] .

لقد أصبح تأييد نظرية الخلق التلقائى محصور فى قلة قليلة من النّاس ، إذ أصبح من الثابت غير المطعون به أن كل النباتات والحيوانات لا تنشأ إلا بطريقة واحدة هى التّناسل والتكاثر الذى هو السّنة الوحيدة للنشوء . وفى القرون الوسطى وجدت كتابات فى "علم الحيوان" احتوى بعضها على وصفات لإبداع مخلوقات من الجماد مثل الذباب والنمل وحتى الفئران ، كما أن كثيراً من الناس وبعض علماء البيولوجيا كانوا يعتقدون أن نوعا من أنواع الأوز ينشأ من حيوان قشرى ذى صدفتين [3] . كما كان يشاع فى كثير من بلاد العالم عن وجود شجرة تنتج خرافا [4] . ويحاول مؤيدى فكرة التّطور المادى الاستناد إلى ما جاء فى "رسائل إخوان الصفا" حيث جاء فى إحدى رسائلهم :

(. . . وأمّا النخل فهو آخر مرتبة الحيوان مما يلى الحيوانية ، وذلك أن النخل نبات حيوانى لأن بعض أحواله وأفعاله مباين لأحوال الحيوان وإن كان جسمه نباتا)[5]

---

(١) المصدر السابق - الصفحات (٩٥ - ٩٧)

(٢) المصدر السابق - ارجع إلى الصفحات (٩٠ - ١٠١) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) رسائل إخوان الصفا - الرسالة العاشرة - طبعة بومباي . مجلد (٤) صفحة (٢٨٢) وما بعدها .

ويستطردون في نفس الرّسالة:

(. . . وفى النبات نوع آخر فعله أيضا فعل النّفس الحيوانية وإن كان جسمه نباتيا وهو " الأكشون " وذلك أن هذا النّوع فى النّبات ليس له أصل ثابت فى الأرض كما يكون لسائر النبات وليس له أوراق كأوراقها ، بل يلتف على الأشجار والزروع والبقول والحشائش ويمتص من رطوبتها ، ويتغذى كما يفعل الدود)[١]

وهم يستدلون بذلك على أن المشابهة بين حالات فى النبات وحالات فى الحيوان قد يجوز اعتبارها خطوة تخطوها الصّور الحيّة فى سبيل دور انقلابى من النشوء والتّطور تتحول به صور الحيوان والنبات . ويستدل التطوريين العرب من رسائل إخوان الصفا أنهم كانوا من المنادين بنظرية النشوء والتطور لما توحى به الفقرة التالية من شرح للانقلاب النشوئى :

(. . . إن أدنى الحيوان وأنقصه هو الذى ليس له إلا حاسّة واحدة وهو الحلزون ، وهو دودة فى جوف أنبوبة نبتت فى تلك الصخور التى تكون فى سواحل البحار وشطوط الأنهار وليس لها سمع ولا بصر ولا شم ولا ذوق إلا اللمس فحسب . . . لأن الحكمة الإلهية لم تعط الحيوان عضو لا يحتاج إليه فى وقتِ جَرِّ المنفعة أو دفع المضرّة . . . فهذا النوع حيوانى نباتي ، لأنه ينبت كما ينبت بعض النبات ومن أجل أنه ليس له إلا حاسة واحدة فهو أنقص عن الحيوان رتبة ، وتلك الحاسّة هى التى يشاركه النّبات فيها وذلك أن النبات له حسُ اللمس فحسب)[٢] .

ومن تحليلهم لتلك العبارة خلصوا إلى استنتاجات لها فى نظرهم الشّأن الأكبر والمهم فى مذاهب التكوين والنّشوء ، خاصّة وأن علماء التّطور يذكرون فى الحلزون فقدانه كلّ الحواس عدى حاسّة اللمس التى يشترك بها كلّ من الحيوان والنبات حقائق يثبتها علم الحيوان والتاريخ الطبيعى وهو من استدلالاتهم على اشتراك بعض الحيوان

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .

والنبات فى بعض الصّفات العامة ومؤيداً لما ورد فى الفصل الرابع من كتاب داروين "أصل الأنواع" فى موضوع "الانتخاب الطبيعي"[١] فى حين أن إخوان الصّفا يسمون تلك الظاهرة كما ورد فى النّص السابق " حكمة إلهية "وداروين يطلق عليها "انتخاباً طبيعياً" .

ويستندون كذلك إلى أقوال وردت فى كتب " ابن مسكويه "[٢] وهى " الفوز الأصغر" و" تهذيب الأخلاق " . كما يأولون بعض ما ورد فى " مقدمة ابن خلدون " بتأويلات يذهبون بها إلى أن كلا الكاتبين كانا ممن حمل فكرة " النشوء والارتقاء " ودعا لها ، كما يذهبون فى ذلك نفس المذهب فى استعراضهم لكتاب الجاحظ "الحيوان" ، أمـّا " أبو على أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن " المتوفى عام ٤٢١ هـ فيقول فى كتابه" الفوز الأصغر " :

(إنّ أول أثر ظهر فى عالمنا هذا نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأولى أثر حركة النّفس فى النبات ، وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء وللنبات فى قبول الأثر غرضاً كبيراً . . . إن مرتبة النبات الأولى فى قبول هذا الأثر الشريف هو لما نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذور ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش ، وذلك أنه فى أفق الجماد ، والفرق بينهما هو هذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة فى قبول أثر النّفس) .

والنباتات المقصودة فى هذا القول هى "الفطريات" أى النباتات التى تتكاثر بانقسام الخلايا الجرثومية التى يقول فيها علماء النبات فى عصرنا هذا أنها قسم عظيم من أقسام العالَم النباتى تحتوى على الفطريات والطّحالب وغيرها من النباتات البسيطة التركيب وهى "الثالوسيات" والتى تدعى أيضاً "المشريات والبارضيات *Thallophytic*" وهى كما صنفها علماء النبات شعبة من النباتات تشمل أكثر أشكال الحياة النباتية بدائية وتضم الأشنّة أو الطحالب والفطور التى لاجذور لها ولا سوق ولا أوراق ، إذ هى

---

(١) داروين - أصل الأنواع - ترجمة إسماعيل مظهر - الفصل الرابع " الانتخاب الطبيعى " . الصفحات (٢١٣ - ٢٨٠) طباعة مكتبة النهضة - بيروت وبغداد . ويسمى فيما بعد " المرجع " .

(٢) هو العلامة : أبى على أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن المتوفى سنة ٤٢١ هجرية .

جسم نباتى بسيط غير متخلّق الأعضاء وتتركب من خليّة واحدة أو من جرم من الخلايا المتصلة .

ويستطرد ابن مسكويه قائلاً : (. . ولا يزال هذا الأثر يقوى فى نبات آخر يليه فى الشّرف والمرتبة إلى أن يصير له من القوّة فى الحركة بحيث يتفرّع وينبسط ويتشعّب ويحفظ نوعه بالبذور ويظهر فيه أثر الحكمة أكثر مما يظهر فى الأول ، ولا يزال هذا المعنى يزداد شىء بعد شىء إلى أن يصير إلى الشّجر الذى له ساق وورق وثمر يحفظ نوعه ، وغراس يضعونها بها حسب حاجته إليها ، وهذا هو الوسط من المنازل الثلاث) ويقصد بهذا مرتبة الحشائش والأعشاب . ويستطرد الكاتب قائلاً : **(إلا أنّ أول هذه المرتبة متصل بما قبله وواقع فى أفقه ، وهو ما كان من الشّجر على الجبال وفى البرارى المنقطعة وفى الغياض وجزائر البحار ولا يحتاج إلى غرس بل ينبت لذاته وأن يحفظ نوعه بالبذور ، وهو ثقيل الحركة بطىء النّشوء)** .

أمّا المرتبة الثالثة : (ثم يتدرّج فى هذه المرتبة ويقوى الأثر فيه ، ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهى إلى الأشجار الكريمة التى تحتاج إلى عناية من استطابة التّربة إلى استعذاب الماء والهواء لاعتدال مزاجها وإلى صيانة ثمرها كالزيتون والرُمان والسفرجل والتفاح والتين وأشباهها) . ومقصد ابن مسكويه بذلك "النباتات كاسيات البذور من مرتبة ذوات الفلقتين" حسب التقسيم الذى يجريه النباتيون الآن . ثم يتدرج بعد ذلك قائلاً : (إذا انتهى إلى ذلك - أى النبات - صار فى الأفق الأعلى من النبات ، وصار بحيث إذا زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له من صورة النبات ، وقَبِلَ حينئذٍ صورة الحيوان) .

بعد استطراد ابن مسكويه فى مراتب النبات يأتى لذكر" النخل " ذاكراً حالات التّشابه التى ذكرها "إخوان الصفا" والتى مَرّ ذكرها إلى أن يصل إلى حركة النبات الانقلابية إلى الحيوان حيث يقول : (إنّ هذه المرتبة الأخيرة من النبات وإن كانت فى شرفه فإنها لأول أفق الحيوان وهى أدنى مرتبة فيه وأخَسها وأول ما يرقى النبات فى منزلته الأخيرة ويتميّز بها عن مرتبته الأولى ، هو أن ينقلع من الأرض ولا يحتاج لإثبات

عروقه فيها بما يحصل له من التّصرف بالحركة الاختيارية ، وهذه المرتبة الأولى من الحيوان ضعيفة لضعف أثر الحس فيها ، وإنما يظهر فيها بجهة واحدة أعنى حساً واحداً هو الحس العام الذى يقال له حس اللمس كما فى الصّدَف وأنواع الحلزون الذى يوجد على شواطئ الأنهار وسواحل البحار) .

كان هذا هو وصف لمراتب انتقال النبات من مرتبة إلى أخرى كما يراها "ابن مسكويه" مطابقا لما ذكره دُعاة التّطور والنشوء من نشوء النبات من الجماد ونشوء الحيوان من النبات ونشوء الإنسان من الحيوان ، مستطرداً إلى الإنسان الناشئ من آخر سلسلة البهائم ، حيث يقول فى مراتب تدرج الإنسان : (مراتب القرود وأشباهها من الحيوان الذى قارب الإنسان فى خلقة الإنسانية وليس بينها إلا اليسير الذى إذا تجاوزه صار إنساناً) . ويوضح تسلسله للرُتب من الحيوانية إلى الإنسانية قائلاً فى كتابه الثانى "تهذيب الأخلاق" :

(. . . ثم يصير من هذه المرتبة[1] إلى مرتبة الحيوان الذى يحاكى الإنسان من تلقاء نفسه من غير تعليم كالقرود وما أشبهها ، وتبلغ من ذكائها أن تستكفى من التأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملاً فتعمل مثله من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياضة لها ، وهذه غاية أفق الحيوان الذى تجاوزها وَقَبِلَ زيادة يسيرة خرج منها عن أفقه وصار فى أفق الإنسان الذى يقبل العقل التمييز والنُطق والآلات التى يستعملها والصّور التى تلائمها ، فإذا بلغ هذه المرتبة تحرّك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل يقتدر بها على الترقى والإمعان فى هذه المرتبة كما كان ذلك فى المراتب الأخرى التى ذكرناها ، وأول هذه المراتب من الأفق الإنسانى المتصل بآخر ذلك الأفق الحيواني ، مراتب النّاس الذين يسكنون فى أقاصى المعمورة من الأمم التى لا تتميز عن القرود إلا بمرتبة يسيرة ، ثم تتزايد فيهم قوة التمييز والفهم

---

(١) المقصود هنا مرتبة الحيوانات التى فى نظره لم تعط الفهم وقوته إلا النذر اليسير وهى قبل مرتبة القرود التى أعطيت من قوة الفهم أكثر منها .

إلى أن يصيروا إلى أواسط الأقاليم ، فيحدث فيهم الذكاء وسرعة الفهم والقبول للفضائل ، وإلى هذا الوضع ينتهى فعل الطبيعة التى وكلها الله عز وجل بالمحسوسات) .

هذا بعض ما ورد فى كتب "ابن مسكوية" والتى يستشهد بها دعاة التّطور على قدم مذهبهم ، والملاحظ أن ابن مسكويه أيضا وكذلك "إخوان الصفا" يردون حدوث هذا التطور من المراتب النباتية إلى الحيوانية ومن ثم إلى صورة الإنسان إلى قوانين وسنن فرضها الله تعالى على المخلوقات وألزمها التّطور فى نطاقها ، فلا يردون ذلك إلى الصدفة العشوائية ولا إلى الخلق التلقائي .

وأما استشهادهم بأقوال " ابن خلدون " فلما جاء فى كتابه " مقدمة ابن خلدون " وبالتحديد لما ورد فى المقدمة الثالثة منه فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم ، **وهذا نصه :**

(وقد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان وهم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السّواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه وفيما جعل الله الرّق فى عقبه ، وينقلون فى ذلك خرافات من القصص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة وليس فيه ذكر السّواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدا لولد أخوته لا غير . وفى القول بنسبة السودان إلى حام[1] غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما فى الهواء وبما يتكون فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة فى الجنوب ، فإن الشّمس تسامت رؤوسهم مرّتين فى كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد وتسود

---

(١) ينسب القلقشندى الشهير بابن غدة فى كتابه "سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب" صفحة (١٢) إلى حام بن نوح أنه أبو السودان بجميع أجناسهم - الحبشة والنوبة والزنج - ويقول : وكان حام حسن الصورة بهى الوجه فغير الله لونه وألوان ذريته من أجل دعوة أبيه لأنه دعا عليه بتسويد الوجه وسواد ذريته وأن يكون أولاده عبيداً لأولاد سام ويافته . .

جلودهم لإفراط الحـر)[١] .

فيستدلون من ذلك موافقة بين مذهبهم وبين رأى ابن خلدون إذ يتقولون أنه يرى ما يرون من أثر تأثير الطبيعة فى الأحياء ، وهذا ما ذهب إليه " لامارك " الذى اعتبر أن العادة تغير من صفات العضويات بمثل ما يغير الطقس ، وهذا القول هو من النظريات الأولية التى بنى عليها " لامارك " مذهبه فى النشوء .

أما فى المقدمة الرّابعة من كتابه فى "أثر الهواء فى أخلاق البشر" فيقول : (ولما كان السودان ساكنين فى الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً فتكون أشد تفشيا ، فتكون أسرع فرحاً وسروراً وأكثر انبساطا ويجىء الطيش على أثر هذه . وكذلك يلحق بهم قليلا أهل البلاد البحرية ، لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما ينعكس عليه أضواء بسيط البحر وأشعته كانت حصتهم من توابع الحرارة فى الفرح والخفة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة)[٢]

أما فى مقدمته الخامسة والتى تبحث فى أثر اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجوع فيقول : (وتجد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والأدم من أهل القفار أحسن حالاً فى جسومهم من أهل التلال المنغمسين فى العيش ، فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد عن الانحراف وأذهانهم أثقب فى المعارف والإدراكات)[٣] .

فيقارنون بين هذا وبين أثر التحولات التى تعتمد عليها بعض نظريات النشوء ، زاعمين أنها من أقوى الأسباب فى استحداث الضروب التى تحدث فى الأنواع بمضيها

---

(١) مقدمة ابن خلدون - سلسلة كتاب التحرير - طبعة ١٣٧٦ هـ / ١٩٦٦ م صفحة (٧٦)
(٢) المرجع السابق صفحة (٧٨)
(٣) المرجع السابق صفحة (٧٩)

متدرجة فى قبول تلك الصفات حالاً بعد حال . وأتى مطابقاً لما يقوله " أندوراينت ANDREWNIT " من احتمال أن يكون لتغاير الأغذية أثر فى تغاير الأشكال الظاهرة فى الحيوانات ما جاء فى ختام المقدمة الخامسة حيث يقول : (ومن تأثير الأغذية فى الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجربة أن الدجاج إذا غذيت بالحبوب المطبوخة فى بعر الإبل واتخذ بيضها ثم حضنت عليه جاء الدجاج منها أعظم ما يكون ، وقد يستغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحضن فيجيء دجاجها فى غاية العظم ، وأمثال ذلك كثير ، فإذا رأينا هذه الآثار من الأغذية فى الأبدان فلا شك أن للجوع أيضاً آثاراً على الأبدان ، لأن الضدين على نسبة واحدة فى التأثير وعدمه ، فيكون تأثير الجوع فى نقاء الأبدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلفة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا فى وجود ذلك الجسم ، والله محيط بعلمه)[١] .

أما فى مقدمته السادسة فيقول فى "تفسير حقيقة النبوة" : (ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج . . . . . . آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متّصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط . ومعنى الاتصال فى هذه الكائنات أنّ آخر كل أفق منها مستعدّ بالاستعداد القريب لأن يصير أول أفق الذى بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه ، وانتهى فى تدريج التّكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والرّوية ، ترتفع إليه من عالم القردة[٢] الذى اجتمع فيه الحس والإدراك ، ولم ينته إلى الروية والفكر بالفعل ، وكان ذلك فى أول أفق الإنسان بعده ، وهذا غاية شهودنا) .

كان هذا بعض ما ورد فى "مقدمة ابن خلدون" مما يعتبره دعاة التطور غير بعيد

---

(١) المرجع السابق صفحة (٨٢)
(٢) هكذا وردت فى نسخة "كتاب التحرير" . وفى نسخة د . على عبد الواحد وافي . إلا أنها وردت فى نسخة الطبعة الأميرية صفحة (٨٠) - (عالم القدرة) .

عما ذكره داروين فى ملخصه التاريخى الذى وضعه لكتابه . أما "الجاحظ" فقد أورد فى كتابه "الحيوان" مشاهدات يعتبرها باحثوهم من مقومات مذهب النشوء ، منها ما قاله فى التلاقح وتزاوج الضروب وإنتاج الأنسال الجديدة ، حيث قال فى فصل "باب القول فى الجعلان والخنافس" ما يلي : (والجعل يظل دهراً لا جناح له ثم ينبت له جناحان كالنمل الذى يغبر دهراً لا جناح له ثم ينبت له جناحان وذلك عند هلكته ، والدعاميص قد تغبر حيناً بلا أجنحة ، ثم تصير فراشاً وبعوضاً ، وليس كذلك الجراد والذبان ، لأن أجنحتها تنبت على مقدار من العمر ومرور الأيام ، وزعم ثمامة عن يحيى بن خالد أن البرغوث يتحول إلى بعوضة ، والجعل يحرس النيام فكلما قام منهم قائم فمضى لحاجته تبعه طمعاً فى أنه إنما يريد الغائط)[١] .

ويرجع دعاة فكرة النشوء إلى "القزويني"[٢] صاحب كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" حيث يستدلون لتأييد ما يدعون إليه بما جاء فى صفحة (٢٤١) من كتابه : (فأول مراتب هذه الكائنات تراب وآخرها نفس ملكية طاهرة ، فإن المعادن متصلة أولها بالتراب أو الماء وآخرها بالنبات ، والنبات متصل أوله بالمعادن وآخره بالحيوان ، والحيوان متصل أوله بالنبات وآخره بالإنسان ، والنفوس الإنسانية متصلة أولها بالحيوان وآخرها بالنفوس الملكية ، والله تعالى أعلم بالصواب)[٣] .

أما ما هو نوع هذا الاتصال فالفقرة التى سبقتها فى نفس الموضوع تفسّر بجلاء تام ووضوح أن ما قصده القزوينى لم يكن أبداً كما أولوه وفسروه حيث يقول : (. . . وأنها متّصلة بعضها ببعض بترتيب عجيب ونظام بديع تعالى صانعها عما يقول الظالمون

---

(١) كتاب "الحيوان" للجاحظ . دار صعب - بيروت . جزء (٣) صفحة (٥٩١) .
(٢) زكريا بن محمد بن محمود القزوينى (٦٠٠ - ٦٨٢) . صاحب كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات" .
(٣) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . "القزويني" طبعة دار الآفاق الجديدة - بيروت . صفحة (٢٤١)

والجاحدون علواً كبيراً)[١] . وربما يكون ما جاء فى نفس الكتاب بعنوان "فى النبات" ما يكون أوضح فى إبعاد القزوينى عما يصفوه به من الهرطقة والكفر والسّفه حيث يقول :

(النبات متوسط بين المعادن والحيوان ، بمعنى خارج عن نقصان الجمادية الصرفة التى للمعادن وغير واصل إلى كامل الحسن والحركة اللتين اختص بهما الحيوان ، لكنه يشارك الحيوان فى بعض الأمور لأن البارى تعالى يخلق لكل شىء من الآلات ما يحتاج إليهما فى بقاء ذاته ونوعه ، وما زاد على ذلك تكون ثقلاً وكلاً عليه لا يخلفه ، ولا حاجة للنبات للحس والحركة بخلاف الحيوان)[٢] .

إنّ أشهر وأقدم نظريات النشوء بالتطور الحديثة كانت نظرية العالم الإنجليزى "إيراسموس داروين *Erasmus Darwin*" وهو جد صاحب نظرية التطور الشهيرة والذائعة الصيت "تشارلس داروين *Charles Darwin*" ، ثم نظرية "كونت بوفون *Conte De Buffoon*" وكان ملخص النظريتين ما يلي : (إن وجود نباتات أو حيوانات تحت تأثير وسط معين يكسبها صفات جديدة ، وهذه الصفة تنتقل إلى نسليهما فتحدث انقلابات هى عوامل التطور) .

ثم تبعهم العالم الطبيعى الفرنسى "جان باتيست لامارك *Jean Baptiste Lamark*" الذى نشر كتاباً فى تأييد نظرية وراثة الصفات المكتسبة مشترطاً وجود ضرورات كوسيلة للتطور [٣] .

وبعد ذلك ظهر أستاذ علم الحياة الألمانى "أوغست وايزمن *Weissma Augest*" حيث حاول الوصول إلى نتيجة التطور بطريق الصفات المكتسبة ، فحاول تربية فئران بلا ذنب بعد أن قطع أذناب فئراناً قبل تلاقحها . . . .)[٤] .

---

(١) المصدر السابق . صفحة (٢٤١) .

(٢) المصدر السابق . صفحة (٢٨١) .

(٣) *Jean Batiste De Mont : chevalier de Lamark* .

(٤) يمكن الرجوع إلى الرد على تلك الطريقة إلى كتاب "علم الحياة" المطبوع سنة ١٩٦٦ م . *Milltown, Mark, A. Hall. S Lesser : Review text in Biology* .

إن العلماء المختصين استنادا لتحقيقاتهم العلمية وبعد إعمالهم عقولهم فى تجاربهم ، قد رفضوا وبصورة قاطعة نظرية التحول الوراثى للصفات المكتسبة ، وأثبتوا فسادها بالأدلة العلمية ، إلا أن تلك النظرية لم تتلاش تماماً بالرغم من تحول الكثير عنها وقيامهم بنقضها ومهاجمتها ، فقد بقى لها أنصار ومؤيدون ودعاة ، منهم من حمل النظرية على علاتها ، ومنهم من طفق يدعمها بأدلة ومنهم من حاول إدخال التحسينات عليها مع الإبقاء على أصلها .

لقد أثار العالم الكيميائى السويدى "سفانت آرهينوس *Savante Arrthenius*" نظريته أن أصل الحياة قد أتى من الفضاء الخارجى (*permiansPa*) بطريق انتقال وحدات شبه جرثومية من كوكب إلى آخر عن طريق الضغط الإشعاعي ، وقد نُظر إلى تلك النظرية أنها قد تأثرت بقصص الخيال العلمية وأنه ليس لها أدلة تدعمها ، وأنها هرطقة ، لذا فلم ترد تلك النظرية فى سياق التسلسل التاريخى للمذاهب التطورية إلا نادراً [١] .

أما "هيلر *Heller* " (١٧٧٢ - ١٨٤٤) وهو عالم فرنسى وصاحب النظرية الحاملة لاسمه فتقول نظريته بأن الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة تنشأ استجابة لظروف البيئة فظروف البيئة تتغير باستمرار مما يسبب تغيرات فى الكائنات الحيّة ، فإذا كانت التغيرات ملائمة للبيئة فإن الأفراد تعيش وتتكاثر مكونة نوعاً جديداً وإذا كانت التغيرات غير ملائمة فإن أفراد هذا النوع تهلك وتنقرض)[٢] .

أما فى روسيا فقد ظهر فيها العالم البيولوجى الروسى "إيفان فلاديميروفيتش ميتشورين *Ivan Vladimirovich Michorin*" (١٨٥٥ - ١٩٣٥) والذى رفض قانون الوراثة الذى وضعه الراهب "مندل *Mendel*"[٣] ووضع مذهباً فى التطور

---

(١) جولدزبى - البيولوجيا . جزء (١) صفحة (١٠ - ١١)

(٢) المصدر السابق . صفحة (١٢٣) .

(٣) غر يغور جوهان مندل *Gregory Johann Mendel* (١٨٢٢ - ١٨٨٤) راهب وعالم نبات نمساوي ، يعد مؤسس علم الوراثة (*genetics*) أجرى فى حديقة الدير الذى يقيم فيه تجارب على نباتى البازيلا والفول أدت =

العضوى سمى "الميتشورينية *Michurinism*" نسبة له ، وهو مذهب فى التطور العضوى تعتبر شكلاً من أشكال اللاماركية ، والذى يقول بأن الصفات المكتسبة تنتقل بالوراثة إلى الذرية [١] . وظهر بعده فى روسيا من أتباع اللاماركية العالم البيولوجى "ترو فيم دينبوفيتش ليسينكو *Trofim Denisovich Lysenko*" (١٨٩٨ - ١٩٧٦) والذى عمل بتشجيع من ستالين على إنتاج أنماط جديدة.من المحاصيل فى فترة شكا الاتحاد السوفييتى خلالها من أزمة خطيرة فى الإنتاج الزراعى (١٩٢٧ - ١٩٢٩) فوضع مذهبا فى التطور العضوى نُسبَ إليه إذ أطلق عليه اسم "الليسينكورية *Lysenkorism*" وهو مذهب فى التطور العضوى وضعه عام ١٩٣٠ ، ويعتبر امتداداً وتطويراً لـ"الميتشورينية" والمذهب يقوم على إنكار وجود المورثات (*Genes*) والهرمونات النباتية ودور الصبغيات (*Chromosomes*) المتخصص ، ويقوم على قاعدة أساسية هى الوحدة بين المتعضى (*Organism*) وبيئته ، مؤكداً أن جميع أجزاء المتعضى تُسْهم فيما تدعوه الوراثة وأن فى إمكان البيئة أن تتحكم فى هذه الوراثة [٢] .

لقد كتب الأستاذ "دوديسويل *Dowd swell*" فى كتابه "آلية التطور" المطبوع سنة ١٩٦٠ : (إن آخر جديد فى النظرية اللاماركية[٣] هو ما جرى فى روسيا سنة ١٩٤٨ تحت إشراف الأستاذ "ليسينكو" حيث استبعدت تلك النظرية من الميدان العلمي ، ولكن استبعادها جرى على أسباب عقدية "أيدلوجية" أكثر من كونها علمية)[٤] ثم أعقبت مجلة " تايم *Time*" ذاكرة الخبر التالى فى عددها الصادر فى تشرين ثانى سنة ١٩٦٥ ما يلي : (إن الأستاذ ليسينكو أعفى من منصبه ، وأن الشيوعيين أيضاً رفضوا هذه النظرية علمياً ، لأن الوراثة

إلى اكتشافه قواعد الوراثة الأساسية والتى يطلق عليها اسم (قوانين مندل) أو (المندلية) (*Mendel's Laws*) .

(١) موسوعة المورد العربية - المجلد الثانى - صفحة (١١٨٢) .

(٢) المصدر السابق . صفحة (١٠٥٤) .

(٣) اللاماركية نسبة إلى عالم النبات "لامارك*Lamark*" القائل بالتحول الفجائي ، وهو صاحب كتاب (فلسفة الحيوان) .

(٤) *The mechanism of Evolution* : *Dowdesweell. H. W* .

تحددها "المولدات" وهذه تبقى ثابتة خلال الكائن الحى مدى حياته) والمولدات أو "المضادات *Antigens*" هى البروتينيات التى ينتجها الجسم فى حال تسرب الأجسام الغريبة إليه ، وتدعى أيضاً "الأجسام المضادة *Antibody* " وهى تتميز بقدرتها على جعل الأجسام الغريبة عديمة الضرر [١] .

إلا أن كلا المذهبين "الميتشورينية والليسينكووية" يصنفان ضمن قائمة المدرسة اللاماركية التى يطلقون عليها حديثاً اسم "اللاماركية المُحْدَثَة *Neo Lamamrkism*" وهى كل تلك النظريات التى نشأت عن اللاماركية فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر والتى تعتمد على التأكيد على أثر البيئة المباشر فى التطور العضوى للحيوانات والنباتات . ومن أبرز دعاة تلك النظرية "الفريد ماتيو جيبار *Giard*" (١٨٤٦ - ١٩٠٨) فى فرنسا و "إدوارد دينكر كوب *Cope*" (١٨٤٠ - ١٨٩٧) فى الولايات المتحدة الأمريكية [٢] .

****

لقد وضع "هيربرت سبنسر *Herbert Spenser* " الأسس والبراهين المرتكزة عليها قواعد نظرية النشوء والارتقاء فى أواخر القرن التاسع عشر ، مؤكداً أن قانون الارتقاء عامة ينحصر فى التغاير من حال التّجانس التركيبى إلى التنافر فيه ، وتلك النظرية هى نفس "نظرية داروين" إلا أن النظرية قد نسبت إلى "شارلس روبرت وارنج داروين *Charles Darwin*" المولود سنة ١٨٠٩ والمتوفى سنة ١٨٨٢ وأخذت اسمه ، فداروين كان أشهر وأجرأ من تكلم بها وكتب عنها ، وكان أشهر الكتب التى اشتهرت فى ذلك هو كتابه "أصل الأنواع *The Origin of Species* " الذى ظهر سنة ١٨٥٩م .

بعد أن نشر داروين كتابه المذكور ، نشر بعده عدة كتب فى التطور والنباتات ، وفكر أن يطبق نظريته على الإنسان ، فأكب على المعلومات التى استجمعها يرتبها

(١) موسوعة المورد العربية . مجلد (١) صفحة (٣٨٨) .
(٢) المصدر السابق . مجلد (٢) صفحة (١٠٢٥)

ويجمع بينها ، ويستخلص منها النتائج التى قد يستطيع أن يثبت منها أن الإنسان ناشئ من صورة دنيا هى أقرب إلى القردة العليا منها إلى أى صورة من صور الأحياء . وقد فرغ من كتابة فصول كتابه الجديد فى ثلاث سنوات ، ونشره فى شباط سنة ١٨٧١م ، أى بعد ١٣ عاماً من نشر كتابه الأول "أصل الأنواع" فكان الكتاب الثانى "نشوء الإنسان *Evolution of Man* " .

لقد ثارت عاصفة هوجاء حول الكتابين ، وجرى معارضة ونقض الأفكار التى حوتها كتب داروين من قبل علماء وباحثين ، إلا أنه بعد داروين والعاصفة التى ثارت حول نظريته نشر" أوزبورن *osborn* "كتابه المعروف" من الإغريق إلى داروين *From the Yreeks to Darwin* " شارحاً تاريخ تدرج الفكر فى التأمل فى تطور الأشياء ، محاولاً البرهنة على خطأ نظرية "الخلق المستقل *Sjecal Creation*" ، وإثبات نظرية داروين القائلة بتطور المخلوقات (*Evolution*) . إلا أنه حتى داروين الذى اشتهرت النظرية باسمه لم يكن أول من حاول البحث فى نفس الموضوع ، ولم يكن مبتدعاً لنظرية جديدة ، فقد سبقه العالم الفرنسى "كونت بوفون*Conte de Buffoon*" الذى كان أول من كتب فى الموضوع بأسلوب علمي ، وقد تبعه "لامارك*Lamark* " سنة (١٨٠٩م) أى قبل ظهور كتاب داروين بخمسين سنة ، وكان قد نشر كتابه "فلسفة الحيوان" ثم أتبعه كتاب "تاريخ الفقاريات الطبيعي" فأيد فى كلا الكتابين نظرية أن الأنواع جميعاً - بما فيها الإنسان - ناشئة من أنواع أخر ، وركّز فى بحوثه أن ضروب التحول فى العالم العضوى وغيره ناشئ عن سنن طبيعية صرفة ، وتوالى بعد ذلك العلماء والباحثين متجهين نفس الاتجاه ، وكان أشهرهم قبل ظهور داروين :

٠١	جفروى سانتيلير	١٧٩٥	**A. G. Sant Lieer**
٠٢	د. ويلز	١٨١٣	**D. Wills**
٠٣	وليم هيربرت	١٨٢٢	**W. Heirbert**
٠٤	جرانت	١٨٢٦	**Grant**
٠٥	باتريك ماتيو	١٨٣١	**Partik Matio**

٠٦	فون بوخ ليوبولد	١٨٣٦	**V. B. Leopold**
٠٧	فون باير	١٨٣٧	**Von Baer**
٠٨	دوماليوس دالوى	١٨٤٦	**Domallius Daliwah**
٠٩	رتشارد أوين	١٨٤٩	**Richard Owen**
١٠	هيربرت سبينسر	١٨٥٨	**Heirbert Spinser**
١١	هوكر	١٨٥٩	**Sir Josef Dalton Hooker**

حتى ظهر داروين بكتابيه : الأول سنة ١٨٥٩ ، والثانى سنة ١٨٧١ ، فكان ظهور داروين ونظريته أكثر ما شاع وأجراه ، إذ حاول إثبات فكرة التطور وإخراجها إلى حيز النظريات ، لذا فقد نسبت النظرية له واشتهرت باسمه .

****

لم يكن داروين ونظريته آخر المطاف ، بل لقد حمل الفكرة فلاسفة وعلماء وأدباء كثيرون بعده وروّجوا لها فى كتبهم وفى محاضراتهم وفى جميع وسائل الإعلام ، كان منهم " البروفيسور مانديـر *Maunder. E. A* " الذى يعلق على نظرية التطور العضوى قائلاً :

(لقد ثبت صدق هذه النظرية حتى أننا نستطيع أن نعتبرها أقرب شىء إلى الحقيقة)[1] أما العالم التطورى الشهير " جورج سمبسون *Gaylord Simpson* " فيقول : (إن نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيراً وكلياً ، وليست بقياس أو فرض بديل صيغ للبحث العلمي)[2]

أما محرر "دائرة المعارف البريطانية" فيعتقد أن نظرية الارتقاء فى الحيوان حقيقة ، وأن هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين [3] .

---

(١) الإسلام يتحدى ، صفحة (٤٩) ، نقلاً عن : *Ibid, P* : ١١٣

(٢) المصدر السابق ، نقلا عن : *Meaning of Evolution* . *p*. ١٢٧ .

(٣) المصدر السابق ، نقلا عن : دائرة المعارف البريطانية (١٩٥٨) .

أما " ر . س . ليل *R. S. Lille* " فيدلى برأيه قائلاً: (ظلّت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد يوما بعد يوم بعد داروين حتى أنه لم يبق شك لدى المفكرين والعلماء فى أن هذه هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى تستطيع أن تفسّر عملية الخلق وتشرحها)[١]

ولقد بلغ بـ "سير آرثر كيث" الذى يعتبر محامياً متحمساً للنظرية وأحد أبرز الشخصيات الداعية لها ، أنه لم يعتبرها مجرد ملاحظة أو نظرية أو تسلسل منطقي ، بل لقد اعتبرها عقيدة حيث يقول: (إن نظرية الارتقاء هى عقيدة أساسية فى المذهب العقلي)[٢] وهو إذ يفسر إيمانه بتلك العقيدة يعترف بأنها عقيدة بلا أدلة ولا براهين!!! ملمحاً إلى الأسباب الخفية الدّافعة لاعتناقها: (إن نظرية النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهين وستظل كذلك ، والسبب الوحيد الذى فى أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر ، وهذا غير وارد على الإطلاق)[٣]

أما الدارويني الملحد " جوليان هُكسلى *J.Huxley*" فيقول عن النظرية:

(هكذا يضع علم الحياة الإنسان فى مركز مماثل لما أنعم عليه كسيد للمخلوقات كما تقول الأديان ..... من المسلم به أن الإنسان فى الوقت الحاضر سيد المخلوقات ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر)[٤] وهو يزعم بأن الإنسان قد اختلق فكرة "الله" إبان عصر عجزه وجهله ، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه ولم يعد بحاجة إليه ، فهو العابد والمعبود فى آن واحد ، إلى أن يقول: (بعد نظرية داروين لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً)[٥]

أما "د . هـ . سكوت" المشهور ، كدارويني شديد التّعصب فيقول: (إن نظرية النشوء

---

(١) المصدر السابق ، نقلا عن: *Organic Evolution* . ١٥

(٢) المصدر السابق ، نقلا عن: *Revolt against reason P* : ١١٢

(٣) الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة . صفحة (٢١١)

(٤) المصدر السابق . صفحة (٢١١)

(٥) المصدر السابق . صفحة (٢١٢)

جاءت لتبقى ، ولايمكن أن نتخلى عنها ولو أصبحت عملاً من أعمال الاعتقاد)[١] .

أما الفيلسوف الملحد الشهير "برتراند راسل *Bertrand Russell* " فيشيد بالأثر الداروينى مركزاً على الناحية الميكانيكية فى النظرية ، حيث يقول : (إنّ الذى فعله جاليلاى ونيوتن من أجل الفلك فعله داروين من أجل علم الحياة)[٢]

****

لقد سُخِرَ لنشر نظريات التطور عموماً ، ونظرية داروين تحديداً ، معظم وسائل الإعلام العالمية ، ونُشر حولها العديد من المقالات والأبحاث فى الجرائد والمجلات والكتب والموسوعات ، وقام بتدريسها أساتذة المدارس والمعاهد والجامعات ، ورَوَجَت لها الجرائد والمجلات والإذاعات وكل وسائل الإعلام ، وتبنى شرحها كثير من الأساتذة والعلماء فى شرق العالم وغربه على السواء ، فانتشرت فى أوروبا وانتقلت بعدها إلى جميع بقاع العالم ، وما زالت تلك النظرية تُدَرَسَ فى كثير من الجامعات العالمية ، كما أنها قد وَجَدَت أتباعاً لها فى العالم الإسلامى من الذين تربوا وتثقفوا تربية وثقافة غربية حيث درسوا فى جامعات أوروبية وأمريكية ، وبالأخص "جامعة السوربون" الفرنسية .

---

(١) المصدر السابق . صفحة (٢١٢)
(٢) المصدر السابق . صفحة (٢١٢)

الفصل الثالث

أشهر المذاهب التطورية

إنّ أشهر من اقترن اسمه بفكرة التطور العضوى هو " تشارلس داروين *Charles Darwin* " إلا أنه وكما أسلفنا فى الفصل السابق لم يكن أول من ابتدع الفكرة ، بل لقد سبقه إلى ذلك كثير من علماء الإغريق الأقدمين ، مثل " أناكسيماندر *Anaximander* " و "أمبيدوكلس *Ampedocles* " و "أرسطو *Aristole* " . كما أن النظريات التطورية الحديثة تختلف إحداها عن الأخرى فى المضمون وأحياناً تتضارب ، **وأشهر المذاهب التطورية هي:**

"١" نظرية "لامارك" فى الاستعمال وعدم الاستعمال:

لقد وضع هذه النظرية العالم الفرنسى " لامارك *Lamark* " وافترض فيها تعرض البيئة للتغيير ، وأن الاستعمال أو عدم الاستعمال قد تُبَدِل من صفات الأفراد ، وافترض فيها أن الصفات التى يكتسبها الفرد أثناء حياته تنتقل إلى ذريته بالوراثة *Heredity* ، وقد ضرب لذلك مثلاً عنق الزرافة ، فهذا العنق وصل إلى درجة غير عادية من الطول ، وَفُسِّرَ ذلك بأنّ الزرافة تمد عنقها لتصل إلى أوراق الشّجر العالية ، ومن ثمّ زاد العنق تدريجياً فى الطول ، وازداد بتوالى الأجيال حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن ، ومن ناحية أخرى ضمرت أجنحة بعض الطيور نتيجة عدم استعمالها فى الطيران .

من المعلوم أن النظرية اللاماركية فى توارث الصفات المكتسبة قد جوبهت بالرّفض من علماء الأحياء لافتقارها إلى البرهان والأدلة ، وقد سدَّد "وايزمان *Weismann*" ضربة إلى هذا المذهب بنظريته حول الخلايا الجرثومية [١] .

---

(١) د .فؤاد خليل وآخرين ، علم الحيوان العام ، صفحة (١١٠٨) . - د . مصطفى عبد العزيز وآخرين ، النبات العام ، صفحة (١٠٠١) .

"٢" نظرية داروين فى الانتخاب الطبيعي:

وسنسهب فى استعراض وشرح تلك النظرية قدر الإمكان فى الفصل التالي ، ومذهب داروين يعتمد ويرتكز على المشاهدات التالية :

٠١ التناحر بين المخلوقات على البقاء.	**Struggle for existence**
٠٢ البقاء للأصلح.	**Survival for the fittest**
٠٣ الوراثة وتأثيرها.	**Heredity**
٠٤ الانتخاب الطبيعي.	**Natural Selection**
٠٥ التجاوب أو الملائمة مع البيئة أو عدم الملائمة.	**Environmental**
٠٦ أصل الأنواع.	**The Origin of Species**

هذا ولم يَدَّعِ داروين أن يكون شرحه لقواعد نظريته التى نتجت عن تلك المشاهد ذات نهائية ، إنما لمس منذ البداية ضعف وهزال الأدلة التى قَدَّمَها ، وقد تنبأ أنّ كثيراً مما كتب قد يثبت أنه هراء ، ولكنه يرجو أن يظلّ الهيكل ثابتاً [1] . وهذا ما حدث بالفعل إذ أنّ "يوهانسن *Johannsen*" (١٨٥٥ - ١٩٢٧) قد سَدَّدَ ضربة إلى البند الخامس من المشاهدات التى اعتمدها داروين ، حيث أثبت أن الملائمة للبيئة أو عدمها ليستا مما يُوَرِث التطور العضوي ، كما سَدَّدَ العالم الهولندى "هيجو دى فريز *Hugo de Vries*" (١٨٤٨ - ١٩٣٥) ضربة إلى المشاهدات الرئيسية التى اعتمدها داروين وهى "الانتخاب الطبيعي" فى إثبات نشوء النّوع وارتقائه ، وعزا ذلك إلى "الطفرة *mutation*" أو التنوع غير المستمر [2] .

---

(١) المرجع - الفصل السادس - باب مشكلات النظرية .

(٢) عن كتاب " علم الحيوان العام " صفحة (١١١٠) و " النبات العام " صفحة (١٠٠٢) .

"٣" نظرية "وايزمان" حول البلازم الجرثومي: [١]

صاحب هذا المذهب هو عالم الأحياء "أوغست وايزمان *August Weissman*" (١٨٣٤ - ١٩١٤)[٢] الذى حاول نقض النظرية اللاماركية عن طريق إثبات أن الصفات التى يرثها الفرد عن أبويه إنما تأتى عن طريق الخلايا الجرثومية ولا دخل للخلايا الجسمية فيها ، وأن الخلايا الجرثومية لا تخضع لمؤثرات البيئة التى تتطلب من بعض التراكيب استعمالاً أو إهمالاً ، فالحداد مثلاً يستعمل ذراعيه كثيراً فتنمو عضلاتها ومن ثمّ تغلظان وتقويان ، ولكنّ ابنه إذا لم يمارس الحدادة حرفةً فلن يكون فى قوّة أبيه الحدّاد ، **وتتلخص تلك النظرية بما يلي:**

تنقسم خلايا الجسم الحى إلى نوعين : خلايا جسدية *Somatic cells* تحتوى على البلازم الجسدي ، وخلايا جرثومية *Germ cells* تحتوى على البلازم الجرثومي .

تكمن الخلايا الجرثومية داخل الجسم ولكنها ليست جزءاً منه .

تنشأ الخلايا الجرثومية منحدرة مباشرة من الخلايا الجرثومية التى سبقتها .

البلازم الجرثومى فى تسلسل مستمر ويقوم الجسد بصيانته .

تنشأ التنوعات عن امتزاج الصفات المختلفة المستمدة من الوالدين .

تنشأ الموجهات من البلازم الجرثومي ، وتنتقل خلال الخلايا الجرثومية إلى الأجزاء المختلفة من الجسد النامي ، ويتم بهذه الطريقة تنويع الكائن الحي .

لا ينشأ طراز جديد من الكائنات إلا نتيجة لطراز متغير من الخلية الجرثومية .

ومن ثمّ فإن نظرية وايزمان تناقض تماماً نظريتى - لامارك وداروين - ، إذ الأخيران يعتقدان أنّ مرد التّنوع هو الجسد ثم ينتقل إلى الخلايا الجرثومية ، أما وايزمان فقد أبرز أهمية الوراثة فى حدوث التطور مغفلاً تأثير البيئة .

---

(١) علم الحيوان العام ، صفحة (١١٠٨) . النبات العام ، صفحة (١٠٠١) .
(٢) وايزمان أو فايزمان أو فايسمان .

"٤" نظرية الطفرة أو " مذهب دى فريز"[١]

وضع عالم النبات الهولندى " هيجو دى فريز *Hugo de Vreis* " عام ١٩٠١م ، نظريته حول "الطّفرة" فى تفسير نشوء النّوع وارتقاؤه ناقضاً بذلك نظرية داروين واعتمادها "الانتخاب الطبيعي" والاختلافات الصغيرة المستمرة الحادثة عن الاستعمال أو عدمه والتى اعتمد عليها كل من داروين ولامارك ، وحاول إثبات أنّ التطور العضوى ناجم عن التنوع غير المستمر أو ما يسمى "الطفرة *Mutation*" التى تعنى وجود تغيير مفاجئ أو تنوع مفاجئ يختلف به النتاج عن الأصل بشكل واضح ، فيحدث فى بعض الأحيان أن تظهر أنواع جديدة - لا يرجع نشوءها إلى تأثير عوامل البيئة - بل تنتقل الصفات الجديدة منها إلى ما يليها من أجيال حسب قوانين الوراثة المعروفة ، وذلك ما يسمى بالطفرة .

"٥" نظرية التّطور الكيماوى أو "مذهب أوبارين وهولدين"[٢]

هناك نظرية أخرى عن أصل الحياة والنشوء ابتدعها فى عشرينات القرن العشرين كل من العالم البيوكيميائى الروسى "الكسندر أوبارين *Alexander Oparin*" والعالم البيوكيميائى الإنجليزى " هولدين *Haldne. S. B. J* " . وتتلخص النظرية بأن الأشياء الحية قد نشأت عن طريق " التّطور الكيماوى *Chemical Evolution*" ، فمن العناصر والمركبات البسيطة التى كانت موجودة فى الجو القديم للأرض وبحارها تكونت جزئيات أكبر ، ثم تبع ذلك تجميع لمركبات أكثر تعقيداً وفى النهاية ظهرت وحدة كيماوية كانت قادرة على وحدات مثلها ، وهكذا فقد بدأت الحياة .

وملخص النظرية برمتها أن الحياة قد حصلت تبعاً للقوانين الفيزيائية ، إذ تنفى أن هناك عملاً خاصاً بالخلق أو قوة غامضة وراءه ، أو خارقاً للطبيعة .

وفى رأى أوبارين وهو من اشتهرت النظرية باسمه : (لا يوجد فرق أساسى بين

---

(١) علم الحيوان العام ، صفحة (١١١٠) . النبات العام ، صفحة (١٠٠٢ - ١٠٠٣) .
(٢) جولدزبي . " البيولوجيا " ريتشارد م . جولدزبي . الصفحات (١٢ - ٢٥) من الجزء الأول - الترجمة العربية .

الكائن الحى والمادة التى لا حياة فيها ، وأن المجموعة المعقدة للظواهر والخصائص المميزة للحياة لا بدّ أنها ظهرت عن طريق تطور المادة)[1]

وقد حاول كل من "ستانلى ميلر *Stanley Miller*" وأستاذه العالم الكيميائى "هارولد يورى *Harold Urey* " عام ١٩٥٢ مساندة تلك النظرية ودعمها عن طريق إجراء تجارب معينة بتكوين جو مشابه للجو البدائى للأرض حيث اشتهرت تلك المحاولة باسم " تجربة ميلر *Miller's Experiment* " ، إلا أن تلك النظرية وما رافقها من محاولات وتجارب لم تشتهر ، لأن العلماء قد نظروا إلى كل من المحاولة والنظرية أنها لازالت افتراضية [2] ، وقد أطلق على تلك النظرية اسم "نظرية أوبارين وهولدن *The* *dane theory*al*H- Oparin*" .

نرى من استعراض المذاهب الخمسة اختلافاً واضحاً فيما بين تلك المذاهب فى تعليل حدوث التّطور ، إلا أنّ كل تلك المذاهب قد اتفقت وأجمعت على حدوث التّطور العضوي ، وأنها حقيقة ثابتة مع وجود الاختلاف البين فى تعليل كيفية حدوث هذا التطور العضوي .

إن تلك المذاهب هى أشهر المذاهب التطورية - مع وجود غيرها - وكل أصحاب المذاهب التطورية قد دارت نظرياتهم فى حدود تلك النظريات التى ذكرنا ، مع أن أكثرهم كان أقرب إلى مذهب داروين . وكما أسلفنا فإن داروين لم يكن السّبّاق فى ذلك وإن برز واشتهر بين العامة عن الجميع ، فقد كان هناك من سبقه ، كما كان هناك من زامنه ، وكذلك من أتى بعده ، لذا فسنستعرض باختصار أشهر من ارتبط اسمه بنظريات التطور العضوي ، **وهـــــــــم:**

كونـــت بوفون: جورج لويس لكلار*Conte De Baffon* عالم فرنسى ولد سنة ١٧٠٧م ، وتوفى فى باريس سنة ١٧٨٨م ، له كتاب فى التاريخ الطبيعى ظهر فى عدة

(١) المصدر السابق . الصفحات (١٢ - ٢٥) .
(٢) المصدر السابق . الصفحات (١٢ - ٢٥) .

مجلدات من سنة ١٧٤٩ ولغاية سنة ١٧٨٨ ، أى سنة وفاته ، وعالج الكثير من مشكلات الحيوان .

لامارك: جان باتيست بيير أنطوان ده مونت شيفالييه *Jean Baptiste Lamark* (١٧٤٤ - ١٨٢٩) عالم نباتي وبيولوجى فرنسي ، درس الظواهر الجوية وعلم النبات ، له كتاب فى نباتات فرنسا فى ثلاثة مجلدات ، وظهر كتابه "فلسفة الحيوان" فى باريس سنة ١٨٠٨ فى ثمانية مجلدات ، وله أيضاً كتاب "تاريخ الفقاريات الطبيعي" ، له مذهب فى التطور العضوى يقول بأن التغيرات التى تكتسبها المتعضيات خلال حياتها تنتقل بالوراثة إلى الذرية ، علاوة على قانون الاستعمال وعدمه بالنسبة لأعضائها ، ويدعى هذا المذهب نسبة لواضعه بـ "اللاماركية *Lamarkism*" .

وفى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر برزت عن اللاماركية مدرسة جديدة أطلق عليها اسم "اللاماركية المحدثة *Neo - Lamarkism*" قوامها التأكيد على أثر البيئة المباشر فى التطور العضوى للحيوانات والنباتات . ومن أبرز دعاة تلك النظرية "الفريد ماتيو جيبار *Girad*" (١٨٤٦ - ١٩٠٨م) فى فرنسا ، و"إدوارد دينكر كوب *Cope*" (١٨٤٠ - ١٨٩٧) فى الولايات المتحدة .

سفانت أرهينيوس *Savant Arrthenius* عالم كيميائى سويدي ، أثار نظرية بأن أصل الحياة أتى من الفضاء الخارجي *Panspermia* بطريق انتقال وحدات شبه جرثومية من كوكب إلى آخر عن طريق الضغط الإشعاعي ، وَيُنْظَر إلى تلك النظرية أنها قد تأثرت كثيراً بقصص الخيال العلمية ، وأنه ليس لها من الأدلة ما يدعمها ، وأنها مجرد هرطقة ، لذا فإن تلك النظرية ترد فقط فى سياق التسلسل التاريخى للمذاهب التطورية .

وليم هايد وولاستون(١٧٦٦ - ١٨٢٨) *W. H. Wollaston* كيميائى وفيزيائى وفيلسوف إنجليزي ، نبغ فى الكيمائيات والبصريات ، يُعَدُّ واحداً من أغزر العلماء إنتاجا وأبعدهم أثراً ، أدّت دراساته للبلاتين إلى اكتشاف عنصرين شقيقين هما

"البلاديوم*Palladium*" عام ١٨٠٣ و"الرّوديوم *mRhodiu*" عام ١٨٠٣ أيضاً.

وقد أكثر داروين من الاستشهاد بأقوال " وولاستون " فى أكثر من موضع من كتابه " أصل الأنواع " . ولا يخفى على كل من قرأ الكتاب أنّ داروين إنما وضع كتابه المذكور بمشاركة عدد ممن أشار إليهم من أمثال: وولاستون ، الفريد والاس ، وطسون ود . أساغرى وآخرين .

هيللر (١٧٧٢ – ١٨٤٤) *Heller* عالم فرنسي . صاحب النظرية المعروفة باسمه والتى تقول بأنّ الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة تنشأ استجابة لظروف البيئة ، والتى تتغير باستمرار مما يسبب تغيرات فى الكائنات الحيّة ، فإذا كانت التغيرات ملائمة للبيئة فإنّ الأفراد تعيش وتتكاثر مكونة نوعاً جديداً ، وإذا كانت التغيرات غير ملائمة للبيئة فإنّ أفراد هذا النوع تهلك وتنقرض .

آتيين جفروى (١٧٧٢ – ١٨٤٤) *A. G. Sant lieer* عالم فرنسي . قدم إلى مصر سنة ١٧٩١ فى بعث استعمارى مرافقاً الكافر المستعمر نابليون بونابرت فى غزوه الصليبى لمصر ، ومكث بها حتى جلاء الغزاة الكفرة عنها سنة ١٨٠١م . من أشهر كتبه "فلسفة التشريح" سنة ١٨١٨ و "مبادئ فلسفة الحيوان" سنة ١٨٣٧ و"تاريخ الثدييات" فى ثلاثة مجلدات بين السنوات (١٨١٨ - ١٨٤٢) . وله رسالة نشرها ابنه واعتمدها دعاة التطور تقول بأنّ الصور المتماثلة لم تكن منذ بدأ الخليقة على ما هى عليه الآن . وكان جل اعتماده فى تعليل أسباب التحول على حالات الحياة أو البيئة المؤثرة .

سير جون ريتشاردسون (١٧٨٢ – ١٨٦٥) *J Sir. Richardson* عالم طبيعى درس الطب والجراحة ، والتحق بالبعث القطبى الأول إلى القطب الشمالى بإمرة فراكلين (١٨١٩ - ١٨٢٢) له أبحاث كثيرة فى التطور وفى حيوانات القطب الشمالي ، ويعد ريتشاردسون من المشاهير فى فكرة التطور ، وقد أكثر دعاة التطور من الاستشهاد بأقواله ، ونقل عنه داروين كثيراً فى كتابه "أصل الأنواع" .

ســـانتيلير: إيـــزيدور جفـــروى (١٨٠٥ - ١٨٦١) *Sant lie .G .E* عـالم فرنسي ، ولـد فـى بـاريس وتوفـى فيها ، من كبار علماء وظائف الأعضاء أخذ عن أبيه "أتيين" علـم المواليـد "التاريخ الطبيعي" ثـم عكـف عـلى دراسـة الأسباب الطبيعية التى تسـاعد عـلى ظهـور الشواذ الخلقية ونشـوئها ، نشر العديد من المؤلفات فى علم الحيوان وتـاريخ العضـويات الطبيعي . ومـن أشـهر كتبه : "تـاريخ النظام الطبيعى فـى الإنسـان والحيوان" سنة ١٨٣٧ . وكتاب "إيلاف الحيوانات النافعة واستيحاشها" سنة ١٨٥٤.

حـاول فى خطبة ألقاها عام ١٨٥٠ ، وظهرت فى مجلة "عالم الحيوان" فى يناير عام ١٨٥١ إثبات صحة اعتقاده فى أنَّ الصفات النوعية تبقى ثابتة فى كل نوع ما دام باقيا فى بيئة تحفظ عليه مؤثرات ظروف واحدة وتتحول إذا اختلفت تلك الظروف ، وأن ملاحظة الحيوانات البرية تثبت تحول الأنواع ، وأن التجارب التى تناولت حيوانات أليفة أو حيوانات رجعت إلى الاستيحاش والبرية بعد إيلافها تزيد ذلك بياناً ، وأن التجارب تثبت عدا ذلك ، وأنّ التحولات الناتجة قد يحتمل أن تكون ذات قيمة نوعية .

د. ويلـــز *Wills . D* هو أول من قرّر صراحة ولأول مرّة مبدأ الانتخاب الطبيعى فـى خطبة لـه ألقاهـا فـى "المجمـع الملكي" عـام ١٨١٣ . إلا أنـه أطلقهـا عـلى السـلالات البشرية وقصرها على بعض صفاتها دون البعض الآخر ، وقام بنشر خطبته بعد أن نشر مقالتين لـه : الأولى فى ظاهرة "النّدى" والثانية بعنوان "الرؤيا الفريدة" سنة ١٨١٨ .

لايـــل: ســـير تشـــارلس (١٧٩٧ - ١٨٣٠) *Sir Charles Lyall* عـالم جـيولوجى بـريطاني . قـام بالاشـتراك مـع د . هـ وكـر بـالاطلاع عـلى أفكـار كـل مـن "داروين ووولاس" وتشـجيعهما عـلى نشـر نظريـتهما وربمـا يكونـا قـد قامـا بمهمـة إعدادهـا بالاشـتراك مـع آخـرين . أشـهر كتـبه : "مـبادئ الجيولوجـية" (١٨٣٠) ، نقـض فـيه مذهـب "النكـبات الجيولوجـية *Catastrophist*" وأقـام مذهـبه فـى هـذا العـلم عـلى أسـاس الـتطور الـتدريجي . انتخـب سـنة ١٨٥٠ رئيسـاً لـلمجمع الجيولوجى ورئيساً لجماعة تقدم العلوم البريطانية فى سنة ١٨٦٤ .

جرانت*Grant* أحد مشاهير نظرية التطور العضوي . لـه مقالات عدّه فى موضوع الانتخاب العضوى نُشرت فى الجرائد والمجلات فى الأعوام (١٨٢٦ - ١٨٣٤م) ، فقد نشر فى مجلته المعروفة "جريدة أدنبرة الفلسفية" سنة ١٨٢٦ (مجلد ١٤ صفحة ٣٣٩) مُعْتَقَده فى أنّ الأنواع متولدة من أنواع أخر ، وأنها ارتقت بدوام تكيف الصفات ، وجهر بذلك الرأى عينه فى خطابه الخامس والخمسين الذى طبع فى مجلة " اللانست" سنة ١٨٣٤ .

وليم هيربوت *William Heirbert* أسقف مانشستر ، برز حوالى العام ١٨٢٠ كداعية تطوري . ورد فى كتابه المطبوع سنة (١٨٢٢) "مقررات فلاحة البساتين" ، وفى كتابه "الفصيلة النرجسية" المطبوع عام ١٨٣٧ صفحة (١٩) وصفحة (٣٣٩): (إنّ التجارب فى فن زراعة الحدائق قد أثبت بما لا سبيل إلى دفعه أنّ فى الأنواع النباتية مجموعة ضروب أرقى وأثبت صفات من غيرها) ثم أطلق نظريته على عالم الحيوان معتقداً أنّ أنواعاً خاصة من كل جنس قد خلقت أصلاً وبها قابلية التّشكل وأنها أُنتجَت بالمهاجنة ثم بالتحول عن الأنواع الحالية .

باتريك ماتيو *Patrick Matio* عالم جيولوجى ألماني . صاحب كتاب "خشب السفن البحرية والأشجار الخشبية" المطبوع سنة ١٨٣١ . قال بنفس الأفكار التى وردت فى كتاب "أصل الأنواع" ، ودعا لنفس الأفكار التى حملها كل من "داروين وألفريد ولاس" ، إلا أنّ أفكاره تلك قد وردت ضمن فصول شتى فى سياق مواضيع كتابه ، فظلّت أفكاره مجهولة حتى نبه إليها فى "سجل جاردنز" فى أبريل١٨٦٠ ، ليس هناك فروق تذكر بين مذهبه ومذهب داروين - كما يقول الأخير - حيث يذكر فى كتابه "أصل الأنواع": (وليست الفروق بين مذهبه ومذهبى بذات شأن ، فالظاهر أنه يحدس أنّ العالم كان يخلو من سكانه فى أدوار متعاقبة ثم يعمر بعد ذلك ، وأنه تعقيباً على ذلك تتولد صور أخرى جديدة من غير فطر عفنى أو جرثومة سابقة . ولا أقطع أنى فهمت بعض عباراته ، غير أنى تبينت أنه يعزو لفعل الحياة تأثيراً كبيراً كذلك

قد وضحت لـه قدرة الانتخاب الطبيعى الفعالة كل الوضوح)[1]

فـون بـوخ لـيوبولد *Leopold .B .V* عـالم ألماني . ولـد فـى روسيا عـام ١٧٧٤ ، وتوفـى فـى بـرلين عـام ١٨٥٨ . اشـتهر كداعـية تطـور عـام ١٨٣٦ حيـث يقـول فـى كـتابه "وصـف جـزر كـنارى الطبـيعي" : (إن الضـروب تسـتحيل بـبطء أنواعـاً ثانـية لا تكـون بعـد ذلـك قابلـة للمهاجـنة) وقـال بـنفس الأفكـار فـى كتـبه الأخـرى : "سـياحة فـى نـرويجولابلاند" (١٨١٠) - "سلاسـل الجـبال فـى روسـيا" (١٨٤٠) - "مقالات فى العمونيات*Ammonites* .

فون باير (١٧٩٢ - ١٨٧٢) *Von Baer* عالم طبيعى روسي . تَخَصّصَ فى علم الأجنّة ، لـه نظريات فى التطور الطبيعى الجنيني ، أظهر فى عام ١٨٥٩ نظرية قائمة على سنن الاستيطان وأنّ الصور المتباينة تبايناً كلياً فى الوقت الحاضر متولدة من صورة سفلية واحدة . أشهر كتبه : "توالـد الأسمـاك وتـدرج وجودهـا" عـام ١٨٣٥ و"تطور الصور الأحيائية" عام ١٨٣٧.

دالـوى دومالـيوس *Daliwah Domallius* جيولوجى صاحب رسـالة فى التطور المقرون بتحول الصفات ، عُرِفَ كصاحب مدرسة تطورية فى عام ١٨٣١ ، وقد نشر هذه الرّسالة فى العام ١٨٤٦ مجدداً بيَّنَ فيها رأيه فى أنّ القول بنشوء أنواع جديدة بالتسلسل المقرون بتحول الصفات أرجح من القول بأنها خُلقت مُستقلة ، وقد أُثبِتَت تلك الرسالة فى "سجل مجمع بروكسيل الملكي" (صفحة ٥٨١ . جزء ١٣) .

ريتشارد أوين (١٨٢٠ - ١٨٩٢) *Richard Owen* عالم إنجليزى من المبرزين فى علوم التشريح والحيوان والأحفوريات ، أشهر كتبه : "طبيعة الأطراف" (١٨٤٩) . "تشريح الفقاريات" زواحف جنوبى أفريقيا الأحفورية" (١٨٦١) . يصنفه المؤرخون بين مشاهير دعاة التطور إلا أنّ المُراجِعَ لنصوص كتبه وخطبه المتعددة يجد أن هذا العالم متأرجح بين نظرية الانتخاب الطبيعى والخلق المستقل ، وفى ذلك يقول دارويـن :

---

(١) المرجع . الصفحات (١٠٦ - ١٠٧) .

(. . . إنّ كثيرا من القراء يجدون كما أجد فى جدليات الأستاذ أوين من الغموض والتنافر ما يعذر فهمه عليهم ويعنتهم فى التلفيق بين أطرافها)[١].

ومما يرجح القول بأنه ربما عدل عن دعوته لفكرة الانتخاب الطبيعى إلى الإيمان بالخلق لما ورد فى خطبة لـه ألقاها فى "الجمعية البريطانية" عام (١٨٥٨) : (إنَّ حالات مثل حالة "القطا الأحمر *Red Grouse*" ، إذا وعاها العالِم بالحيوان ليستدل بها على خلق ذلك الطير خلقاً خاصاً واختصاصه بتلك الجزائر[٢] يظهر قصوره دائماً عن إدراك السّر الخفى فى وجود ذلك الطير فى تلك البقعة واختصاصها به دون بقاع الأرض كافة ، مستنجداً بفضل اعترافه بذلك القصور ، إنّ كلاً من الطير والجزائر مدينان بأصلهما لسبب خلاق عظيم الحول) .

هيربـرت سبنســر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) *Spenser Herber* فيلسوف إنجليزي ، صاحب "الفلسفة التركيبية *Synthetic philosophy* " وقد ألّفَ فى موضوعها العديد من الكتب منها "مبادئ علم الاجتماع" - "مبادئ علم الأحياء" - "مبادئ الأخلاق" - "الفلسفة التركيبية" . آمن قبل داروين بتطور الأنواع من أشكال بسيطة إلى أشكال معقدة . لـه نظرية مشهورة فى التطور بالانتقال من حال التجانس إلى حال التنافر والاختلاف نشرها فى جريدة "الليدار" شهر آذار عام ١٨٥٢ ، وأعيد طبعها فى كتابه "المقالات"عام ١٨٥٨ . وهو من أبرز القائلين بـ "الدّاروينية الاجتماعية *Social Darwinisim*" وهى نظرية فى التطور الاجتماعى والثقافى نشأت فى القرن التاسع عشر واستمدت اسمها من صلتها بدراسات داروين البيولوجيّة ، والواقع أنّ الفكرة القائلة بأنّ حياة الإنسان فى المجتمع تمثل صراعاً من أجل الوجود يحكمه مبدأ "بقاء الأصلح" لم يستحدثها داروين ولكن دراساته منحتها الشُّهرة .

ويعتبر "هيربرت سبنسر" و "وليم غراهام" من أبرز القائلين بالداروينية الاجتماعية ،

---

(١) المرجع . صفحة (١١١) .

(٢) جزائر Natural فى انجلترا .

إذ ذهبا إلى أن الجماعات كائنات حيّة تتطور بمثل الطريقة التى يتم بها تطور الأفراد ، وقد استُخدِمَت تلك النظرية لتوطيد دعائم الاستعمار ولتبرير التمايز الطبقى على أساس من التفاوت الفطرى بين الأفراد والأقوام فقد استخدمت لتأييد السياسات الكافرة المجرمة من استعمارية وعنصرية وعرقية ، ولتعزيز الزّعم القائل بتفوق بعض الشّعوب والأمم مثل : الأنكلوسكسونية أو الآرية أو اليهوديّة على غيرها تفوقاً بيولوجياً وثقافياً ، وقد اضمحلّت هذه النظرية خلال القرن العشرين بعد أن ثبت أنها لا تقوم على أى أساس علمى سليم .

وفى عام (١٨٥٠) أى قبل ظهور كتاب "أصل الأنواع" بتسع سنين كان هيربرت سبنسر يضع أسس نظريته عن التطور الاجتماعى ويربط ذلك بالتطور العضوي ، وذلك فى أول كتبه وهو كتاب "*Social statics*" مما يعنى أن تفكير سبنسر كان مستقلاً عن داروين فى بداية الأمر ، والأرجح أنّ اتصاله بالتفكير التطورى كان أقدم من ذلك إذ يرجع إلى عام (١٨٤٠) بالذات حين قرأ كتاب "سير تشارلز ليل" عن "مبادئ الجيولوجيا *Principles of Geology*" الذى تعرف فيه على تفكير لامارك التطوري ، ولكن مع أنّ فكرة التطور كانت تدور فى ذهنه منذ ذلك الحين فإنّها لم تصبح الفكرة المركزية فى كل تفكيره إلا فى العام (١٨٥٧) وهو يراجع بعض مقالاته لكى ينشرها فى كتاب ، ففى تلك المقالات يظهر بوضوح دعوى التطور التى تقوم على "قانون باير فى الفسيولوجيا *Beer physiological low*" الخاص بنمو وظهور المادة العضوية من حالة التجانس إلى حالة التغاير ، أى من البقاء الموحد المطرد - كما هو الحال فى الخلية الجنينية الأولى التى تحمل كل وظائف الحياة - إلى الكائن العضوى الكامل بكل بنائه ووظائفه المعقدة المتفاضلة . ولكن سبنسر لم يتمكن من الرّبط بطريقة محكمة بين النظريتين ، البيولوجية والاجتماعية فى حدود وألفاظ الصراع العام الكلى والبقاء للأصلح - وهما المبدءان الأساسيان فى النظرية الداروينية - وفى عام (١٨٦٣) أى بعد ظهور كتاب داروين بأربع سنوات ظهر كتاب سبنسر عن "المبادئ الأولى *First Principles*" الذى يعتبر المدخل الأساسى لكل فلسفته الاجتماعية حيث يعرض كل

نظريته عن التطور العام .

١٩ - وليم غراهام سَمنَر (١٨٤٠ - ١٩١٠) *William Graham Sumner*
عالم اقتصاد واجتماع أمريكي ، يعتبر من أبرز القائلين بالداروينية الحديثة الاجتماعية ، عُرِفَ بإيمانه الشديد بسياسة "دَعْهُ يعمل" أى سياسة عدم التّدخل وبالحريّة الفردية التى نادى بها المبدأ الرأسمالى وبعدم التكافؤ الفطرى بين النّاس .

٢٠ - سير يوسف دالتون هوكر *Sir Joseph Dalton Hooker*
عالم إنجليزي . (١٨١٧ - ١٩١٠) تخرّج طبيباً ثم عكف على دراسة علم النبات . زار القطب الجنوبى لإجراء أبحاث على نباتاته ثم رافق بعثاً إلى جبال همالايا عام (١٨٤٧) . أشهر كتبه "مذكرات بعث جبال همالايا" (١٨٥٤) و "علم النبات" (١٨٦٢) . وقد قام عام (١٨٥٩) بطبع كتابه "مجموعة استراليا النباتية" وقال فى الجزء الأول منه بصحة تسلسل الأنواع وتحول صفاتها ، وحاول إثبات مقولته بمشاهدات طبيعية عديدة .

٢١ - بادن باول (١٨٩٦ - ١٩١١) *Baden Baul* عالم إنجليزى دعا إلى دراسة الطبيعيات والرّياضة . له كتب كثيرة أشهرها "توافق الحقائق الطبيعية والإلهية" - "حقيقة الفلسفة الاستنتاجية" - "نظرة تاريخية فى تقدم الطبيعيات والرياضيات" . قام عام (١٨٥٥) بنشر عدة مقالات فى موضوع وحدة العوالم وتولد الأنواع التى وصفها بأنها "ظاهرة مطردة لا ظاهرة اتفاقية" واتفق مع "سير جون هرشل" أنها ظاهرة طبيعية قياسية ليست راجعة إلى أى معجزة .

٢٢ - داروين: إيرازموس (١٧٣١ - ١٨٠٢) *Erasmus Darwin*
طبيب وشاعر بريطاني . جد تشارلس داروين . عُرِفَ بآرائه ونظرياته العلمية التى كان لها شأن مذكور فى تاريخ نظرية التطور . يعتبر هو والكونت بوفون من أوائل ومشاهير المنادين بنظريات التطور المادى على أسس وقواعد علمية . من أشهر آثاره : "الحديقة النباتية" - "هيكل الطبيعة أو أصل المجتمع" - "معبد

الطبيعة *Temple of nature*" الـذى صـدر عـام (١٨٠٣) .

٢٣ - داروين: تشارلس روبرت وانج *Charles Darwin* عالم طبيعة بريطاني . ولد فى ١٨٠٩/٢/١٢ ، خامس أولاد "روبرت وارنج داروين" وحفيد داعية التطور "إيرازموس داروين" . كان فاشلاً فى تحصيله العلمي ، درس الطب وتوجه إلى دراسة الأحياء المائية ، فشل فى دراسة التشريح فالتحق بكلية اللاهوت فى كامبردج عام (١٨٢٧) . ألحقه أستاذه "هنسلو" ليرافق البعث العلمى فى سفينة "البيجل" سنة (١٨٣١) .

بدأ يفكر فى نظريات التطور منذ عام (١٨٣٧) ، زار خلال رحلته البحرية والتى امتدت حتى العام (١٨٣٦) جزر الرأس الأخضر ، جزر أزور ، سواحل أمريكا الجنوبية ، فجمع المعلومات عن نباتاها وحيواناتها وطبيعتها الجيولوجية ، فكانت تلك الرحلة نواة لنظرياته .

أشهر كتبه كان كتاب "أصل الأنواع" المطبوع عام (١٨٥٩) . ويطلقون على مذهبه فى التطور اسم "الدّاروينية *Darwinism*" ، وهذا المذهب يرد أصل الأنواع جميعاً وتطورها إلى أنّ الكائنات الحيَّة تنزع إلى إنتاج مواليد تختلف اختلافا طفيفاً عن آبائها ، وأنّ عملية الاصطفاء الطبيعى تفضى إلى بقاء الأصلح أو الأكثر تكيفاً مع البيئة ، وبأن كل ذلك يؤدى فى النهاية إلى ظهور أنواع جديدة لم تكن معروفة من قبل .

وقد قام داروين بشرح مذهبه هذا فى كتابه "أصل الأنواع" الذى أثار عند نشره عام (١٨٥٩) عاصفة هوجاء فى الدّوائر العلمية والفلسفية والدينية ، فَهَلَّلَ له قوم وَسَفَهَهُ أقوام وقد اشتهر كتابه كمرجع لتفسير مقولات "التطور *Evolution*" .

وفى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ظهرت "الداروينية المحدثة *Neo - Darwinism*" . وهى تطوير لنظرية داروين ، وقوام هذا التطوير بأن الاصطفاء الطبيعي[١] هو العامل الأساسى فى عملية التطور العضوي ، وبأنّ الصفات المكتسبة

---

(١) *Natural Selection*

لا يمكن أن تورث . ويعتبر "أوغست وايزمان *Wissman*" من أبرز القائلين بالداروينية المحدثة .

٢٤ - الفريد روسل وولاس (١٨٤٨ - ١٩٣٥) *Alfred Russel Wallace*

عالم طبيعي إنجليزي . زميل داروين وأحد أشهر من ساعده في وضع نظريته ، سَلّمَ إلى داروين عام (١٨٥٨) مذكرات وأبحاث في موضوع التطور أرسلت إلى "جمعية لينيه العلمية" ونشرت في المجلد الثالث من صحيفته العلمية . ساهم بالاشتراك مع تشارلز ليل ود . هوكر وآخرين في بلورة النظرية وإعداد كتاب "أصل الأنواع" . قضى أربع سنوات على ضفاف نهر الأمازون ، وثماني سنين في جزر الملايو منقباً في مشكلات العلم الطبيعي . صدر له : "عالم الحياة" - "تاريخ جزر الملايو الطبيعي" عام (١٨٦٩) - "تمهيد لنظرية الانتخاب الطبيعي" (١٨٦٧) - "طبيعة المناطق المعتدلة" (١٨٧٨) - "المذهب الدارويني" . ومقالات مجموعة عنوانها : "نظرات علمية واجتماعية" .

٢٥ - هوجو دي فريز (١٨٤٨ - ١٩٣٥) *Hugo de Vreis* عالم تطوري هولندي . صاحب نظرية النشوء والارتقاء عن طريق "الطّفرة *mutation*" التي وضعها عام (١٩٠١) مخالفاً بذلك مذهبي داروين ولامارك ، ملخصها أنّ الطّفرة[1] هو تغير أو تحول مفاجئ يطرأ على الكروموسات أو الجينات فيؤدي إلى مواليد جديدة ذات خصائص لم تكن لأي من الأبوين المنتجين . والطفرة أمرٌ نادرٌ حدوثه إلا أن في الإمكان إحداثه صنيعياً عن طريق التعريض لأشعة إكس - حسب نظريتهم - . ويعتبر عالم النبات دي فريز هو أول من افترض وجود عامل الطفرة ، ولقد أجرى العالم الأمريكي "هرمان مولر" تجارب في هذا الحقل على ذبابة الفاكهة .

٢٦ - أوغست وايزمان (١٨٣٤ - ١٩١٤) *Augest Weissman* عالم بيولوجي ألماني . يعد أحد مؤسسي علم الوراثة ، وأحد مؤسسي الداروينية المحدثة ، وصاحب نظرية التطور عن طريق البلازم الجرثومي . من آثاره المترجمة إلى اللغة

---

(١) الطفرة *mutation* : الافتجاء أو التغاير الأحيائي .

الإنجليزية "نظرية النشوء والارتقاء *The Evolution theory*" . عام (١٩٠٤) .

٢٧ - آرنســـت هاينريـــتش هـــيكل (١٨٣٤ - ١٩١٤) *Ernst Heinrich Heakel* عـالم بيولوجى وفيلسوف نشوئى ألماني . أيدَ نظرية داروين تأييداً حماسياً . يُعزى إليه اكتشافات هامة فى المُضغيات[1] وفى علم الحيوان أيضاً . لـه أقوال وتصريحات رعناء فى محاولة التّدليل على صحة نظرية التطور العضوى يلقبونه : "رسول التحرر الفكري" .

٢٨ - توماس هنرى هكسلى (١٨٢٥ - ١٨٩٥) *Thomas Henry Huxley* عالم بيولوجى بريطاني ، جَد جوليان هكسلي ، وأيضاً جد الروائى والشاعر الإنجليزى أولدس هكسلي . يُعَدُ من كبار علماء التشريح فى القرن العشرين . التقى بشارلس داروين عـام (١٨٥١) ، حتى إذا أصدر داروين كتابه "أصل الأنواع" عـام (١٨٥٩) سارع هكسلى إلى تأييد الداروينية والدفاع عنها والعمل على نشرها بين الجمهور ، وكان قد التحق بالبحرية الإنجليزية كمساعد جراح ، ولـم يعـد إلى إنجلتـرا إلا سنة (١٨٥٠) . أشهر كتبه : "مرتبة الإنسان فى الطبيعة" .

يعتبر توماس هكسلى أقوى أنصار داروين فى ذلك الحين لدرجة أن داروين نفسه كان يصفه بأنه "وكيله العام" بينما كان هكسلى يصف نفسه بأنه "كلب داروين الحارس" وقد كرّس جهوده ووقته وعلمه لجمع كل ما يمكن من أدلة وبراهين فى مجالات الجيولوجيا ودراسات الإنسان القديم والبيولوجيا والأنثر بيولوجيا ، بل وأيضاً من الانتقادات التى وُجهَت إلى "الكتاب المقدّس" ذاته لتعضيد نظرية داروين ، وأفلح إلى حد بعيد فى الدفاع عنها ونشرها ، خاصة وقد كانت لـه قدرة فائقة على المناقشة والجدل ، وذلك فضلاً عن شخصيته العدوانية التى لم يكن داروين يتمتع بمثلها ، وبذلك تولى الدّفاع عن النظرية خلال معظم المصادمات العديدة التى وقعت بين الكنيسة ودعاة التطور حينها حول القضية الداروينية ومشكلات نظريات التطور .

---

(١) المضغيات : علم الأجنّة .

ولعلّ أشهر حالات الصدام الدرامى حول الداروينية كان اللقاء الذى تم أثناء اجتماع "الرابطة البريطانية *British Association*" فى أكسفورد عام (١٨٦٠) ، وكانت الداروينية هى موضوع المؤتمر ، وكان يقوم بدور "المدفع الضخم" - حسب تعبير داونز - على الجانب المعارض للفكرة الداروينية أسقف أكسفورد "صمويل ويلبر فورس *Wilberforce*" الذى التفت - فى ختام خطاب طويل عنيف حاول به تحطيم نظرية داروين - إلى هكسلى الذى كان يجلس على المنصّة وقال له بسخرية : أحبُ أن أسأل الأستاذ هكسلى إذا كان ينتمى إلى القرود من ناحية جده أو جدته؟ وقد همس هكسلى إلى أحد أصدقائه : لقد أوقعه الله بين يدي ، ثم نهض ليجيب على السؤال حيث قال :

إذا سألت عما إذا كنت أختار بين الانحدار من ذلك الحيوان المسكين ذى الذكاء المحدود والمشية المنحنية وبين الانحدار من صلب رجل على درجة عالية من المقدرة والمهارة ويحتل مكانة مرموقة ، ولكنه يستغل هذه الملكات فى الاستهزاء بالباحثين المتواضعين عن الحقيقة والعمل على هدمهم ، فإننى لا أتردد فى الإجابة على هذا السؤال : ليس للإنسان أن يخجل أن يكون قرداً ، وإذا كان لى جدّ أخجل أن أذكره فإنَّهُ لا بدّ وأن يكون هذا الجد إنساناً له عقل قلق متقلب وتفكير غير مستقر ولا يقنع بالنجاح فى مجال نشاطه ، وإنما يلقى بنفسه فى المشاكل العلمية التى ليس له بها معرفة حقيقية ، وكل ما يفلح أن يفعله هو أن يضفى عليها ستاراً من الغموض عن طريق الخطابة الجوفاء ، وأن يصرف انتباه مستمعيه عن النقطة موضوع الخلاف وذلك بالاتجاه إلى الاستطرادات البليغة والاعتماد فى حذق ومهارة على العاطفة الدينية [1] .

٢٩ - جوليان هكسلى (١٨٨٧ - ١٩٧٥) *Juliann Huxley* عالم بيولوجى بريطانى حفيد توماس هنرى هكسلي ، وفق إلى اكتشافات هامة فى علم الأحياء "البيولوجيا" ، وقد أكثر من التأليف فى موضوع النّشوء والتطور ، ونهج نهج

---

(١) Downs, *R. Books that changed the world, N- Menetor Books, Y. pp.* ١٩٥٦ . ١٦٢ - ٧٤

جده فى تأييد الداروينية والدفاع عنها والعمل على نشرها بين الجمهور ، وعنى بدراسة سلوك الإنسان السيكولوجى والأخلاقى والاجتماعي ، وكان له خطاب طويل فى مدح الداروينية فى الذكرى المئوية للداروينية التى أقيمت فى شيكاغو عام (١٩٥٩) ، إلا أنّ جوليان هكسلى قد خالف نظرية سبنسر عن الصراع والتنافس كما سيرد لاحقاً[١] .

٣٠ - إيفان فلاديميروفيتش ميتشورين *Ivan Vladimirovich Michurin* عالم بيولوجى روسى (١٨٥٥ - ١٩٧٥) رفض قانون الوراثة الذى وضعه الراهب "مندل" ووضع مذهباً فى التطور العضوى سمى نسبه إليه "الميتشورينية *Michurinism*" وهو مذهب فى التطور العضوى يعتبر شكلاً من أشكال اللاماركية والذى يقول بأنّ الصفات المكتسبة تنتقل بالوراثة إلى الذرية .

٣١ - تروفيم دينيسوفتش ليسينكو(١٨٩٨ - ١٩٧٦) *Trofim Denisovich Lysnko* عالم بيولوجى سوفييتي ، عمل بتشجيع من ستالين على إنتاج أنماط جديدة من المحاصيل فى فترة شكى الاتحاد السوفييتى خلالها أزمة خطيرة فى الإنتاج الزراعى (١٩٢٧ - ١٩٢٩) ، وضع مذهباً فى التطور العضوى نسب إليه إذ أطلق عليه اسم : "الليسينكووية *Lusenkoism*" وهو مذهب فى التطور العضوى وضعه حوالى العام (١٩٣٠) يعتبر تطويراً لـ "الميتشورينية" . والمذهب يقوم على إنكار وجود "المورثات *Genes*" والهرمونات النباتية ودور "الصبغيات *Chromosomes*" المتخصص ، ويقوم على قاعدة أساسية هى "الوحدة بين المتعضى *organism* وبيئته" ، مؤكداً أن جميع أجزاء المتعضى تُسهم فيما تدعوه الوراثة وأنّ فى إمكان البيئة أن تتحكم فى هذه الوراثة .

لقد جرى استعراض أسماء مشاهير أصحاب النظريات والقائلين بالتطور العضوى حسب التواريخ الزمنية لظهورهم . إلا داروين الجد الذى ذُكر قبل اسم حفيده تشارلس

---

(١) انظر الفصل العاشر - "عصور التقدم البشرى الأولى" .

داروين لكى يسهل على القارئ الرّبط بين الاسمين .

أمّا المصادر التى تم النقل عنها فهى كثيرة ، ونظراً لأن النقل عن معظمهم جرى عن أكثر من مصدر فلم يجرى الإشارة إلى تلك المصادر فى محله ، **إلا أنّ أهمها كان:**

- أصل الأنواع - داروين
- موسوعة المورد العربية - منير البعلبكى
- البيولوجيا - ريتشارد جولدزبى
- البيولوجيا - د . عدنان بدران وآخرين
- دائرة المعارف العربية للبستانى
- من الإغريق إلى داروين - أوزبورن
- خلق لا تطور - د . إحسان حقي .



جوليان هكسلى ١٨٨٧ - ١٩٧٥

عالِم أحياء وطبيعة بريطاني

كان من أنصار الداروينية المتحمسين فى القرن الحديث

الفصل الرابع

داروين ونظريته حول خلق الإنسان[١]

إنّ أشهر من ضلّ وشطّ فى نظرته إلى أصل الخلق والنشوء كان "تشارلس وارنج داروين *Darwin* " الذى برز بفكرته عام ١٨٥٩ حول أصل الأنواع ونشوء الإنسان مُنكراً أنّ وراء هذا الكون خالقاً خلقه ومعللاً الوجود بالتطور *Evolution* ، تلك الفكرة التى ما أن نشرها حتى أحدثت عاصفة هوجاء من النّقاش والجدل حولها ، فأيدها قوم وعارضها أو رفضها ونقضها أقوام ، **تلك النظرية التى سنتعرض لشرحها باختصار والتى تقول:**

طوال عهود من الزمان موغلة فى القِدَم تنشأت صنوف مختلفة من الأحياء ، ومضت متطورة ضاربة فى سبيل الارتقاء ، كما فَنيت غيرها وبادت واندثرت منقرضة لعجزها عن مسايرة مقتضيات التطور - كلياً أو جزئياً - ، أمّا من فَنى وبادَ من الأحياء فقد احتلّ مكانه غيره من الكائنات لأنها أصلح للبقاء منها ، وذلك لقدرتها على تحصيل الرّزق أو مقاومة أفاعيل الطبيعة مثل الحر والرّطوبة والجفاف وغير ذلك . وهذه الصورة المتفوقة خلال بعض الأزمان عادت فأخلت السَّبيل لغيرها من الصّور الحيَّة لَمّا نَضَبَ فيها معين التَّكَيُّف التى من شأنها أن توائم بين حاجات حياتها وبيئتها التى تعيش فيها .

لقد ظهرت الحياة أول ما ظهرت فى تلك الصورة الهلامية التى نسميها : الجبلة *Protoplasm*"[٢] وهى المادة الحيّة الأولى التى هى الذّخيرة أو الأصل الذى تعود إليه

---

(١) كتاب "**أصل الأنواع**" - تشارلس داروين - ترجمة إسماعيل مظهر - . طبعة مكتبة النهضة - بيروت وبغداد . الصفحات (٣٩ - ٤٥) ويسمى فيما بعد (المرجع) .

(٢) أما الجبلة فهى البروتوبلازم Protoplasm : وهى مادة لزجة تُعتبر قوام الخلايا الحية ، وعليها يعتمد النمو والتكاثر وعمليات حياتية أخرى . تتألف الجبلة من : النواة ، الحشوة ، الغشاء البلازمى أو المصْلي . والنواة هى جسم شبه كروى يشتمل على صبغيات chloromosemes ، وتؤلف الحشوة سائر الوحدة البروتوبلازمية وتشتمل عادة على حبيبات ذات أحجام مختلفة . أما الغشاء البلازمى فيشكل سطح الوحدة ، ويقع عادة بين=

كل صور الحياة من نبات أو حيوان . فأبسط صور الحياة هو عبارة عن شذرّة صغيرة من الجبلة أو البروتوبلازم تتضمن جسماً مستديراً هو "النواة *Nucleus*" علاوة على الجبلة وهى ما يسميه الإحيائيون "الخلية *Cell*" والتى ليس فى استطاعة العين المجردة رؤيتها دون الاستعانة بالمجهر ، وكل الأحياء على إطلاق القول إمّا أن تتألف من خلية واحدة أو من خلايا متعددة ، والإنسان نفسه لا يتعدى أن يكون توليفة من عدد لا يحصى من الخلايا المختلفة ، كما أن الحيوانات **تنقسم إلى قسمين من ناحية تركيبها:**

وحيدة الخلية ، وتسمى " الأوالى أو البرزويات "*Protozoa*

متعددة الخلايا ، وتسمى " المتزويات "*Metazoa*

إلا أنّ كافة الموجودات قد نشأ من أصل واحد وهو "وحيد الخليّة *Protozoa* " ، وذلك يعنى أنّ متعددة الخلايا كانت فى أول أمرها بسيطة التّركيب ، مثل : حيوان "المرجان *Corals*" ، "قناديل البحر *Jelly - fish*" ، "شقائق البحر*Sea - anemones*" وما إلى ذلك ، وشجرة الأحياء التى اعتمدها أصحاب النظرية والتى سنثبتها لاحقاً[1] تؤكد بوضوح تام أنّ أصل الحيوانات جميعاً يعود إلى الجبلّة حسب ما قرروه فى نظريتهم .

= الغلاف الخارجى القاسى نسبياً وبين مادة الحشوة ذات القوام الهلامي . أمّا الخلية *Cell* فهى الوحدة البنيوية الصغرى التى تتألف منها جميع الحيوانات والنباتات ، وهى كتلة من البروتوبلازما ، صغيرة مجهرى عادةً ، يحيط بها غشاء نصف مُنفذ يشتمل على (النواة *nucleus*) وعلى (الحشو*cytoplasm*) وعلى مواد أخرى غير حية ، وتضم النواة (الصبغيات *chromosomes*) والمورثات (*Genes*) . والكائن الحى قد يكون وحيد الخلية كالأميبة (*ameba*) ، وقد يتألف من ملايين الخلايا ، ويقدرون عدد الخلايا الموجودة فى جسم الإنسان بألف مليار خلية . أما النواة *nucleus* فهى الجزء المركزى الموجب الشحنة من الذرة ، والذى تدور حوله الإلكترونات (الشحنات السالبة) فى مداراتها المستقلة . تشتمل النواة على كامل الكتلة الذرية تقريباً لكنها لا تشغل غير حيز صغير جداً من حجم الذّرة ، وتتألف النواة من بروتونات ونيوترونات ، إلا أن نواة الهيدروجين تتألف من بروتون واحد فقط . أما الصبغيات أو الكروموسومات *chloromosomes* : فهى تلك الجسيمات الخيطية التى توجد أزواجا فى نواة الخلية الحيوانية أو النباتية ، والكروموسومات بالغة الأهمية لأنها تحمل المورثات أو الجينات *genes* التى تحدد الصفات الوراثية المميزة ، وعددها ثابت فى كل نوع من الأنواع (*species*) ، ففى خلية الإنسان ٢٣ زوجاً منها ، وفى خلية الحصان ٣٠ زوجاً ، وفى خلية الأضاليا ٣٢ زوجاً .
أما المورثات أو الجينات (Genes) فكل جينة جزء من الكروموسوم يحدد الصفات الوراثية المميزة فى

(١) المرجع . صفحة (٤١) . ارجع أيضاً إلى شجرة الأحياء المثبتة بتصرف بعد هذا الفصل ، وجدول تطور الحياة (الفصل التاسع من هذا الكتاب) .

عقيب ذلك ظهرت صور جديدة من الحيوان الدودى الصورة أو "الحيوانات الدودية *Worms* " التى نشأ منها " الرّخويات *Mollusks* " مثل : المحار*Oysters* والحلازين *Spirally* والحبّارات*Cattle - fish* التى هى نوع من هى نوع من الأسماك *fish* . ثم ظهرت " الشوكيات*Rachidians*" والتى تعرف أيضا باسم : "*Echinodermata*" مثل : "نجوم البحر *star fish*" و "قنافذ البحر *sea - urchins*" و"خيار البحر *sea - cucumber* " . ثم تلى ذلك " القشريات *Crustaceans*" مثل : السراطين*Crabs* والجمبرى *Prawn* ، ثم بعد ذلك ظهرت "الحشرات *Insects*" .

ثمَّ بعد ذلك ظهرت صور جديدة من الحيوان هى عشائر ذات صفات مستحدثة دَلَّ وجودها على انقلاب كبير فى سير الحياة ، فكل الحيوانات التى ذكرنا من قبل كانت رخوة القوام لينة الأجسام معدومة العظام ، ولو أنّ بعضاً منها مثل السراطين وقنافذ البحر والمحار قد اختصت بأصداف تقى ذواتها من العطب ، أمـا الصور الجديدة فكان لها حبل متين يمتد على طول الجسم ويسمى علمياً "الرّتمة *Notochord*" وكان ظهور هذا الحبل أول مدارج التطور نحو تكوين واستحداث "الفقار أو الصلب*Oxon - loin*" المؤلف من أجزاء عظمية كلٌ منها يسمى "فقّارة *vertebro*" ، أى أنّ طبيعة العيش اقتضت استحداث تطور أو انقلاب جديد بظهور "العظام *Bones*" فظهرت أولاً الحيوانات ذات الرّتمة ، وقد سميت علمياً "الرّتميات أو الحبليات *Phylum chordate*" فكانت سهمية الشّكل ومن أهل الماء وأشهرها "الأطريف" الذى يسمى أيضاً "السهيم أو الحريب*March trefoil*" ومن السهيم ظهرت "الأسماك *Fishes*" .

لقد بدأ ظهور الأسماك بالصورة ذات الهيكل الغضروفى "*Cartilage*" ثم ظهر بعد ذلك "الأسماك ذات الهيكل العظمى الصلب *Skeleton* " المسماة علمياً "*Bony fish* " مثل : "الصمون *Salmon*" و "القد *Cod*" و "الفرخ *Perch*" ، كما تفرع من الحريب صور أخرى مثل السباذج والجلكيات *Sea squids* وهى نوع من الأحياء لا رتمة لها ، أى ليس لها حبل ظهرى إلا عندما تكون صغيرة وفى أول عهدها بالحياة .

أما الأحياء التى نشأت بعد ذلك فجميعها من ذوات الفقار*Vertebrata* **وبذلك**

تكون الأحياء قد انقسمت إلى قسمين هما:

[١] الفقاريات [ذوات الفقار] *Vertebrata*

[٢] اللافقاريات [معدومة الفقار] *Invertebrates*

ظهر بعد ذلك أسماك متطورة تستطيع أن تعيش فى الطين اللازب إذا ما غاص الماء فى فصول الجفاف ، وبدلاً من أن تتنفس بخياشيمها كبقية الأسماك فقد نشأ لها مع هذا التطور جهاز آخر هو عبارة عن رئات أولية تحولت عن مثانة السّبح (العوامة) فتدرعت بجهازين للتنفس وسميت تلك الأسماك "الأسماك ذات التّنفسين *Diploids*" .

ومن ذوات التّنفسين تنشأت "البرمائيات *Amphibians*" وهى الكائنات البرية المائية مثل الضفادع *Frogs* وأمثالها ، وتلك الكائنات البرية المائية تستطيع العيش على سطح اليابسة تماماً كما تستطيع العيش فى الماء .

ومن البرمائيات تنشأت "الزواحف *Reptiles*" أمثال : التماسيح *Crocodiles* والعظايا *Lizards* والحيّات *Ophidians* . ومن فرع الزّواحف تنشأت "الطيور *Birds*" .

ومن الزواحف تنشأت أيضاً "الثدييات - ذوات الثدى - *Mammilla*" التى تغذى صغارها بالحليب (اللبن) لـذا سموها نسبة للحليب "اللبونات *Mammals*" ثمَّ استعيض عن هذا الاسم بآخر هو "الثدييات ذات البيوض *Egg - laying Mammals*" ومن الثدييات ذات البيوض تنشأت "الجلبانيات ذوات الكيس *Pouched animals*" مثل الكنغر *Kangaroo* وغيره .

أمّا الجلبانيات فقد تفرع منها شُعَب متفرقة من الأحياء أهمها من وجهة النّظر البشرية " الصّعابير أو الليامير *Lemurs* " **ومن تلك الصّعابير تنشأت:**

١. السّعادين [ذوات الذيول] **Tailed Monkeys**

٢. القردة [فاقدة الذيول] **Tailless Apes**

ومن نوع ما من الصّعابير نشأ "الإنسان*Man*" . أمّا من أى من الشعوب العديدة

التى تنشأت عن الصعابير تنشأ الإنسان بالتأكيد فأمر لا زال محوطاً بالشّك عند داروين وزمرته من علماء التّطور ومن واضعى نظريات النّشوء والارتقاء عموماً!!! ولكن الـرّاجح عـندهم أنّ سـلفاً مـن الأسـلاف البشـريّة المشـابهة للإنسـان[١] والأرطـان *Orangutan*[٢] والجبن[٣] . ثمَّ جاء "الإنسان *Man*" [٤] .

ويـتقول بعضـهم أنّ "الإنسـان القـرد*man - Ape*" وهـو أحـد الرّئيسـات *Primates* المنقرضـة يُعتـبر حلقـة متوسـطة بـين القـردة العلـيا والإنسـان الحديـث . ويظهـر مـن نظـرياتهم أنـه مـن الصّـعابير جـاء "السّـغل *Dystrophy*" وهـو حـيوان صـغير مـن الرّئيسـات فـى دماغـه تلـك الـبلديات الـتى عـلى غـرارها تشـكل الدمـاغ البشـري ، وممـا يذهـب إلـيه بعضـهم أنّ السـغل قـد يكـون الأصـل الـذى نشـأ مـنه الإنسان[٥]!!! .

---

(١) القردة الشبيهة بالإنسان (أشباه الإنسان) ***anthropoid apes*** : مجموعة من الرئيسات العليا تشمل الغوريلا الشمبانزى وإنسان الغاب والجبّون ، وهى قردة لا أذناب لها قادرة على السّير منتصبة القامة وبارعة فى التّسلق .

(٢) الأرطان هو إنسان الغاب أو الأورانغوتان *Orangutan* وأحد " القردة الشبيهة بالإنسان " . موطنه الغابات السبخة فى بعض مناطق بورينو وسومطره . يبلغ ارتفاع الذّكر البالغ منه ١٣٧ سنتيمتراً ويبلغ وزنه نحو ٧٥ كيلو غراماً وهوذو ذراعين مديدتين تكادان تبلغان الأرض حين يقف منتصباً ورجلين قصيرتين نسبياً وأذنين صغيرتين وشعر بنى محمر . وإنسان الغاب شجرى العادات يقتات بالثمار فى المحل الأول .

(٣) الجبن : نوع من القردة من مجموعة أشباه الإنسان .

(٤) المرجع . صفحة (٤٤) بتصرف .

(٥) السّديم - الغيمة السديمية(*nebula*) : كتلة سحابية الشكل من غاز أو غبار أو كليهما معاً تكون فى الفضاء الواقع بين النجوم وتتوهج بفعل أشعة النجوم المجاورة المنعكسة عليها . **الفرضية السديمية (*nebular hypothels*)** : نظرية وضعها الرياضى الفرنسى **لابلاس** عام (١٧٩٦) . تقول بأنّ الشمس نشأت عن سديم غازى ضخم ساخن دوّار ، بَرَدَ شيئاً فشيئاً وتقلّص متخذاً شكل كُرة . ولقد كان من نتائج هذا التقلص أن انفصلت عن الشمس حَلقاتٌ عازية ما لبثت أن تقلصت بدَورها وشكلت الكواكب السّيارة ، وهكذا نشأ النظام الشمسي . وقد أخذ علماء الفلك بهذه الفرضية طوال القرن التاسع عشر ، حيث أهملت بعد التحول عنها واستبعادها . وفى نهاية القرن التاسع عشر أخذ العلماء بفرضية جديدة بدلها هى **الفرضية الكويكبية *Planetesimal hypothesis*** وهى فرضية طلع بها العالمان الأمريكيان **توماس تشمبرلين وفورست مولتون** ، عام (١٩٠٦) لتفسير نشوء الكواكب السيارة . وهى تقول إنّ الشمس لم يكن لها فى الماضى السحيق كواكب سيارة تدور حولها ، وأنّ كتلاً ضخمة من المادة فُصلت عنها بفعل جاذبية نجم أكبر منها ، وأن هذه الكتل التى تسمى الكويكبات اتخذت لها مدرات إهليجية حول الشمس ثم اتحدت لتشكل ما يُعرف بالكواكب السيارة .

ويجزم القائلون بنظرية داروين أنه بالتّطور قد وُجدَت جميع الكائنات الحيّة ، فخَرَجَ بعضها من بعض على طول الأحقاب الجيولوجيّة . ومما يقوّلُ به علماء الفلك والجيولوجيا بأنّ الزّمن الذى انقضى منذ انفصال الأرض من السّديم الأصلي[١] حتى ظهور الإنسان يتراوح بين ثلاثة آلاف مليون سنة وبين خمسة عشر ألف مليون سنة ، أى أنّ الفرق بين تقدير العلماء فى قياس ذلك الزّمن يبلغ اثنى عشر ألف مليون سنة فقط !!! .

كان هذا تلخيصاً شاملاً لتسلسل الحياة بدءاً بالجبلة الأولى مروراً بالديدان والحشرات والبهائم والقرود وصولاً بالإنسان ، كما يفترض ذلك داروين فى نظريته ، فهو يرى أنه بالتطور وُجِدَت جميع الكائنات الحيّة إلى أن ظهر الإنسان ، أمّا من أى القرود تنشأ الإنسان بالتأكيد - ذوات الذيول أم فاقدتها - فأمر لا يزال محوطاً بالشّك لديهم !!! ولكن الراجح لديهم أنّ سلفاً من الأسلاف البشرية المشابهة للإنسان قد تطور عنه بالتأكيد الغوريلا والشمبانزى والأرطان ، ومن ثمَّ جاء بعدهم الإنسان ومن أحدهم .

إنّ هذا التسلسل العجيب للحياة وتطورها قد رُسِمَ فيما أسموه "شجرة الأحياء" نثبتها كما وردت - وبتصرف - فى كتاب داروين "أصل الأنواع"[٢]

مع ملاحظتين:

[١] رسمت شجرة الحياة من أسفل إلى أعلى وليس العكس ، بناء على نظرية داروين "البقاء للأصلح" لذا فتقرأ من أسفل إلى أعلى وليس العكس .

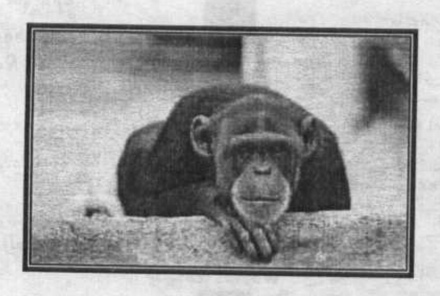
[٢] يؤكد داروين صحّة ما ورد فى نظريته حول الأصول الأولى للأحياء المتناهية والموغلة فى القِدَم ، فى حين لا يستطيع التأكد من الأصول القريبة

---

(١) المرجع . صفحة (٤٤) .
(٢) المرجع . صفحة (٤١) .

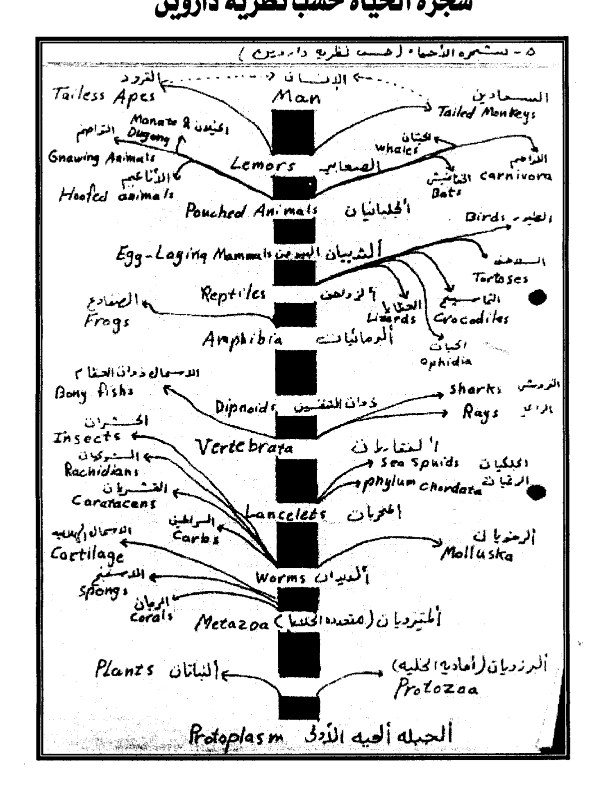
نوعاً ، فالإنسان نشأ من الصعابير التى أنتجت القرود والسّعادين ، وبالتأكيد فالإنسان قد نشأ من أحدهم ، أمّا أيهم بالتأكيد على وجه التحديد؟ فلا يستطيع التأكيد!!! .





الفصل الخامس

شجرة الحياة حسب نظرية داروين[(١)]



---

(١) المرجع . صفحة (٤١)

الفصل السادس

نشـــأة الحيـــــاة

تسرد كيفية نشأة الحياة دورية " عالم الفكر [(١)] كالتالي:

(وكيفية ظهور الحياة ما زالت موضع دراسة وإن كانت الأبحاث الحديثة فى الكيمياء الحيوية *Biochemistry* وعلم الخلية *Cytology* والفيروسات*Viruses* قد ألقت بعض الضوء على هذه المشكلة ، ولكن العلماء لم يصلوا بعد إلى حل لهذا السّر وربما لن يصلوا إليه إلى الأبد ، وأقدم نظرية تفسّر نشأة الحياة هي : "**نظرية النّشوء الذّاتى أو التلقائى *Spontaneous Generation***" ، وتبعاً لهذه النظرية تنشأ الأنواع المختلفة من الحياة حتى المعقدة منها تلقائياً من مواد غير حيّة ، فمثلاً كان الفيلسوف الإغريقى الشهير"أرسطو *Aristole*" يعتقد أن البعوض والبراغيث نشأت من المواد المتحللة ، ولكن تمكن الطبيب الإيطالى "ريدى *Redi*" فى القرن السابع عشر والقسيس الإيطالى "سبالانزانى *Spallanzani*" فى القرن الثامن عشر من إثبات خطأ هذه النظرية ، ولكن بعد اكتشاف البكتيريا *Bacteria* ظلَّ العلماء يؤمنون بإمكانية نشوء هذه الكائنات الدّقيقة جداً تلقائياً من أى وسط عضوى *Origanic medium* حتّى تمكن العالم البكتريولوجى الفرنسى الشهير "باستير *Pasteur*" من إثبات خطأ هذا الرّأى بالتجربة .

والنّظرية الثانية هى " النظريّة الكونيّة *Cosmozoic theory*" التى تنادى بأنّ البذور أو الجراثيم*Apores* الأولى للحياة وصلت إلى كوكبنا بطريقة ما من مكان آخر فى الكون . ولكنَّ هذه النّظرية غير مقنعة لسببين: **الأوّل** أنها لا تفسر كيفية نشوء الحياة على الإطلاق تغير منشأها من الأرض إلى مكان بعيد وغير محدد من الكون ، **والسبب الثانى** أنّ الجفاف الشديد والبرد القارس والإشعاع القوى الذى يتميز به الفضاء فيما بين

---

(١) دورية " عالم الفكر " . العدد الرابع . المجلد الثالث . صفحة (١٥) .

الكواكب المختلفة لا يسمح إطلاقاً لبذور الحياة بأن تمر من كوكب إلى آخر[١] .

أمّا الآراء الحديثة لعلماء التّطور فى كيفية نشوء الحياة وشرحها فهى معقدة وملخصها أنَّ حالة البحار البدائيّة من حيث درجة الحرارة والإشعاع والتركيب الكيميائى شجعت على تكوين وبقاء عدد كبير جداً من مركبات الكربون*Carbon* المختلفة ، ثم بواسطة عدد لا يحصى من اتحادات هذه المركبات بعضها ببعض تكونت أجزاء فيزيائية كيماوية *Physic - chemical* لها طبيعة ثابتة نسبياً وتتميز بالصفات الأساسيّة للحياة معتقدين أنّ هذه الكائنات البدائيّة أو الأوليّة *Proto - organisms* كانت تشبه فى أول مراحلها الجين*Gene* الحامل للصفات الوراثية ، بينما يؤكد علماء آخرون مقارنتها بالفيروس *Virus* يعيش عيشة حرّة ، إنما هم متفقون أنّ أول الأشياء التى ظهرت على الأرض لم تظهر بصفة خلايا إنما بصورة أشياء هى أبسط من الخلايا بكثير يمكن تسميتها جزيئيات حيّة *Living molecules* ، وأنّ الوقت الذى تحولت فيه تلك الجزيئيات الحيّة إلى مرحلة الخلية الواحدة مثل حيوان الأميبا *Amoeba* هو وقت طويل جداً نسبياً[٢] .

---

(١) المصدر السابق . صفحة (١٥)

(٢) المصدر السابق . صفحة (١٥ - ١٦) .

الفصل السابع

تطـور الإنســـان[1]

يتضـمن سـجل تطـور الجـنس البشـرى مجموعـة مـن الأشـكال اقتربـت تدريجـياً مـن هيـئة الإنسـان الحـالي ، ويمكـن اعتـبار إنسـان جـنوب أفريقـيا القـرد *Australopithecus africanus* أول نـوع مشـابه حقـيقة للإنسـان ، ولقـد عـاش هـذا النـوع مـنذ حـوالى مليـون سـنة وكـان قصـيراً نسـبياً وبـه شَـبَه بالقـرد الكـبير مـن حيث شكل وصفات الجسم .

ولقد اكتشفت عدة حفريات من هذا النوع فى أفريقيا بواسطة العالم "دارت *Dart*" . ويعتقد الآن معظم العلماء أنَّ هذا النوع يتميز بصفات عائلة الإنسان وعائلة القرود وبذلك لا يمكن اعتباره قرداً أو إنساناً ، وكان حجم مخه يساوى تقريباً نصف حجم مخ الإنسان الحالي ، وكان يستطيع أن يصطاد الحيوانات ليأكلها بواسطة أسلحة حجرية .

أما النوع الذى يعتبر فعلاً إنساناً فيسمى "إنسان كرومانيون*Cro - Magnon*" الذى عاش ٣٢٠٠٠ سنة إلى ١٥٠٠٠ سنة ، ولقد كان هذا النوع طويلاً ومنتصب القامة والطّبع ذكياً نسبياً . ولقد اكتشفت حفريات هذا النوع فى كهوف بوسط فرنسا ، ولاحظ العلماء فى هذه الكهوف وجود بقايا حضارة على هيئة أسلحة وعاج منحوت ، بل إن هذا النوع كان يتمتع ببعض الموهبة الفنيّة لوجود رسومات وصور زيتية لحيوانات - انقرض معظمها الآن - على جدران الكهوف التى عاش فيها هذا النوع .

ولقد اكتشف علماء الحفريات عدداً من الأنواع المتوسطة بين الرّجل القرد الأفريقى وإنسان كرومانيون **أذكر منها الأنواع التالية:**

---

(١) جميع هذا البحث منقول من مقال للدكتور علم الدين كمال .الأستاذ بكلية العلوم بجامعة القاهرة فى دورية "عام الفكر" العدد الرابع - المجلد الثالث .الصفحات (٣٢ - ٣٤) .

الإنسان القرد الجاوي: نسبة لجزيرة جاوه بأندونيسيا [Java ape man]

إنســـــان بكيـــــن: الذى اكتشفت بقاياه بالصين [Pecking man]

إنســــــان هايدلبرج: الذى اكتشفت حفرياته فى ألمانيا [Heidelberg man]

إنســــــان نياندرثال: الذى اكتشف فى وادى نياندرتال بألمانيا [Neanderthal]

وما زالت الاكتشافات بخصوص هذا الموضوع تتوالى حتى وقتنا الحاضر

أما الإنسان الحديث فيسمى "الإنسان العاقل *Homo Sapiens*" ، وقد بدأ ظهوره منذ حوالى ١٢٠٠٠ سنة فقط والتغيرات التى أدت إلى تكوينه كانت عقليّة أكثر منها جسمانيّة وبمعنى آخر أدّت العمليات التّطورية - بإرادة الله سبحانه وتعالى - إلى زيادة قوّة العقل وليست قوّة البدن ، ولقد مكّنَ ذكاء الإنسان من أن يكيّف نفسه حسب البيئة ويتحكم فيها وبذلك أصبح الإنسان الحيوان السّائد فوق الأرض فى العصر الحديث .

أما أول مكان ظهر فيه الإنسان الحديث فلا نستطيع تحديده حتى الآن ، فبعض العلماء يعتقدون أنه ظهر أولاً فى آسيا وبعضهم يقول أنها أفريقيا ، وعلماء التّطور لا يقولون أنَّ الإنسان انحدر من القرد كما يعتقد العامّة من النّاس وإنما يعتقدون أنّ الإنسان والقرد كان لهما سّلَفٌ مشترك .

وفى بداية هذا الشهر[1] أذاعت وكالات الأنباء ملخصاً لاكتشاف هام قام به "الدكتور ريتشارد ليكي" مدير المتحف الوطنى فى كينيا ، فقد أعلن هذا العالم - فى تقرير قدّمه إلى الجمعيّة الجغرافيّة الوطنيّة فى واشنطون - أنه اكتشف فى جبل حجرى بصحراء تقع شرق بحيرة رودلف فى كينيا بقايا جمجمة وساق يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ، ولذلك تعتبر هذه البقايا أقدم أثر للإنسان الأول لأنها تمتد فى قِدَمِها مليوناً ونصف مليون عام من أقدم أثر أمكن الحصول عليه حتى الآن [2] . وأكّدَ ليكى أنه بالرغم من أنّ هذه الجمجمة لا تشبه جماجم الإنسان الحديث ألا أنها تختلف

---

(١) نوفمبر عام (١٩٧٢) .

(٢) (الرجل الأفريقى الذى عاش منذ مليون عام) .

كذلك عن جميع أشكال الجماجم التى عُثِرَ عليها للإنسان الأّول ، والاكتشاف الجديد يبين أنّ المخلوق الإنسانى المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائى الذى يشبه القرد بل كان يعاصره منذ حوالى مليونين ونصف مليون عام ، وذكرت الجمعيّة الجغرافيّة الأمريكيّة فى تعليق لها أنّ نظرية هذا العالم تقوم على أساس أنّ الرجل القرد الأفريقى (وكان أساساً من أكلة النباتات) قد وصل إلى مرحلة تطورية مسدودة بينما استطاع الإنسان (الذى استخدم اللحم فى غذائه) أن يبقى على قيد الحياة ، ولهذا اختتم ليكى تقريره قائلاً أنّ اكتشافه يمكن أن يقلب النظريات القائمة بشأن كيف ومتى تطور الإنسان عن أجداده فيما قبل التّاريخ [1] .

نماذج بعض أشكال مراحل تطور الإنسان قبل الوصول إلى مرحلة الإنسان العاقل

(١) المصدر السابق . صفحة (٣٢ - ٣٤) .

الفصل الثامن

كيف نشأ الإنسان[١]

إنَّ ذلك لا يزال موضع شكٍّ عند داروين وأمثاله ، ولكنَّ نظرتهم أنَّ أوالى البشر لم يكونوا على صورة الإنسان الحالى بل كانوا أكثر مشابهة للقردة العليا كالغوريلا والشمبانزى والأرطان منهم إلى الإنسان الحالي ، ومن أجل أنهم أول ما عاشوا فى الكهوف والمغاور وقد اغتذوا بالجذور والدَّرنات والجوز ، واتخذوا من أدوات الدّفاع عن النّفس عصياً وأحجاراً صنعوها خبط عشواء . غير أنهم اصطنعوا بعد ذلك أدوات من الصوان جلبوها بالنحت - لتتفق مع أغراضهم - وتركوها غير مصقولة .

واستمر الإنسان يستعمل تلك الأدوات الحجرية الغشيمة أزماناً طويلة ، ولكن بمرور الزَّمن اكتسب قدرة على تحسين الصناعة ، فأخذت أدواته ترتقى متدرجة مع تدرجه فى سلم الارتقاء والتطور العضوى والذهني ، وفى زمن ما عرف كيف يستعمل النّار أول ما رأى ناراً مشتعلة بسبب انقضاض صاعقة على الهشيم الجاف فاشتعلت ومضى محتفظاً بها يزكيها كلما كادت تخبو ، ولكنه اهتدى بالصدفة بعد ذلك إلى الطّريقة التى يولّد بها النّار ، وهى نفس الطّريقة التى لا زال البدائيون يستعملونها إلى يومنا هذا . وقد كان لاستطاعته توليد النار أثر تطورى انقلابى فى حياة الإنسان ، حتى أنه قد ألفت فيها الكثير من الحكايات والأساطير .

لما استطاع الإنسان أن يحسّن من أدواته خرج للصّيد وطبخ لحم الحيوان بعد أن كان مقتصراً على الجذور والدّرنات والجوز ، واتخذ من جلد الحيوان كساءاً . وكان إنسان الكهوف فناناً بطبعه فَخَلّفَ آثاره الفنيّة منقوشةً على العاج والعظام والأحجار وغيرها ، أو صَوَّرَها خطوطاً وتلويناً على جوانب الكهوف التى عاش فيها .

بعد ستمائة ألف من السنين خطا الإنسان خطوة أخرى نحو التّقدم والارتقاء . على

---

(١) المرجع . صفحة (٤٥ - ٤٧) بتصرف ومصادر أخرى .

أنّ تقدير الأطوار النُشوئية التى تعاقبت على الإنسان بالسنين هو أمر ظنى تقريبى صرف ، وكلما تقدمت البحوث العلمية وكشوفات علماء الآثار والأحافير ردت الإنسان إلى عهد أبعد وأعرق موغل فى القِدَم .

كذلك تدرجت لديه القُدرَة على الكلام فى مراحل لاحقة من التّطور استطاع أن ينقل إلى نسله عاداته الكلامية . ولما بلغ تلك الدَّرَجَةَ من القدرة على النُطق أصبح وجوده أثبت وعيشه أيسر مما كان فى العهود السّابقة ، غير أنّ أدواته كانت مصنوعة من الصّوان وغيره من الحجارة الصّلبة ، بعد أن اتخذت صورة جديدة فصارت حديدة السنان ملساء الأسطح بعد أن صقلها وهذّبها واهتم بحسن مظهرها ، واخترع القوس والسهام والصنانير والكلاليب التى اتخذها من قرون الأيائل . ونسج الملابس وصنع الفخار وزرع بعض أصناف الحنطة ، كذلك فقد آلَفَ الكلب فكان لإيلافه أثر بعيد فى حياته وأسلوبها إذ اصبح له صديقاً ورفيقاً استعان به على الصيد ورَدِ عادية الذئاب والوحوش المهاجمة والتى كانت أعدى وألد وأضرى أعدائه فى حياته البدائية .

وبالتأكيد أن الإنسان قد آلف أنواعاً من الذئاب والوحوش فى بداية الأمر انحدرت منها بطريق التطور جميع سلالات الكلاب التى نعرفها اليوم ، فذئب جريح فاقد الحيلة والقدرة قد يرتد بالتأليف والتعليم والتدريب أليفاً بعد أن يعنى به ويتعهد ويساس من قبل إنسان بدائى يضمد جراحه ويعوله ويتعهده فيصبحَ النواة الأولى فى تأليف أترابه من بنى جلدته وعقيب ذلك اهتدى الإنسان إلى طريقة إيلاف الحصان والحمار ومن ثمَّ الجمال والقطط ، فأضاف إلى قدراته فى المسيرة التربوية قدرات أخرى ساعدته فى أساليب الحياة والتغلب على الصعاب .

ويؤكد العلماء أنَّ الإنسان منذ أن عمَّرَ هذه الأرض قد ترك آثاره المتحجرة فى الطبقات الجيولوجية فلقد عثر العلماء على جماجم مطمورة فى رواسب الكهوف والمغاور ، وعلى عظام أخرى من الهيكل العظمى فى رواسب الأنهار القديمة وفى المحاجر ، ومن هذه الصور الأثرية استطاعوا أن يؤلفوا فكرة عن الصور التى لابست الإنسان فى مراحل تطوره فى تلك العصور الغابرة .

بجوار تلك العظام التى خلفها الإنسان من هيكله العظمى - وهى قليلة لأنها سريعة العطب والانحلال - فقد خَلَفَ الإنسان أدواته التى استعملها كالحراب والمدى والمطارق والإبر والكلاليب والسهام وغيرها . . . وهى فى الأكثر مصنوعة من الصوان أو غيره من المواد الصلبة ، وقد مضى على الإنسان زمن طويل وهو يستعمل تلك الآلات الحجرية قبل أن يهتدى إلى المعادن ، ومن دراسة تلك الأدوات فقد بنى علماء التطور نظرياتهم المختلفة حول التّطور والعصور البشرية ونمط حياة الإنسان ونهضته ورقيه والأزمان والفترات التى مَرَّ بها .

كان هذا هو ملخص لما ورد فى كاتب داروين "أصل الأنواع" فى موضوع نشوء الإنسان . وهو ما يجمع عليه كافة التطوريين بالتركيز على الربط بين الأدوات المستعملة وبين نهضة الإنسان ورقيه وحضارته وأسلوب تفكيره . المطابق للفكرة الأساسية التى تبنتها الشيوعية بأن المادة هى أصل الموجودات وأن التّطور المادى تبعاً لوسائل الإنتاج هو المحرك الفعلى والوحيد للمجتمع وعلاقاته جميعاً ، واعتبار فكر الإنسان ووجهة نظره نابعة وموجهة من الأدوات التى يستعملها ، وتدوينهم تاريخ نشأته وحضارته بالمصدر الوحيد المعتمد لديهم لذلك وهو ما يكتشفونه فى المغاور والكهوف من أدوات استعملها فى الحقبات التاريخية المنصرمة .



الفصل التاسع

تاريخ تطور الحياة حتى ظهور الإنسان وسيادته

جدول حسب افتراضات علماء التطور المادى والبيلوجيا

الدهر era	العصر (الحقبة) Period	الدّور (الحين) epoch	(١)* ملايين السنين
الحديث Cenozoic		الحديث	١/١٠
		البلستوسين Pleistocene	٣
		البيوسين Piocene	٧
	الرابعي Quaternary	الميوسين Miocene	٢٦
	الثلثي Teriary	الأُوليغوسين Oligocene	٣٧
	الكريتشى Kreche	الإيوسين Eocene	٥٤
		البالوسين Paleocene	٦٥
			١٣٠
المتوسط Meozozoic	الجراسى Jurassic		١٨٠
	الترياسى Triassic		٢٢٥
	البيرمى Permian		٢٨٠
	الكربوني(٢)		

(١) قبل الآن بملايين السنين .

(٢) العصر الكربونى هو : العصر البنسلفاني .

	Pennsylvanian		٣١٠
القديم Paleozoic	المســـــــــــــي Missisippian الديفونى Deovonian السيلوري Sillurian	الاردفيشي Ordovician الكامبرى Cambirian	٣٤٥ ٤٠٠ ٤٤٠ ٥٠٠ ٦٠٠
القبكمبري Preacamirian	الفجرى Proterozoic العتيق Archeozoic		٤. ٥٠ بليون

يقرأ هذا الجدول مع شجرة الأحياء وأهم الأحداث الواردين بعده فى هذا الفصل . كما يقرأ من أسفل إلى أعلى وليس العكس كما فى شجرة الأحياء . ويفسِّر كل منها الآخر [1] . كما يَسرد لاحقاً أهم الأحداث البيولوجية والجيولوجية . **مع التنبيه على ما يلي:**

هذا الجدول يُعنى بالعصور والأزمان التى تبين تطور الحياة حتى ظهور الإنسان . وهذا بداهة كان قبل عصور التقدم البشرى بملايين السنين ، أما بالنسبة لعصور التقدم البشرى فيرجع إلى الفصل العاشر وما بعده .

إن جميع التواريخ والعصور والدهور والأدوار الواردة فى هذا الجدول هى افتراضية خيالية ، لذا نجد اختلافات جوهرية وعميقة فى تحديد العصور والأدوار والتواريخ حتى فى الأسماء بين مصدر وآخر ، لذا يجدر الانتباه لعدم ذكر بعض الفترات التى وردت فى مصادر أخرى - غير التى أخذنا عنها - مثل

(١) هذا الفصل بالكامل (الجدول وبقية الفصل) منقول عن كتاب " البيولوجيا " . تأليف ريتشارد جولدزبى - الجزء الأول ، وعن موسوعة المورد العربية لمنير البعلبكى - الجزأين الأول والثانى - .

عصر الجليد والعصر الطباشيري . . . . . إلخ .

أهم الأحداث الجيولوجية حتى ظهور الإنسان وسيادته[1] :

كـــان أهـــم الأحـــداث الجيولوجيَّة التى تعاقبت على مدى الدّهور والأزمنة ما يلي:

[١] فى الدهر القبكمبرى بعصريه : زحف الجليد على معظم القارات .

[٢] فى الدّهر القديم :

فى العصـــر الســـيولوري. ظهور البحار الضحلة فى أمريكا الشمالية.

فى العصـــر الديفـــوني. ظهور جبال الآلاباش.

فى عصـــر المسســـبى. الــبحار الضـــحلة تغمر مساحات واسعة من

[٣] فى الدّهر المتوسط :

فى العصر البنسلفانى (الكربوني):

زحف الجليد فى معظم مناطق العالم، ونشوء تشكيلات صخرية مشتملة على الفحم الحجري.

فى العصـــر الـــبيرمى. زحف الجليد وتشكل الصخور الرَّملية.

فى العصـــر الترياســـى. طقس دافئ شبه جاف.

فى العصـــر الجراســـى. دفء الطقس وظهور سلاسل الجبال.

[٤] فى العصر الحديث :

فى العصـــبر الكريتشـــى. ظهور الصخور.

فى الـــدور الأيوســـين. تقلب الطقس.

فى دور الأوليغوســـين. دفء الطقس.

---

(١) المصدر السابق .

فى دور الميوسين. برودة الطقس وتكوين الهمالايا.
فى دور البيوسين. كثرة الشلالات.
فى دور البلوسيستين. امتداد الجليد وانحساره.
فى الدور الحديث. ظهور القارات الحديثة.

أهم الأحداث البيولوجية حتى ظهور الإنسان وسيادته[1]:

أما أهم الأحداث البيولوجية فكانت:

[١] فى الدهر القبكمبري:

العصر العتيق. الحفريات لهذا العصر قليلة جداً.
العصر الفجري. ظهور الحياة للمرة الأولى، لافقاريات رخوة،

[٢] فى الدهر القديم:

فى الدور الكامبري: تنوع الطحالب وانتشار اللافقاريات .

فى الدور الأردفيشي: ظهور الأسماك البدائية لأول مرة ، سيادة اللافقاريات البحرية .

فى العصر السيلوري: انتشار الأسماك ذوات الدروع ، انتشار الحزازيات والنباتات الوعائية البذرية ، ظهور بعض القشريات الكبرى والحيوانات البرية .

فى العصر الديفوني: ظهور النباتات معراة البذور ، ظهور البرمائيات ، سيادة الأسماك .

فى العصر المسسبي: سيادة السراخس والليكوبسيدات ، انتشار أسماك القرش والبرمائيات .

---

(١) المصدر السابق .

[٣] فى الدهر المتوسط :

فى العصر البنسلفاني: ظهور الزواحف البدائية والأشجار ، سيادة البرمائيات فى مستنقعات الفحم والغابات .

فى العصر البيرمي: استبدال البرمائيات بالزواحف ، انتشار الحشرات .

فى العصر الترياسي: ظهور الديناصورات البدائية والبرمائيات ، سيادة الزواحف ، ظهور الثدييات .

فى العصر الجراسي: ظهور الطيور البدائية ، تشعب الحشرات ، انتشار الزواحف والاامويتبيس ، استمرار ظهور الثدييات البدائية .

[٤] فى الدهر الحديث :

فى العصر الكريتشي: سيادة النباتات ، ظهور أكثر النباتات المزهرة ، انتشار الزواحف والأمويبتس ، انقراض الديناصورات .

فى دور البالوسين: ظهور الطيور الحديثة ، تنوع الحيوانات ذات الحوافر ، ظهور الثدييات المشيمية .

فى دور الأيوسين: ظهور الثدييات الحديثة وانتشارها .

فى دور الأوليغوسين: ظهور كثير من العائلات الحيوانية الحديثة ، تطور سريع فى الثدييات .

فى دور الميوسين: ظهور الحيوانات التى تتغذى على الأعشاب ، ظهور القردة البدائية والحيات والماشية .

فى دور البيوسين: ظهور الحيوانات المفترسة الكبيرة ، ظهور الكثير من الثدييات .

فى دور البيلوستين : بدأ ظهور الإنسان الأول ، انقراض عدد كبير من الثدييات الكبيرة .

أما أهم الأحداث البيولوجية فى الدور الحديث فهو الإنسان والحيوانات العليا .





الفصل العاشر

عصور التقدم البشرى الأولى[1]

بحسب تسلسل النظريات التطورية فالإنسان كان بدائياً "*Primitive*" . . . بدائياً فى تركيبه الحيواني ، بدائياً فى طريقة الإدراك والتمييز والتفكير ، بدائياً فى عدم استطاعته النطق والتعبير ، بدائياً فى كيفية استعمال الأدوات اللازمة ، وبدائياً فى أسلوب العيش .

لقد تدرج الإنسان فى الارتقاء والتطور خلال مراحل متعدده "عصور *Periods* " أخذت أسماء أدواته التى كان يستعملها ، لأنَّ تطوره يسير طبقاً لوسائل الإنتاج التى كان يستعملها ، فتطوره مربوط ربطاً حتمياً ولازماً بتطور أدواته ، [2] بتطور أدواته ، وأول تلك العصور كان "العصر الحجرى *Stone age*" وهو أقدم عصر من عصور الثقافة البشرية ، **ويقسمه العلماء إلى أربع فترات هي:**

[١] العصـــر الحجرى البدائى (الأيولتى = الظراني) *Eolithic period* وهو الفترة الأولى من العصر الحجري ، يتميز باستخدام الإنسان الأدوات الحجرية البدائية إلى أبعد الحدود إذ كانت أدواته حجرية خشنة غير مهذبة ، وقد عثر على مثال لها عالم إنجليزى اسمه "بنيامين هريسون" فى الحصى المتراكم فى قيعان الأنهر القديمة فى "كينت *Kent* "الواقعة فى مقاطعة" "سسكس*Sussex*" فى إنجلترا ، وفى غيرها من البقاع .

[٢] العصـــر الحجـــرى القديم (الباليوليثي) *Paleolithic period* وهى الفترة الثانية من العصر الحجري ، يتميز باستعمال الأدوات الحجرية الخشنة والمهذبة

---

(١) المرجع ، صفحة (٤٧ - ٥٠) بتصرف . -موسوعة المورد العربية ، الجزء الثاني ، صفحة (٧٦٥ - ٧٦٦) .

(٢) يلاحظ أن ذلك مطابق تماماً للفكرة الأساسية التى تبنتها الشيوعية والقائلة بأن التطور المادى تبعاً لوسائل الإنتاج هو المحرك الفعلى والوحيد للمجتمع وعلاقاته جميعاً ، واعتبار أن فكره ووجهة نظره نابعة وموجهة من الأدوات التى يستعملها .

على نحو بدائي .

[٣] العصـــر الحجرى الوسيط (الميزوليثي) *Mesolithic period* وهى الفترة الثالثة من العصر الحجري ، يتميز بظهور الكلب بوصفه أول حيوان أليف ، وباستخدام القوس والنُّشاب والأدوات القاطعة ونشوء صناعة الفخار .

[٤] العصر الحجرى الحديث (النيوليثي) *Neolithic period* وهى الفترة الأخيرة من العصر الحجري ، بدأ حوالى العام (٢٠٠٠ ق . م) فى الشَّرق الأوسط ، وبعد ذلك فى أماكن أخرى ، وهو يتميز باختراع الزراعة وبصنع الأدوات الحجرية المتطورة نسبياً .

على أنَّ تلك العصور لا يفصل بين العصر والعصر الآخر منها فواصل محددة متفق عليها زمنياً بل يتداخل بعضها ببعض ، حيث عثر على أدوات من العصر الحجرى البدائى فى نفس المكان مع أدوات من العصر الحجرى القديم ، ومما يجزمون به ويؤكدونه أن العصر الحجرى بأقسامه الأربعة قد سَبَقَهُ عصر آخر استعمل فيه الإنسان الأول العصى والحجارة الغشيمة[١] مما يقع عليه بصره خبط عشواء[٢] . على أن تلك العصور لا تدل على عهود زمنية معينة أو محددة ، إنما تدل علمياً على درجات ثقافية استدل عليها بواسطة الآثار التى عُثِرَ عليها .

ولما اكتشف الإنسان المعادن تسارع ارتقاؤه مستعملا "النحاس الأحمر *Copper*" ، فى أول الأمر ، إلا أنه أنِسَ فيه الطَّراوة مما لا يتفق ومتطلباته فمزجه بالقصدير ليخرج منه سبيكة "البرونز *Bronze*" ، ولما اهتدى إلى البرونز وضرب مسارعاً إلى التقدم بدخوله فى مطاوى "العصر البرونزى *Bronze age*" حوالى العام (٣٥٠٠ ق . م) بدأ يعيش فى جماعات أكبر من تلك التى كان يعيش فيها من قبل ، وكان قبل ذلك وفى أواخر العصر الحجرى الحديث قد ترك العيش فى الكهوف ونزع إلى العيش فى

---

(١) الغشيمة : غير المصنعة .

(٢) العشوائية : عدم التقصد والتعمد .

الأكواخ ، وتجاورت الأكواخ فتألفت منها مجموعات لتصبح كل مجموعة منها "قرية *Village*" ، وظلّ الإنسان يعيش فى مجموعات قروية أزماناً متطاولة أقيم بعضها على جوانب أطراف البحيرات طلباً للأمن ، وقد سميت تلك القرى "المرابى البُحَيرية *Lake villages*" - أى قرى الجيران -

أما بحلول العصر البرونزى فقد تمادت بعض القرى فى الكبر والنمو والتضخم فصارت "بلاداً *Towns*" ، وكبرت البلاد لتصبح "مدائن *Cites*" ، وكبرت المدائن أيضاً لتصبح "عواصم *Capitals*" ، كما أن طبيعة العيش والتطور ومتطلبات الحياة المتطورة قد أحالت الأكواخ البسيطة إلى بيوت مضت فى الاتساع والتّشكل حتى برزت تلك القصور العظيمة والبروج المطوحة التى تقع على أمثالها فى حضارات مصر وآشور وأثينا وروميه .

ولما اكتشف الإنسان "الحديد *Iron*" انتقل إلى "عصر الحديد *Iron age*" حيث صهر الحديد واستخدمه بدلاً من البرونز فى صنع الأدوات والأسلحة ، وذلك لتوفره ولندرة البرونز حيث الثانى أصلد ، وكان ذلك قبيل العام (١٠٠٠ ق . م) فى آسيا الغربية ومصر .

ولقد استغرق هذا التطور دهوراً تلو دهور ، إذ أنه يتبع دائماً تطور المهارة والفراهة الهندسية والفكرة فى تطويرات الحياة وزخارفها ، ولما بلغت الجماعات القروية مبلغاً من الاتساع والكبر بدأ أفرادها يُغَيّرون نمط حياتهم فظهرت "الطبقات *Classes*"[1] لأول مرّة كالسماك والقناص والمُحارب وجابل الصوان وغير ذلك ، وكان أولئك - أصحاب الطبقات - الذين أقاموا العلاقات الاجتماعية[2] والطبقات المدنية وما ترتب

---

(١) مجموعة الأشخاص الذين يؤدون عملاً واحداً ، أو الذين تجمعهم مصالح مشتركة ، أو الذين يشتركون فى وضع واحد أو فى حالة واحدة فى مجتمع من المجتمعات . والمقصود فى الجملة هو المعنى الأول .

(٢) المقصود هنا العلاقات بين الناس فى المجتمع الواحد ، وليس العلاقات الاجتماعية بمعناها الصحيح ، إذ أن الثانية تأخذ مفهوم اجتماع الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ، ومعظم الباحثين لا ينتبهون إلى الفرق بين المعنيين ، وبما أن القول منقول عن من لا يميز الفرق - وهو المرجع - لذا فقد حرصت على نقل الفكرة بنفس الألفاظ التى وردت فى المرجع مع التنويه للفرق بين المعنيين .

على ذلك من النظم التبادلية والتجارية ، وكان ذلك أول نشوء الحضارات الكبرى فى تاريخ البشر (١) .

ويتكهن علماء التطور المعاصرون بأنه إذا كان الإنسان خلال تلك العصور والأحقاب المنصرمة منذ ظهور الإنسان الحديث قد عمل دائماً على تحسين أحواله والسَّيطرة على موارد الطعام والتحكم فى الطبيعة وتسخيرها لصالحه ، كما تمكن من ابتكار وسائل كثيرة ومتنوعة لتقوية روابطه الاجتماعية مما أدى إلى ظهور الحضارات العديدة السابقة عبر القرون الماضية ، فالأغلب أنه سيستمر فى مثابرته وجهاده تمهيدا للدخول فى عصر جديد أو عصور جديدة متتالية يتميز كل منها بملامح وسمات خاصة . ويعتقدون أنَّ التطور الاجتماعى والاقتصادى والثقافى سيكون أسرع وأوضح من التطور البيولوجى الذى يحتاج إلى عشرات الآلاف من السنين ، ولكن هذا التطور الاجتماعى والثقافى سيكون فى الوقت ذاته تطوراً موجهاً وسفيراً يستعين بخبرات الآلاف الطويلة من السنين الماضية (٢) .

لـذا فإن دراسة التطور البيولوجى والاجتماعى لا تقتصر دائماً على دراسة الماضى ولا تكتفى بالبحث عن المراحل التى مرَّ بها الكائن البشرى خلال تاريخه الطويل ، وإنما تمتد إلى دراسة الحاضر ومحاولة التّعرف على مستقبل الأجيال القادمة والتكهن بنوع التغيرات التى سوف تسود مستقبلاً (٣) .

أما العالم الاقتصادى الألمانى " كارل بيشر *Karl Bucher* " فقد ذهب إلى أن

---

(١) هناك فرق بين لفظى " الحضارة *Civilization* " و " المدنية *Sciences* " من ناحية المدلول ، فالحضارة هى مجموع وجهات النظر عن الحياة ، فى حين أن المدنية هى أشكال التقدم فى العلوم والصناعات مما لا يتعلق بالثقافة ووجهات النظر عن الحياة مثل : علوم الكيمياء والهندسة والصناعات وغيره ، وهذا هو المقصود فى الفقرة ، لذا كان الأولى أن يقال " نشوء المدنيات والعلوم " بدل " نشوء الحضارات . لذا اقتضى التنويه .

(٢) لورد تويدز ميور ، فى مقال له بعنوان "الجانب الآخر من التل" . *The other side of hill - Lord Tweedsmuir*

(٣) وليام هاولز ، كتاب " ما وراء التاريخ "ترجمة أحمد أبو زيد ، مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع مكتبة نهضة مصر - القاهرة . طبعة (١٩٦٥) ، صفحة (٢١) وصفحة (٤٦٥) .

الاقتصاد البشرى مَرَّ بثلاث مراحل قبل أن يصل إلى المرحلة الصناعية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر . وفى أولى تلك المراحل الثلاث كانت حياة الإنسان تعتمد إما على الجمع والالتقاط أو قنص الحيوان أو صيد السَّمك بحسب ظروف كل مجتمع على حدة ، ثم انتقل الإنسان بعد ذلك إلى مرحلة الرعي ، وأخيراً وصل إلى مرحلة الحياة المستقرة التى تعتمد على الزراعة [1] .

أما العالم الأمريكى " لويس مورجان *Lewis Morgan* " فيذكر فى كتابه "المجتمع القديم *Ancient Society* " أن الإنسان قد مَرَّ بحقبتين كبيرتين هما "حقبة التَّوَحُش" و"حقبة البربرية" قبل أن يصل إلى "الحضارة الأوربية الحديثة" . ثم يقسم كلاً من هاتين الحقبتين بعد ذلك إلى ثلاث مراحل أخرى هى "دنيا ، وسطى ، عليا" . **وبناء عليه يكون المجتمع الإنسانى قد مرَّ بحسب تقسيمه بالمراحل التالية :**

مرحلة التوحش الدنيا : وتبدأ من طفولة البشرية .

مرحلة التوحش الوسطى : وتبدأ باستخدام النار ، وكان الإنسان يعتمد فى أساسها على صيد السمك .

مرحلة التوحش العليا : وتبدأ منذ اخترع الإنسان القوس والنشاب والسهام ، وبذلك كانت حياته تقوم فى الأغلب على القنص .

مرحلة البربرية الدنيا : وتبدأ باختراع الأوانى الفخارية .

مرحلة البربرية الوسطى : التى تتميز بحفظ واستئناس الحيوانات ، وزراعة الذرة ، والاعتماد على الرّي .

مرحلة البربرية العليا : وتبدأ باكتشاف طريقة سبك الحديد ، وبالتالى استخدام الآلات والأدوات الحديدية .

وأخيراً وصلت الإنسانية إلى المرحلة السابعة والأخيرة وهي : "مرحلة الحضارة

---

(١) تيلور ، "نوابغ الفكر الغربى" ، ترجمة دكتور أحمد أبو زيد ،

الصحيحة" : التى تمتاز باكتشاف حروف الهجاء والكتابة ، وتمتد حتى عصرنا الحالي[١] .

أما فيما يتعلق بأدوات ووسائل العيش فيقول "مورجان" : أن الإنسان انتحل خمس طرائق فى معاشه ، ويرد اثنتين منها إلى حقبة التوحش ، والثلاث الأخرى إلى البربرية ، **وأولى** تلك الوسائل هى طريقة العيش الطبيعية عن طريق جمع الفواكه والبذور والجذور فى المنطقة التى يسكنها الإنسان ، **والثانية** هى صيد السمك . أما الوسائل **الثلاث الأخرى** فهى الاعتماد على زراعة الحبوب فى الحدائق ، والاعتماد على اللحم واللبن ، ثم ممارسة الزراعة الواسعة فى الجبال [٢] .

ويبدو كما يقول "إيفانز ريتشارد "[٣] :

أن معظم العلماء التطوريين فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأشهرهم :

سير هنرى مين ، فى كتابة "القانون القديم" .

تايلور ، فى كتابه "أبحاث فى التاريخ القديم للجنس البشري" .

سير جون لبوك ، فى كتابه "أصل الحضارة " .

ماكميلان ، فى كتابه الذى ظهر فى مجلدين بعنوان "دراسات فى التاريخ القديم" . كانوا يذهبون إلى أن الشعوب البدائية التى لا توجد الآن ، أو على الأصح التى كانت تعيش إلى أيامهم ، تمثل أدنى المراحل التى مرت بها البشرية ، وأنه بناء على ذلك فإنَّ ترتيب الشعوب والمجتمعات التى توجد الآن حسب درجة تقدمها وارتقاءها إنما يعطينا صورة واضحة ومتكاملة عن كل المراحل التى مرَّ بها المجتمع الإنسانى منذ وُجِدَ حتى الآن ، وهذا يعنى أن الاهتمام الزائد الذى كان يبديه هؤلاء العلماء بما كان يعرف حتى

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

(٣)المصدر السابق عن ريتشارد إيفانز ، الأنثربولوجيا الاجتماعية ، ترجمة دكتور أحمد أبو زيد ، الإسكندرية (١٩٥٨) ، صفحة : (٦٦) .

عهد قريب باسم "الشعوب البدائية" لم يكن اهتماماً بتلك الشعوب بذاتها وإنما لاستخدامها فى إقامة نماذج ومُثُل افتراضية كانوا يعتقدون أنها تمثل التاريخ المبكر للجنس البشرى عامة ، ولذا فليس من الغريب أن نجد علماء ذلك العصر يكتبون ما كانوا يعتبرونه تاريخاً ، لأنَّ العلوم والمعارف كانت تتجه فى ذلك الوقت اتجاهاً تاريخياً فى أساسه ، وهى كلها مجهودات كانت تهدف دائماً إلى تفسير الشيء القريب بالشيء البعيد ، أى قياس الحاضر بالغائب .

ولقد أدت تلك الافتراضات والدَّعاوى بأن الشعوب البدائية تمثل أدنى المراحل التى مرَّت بها البشرية إلى الوقوع فى كثير من الأخطاء نتيجة لإطلاقهم بعض الأحكام العامة غير الصحيحة والتى لا تستند فى كثير من الأحيان إلى حقائق ووقائع مؤكدة[١] .

فواضح إذن أن النظريات التى كان يضعها هؤلاء العلماء عن الماضى لم تكن تقوم على الحدس والتخمين فقط ، وإنما كان يداخلها على ما يقول "إيفانز ريتشارد" كثير من العناصر التقويمية أيضاً ! ! ! [٢] ، ويذهب "إيفانز ريتشارد " إلى أن السبب الأول لكل ذلك الخلط لا يرجع إلى اعتقاد علماء القرن التاسع عشر فى التقدم ورغبتهم فى الوصول إلى طريقه يمكنهم بها أن يعرفوا كيف حدث ذلك التقدم ، لأنهم كانوا يدركون تماماً أن النماذج التى يصفونها لم تكن سوى افتراضات لا يمكن تحقيقها ، وإنما كان ذلك الخلط يرجع فى المحل الأول إلى الدعوى التى ورثها هؤلاء العلماء من عصر التنوير ، ومؤداها أن المجتمعات أنساقٌ طبيعية أو كائنات عضوية تتطور بطريقة معينة وتمر أثناء تطورها بمراحل ضرورية يمكن ردها إلى مبادئ عامة أو قوانين [٣] .

أما "دوجالد ستيوات *Dugald Stewart* " فهو يطلق على أبحاث تاريخ الإنسان التطورى "التاريخ الظني" أو "التاريخ التخميني" لمعرفة الصورة الأولى التى كانت عليها النّظم الاجتماعيّة ، لإعادة تركيب تاريخ المجتمعات البشرية وتصنيفها من حيث درجة

---

(١) المصدر السابق ، الصفحات (٦٦ - ٧٠) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

رقيها وترتيب مراحل الحضارة التى مرَّت بها تلك المجتمعات منذ نشأتها حتى الآن ، وذلك حسب نظام عقلى دقيق يرسمون هم أنفسهم خطته ويحددون خطواته تجديداً تعسفيا ، ولذلك فكثيراً ما كانوا يصلون إلى نتائج غريبة ومتناقضة [١] .

بل كثيراً ما كان العلماء الذين يستخدمون نفس الوسيلة ، ويتبعون نفس المنهج فى دراسة نفس الموضوع يصلون إلى نتائج مختلفة كل الاختلاف . فبينما نجد "سير هنرى مين *H. S. Maine* " مثلاً يذهب إلى أن العائلة الأبوية التى ينتسب إليها الأبناء إلى الأب هى الشّكل الأول للنظام العائلى على الإطلاق . فإنَّ "باخوفن *Bachofen* " يدعى أنَّ الإنسانية عرفت أولاً بعد الإباحية المطلقة نظام العائلة الذى يرتكز على الانتساب إلى الأم قبل أن تصل إلى العائلة الأبوية . ومن الطريف أنَّ مين وباخوفن قد نشرا نتائج دراستيهما فى نفس السنة أى عام (١٨٦١) [٢] .

وللحقيقة فإنَّ فكرة التّطور بمعنى التَّقَدُم والارتقاء قد استغلت لإثبات ما يسمى بالتطورية الاجتماعية ، إذ امتدت من أسلوب لفهم أصل الحياة والكون إلى فهم الإنسان والمجتمع عن طريق الاستعانة بما يعرف باسم "المماثلة البيولوجية *Analogy*" ومحاولة تصور المجتمع ككائن عضوى حى ومقارنة ما يحدث فيه من تغيرات وتطورات بما يحدث فى الكائنات العضوية الأخرى . . . ولقد تغلغلت الفكرة إلى كل مجالات العلوم التى أصبحت بمثابة ميادين لاختبار مدى صدق تلك النظرية ، وتمثل ذلك بوجه خاص فى الكتابات الأنثربيولوجية والسوسيولوجية[٣] والتاريخية والاقتصادية وفى النظرة السياسية[٤] ونتج عن ذلك تأسيس أو قيام ما يسمى "التطورية الاجتماعية *Social Evolutionism* " وما يسمى "الداروينية الاجتماعية *Social Darwinism* "

---

(١) دورية ، نوابغ الفكر الغربي ، صفحة (٢٤) . - دورية " عالم الفكر " ، المجلد الثالث ، العدد الرابع (١٩٧٢) ، صفحة (١٢٢) .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الاجتماعية
(٤) - *Hofstadter, R. Social Darwinism in American thought.* , pp ٣ - ٤ .

ومع ذلك فإنّ فكرة التّطور بمعنى التّقدم والارتقاء ، وكذلك فكرة التّقدم الاجتماعى لم يسلما من كثير من الانتقادات العنيفة التى وجهها إليها عدد من العلماء الرّافضون لها ، إذ يرفض هؤلاء المعارضون أن يتصوروا المجتمع البشرى يسير فى ذلك الخط الذى يرسمه له أصحاب مدرسة التقدم ، **ويرون عكس ذلك تماماً أن الإنسان خُلق فى الأصل على درجة عاليه نسبياً من الرّقى الثقافى، ولكن هذه الثقافة الأولى الرّاقـية تعرّضـت لبعض عوامل مضادة ولبعض الظروف غير المواتية التى دفعت بها إلى هوة التّدهور والتأخر والانحلال .**

فتاريخ الثقافة بدأ - فى رأى أصحاب تلك المدرسة - بظهور جنس بشرى متحضّر على سطح الأرض ، ثم لم تلبث هذه الثقافة الأولى **أن اتجهت وجهتين مختلفتين**: إما نكوص وتدهور وانحطاط ترتب عليها ظهور المجتمعات المتوحشة ، وإما إلى تقدم وارتقاء ورفعة أدّت إلى ظهور الشعوب المتحضرة الرّاقية .

ومن أكبر مشايعى هذه النظرية "الأسقف هويتلى *Whitely*" - أسقف كانتربرى - إذ كتب فى ذلك كتاباً بعنوان "مقال عن أصل الحضارة *Essay on the origin of civilization* " كان له دوى كبير فى حينه ، ويبنى هويتلى كتابه على حجة استقاها من " نيبوهر *Niebuhr* " أحد أعداء النظرية التقدمية المتطرفين . وكان نيبوهر يُنكِرُ بشدَّة إمكان نهضة الإنسان الأول وتقدمه وارتقائه من مرحلة متوحشة أولى إلى المراحل الأكثر تحضراً عن طريق التطور التلقائى الذاتى ودون تدخل أية عناصر أو عوامل أخرى خارجية ، وكان يتحدى العلماء التقدميين فى أن يأتوا بمثال واحد لشعب بدائى واحد أمكنه أن يرقى إلى مرحلة التّحضر من تلقاء نفسه . **إنما البدائيون عنده وعند أتـباع تدهـور الثقافة الأولى هم سلالة متدهورة من شعب متحضر فى الأصل.**

والحق الذى لا يُمارى فيه أنّ الله تعالى قد خلق آدم عليه السّلام وعَلّمه وأدَّبهُ ، لذا فآدم ومن سار على نهجه من نسله هم فى قمَّة الثقافة والحضارة والتّقدم . وقد انحط

وتدهور أقوام من عقب آدم نهجوا نهجاً مخالفاً لنهجه ، فأرسل الله تعالى الأنبياء والرّسُل لهداية البشر وتقويم انحرافاتهم ولرفعهم إلى المستوى اللائق بهم كبشر ، فآمن واستقام منهم أقوام ، وكذبهم أقوام استحبوا وألفوا ما هم فيه من الانحراف والانحطاط والتدهور . فالرّسل وأتباعهم هم فى قمّة الثقافة والتقدم والرقي ، أصحاب الفكر المستنير والحضارة الراقية ، ومن خالفهم فقد استحبّ العمى على الإبصار وسار أشواطاً بعيدة فى طريق التّخلف والجهل والانحلال والانحدار والتدهور ، وما دمنا نؤمن أنّ آدم عليه السّلام هو أول البشر فالأصل فى بنى الإنسان العلم والتحضر والثقافة والرقي . أما التوحش والبدائية والانحطاط فهى خلاف الأصل إذ وجدت فى سلالات متدهورة من أمم وشعوب متحضرة أصلاً .

وقد شايع نيبوهر فى فكرته عدد من كبار العلماء فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثل "الكونت دى ميستر *Count Josef De Maistre*" ومن قبله "دى بروسس *De Brosses*" و "جوجيه *Goguet*" [1] . إلا أنه يجب التنويه إلى إنّ عدداً غير قليل من التطوريين المعاصرين يُنكر أن يكون التنافس والصراع من وسائط ووسائل التقدم الاجتماعي ، فكلمة **الأصلح** فى رأيهم اصطلاح غير دقيق ومضلل ، ولا يفيد بالضرورة الامتياز والسُّمو فى الخصائص والقدرات والقوى فى كلّ الأحوال ، إذ قد يكون **البقاء** من نصيب **الفرد** الذى ينجب أكبر عدد من الذرية حتى وإن لم تكن لتلك الذّرية خصائص وقوى وقدرات متميزة [2] . وهذا معناه أنّ هؤلاء العلماء يميلون للتشكيك فى الدور الذى يلعبه **الانتخاب الطبيعى** فى التاريخ البشرى والتهوين من أهميته وفاعليته ، ومن هذه الناحية فإنهم ينظرون إلى الإنسان على أنه **حيوان حامل للثقافة** وناقل لها عن طريق المحاكاة والتّعلم ، وهما عمليتان تختلفان كل الاختلاف

---

(١) R., The concept of Evolution in International. C. Lewontin,
- Encyclopedia of social science, En's Evolution

(٢) المرجع السابق ، صفحة (٩١) .

عن عملية نقل الخصائص والصفات الفيزيقية عن طريق التكاثر البيولوجي ، وعليه فليس هناك ما يدعو إلى تفسير النظرية الاجتماعية تفسيراً بيولوجياً أو صياغتها فى حدود مصطلحات وألفاظ البيولوجيا ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض أوجه التشابه بين التطور البيولوجى والتطور الثقافي [١] .

وعلى الرغم من أنّ "جوليان هكسلى" عالم بيولوجى تطورى فإنه يقف موقفاً مماثلاً لذلك ، ويذهب إلى أنّ التنافس داخل النوع الواحد لا يمكن أن يكون مصدراً للتقدم التطورى خلافاً لنظرية سبنسر عن الصراع والتنافس .



(١) المرجع السابق ، صفحة (٩١) .

الفصل الحادى عشر

على هامش نظريات التطور والارتقاء المادى

إنَّ داروين حاول جاهداً إثبات أن الإنسان نشأ من صورة دنيا هى أقرب إلى القردة العليا منها إلى أية صورة أخرى من صور الأحياء . ولإثبات ذلك فهو يرى أن من الحقائق التى لها دلالتها الواضحة القوية أن الإنسان مركب على نفس الغرار العام - وإن شئت فقل على نفس القالب - الذى انصبت فيه بقية الحيوانات ذوات الثدى " *Mammilla* " ، كل العظام التى يتألف منها هيكله لها ما يماثلها فى القرد أو السعدان أو الصيل *Seal* أو الخفاش " *Ordinary bats* " وكذلك عضلاته وأعصابه وأوعيته الدّموية وأمعاؤه ، والدّماغ من أهم الأعضاء جميعاً لا يند عن ذلك القانون كما أبان المُشَرِّح هكسلى وغيره من مشاهير المُشرّحين ، ناسياً أو متجاهلاً أنّ دماغ الإنسان وحده من دون الأدمغة هو الدماغ الصالح للتفكير ، فى حين أن بقية الأدمغة هى أدمغة غير صالحة للربط والتفكير [١] . ويستطرد الداروينيون فى تبريراتهم الواهية **فيقولون:**

(قد يتقبل الإنسان من حيوانات أحط منه ، كما ينقل إليها أمراضاً معينة مثل: السعار[٢] والذيبة والزهرى والكوليرا والهرس وغير ذلك ، وهذه الحقيقة تقيم الدّليل على المشابهة بين الأنسجة والدّم سواء فى التّركيب أم فى التّكوين ، على صورة من الوضوح والجلاء بحيث لا تبلغ إليها المقارنة بأقوى المجاهر أو أدق التحليلات الكيماوية)[٣]

أما السعادين "النسانيس" فهى عرضة للإصابة بنفس الأعراض غير المُعدية التى يتعرض لها الإنسان ، ولقد عرف "ريخر" بعد أن عكف طويلاً على ملاحظة نوع منها وهو المسمى "الحَوْدَل الإزاري" فى مواطنه أن هذا السعدان كثير الاستجابة للزكام "

---

(١) المرجع ، صفحة (٥٣) .
(٢) السعار : داء الكَلَب .
(٣) المرجع ، صفحة (٥٣) .

Coryza" بنفس أعراضه المعروفة ، وأنّ الزكام إذا عاوده فى فترات قريبة فقد يكون سبباً فى إصابته بالسّل "*Tuberculosis*" ، وتصاب تلك السعادين أيضاً بأمراض : مرض التهاب الأمعاء "*Enteritis*" ، الحمرة "*Schweinerotlauf*" ومرض بياض العين "*Albugina ocali*" . كما لاحظ أنّ صغارها قد تموت وهى تشقُّ أسنان اللّبن . وللعقاقير فيها نفس تأثيرها فى الإنسان . وكثير من السعادين تهوى شرب القهوة والشاى والمشروبات الكحولية ، وتدخن الطباق بلذة متناهية [١] .

ويؤكد برهم أنّ سكان شرقى أفريقية يصطادون الرّبابيخ وهى جنس من السعادين الكبيرة بأن يَترُكوا بمقربة من مرابعها أوعية مفعمة ببوظة المريسة لتشرب منها حتى تثمل .

ويستطرد برهم أنه رأى بعض تلك السعادين وكانت مأسورة عنده فى مثل هذه الحال ، ووصف من تصرفاتها وسلوكها وحركاتها ما يُضحِكُ ويُسَلي ، وأردف قائلاً : أنها فى صبيحة اليوم التالى كانت فى خُمار شديد ، كظيمة خائرة القوى ، تُمْسِكُ رؤوسها المصدعة بيديها معبرة عن آلامها بما يثير الشفقة بها والعطف عليها ، فإذا قدّمت لها المريسة أو الخمر ثانية عافتها وتنكرت لها ورفضتها ، واستحبت شراب الليمون [٢] .

وعرف عن سعدان أمريكى من نوع الكهول خَمِرَ مَرَةً بشراب البراندى فعافه ولم يمسه مرة أخرى ، ويعلق الكاتب على ذلك الحادث قائلاً (فكان بذلك أعقَلَ من أبناء آدم)[٣]

ويستدلون بأمثال تلك الحوادث على بساطتها بأنها تظهر إلى أى حد تصل المشابهة بين أعصاب الذّوق فى الإنسان وبين أعصاب الذّوق فى السعدان وعلى أى صورة من التماثل يتأثر الجهاز العصبى فى كليهما ، وقد قمت بتفسير وتعليل أسباب تلك الظواهر

---

(١) المرجع ، صفحة (٥٤) .
(٢) المرجع ، صفحة (٥٤) .
(٣) المرجع ، صفحة (٥٤) .

فى فصل لاحقٍ من الكتاب تحت عنوان "الإدراك الفكرى والتمييز الغريزي" فيمكن الرجوع إليه لمن شاء [١] .

يغزو الإنسان طفيليات جوفية "*Entozoan*" كثيراً ما يكون لها آثاراً مهلكة ، كما أنه يصاب بطفيليات خارجية "*Entophyte*" ، وكلها ترتد إلى ذات الأجناس أو الفصائل التى تصيب غيره من الثدييات ، وفى مرض الجرب "*Scabies*" تكون من نفس النَّوع فى كليهما ، ويتعرَّض الإنسان كما تتعرض الحيوانات والطيور وحتى الحشرات لحكم تلك السُّنَة الخفية التى تسبب مظاهر سوية فى الأفراد كالحمل ونضوج حضانة بعض الأمراض ومداها ، والجروح فى الإنسان تلتئم بنفس الطريقة التى تلتئم بها فى الحيوان ، وكذلك الجذامير التى تتخلف بعد بتر بعض أطرافه وبخاصة فى بداية الطور الجنينى كثيراً ما تكون حائزة للقدرة على التّجدد كما يشاهد فى أحط صور الحيوان[٢] .

مما تقدم يذهبون إلى أنَّ علاقة الإنسان بما هو أدنى منه فى عالم الحيوان هى علاقة تتجاوز وتتخطى حدُّ التّشابه الظاهري ، بل تتخطى هذه العلاقة الظاهرية إلى علاقة النشأة والدّم والاستعداد الفسيولوجي ، ويؤكد فون باير " *Von Baer* " أنه عندما يتقدم تخلّق الجنين البشرى شيئاً ما تبدو أطرافه " اليدان والساقان " متخلقة على نفس الصورة السّوية التى تظهر بها أرجل العظايا "السّحالي" وذوات الثدى وأجنحة الطيور وأرجلها [٣] . ويستندون فى ذلك أيضاً إلى قول المُشَرِّح بيشوف حيث يقول : (إنَّ تلافيف الدّماغ فى الجنين البشرى عندما يبلغ الشهر السابع من العمر يكون مماثلاً من حيث النّماء والتكوين لدماغ الحبن[٤] عند البلوغ) [٥] . إلا أنَّ بيشوف نفسه يقول : (من

---

(١) الباب الخامس - الفصل الثاني .
(٢) المرجع ، الصفحات (٥٤ - ٥٥) .
(٣) المرجع ، صفحة (٥٥) .
(٤) الحبن هو نوع من "القرود المشابهة للإنسان" .
(٥) المرجع ، صفحة (٥٦) .

المسَلّم به أن كل شق وكل طية فى دماغ الإنسان لها ما يقابلها فى الأرطان[1] وهو نوع من القردة ، ولكن دماغيهما لا يتماثلان فى أى طور من أطوار نمائهما ، وذلك يعنى عدم تماثلهما) إلى أن يخلص إلى نتيجة عدم تماثلهما ليبرهن على تفارقهما أصلاً ، وذلك يعنى عدم تماثل القدرات العاقلة فى كليهما [2] .

أمّا العالم الطبيعى الإنجليزى "توماس هنرى هكسلي" وهو عالم تشريح أيضاً ومن أشهر من ناصر داروين فى الترويج لمذهبه فيقول : (فى مدارج متقدمة من تطور الجنين البشرى تبدو الانحرافات التى تميزه عن جنين القرد ، فى حين أنّ جنين القرد ينحرف عن جنين الكلب فى تخلقه بمقدار ما ينحرف جنين الإنسان عن جنين القرد ، وبالرغم مما فى هذه الحقائق من الرّوعة البالغة فإنها حقائق ثابتة تؤيدها المشاهدة)[3] .

أمّا العلامة "ويمان" فقد وجد أنّ إبهام القدم فى جنين بشرى طوله بوصة واحدة يكون أقصر من بقية الأصابع ويبرز منحرفاً عن القدم مكوناً فى انحرافه زاويةً حادّة مقدارها كنفس مقدار نفس الزاوية التى ينحرف بها عن إبهام القدم فى بقية الأصابع فى الأيودات التى هى القردة بأجناسها الأربعة المعروفة (الغرلي ، الشمزي ، الأرطان والجبن) . فى حين أنَّ المشرح المعروف ريتشارد أوين له رأى آخر فى ذلك وهو أن إبهام القدم فى الإنسان وهو مركز الاتزان عند الوقوف والمشى ربما يكون أخصّ تركيب تشريحى فيه [4] .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع عند علاّمتهم هكسلى حيث يتساءل : هل يتولد

---

(١) الأرطان : إنسان الغاب ، وهو نوع من " القردة المشابهة للإنسان " .
(٢) المرجع ، الصفحات (٥٣ - ٥٦) .
(٣) المرجع ، الصفحات (٥٣ - ٥٦) .
(٤) المرجع ، الصفحات (٥٣ - ٥٦) .

الإنسان بأسلوب غير الأسلوب الذى تتولد فيه الكلاب والطيور والضفادع والأسماك وغيرها من ذوات الفقار؟ فيجيب على تساؤلاته قائلاً: (إنه لا يتردد لحظة واحدة فى القول بأن أسلوب التّولد البشرى وبخاصة فى خلال المدارج الأولى من تخلقه الجنينى مماثل تماماً للأسلوب الذى تتوالد فيه أجنّة غيره من الحيوانات التى تنزل عنه فى سلم التطور ، وأنّ الإنسان من حيث علاقته النشوئية أقرب إلى القردة من علاقة القردة بجنس الكلاب ، أى أن الفرجة بين الكلاب والقردة تتسع بينما تضيق بين الإنسان والقردة العليا)[1]

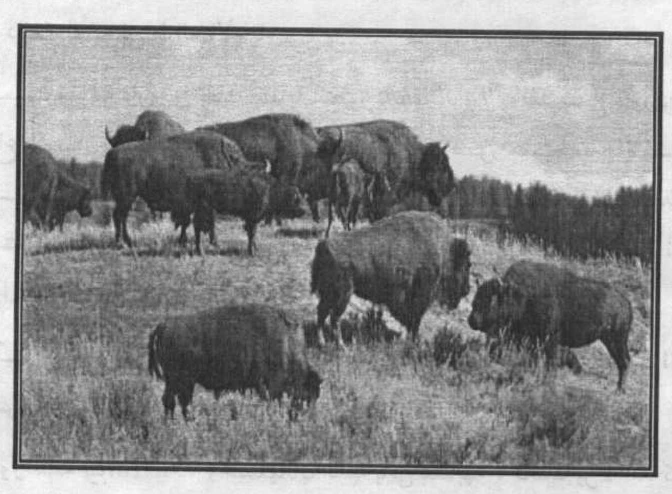
أما داروين نفسه فيقول: (إنّ نظام العظام لهو نفسه فى يد الإنسان وفى جناح الخفاش وفى زعنفة سلحفاة الماء وفى رجل الحصان ، ونفس العدد من الفقرات هو فى رقبة الزرافة ورقبة الفيل ، وحقائق أخرى لا تعد كلها تغدو مفسرة واضحة فى الحال على أساس نظرية التطور عن طريق التحولات الطفيفة البطيئة المتتابعة . وكذلك تشابه النظام بين جناح الخفاش ورجله رغم استعمالهما فى غرضين مختلفين ، وبين فك سرطان البحر ورجله ، كلها يسهل فهمها على أساس التحول التدريجى للأشياء وللأجزاء أو الأعضاء التى كانت متشابهة فى الأسلاف المبكرة فى طائفة من الطوائف)[2] .

وتبريرات أخرى فى نفس الموضوع لتأكيد الأصل المشترك الواحد: (إنَّ التراكيب فى بعض الحيوانات لها أصل واحد ، مثال ذلك الأطراف الخماسية الأصابع فى جميع فقاريات اليابسة نجدها مبنية على نظام واحد وإن كانت تختلف أحياناً فى الوظيفة التى تؤديها ، ومثل تلك التراكيب تسمى بالتراكيب المتشابهة تركيبياً "*homologous structures*" ، فجناح الخفاش ومجداف الحوت ورجل الكلب متشابهة تركيبياً وإن كانت تؤدى وظيفة واحدة هى المعاونة على الحركة ولكنها حركة

(١) المرجع ، الصفحات (٥٣ - ٥٦) .
(٢) المرجع ، صفحة (٧٦٥) .

تختلف من مثال لآخر ، **الأول فى الطيران والثانى** فى السباحة والثالث فى المشي ، وتختلف أجنحة الحشرات عن أجنحة الطيور والخفافيش اختلافا تاماً فى التراكيب ولكنها تتشابه فى الوظيفة وهى معاونة الحيوان على الطيران ، ومثل تلك التراكيب المتشابهة وظيفياً " *analogous structures* " وغنى عن البيان أنها مختلفة الأصول ، وهناك أمثلة لا حصر لها عن هذين النوعين من التراكيب .

فالتعرف على التراكيب المتشابهة تركيبياً دليل قوى على التشابه الأساسى فى التصميم ، وهذا لا يمكن شرحه إلا بافتراض أنَّ الجماعات التى توجد بها هذه التراكيب لا بد أن تكون من أصل مشترك واحد[1] .



البهائم العجماء، هل تشترك مع الإنسان فى النّسَب والقرابة بالنشوء من أصل واحد؟

(١) دكتور فؤاد خليل وآخرين ، علم الحيوان العام ، صفحة (١١٠٢) .

الفصل الثانى عشر

عـوامـــل التطــور[1]

فى سنة ١٨٥٩ هاجم داروين بشدّة الاعتقاد بأنَّ كل نوع من الأنواع الحيّة قد خُلِقَ خَلْقاً مستقلاً *Special creation* ، وأنَّ جميع الكائنات قد خُلِقَت من العدم ، وأن الكائنات الموجودة هى ثابتة لم تتغيّر ولم تتطور ، وأنها احتفظت على الدّوام بأشكالها التى خُلقت بها أولَ مرّة ، فقد ادعى داروين أنّ الأنواع المختلفة نباتاً كانت أم حيواناً ومعها الإنسان إنما نشأت تدرجاً من طريق الاحتفاظ بمختلف التحولات التى تنشأ فى أفراد كل منها ، إلا أنّ هذا التَّحول قد استغرق أحقاباً طويلة وفقاً لما يقتضيه تأثير سنن طبيعية دائمة التأثير فى طبائع الأحياء .

سميت مقولة داروين تلك "نظرية التطور *Evolution*" ولقد شرح داروين أنَّ فى مستطاع الإنسان أن يبتكر فى السلالات الداجنة من صور مستحدثة **بالانـــتخاب الاصــــطناعى** *Artificial selection* وأنَّ فى مكنة الطبيعة أن تستحدث مثله **بالانــتخاب الطبيعى** *Selection Natural* ، وإن كان الانتخاب الطبيعى أبطأ أثراً فى تحول الأحياء بالانتخاب الصناعي .

أمّــا العوامل الطبيعية التى يؤدى فعلها إلى التّطور ونشوء الأحياء فحصرها فى خمسة عوامل هي:

الوراثـــة *Heredity* : ومحصلها أنَّ الشَّبه يأتى بمشابهه ، فالسنانير لا تلد كلاباً بل سنانيراً ، أى أنَّ صغار كل نوع تشابه آبائها ، ذلك فى النبات كما فى الحيوان .

التحولـــية "أى الاستعداد للتحول" *Variability* : وذلك أنَّ أفراد كل نوع تتشابه ولا تتماثل ، أى لا تكون نسخة مطابقة لأصولها ، فهى تشابه آبائها ولكن لا تماثلهم ، ففى بطن من السنانير مثلاً لا تقع على اثنين متماثلين تماماً ، وإن تشابه الجميع

---

(١) المرجع ، الصفحات (٣٨ - ٣٩) .

حتى فى اللون فإنها تختلف فى الظلال التى يمتد فيها اللون .

الـتّوالد *Nasality* : وهو ناتج عن إسراف الطّبيعة ، فإنَّ ما يولَد من النبات والحيوان أكثر مما يقدّر له البقاء ، فالطبيعة تُسرف فى الإيجاد كما تسرف فى الإفناء ، **ومن هنا ينشأ العامل الرابع وهو:**

التـناحر بـين المخلوقات على البقاء *Atuggle for existence* : أو ما يسمى "تنازع البقاء *Competition* " وهو عامل غير منقطع الفعل ، فكل نبات أو حيوان يبرز فى الوجود ينبغى له أن يسعى إلى الرّزق وأن يجالد فى سبيل ذلك وأن يجاهد غيره ويصارعه على ضرورات الحياة مما ينشأ عن ذلك " بقاء الأصلح ":

البقاء للأصلح *Survival for the fittest* : فالأفراد التى تتزود من بنائها بقوة أوفى أو حيلة أزكى أو تكون أقدر على مقاومة أفاعيل الطّبيعة تكون أكثر قابلية للبقاء ، وإعقاب نسل فيه صفاتها التى مكنت له لها فى الحياة .

هذه هى العوامل التى تؤدى إلى الانتخاب الطبيعى مما يؤدى إلى تطور الأنواع مما يُحدث نشوء أنواع جديدة ذات قدرات وصفات مُحسّنة متطورة ، ومما يذكر أنّ تلك العوامل هى المعتمدة فى المذهب التّطورى الأكثر شيوعاً والذى ينتمى إليه غالبية دعاة التّطور وهو المذهب الدارويني ، فى حين أنّ هناك مذاهب تطورية أخرى تخالف داروين فى عوامل التّطور معتمدة غيرها كما ذكرنا فى فصل سابق [1] .

والانتخاب الطبيعى فى نظر داروين هو مصاحب لفكرة **التكـيف مـع البيـئة أو التـبايؤ** "*Adaptation*" " أو هو نتيجة حتمية لها ، الذى هو عملية يتكيف بها الحيوان أو النبات مع محيطه وإلا خيف عليه من الانقراض ، كما يُعرَّف **بأنـه وجـود صـفة أو صـفات وراثـية تـزيد من قدرة الفرد عـلى الـبقاء والتناسـل فى بيئـته** ، فهو تَكَيُّف الكائن الحى مع بيئته التى

(١) الفصل الثالث ، أشهر المذاهب التطورية

يعيش فيها [١] .

والتكيف لا يشمل الشكل والتركيب فقط ، بل يشمل الوظيفة أيضاً ، فهم يقولون أنَّ الكائنات الحية تتكيف كل حسب ظروف البيئة التى تعيش بها ، فمثلاً تختلف أشكال المناقير فى الطيور لتلائم نوع الغذاء التى تقتات به ، والأسماك تتكيف بطرق عديدة فى الشكل والتركيب لتناسب الوسط المائى الذى تعيش به ، وقد فسّرَ داروين التّكيف الذى لاحظه فى الكائنات الحية بأنه نتيجة للانتخاب الطبيعي . فالأفراد المتكيفة مع بيئتها قد انحدرت من أسلاف ذات صفات ملائمة للبيئة أكثر من باقى أفراد نوعها فى تلك البيئة ونقلت بعامل الوراثة هذه الصفات إلى نسلها ، وهكذا فالانتخاب الطبيعى ينتج أفراداً متكيفة مع بيئتها . لـــذا فقد استحدثوا علماً منفرداً بذلك سموه "**البيئيات**" أو"**علم الأحياء البيئي**"[٢] "*environmental biology*" "*ecology*" الذى هو فرع من علم الأحياء يعنى بعلاقة المتعضيات[٣] بعضها بالبعض الآخر وبعلاقتها بالبيئة الطبيعية ، وهو يدرس فى المقام الأول المناخ الجغرافى الملائم لحياة النوع ، كما يدرس مسألة الغذاء لصلتها الوثيقة بالبيئة ، ومسألة التكاثر والتناسل لأن هذه الظاهرة كثيراً ما تؤدى إلى مشاكل خاصة بالغذاء يضطر معها أفراد النوع إما إلى التكيف مع البيئة بالحد

---

(١) د .عدنان بدران وآخرين ، البيولوجيا ، صفحة (١٢٥) . - موسوعة المورد العربية ، منير البعلبكي ، جزء (١) صفحة (٢٩٦) .

(٢) البيئيات ، علم الأحياء البيئي : فرع من علم الأحياء يُعنى بعلاقة المتعضيات بعضها ببعضها الآخر ، وبعلاقتها ببيئتها الطبيعية . ينقسم عادة إلى فرعين رئيسيين : بيئيات الحيوان وبيئيات النبات . وهو يدرس فى المقام الأول المناخ الجغرافى الملائم لحياة النوع ، كما يدرس مسألة الغذاء لصلتها الوثيقة بالبيئة ، ومسألة التكاثر والتناسل لأن هذه الظاهرة كثيراً ما تؤدى إلى مشكلات خاصة بالغذاء يُضطر معها أفراد النوع إلى اتخاذ واحد من ثلاثة سبل : التكيف مع البيئة للحد من التكاثر ، أو الهجرة إلى موطن آخر ، أو البقاء دون تكيف وبذلك يسير النوع فى طريق الانقراض . -علم البيئة البشرى علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية ، كما يدرس مشكلات معقدة أخرى كالهجرة من الأرياف إلى المدن ، ونشوء المجتمعات الصناعية ، وغير ذلك من المسائل الناشئة عن التطور الاجتماعى المتسارع .

(٣) المتعضى "*Organism*" : كائن حى مؤهل للعيش بالاستعانة بأعضاء منفصلة من حيث الوظيفة ، ولكن بعضها يعتمد على البعض الآخر . والحيوانات والنباتات كلها متعضيات . وبعض المتعضيات بالغ الصغر إلى حَد يتعذر معه رؤيته بالعين المجردة ، ومن أجل ذلك ندعوه " المتعضى المجهرى ***microorganisms*** " .

من التكاثر ، أو إلى الهجرة إلى موطن آخر "*emigration*" أو البقاء بغير تكيف وبذلك يسير النوع فى طريق الانقراض "*extinction*" . وفى محاولتهم لإثبات مقولة الانتخاب الطبيعى فقد قاموا بإجراء تجارب فى المختبر اعتمدوها للتدليل على مقولتهم منها :

(وضع فى طبق معين ١٠٠ مليون خلية بكتيريا من نوع معين هو *Staphylococcus aurous* وقد عُرِضَ الطبق لجرعة بنسلين مخففة ، فكانت النتيجة أن ماتت معظم الخلايا وبقى أقل من ١٠ خلايا تناسلت وأعطت نسلاً استطاع جميعه أن يقاوم هذه الجرعة المخففة ، أما عند مضاعفة تركيز البنسلين فى الطبق فقد ماتت جميع أفراد البكتيريا المقاومة للجرعة المخففة تقريباً ولم يبق سوى أفراد قليلة جداً . وقد أعيدت تلك التجربة خمس مرات فكانت النتيجة الحصول على بكتيريا تستطيع مقاومة جرعة بنسلين أقوى من الجرعة التى استخدمت فى الجرعة الأولى ٢٥٠٠ مرّة ، والحقيقة أنّ هذه البكتيريا المقاومة للبنسلين هى من نسل الأفراد القليلة التى كانت تنتخب فى كل جيل ، أى أنَّ هذه البكتيريا المقاومة هى نتيجة الانتخاب الطبيعي ، وليست هى التى قامت بتكوين المقاومَة ضد البنسلين)[1] .

ومثال آخر يوضح أثر الانتخاب الطبيعى هو الذباب وأحد المبيدات الحشرية "*D. T. D*" . الذى عندما استعمل لأول مرّة للقضاء على ذباب المنازل كان ناجحاً ، على أننا ما لبثنا بعد عدة سنوات أن وجدنا أنّ ألذباب أصبحت لـه مناعـة لتلك المادة ، وتفسير ذلك أنه فى السنة الأولى لاستعمال ذلك المبيد الحشرى قتل تقريباً جميع الذباب ما عدا قليل لم يقتل بسبب اختلافات وراثية موجودة به مميزة عن غيره من بقية الأفراد وتضفى عليه مناعة ضد المبيد الحشري ، فكانت النتيجة أن بقى هذا العدد القليل وتناسل فأنتج أفراداً ذات مقاومة ، وعندما استعمل أل "*D. T. D*" . بعد ذلك أصبح أقل تأثيراً وبقى الذباب المقاوم لـه بسبب الانتخاب الطبيعى وماتت الأفراد القليلة غير المقاومَة ، وكان كلما يستعمل آل "*D. T. D*" . يبقى عندنا أكثر الذباب المقاوم حتى

(١) المصدر السابق ، صفحة (١٢٦) .

أصبح معظم الذباب الموجود فى المنازل مقاوماً لمادة أل "*D. T. D*" ويردون ذلك إلى أنَّ الانتخاب الطبيعى هو الذى أنتج لنا الذباب المقاوم وليس مبيد أل "*D. T. D*" .[١]

ومثال آخر لوحظ فى التلال الصغيرة ذات الرمال البيضاء ، ففى نيو مكسيكو شوهد أنَّ الحيوانات الموجودة عليها كالسحالى والحشرات والفئران كلها ذات لون أبيض تقريباً ، بينما الحيوانات الموجودة حول تلك التلال حيث الرمال الحمراء كلها كانت ذات لون أحمر ، أى أنَّ لون الحيوان يكون حسب لون الوسط الذى يعيش فيه ، فيفسرون وجود الحيوانات بتلك الألوان فى هذين الوسطين بالانتخاب الطبيعى أى من نتائجه ، إذ أن كل وسط كان يحوى حيوانات ذات ألوان أخرى بالإضافة إلى المشابهة فى ألوان تلك الحيوانات المخالفة للون الوسط لأنه يسهل رؤيتها من قبل أعدائها المفترسة ، بينما بقيت الحيوانات ذات اللون المشابه للوسط لصعوبة رؤيتها من قبل أعدائها [٢] .

هذه هى عوامل التطور فى مذهب داروين وهو المذهب التّطورى الأكثر شيوعاً ، فى حين أنَّ مذاهب أخرى ترجعها إلى عوامل أخرى ، **وأشهر تلك المذاهب هو مذهب لامارك الذى يردها إلى عاملين أو قانونين :**

[١] قانون الاستعمال والإهمال.

[٢] قانون توارث الصفات المكتسبة [٣].

فى حين أنَّ دى فريز مثلاً يُرجع التّطور إلى عامل واحد فقط هو "الطفرة *Mutation*" **والتى تعنى التّحول المفاجئ الذى يطرأ على المادة الوراثية فى الكائن الحى** تؤثر على الحامض النووى "*DNA*" الذى تتركب منه الجينات

---

(١) المرجع السابق ، صفحة (١٢٧) .
(٢) المرجع السابق ، صفحة (١٢٧ ، ١٢٨) .
(٣) المرجع السابق ، صفحة (١٢٤) .

فيؤدى إلى نشوء مواليد جديدة ذات خصائص لم تكن لأى من الأبوين المنتجين [١] .

أما "مذهب أرسطو" فيرجع ذلك إلى قانون الخلق التلقائى " *Spontaneous generation*" والذى يطلق عليه أيضاً التّولد الذاتى "*A biogenesis autogenesis*" وهى نظرية حاولت أن تفسر نشوء الحياة من مادة غير حية ، ووفقاً لهذه النظرية اعتقد بعض الناس بأن قطع الجُبْن وكِسر الخبز الملفوفة فى أسمال بالية والملقاة فى زاوية مظلمة كانت تولد بعض الفئران ، وذلك بسبب ظهور تلك الفئران فى تلك الأسمال البالية بعد أسابيع محدودة ، وقد آمن كثيرون بتلك النظرية لأنه كان يقدم لهم تفسيراً لظهور اليرقات على اللحم الفاسد ، حتى إذا كان القرن الثامن عشر أصبح واضحاً أنّ المتعضيات العليا لا يمكن أن تنشأ من مواد غير حية ، علماً بأن علمائهم لم يتركوا تلك المقولة نهائياً وبشكل حاسم ، إذ أنّ مسألة نشوء المتعضيات المجهرية كالبكتيريا مثلاً لم تُحْسَم لديهم نهائياً إلا بعد أن أثبت باستور فى القرن التاسع عشر أنّ المتعضيات المجهرية تتكاثر أو تتوالد [٢] .

---

(١) المرجع السابق ، صفحة (١٢٨) .وموسوعة المورد العربية ، المجلد الثاني ، صفحة (٧٤٠) .
(٢)موسوعة المورد العربية ، المجلد الأول ، صفحة (٣٤٨) .

الفصل الثالث عشر

الخَلق والصُّدفة العشوائية[١]

يقول الفيلسوف "برتراند راسل" : (ليس وراء الإنسان غاية أو تدبر ، إنَّ نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده ليست إلا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة) [٢] .

أما هُكسلى فبسذاجة متناهية وتبريرات واهية تنم عن طيش ورعونة وعن خيال واسع فيقول : (لو جلست ستة من القرود على آلات كاتبة وظَلَت تضرب على حروفها لملايين السنين ، فلا نستبعد أن نجد فى بعض الأوراق الأخيرة التى كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير "!!! " فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء ظلَت تدور فى المادة لبلايين السنين) [٣] . أما عالم البيولوجيا هيكل "*Heckle*" فقد تطاول أو تغابى حين قال فى هرطقة متغابية : (ائتونى بالهواء والماء وبالأجهزة الكيماوية اللازمة وبالوقت وسأخلق الإنسان) [٤] .

أما تاريخ الخلق فيحدده جورج جامبوفى كتابه "تاريخ الأرض" وفقا لمعاييره واستنتاجاته وتصوراته كما يلي : (إنَّ الكون قد بدأ تطوره منذ بليون بليون سنة ، أما الأرض فقد نشأت حديثا جداً إذ لم توجد إلا منذ بليونين من السنين ، وظهرت الحياة على الأرض من بليون سنة ، وظهرت الحيوانات البرمائية منذ ٢٠٠ مليون سنة ، أما الحيوانات الثديية التى يعتبر الإنسان أحد فروعها فقد بدأ ظهورها منذ ١٢٠ مليون سنة ، والإنسان وهو أحدث الوافدين على الأرض إذ بدأ على صورته الإنسانية منذ

---

(١) صدفةُ . صادفهُ ، مصادفة : لَقِيَهُ على غير موعد ولا توقع . والعشوائية : عدم التعمد والتقصّد .
(٢) *Limitations of science* - الله يتجلى في عصر العلم ، صفحة (٥١) .
(٣) كتاب "الإسلام يتحدى" ، صفحة (٧٢) نقلاً عن : *The Mysterious Universe*. *pp*. ٣ - ٤
(٤) المصدر السابق ، صفحة (٧٨) .

٥٠ مليون سنة) [١] . في حين أنَّ علماء الفلك والجيولوجيا والأحافير يقولون بأنَّ الزمن الذى انقضى منذ انفصال الأرض من السَّديم الأصلى حتى ظهور الإنسان يتراوح بين مليون سنة وبين خمسة عشر مليون سنة!!! [٢]

أمّا دى نواى فتقول تقديراته : (لا بُدّ أنّ الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين ، وأنّ الحياة - فى أى صورة من الصُّور - لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض) [٣] .

لقد فسّر التطوريون وجود هذا الكون بنظامه الفريد وقوانينه الدقيقة بواسطة "قانون الصدفة" الذى هو فى رأى "سير جيمس جينز" ليس بكلام فارغ بل هو كما يعتقد ويجزم تماماً وبلى أدنى شك على "قوانين الصدفة الرياضية البحتة *Purely mathematical Law of chance*" [٤] . لذا فإنّ أحد العلماء الأمريكيين يعلق قائلاً : (إنّ نظرية الصدفة ليست افتراضاً إنما هى نظرية رياضية عُليا ، وهى تطلق على الأمور التى لا تتوفر فى بحثها معلومات قطعية ، وهى تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق ، وللتدقيق فى مكان وقوع حادث من نوع معين ، وللوصول إلى نتيجة هى معرفة مدى مكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة) [٥] .

أما "أ . كريسى موريسون *A. Cresy Morrison*" الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك فيعلق على قانون الصدفة قائلاً : (إنَّ حجم الكرة الأرضية ، وبعدها عن الشمس ، ودرجة حرارة الشمس وأشعتها الباعثة للحياة ، وسمك قشرة الأرض وكمية الماء ، ومقدار ثانى أكسيد الكربون وحجم النيتروجين ، وظهور الإنسان وبقاءه على قيد الحياة ، كل أولاء تدل على خروج النظام من الفوضى ، وعلى التصميم والقصد ،

---

(١) جورج جامبو ، تاريخ الأرض .
(٢) المرجع ، صفحة (٤٤) .
(٣) الإسلام يتحدى ، صفحة (٧٦) ، نقلا عن : *Human Destiny, pp* . ٣٠ - ٣٦
(٤) المصدر السابق ، صفحة (٧٣) ، نقلا عن : *Mysterious Universe pp* . ٣
(٥) الإسلام يتحدى ، صفحة (٧٣) نقلا عن : *The Evidence of Gad pp*٢٣ .

كما تدل أيضاً على أنه طبقاً للقوانين الحسابية الصارمة ما كان يمكن حدوث كل ذلك مصادفة فى وقت واحد على كوكب واحد ، مرة فى بليون مرة - إن كان يمكن أن يحدث هكذا - ولكن لم يحدث هذا بالتأكيد . وحين تكون الحقائق هكذا قاطعة ، وحين نعترف كما ينبغى لنا بخواص عقولنا التى ليست مادية ، فهل فى الإمكان أن نعقل البرهان ونؤمن بمصادفة واحدة فى بليون ونزعم أننا وكل ما عدانا نتائج المصادفة؟

لقد رأينا أنّ هناك ٩٩٩ ٩٩٩ ٩٩٩ فرصة ضد واحد أى ضد الاعتقاد بأنّ جميع الأمور تحدث مصادفة ، والعلم لا ينكر الحقائق كما بيناها ، وعلماء الحساب يقرون أن هذه الأرقام صحيحة ، والآن تقابلنا مقاومة عنيدة من العقل البشرى الذى يكره النزول عن أفكار مستقلة ، لقد كان اليونان القدماء يعرفون أنّ الأرض كروية ، ولكن مضى ألف سنة ليؤمن الناس بصدق هذه الحقيقة [١] . إنّ الأفكار الجديدة تلقى معارضة وسخرية وذماً ولكن الحقيقة تبقى وتثبت .

وهنا أكرر القول بأنّ قصدى من هذه المعالجة للمصادفة هو أن أبين بطريقة علمية واضحة تلك الحدود الضيقة التى يمكن الحياة بينها أن توجَدَ على الأرض ، وأن أثبت بالبرهان القطعى الواقعى أنّ جميع مقومات الحياة الحقيقية ما كان يمكن أن توجد على كوكب واحد فى وقت واحد بمحض المصادفة) [٢] .

أما البروفيسور "أيودين كونكلين" فيعلق على قانون الصدفة قائلاً : (إنّ القول بأنّ الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقى شبيه فى مغزاه بأن تتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفى فى مطبعة) [٣] .

أما عالم الأعضاء الأمريكى "مارلين ب . كريدر" فيقول "(إنّ الإمكان الرياضى فى

---

(١) فى حين أن كروية الأرض هى نظرية افتراضية وليست من الحقائق ، فقد ثبت أنها بيضوية الشكل "دحى" كما وصفها القرآن الكريم {والأرض وما دحاها} [الشمس : ٦] - المؤلف - .

(٢) أ . كريسى موريسون فى كتابه "العلم يدعو للإيمان" الصفحات (١٩١ - ١٩٦) . بحث المصادفة . والكتاب ترجمة لكتابه "*Man does not stand alone*" أى "الإنسان لا يقوم وحده .

(٣) الإسلام يتحدى ، صفحة (٧٢) ، نقلا عن : *The Evidence of God p* . ١٧٤ .

توفر العلل اللازمة للخلق - عن طريق الصدفة - فى نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شىء) [١] ، ويقول "جون كليفلاند كوثران"[٢] فى مقال له بعنوان "النتيجة الحتمية" :

(إننا لنرى أنّ التطورات الهامة التى تمت فى جميع العلوم الطبيعية خلال المائة سنة الماضية بما فى ذلك الكيمياء قد حدثت بسبب استخدام الطريقة العلمية فى المادة والطاقة . وعند استخدام هذه الطريقة تبذل كل الجهود للتخلص من كل احتمال من الاحتمالات الممكنة التى تجعل النتيجة التى نصل إليها راجعة إلى محض المصادفة . وقد أثبتت جميع الدراسات العلمية بصورة ثبتت فى الماضى ولا تزال ثابتة فى الحاضر أنّ سلوك أى جزء من أجزاء المادة مهما صغر أو تضاءل حجمه لا يملك أن يكون سلوكاً عشوائياً ، بل أنه على النقيض من ذلك يخضع لقوانين طبيعية محددة . وفى كثير من الأحيان يتم اكتشاف القانون قبل اكتشاف أسبابه أو فهم طريقة عمله بفترة طويلة من الزمن ، ولكن بمجرد معرفة القانون وتحديد الظروف التى يعمل فى ظلها يثق الكيماويون فيه كل الثقة ، ويظل القانون عاملاً ومؤدياً إلى نفس النتائج .

وليس من المعقول أن يكون لدى الكيماويين كل هذه الثقة فى القوانين الطبيعية لو أنَّ سلوك المادة والطاقة كان من النوع العشوائى الذى تتحكم فيه المصادفة ، وعندما يتم أخيراً إدراك الأسباب التى تجعل هذا القانون الطبيعى عاملاً وتفسر لنا حقيقته ، فإنّ أى أثر لفكرة العشوائية أو المصادفة فى سلوك المادة أو الطاقة سوف يندثر اندثاراً تاماً .

ومنذ مائة سنة تقريباً رتَّبَ العالم الروسى "مانداليف" العناصر الكيماوية تبعاً لتزايد أوزانها الذرية ترتيباً دورياً ، وقد وجد أن العناصر التى تقع فى قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة ويكون لها خواص متشابهة ، فهل يمكن إرجاع ذلك إلى مجرد المصادفة؟

وهل يمكن أن نفسر على أساس المصادفة ما توصل إليه العلماء السابقون من تفاعل

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٧٧) . نقلا عن : Ibid, p ٦٧ .

(٢) جون كليفلاند كوثران ، هو من علماء الكيمياء والرياضة ، حائز على دكتوراه من جامعة كورنل ، رئيس العلوم الطبيعية - بجامعة دولت

ذرات عنصر (أ) مع ذرات عنصر (ب) وعدم تفاعلها مع عنصر (ج)؟ كلا . إنهم قد فسروا ذلك على أساس أنّ هناك نوعاً من الميل أو الجاذبية بين جميع ذرات عنصر (أ) وجميع ذرات عنصر (ب) ، ولكن هذا الميل أو الجاذبية منعدم بين ذرات عنصر (أ) وبين ذرات عنصر (ج) . . . . فهل يتصور عاقل أو يفكر أنَّ المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ . لا شك أنَّ الجواب سيكون سلبياً . بل إنّ المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإنَّ ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وُجدت قبلها .

وتدلنا الكيمياء على أنَّ بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فالمادة ليست أبدية[1] ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية[2] إذ أنَّ لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنَّ بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية بل وُجدَت بصورة فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فإنَّ هذا العالَم المادى لا بُدّ أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان .

فإذا كان هذا العالَمُ المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها فلا بدَّ أن يكون الخلق قد تمَّ بقدرة كائن غير مادي . وتدل الشواهد جميعاً على أنَّ الخالق لا بُدَّ له أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة . إلا أنَّ العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى دون أن يكون هناك إرادة . ولا بدَّ لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وجوداً ذاتياً . وعلى ذلك فإنَّ النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أنَّ لهذا الكون خالقاً فحسب ، بل لا بُدَّ أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شيء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن

---

(١) الأبدى هو دائم الوجود .
(٢) الأزلى هو ما لا أول له ولا آخِر .

يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان . وعلى ذلك فإنه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون ومدبره وموجهه . إنَّ التّقدم الذى أحرزته العلوم منذ أيام "لورد كلفن" يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل من أننا إذا فكرنا تفكيراً عميقاً فإنَّ العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله) [١] .

أمـا "جـورج هربـرت بلونـت" [٢] فيقول فى مقال لـه بعنوان "منطق الإيمان":

(. . . فالأدلة الكونية تقوم على أساس أنَّ الكون متغير ، وعلى ذلك لا يمكن أن يكون أبدياً ، ولا بد من البحث عن حقيقة أبدية عليا ، أما الأدلة التى يبنى على إدراك الحكمة فتقوم على أساس أنَّ هنالك غرضاً معيناً أو غاية وراء هذا الكون ولا بد لذلك من حكيم أو مدبر ، وتكمن الأدلة الإنسانية وراء طبيعة الإنسان الخلقية ، فالشعور الإنسانى فى نفوس البشر إنما هو اتجاه مشروع أعظم .

ولما كان اشتغالى بالعلوم ينحصر فى التحليل الفيزيائي ، فإنَّ الأدلة التى يتجه إليها تفكيرى تعتبر من النوع الذى يبحث عن حكمة الخالق فيما خلق . ولاكتشاف القوانين التى تخضع لها الظواهر المختلفة لا بُدَ من التسليم أولاً بأنَّ الكون أساسه النظام ، ثم يتجه الباحث نحو كشف هذا النظام . . . . ولا يمكن أن يتصور العقل أنَّ هذا النظام قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم أو من الفوضى ، وعلى ذلك فإنَّ المفكر لا بد وأن يصل ويسلم بوجود إله منظم لهذا الكون [٣] ، وعندئذ تصير فكرة الألوهية إحدى بديهيات الحياة ، بل الحقيقة العظمى التى تظهر فى هذا الكون والمطابقة بين الفرض والنتيجة تعد برهاناً على صحة هذا الفرض . والمنطق الذى نستخدمه هنا هو أنه إذا كان هنالك إله فلا بد أن يكون هنالك نظام ، وعلى ذلك فما دام هنالك نظام فلا بد من وجود

---

(١) كتاب "الله يتجلى فى عصر العلم" الصفحات (٢١ - ٢٥) .والكتاب هو النسخة العربية لكتاب: "*The Evidence of God*" .

(٢) جورج هربرت بلونت: أستاذ الفيزياء التطبيقية ، وكبير المهندسين بقسم البحوث الهندسية بجامعة كاليفورنيا .

(٣) الكون: هو مجموعة الأجرام السماوية .

إله . . . . فإذا قارنا بين الشواهد التى يستدل بها المؤمنون على وجود الله ، وتلك التى يستدل بها الملحدون فى إنكار ذاته العلية ، يتضح لنا أنَّ وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر مما تحتاج إليه وجهة نظر المؤمن ، وبعبارة أخرى نجد المؤمن يقيم إيمانه على البصيرة ، أما الملحد فيقيم إلحاده على العمى ، وأنا مقتنع أن الإيمان يقوم على العقل ، وأنَّ العقل يدعوا إلى الإيمان)[١]

أما "وحيد الدين خان" فيقول : (ولو افترضنا أنَّ المادة وُجدَت بنفسها فى الكون ، وافترضنا أيضاً أنَّ تَجَمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها - ولست أجد أساساً لأقيم عليه هذه الافتراضات - ففى تلك الحال أيضاً لن نظفر بتفسير الكون ، فإنَّ **صُدفة** أخرى تحول دون طريقنا ، فلسوء الحظ أنَّ الرياضيات التى تعطينا **نكتة الصُدْفة** الثمينة هى نفسها التى تنفى أى مكان رياضى فى وجود الكون الحالى بفعل قانون الصدفة) [٢] .

أما العالِم الطبيعى "إسحاق نيوتن" فيقول : (لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هى قاعدة الوجود)[٣] .



(١) المصدر السابق ، الصفحات (٧٨ - ٨٣) .

(٢) وحيد الدين خان ، كتاب "الإسلام يتحدى" ، صفحة (٧٣) ، وهو النسخة العربية المترجمة للكتاب باللغة الأردية باسم : *Jadeed Ka challenge* . ؛ *Time*

(٣) العبادة فى الإسلام ، يوسف القرضاوي ، صفحة (١٧) .

الفصل الرابع عشر

هـل الإنسـان مـن ذريـة القـرود؟

تصور العلماء أنَّ "إنسان نياندرتال" كان وجهه يشبه وجه القرد حيث اختفى من أوروبا بطريقة غامضة!!! ومع الوقت اكتُشِفَت عشرات من قطع العظام فى جنوب وشرق أفريقيا فى محاولات مضنية للتعرف على الأجداد المفقودين فى جب النشوء والارتقاء حيث تضاربت فيه الآراء ، إلا أن إنسان نياندرتال كان جسمه برامیلیاً مكتنز اللحم كالإسكيمو وذو أنف عريض واسع ليدفئ الهواء البارد الذى كان يستنشقه فى أصقاع أوروبا حيث كان يعيش فى أواخر العصور الجليدية المتعاقبة [١] . ويعتبرون أنّ الإنسان الأول كان منتصب القامة ، خرج من أفريقيا ، وكان يصنع الآلة الصوانية كالفؤوس والأسلحة والمكاشط والشفرات الحادة . ويختلف إنسان نياندرتال عنه بأنفه العريض وضخامة عظام فكه وكبر حجم أسنانه الأمامية . لكنَّ العُلماء اكتشفوا فيما بعد عظاماً أقدم لها ملامح تشريحية مختلفة **ولم يعد بعدها نياندرتال الجد الأول...** لهذا يظلُّ البحث جارياً عنه [٢] .

• والخطوات الأولى لسيناريو البشر منتصبى القامة أظهرتها - كما يَدَّعون - الحفائر التى اكتشفت فى جنوب وشرق أفريقيا عندما عثر العلماء على آثار أقدام مطبوعة فوق رماد بركان قديم عندما عبرت الرئيسيات سهول تنزانيا فى لاتولى منذ ٣ . ٦ مليون سنة ، وهذا الاكتشاف جعل "فيونامارشال" يبذل كل جهوده للحفاظ على هذه البصمات القدمية لأنَّ علماء الوراثة من خلال تفسيرهم الجنينى اكتشفوا أنَّ الإنسان العاقل كان يعيش فى أفريقيا وآسيا قبل ظهور "إنسان نياندرتال" لأنَّ أول إنسان ظهر منتصب القامة كان منذ نحو ١ . ٥ مليون سنة فى "بدو بأثيوبيا" و "ندوتو بتنزانيا" لأن ما وجد من عظامه

---

(١) مجلة العلم " ، القاهرة - العدد ٢٤٩ - يونية ١٩٩٧ ، صفحة (٣٢) .
(٢) المرجع السابق .والمبحوث عنه المقصود فى نهاية الفقرة هو : " الجد الأول للإنسان " .

كانت سميكة ومتينة عن ذى قبل مما يُمَكِنَهُ من الوقوف عليها بسهولة[١] .

أما الكاتب "ريك جو" وزميله المصور "كينيث جاريف" فقد سافرا مئات الأميال إلى تنزانيا وجنوب أفريقيا للتّعرف على الأسلاف ولمعرفة كيف خطا الإنسان أولى خطواته على قدميه فوق الأرض . . . وفى جنوب أفريقيا شاهد الكاتب حفائر معظمها اكتشف هناك بواسطة علماء جامعة جوهانسبرج ، وقاموا من خلال دراستها باكتشاف الخطوات الأولى لأشباه الإنسان قبل أن يصبحوا بشراً وأوعزوا نسبه إلى القرد ، كما أكدوا على أنَّ ثمة مجموعتين للبشريات قد ظهرتا خلال أربعة ملايين سنة ، إحداها الجنس البشرى الذى ظهر منذ ٢ . ٥ مليون سنة ، وقالوا أن المجموعتين شملتا ظهور الإنسان الماهر والإنسان العاقل والإنسان منتصب القامة ، لكنَّ العُلماء ما زالوا حائرين فى كيف وأين حلَّ الجنس البشرى محلَّ أشباهه الأوسترالوبيتكيسين الذين كانوا يشبهون القردة بيد بأمخاخها الصغيرة إلا أنهم كانوا يسيرون على أقدامهم [٢] .

والأسترالوبيثكس أو"شبيه الإنسان" كان عالِم التَشريح "ريمون دارت" هو أول من ادعى اكتشاف أول حفرية لها عام ١٩٢٥ بكهف "توانج" الحجرى بجنوب أفريقيا . . . . . وكانت لطفل عمره ٢,٥ مليون سنة ، واعتبر علماء جنوب أفريقيا أنّ طفل توانج هو الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان حيث أطلقوا عليه اسم "استرا لوبيثكس أفريكارتر" أى "قرد جنوب أفريقيا" . وبعد توانج اكتشف العلماء عظاماً لعدة أنواع من شبيه الإنسان منها "*Repust. H*" وأنواع عائلة "لوسي" الشهيرة التى عمرها ٣,١٨ مليون سنة والتى اكتشفت عظامها فى موقع "جيدار بأثيوبيا" عام ١٩٧٤ ، واعتبر العلماء وقتها أنَّ لوسى هى "أم البشر" ، ومع هذا فقد أعلن عالما الحفائر الألمانيان "بيتر شميديت" و "مارتن هوسلر" بجامعة زيورخ أنَّ لوسى ليست أم البشر كما يقال ، بل ذكر كامل الذّكورة ، وأكّد ذلك العالم "لورى هاجر" الذى شكك فى أنوثتها مكذباً

---

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ، صفحة (٣٣) .

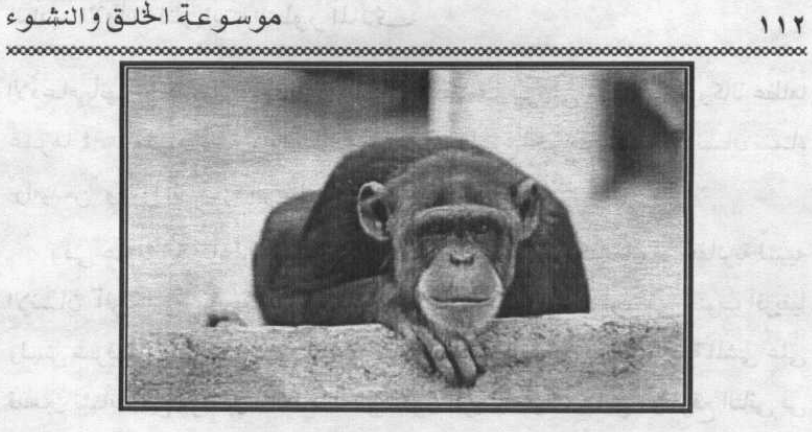
الادعاء بأنها أم البشر [1] . وقد اكتشف فريق جامعة بيركلى فى بحيرة توركانا عظاماً عمرها ٤ . ٤ مليون سنة ، واعتبر "هوايت" أنها لنوع آخر من أشباه الإنسان سماه "راميدس" وقالوا أنه همزة الوصل بين أسلافنا والشمبانزي [2] .

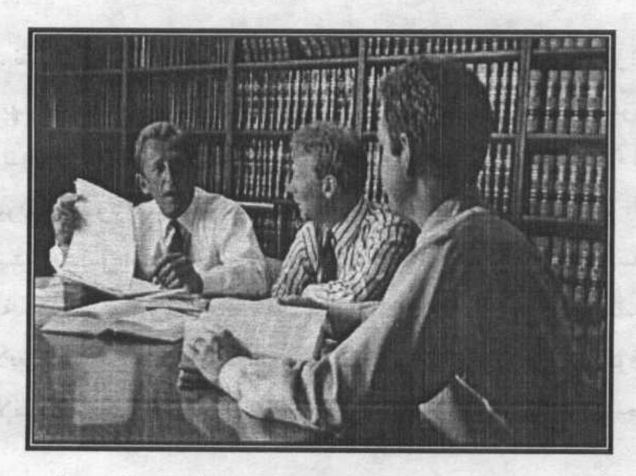
وفى عام ١٩٩٤ أعلن علماء الحفائر بجنوب أفريقيا عن مكتشفاتهم الحفائرية لشبيه الإنسان "أفريكاتر" مما جعلهم يؤكدون أنَّ شبيه الإنسان وُجِدَ أولاً فى جنوب أفريقيا وليس شرقها ، ويعلق العالم "بيرجر" من جامعة جوهانسبرج بأنَّ خاصية المشى على قدمين نشأت فى موقعين : أحدهما فى شرق أفريقيا حيث عاش . والموقع الثانى فى جنوب أفريقيا حيث كان نوع "أفريكاتر" الذى لم يكن بدائياً لأنَّ إصبعه يشبه إصبع الإنسان . ." [3] .

وقد نشرت دورية "العِلم" مقالاً تحت عنوان " متاهة البحث عن الجذور ! ! ! علماء أستراليا يهدمون نظرية داروين . . . . القرد أصله إنسان ترك الأرض وتَسَلقَ الأشجار فحدث له التحول ! ! ! " حيث قالت : (فى جامعة كانبيرا أعلن علماء الأجناس الأستراليون أنَّ القرد أصلهُ إنسان وهدموا مؤخراً نظرية داروين وقلبوها ، واعتبروا إنسان أسترالوبيتكس القديم جَدُ القرد الإنسان ، ويقول الأستراليون أنَّ الإنسان انفصل منذ أربعة ملايين سنة ، وهذا يخالف قول علماء أصول الإنسان من أنَّ الانفصال تم منذ ثمانية ملايين سنة ، ويضيف الأستراليون فى نظريتهم أنَّ القرد لم ينزل من فوق الشّجرة ليتطور لإنسان ، لكنَّ الإنسان ترك الأرض وتسلق الأشجار وظلَّ هناك حتى أصبح قرداً) [4] .

---

(١) المرجع السابق ، الصفحات (٣٣ - ٣٤) .
(٢) المرجع السابق ، صفحة (٣٤) .
(٣) المرجع السابق ، صفحة (٣٤) .
(٤) المرجع السابق ، صفحة (٣١ و ٣٢) .





ونحن بدورنا نتساءل: هل الإنسان من ذرية القرود؟ وأى مِن أنواع القرود هو جد الإنسان؟

يؤكد دعاة فكرة التطور أن الإنسان من سلالة القرود ، ويقولون أنّ الهوة بين الإنسان وبين الحيوان قد ملأها "إنسان ما قبل التاريخ" أو "الإنسان القرد" - الذى لم يوجد قط - وفى ذلك تقول دورية "العلوم" :

(يتصور علماء التطور أجدادنا أجلافاً[(١)] وبلا ذنب ، وهم أضخم بقليل من الإنسان القرد الذى يعيش فى أيامنا هذه ، وأنهم كانوا يتمتعون بعضلات وجه متحرك ، ولكنهم لم يكونوا شديدى الذكاء ، وكانوا يتسلقون الأشجار ويعيشون على الأكثر عليها كما يعيشون على وجه الأرض ، وكانوا يستطيعون أن ينتصبوا انتصاباً غير تام ، كما كانوا يمشون على أربع وعلى رجلين ، ويبدو أنه لم تكن لهم لغة محكية)[(٢)] .

أى أنه كان هناك على زعمهم إنسان قردى ذو جسم حيوانى وعقل غير ناضج ، يجتمع فيه فى آن واحد صفات بشرية وأخرى حيوانية ، إنسان لا يعقل إلا قليلاً ولا يتمكن عن التعبير عما يجيش فى صدره بالكلام ، وهذا القول الافتراضى يحتاج إلى برهان يُثبته ، والجواب هو ما قدمه "جان روستان" فى كتابه "التطور" : (مازال البحث جارياً ، وسيظل مستمراً وقتاً طويلاً لمعرفة الصلات الحقيقية لكل هذه الأشكال . . . هل الإنسان ينحدر من قرد يشبه الإنسان القردى الذى نعرفه؟ أو أنه ينحدر من قرد دون ذلك ، أو من حيوان بدائى لا يستحق حتى اسم قرد؟)[(٣)]

يتضح مما تقدم أنَّ كل ذلك هو مجرد افتراضات وهرطقات لا تمت إلى الحقيقة بصلة ما دام من يقول بها لا يملك الدليل على صحتها ، ومعنى ذلك أنه توجد صعوبة فى إثبات تلك المقولة بالبرهان الدامغ ، لذا فإنَّ الدورية نفسها تضيف قائلة : (إنَّ إحدى الصعاب الرئيسية تكمن فى ندرة وجود جماجم إنسان فى المستحثات ذات دلالة حقيقية ، وكل ما وجد من جماجم حتى الآن فى توابيت كبيرة ، وكل ما فيها من

---

(١) الجلف :الجافى فى خَلْقِهِ وَخُلُقِه ، شُبِّه بجلف الشاة ، أى أنّ جوفه هواء لا عقل فيه ، قال سيبويه : الجلف جمعها أجلاف ، ويطلق على الأحمق أنه جلف لضعف عقله .

(٢) خلق لا تطور ، صفحة (٩٥) ، نقلاً عن : دورية " العلوم *Sciences* " ، عدد : أيار سنة ١٩٦٥ .

(٣) المرجع السابق ، نقلاً عن : "كتاب التطور Evolution " ، جان روستان .

عظام لا علاقة له بالجمجمة)[١]

أما الصعوبة الثانية فهى كما ذكرها "جوليان هكسلي" فى كتابه "التطور على اعتبار أنه امتداد" حيث قال: (فى أكثر الحالات يكون وصف النموذج الذى يقدمه العلماء الذين يكتشفونه ينطوى على أهمية خاصة ، أو يحتل مكاناً مرموقاً فى عالم نسبة الإنسان المباشر إلى الأجداد فى مقابل نسبته إلى القرود . ولكن حظّ هذا القول من الواقع قليل ، وفى حالة الكلام عن تطور الإنسان الأول قلما تكون الاستنتاجات مدعومة بدليل بسبب قلة الوثائق)[٢]

نعم ، إنَّهُ مجرد وهم علق بمخيلتهم ، إنها هرطقة يريدون وبكل الوسائل والأساليب إلباسها ثوب الحقيقة ، ولكن فإنه لا دليل لديهم لدعم تلك الهرطقة سوى رغبتهم فى نشر تلك المقولة ، إنهم يحاولون التأويل والتأليف كيفما اتفق ليوهموا أنفسهم قبل أن يوهموا الناس أنّ فى جعبتهم الأدلة والبراهين ، إنّ كل ما تقدم لم يثنهم عن هرطقتهم أنَّ الإنسان وما يسمى بالإنسان القردى هما توأمان من أبوين من القرود!!!

وفى إصرار عجيب تؤكد مجلة " العالم الحديث " تلك القرابة المزعومة قائلة: (إنَّ القرابة التى لا شكَّ فيها بين الإنسان والإنسان القردى تدل بصراحة أنَّ لهما جداً مشتركاً ، ولكن هذا الجد لم يوجد حتى الآن ، وقد نجد صعوبة فى التّعرُف عليه)[٣]

يتضح مما تقدم بجلاء أنَّ دعاة التّطور المنادين بتطور الإنسان من الإنسان القردى والذى بدوره قد انحدر من نفس الجد - وهو القرد أو السعدان - إنما يهرقطون بسفاسف القول ، إنه الوهم الذى هم فيه عاجزون عجزاً كاملاً إثباته بدليل أو بشبهة دليل يُرضون به أنفسهم قبل أن يُقنعوا غيرهم من الناس ، وفى ذلك تعترف جريدة "ستر دى

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٩٦) ، نقلاً عن: دورية "العلوم *Sciences*" ، عدد: أيار سنة ١٩٥٣ .

(٢) المصدر السابق ، نقلا عن: *Evolution as a Process. Julian Huxley*

(٣) المصدر السابق ، صفحة (٩٧) ، نقلاً عن: مجلة "العالم الحديث *New Scientist*" عدد ٢٥ / ٣ / ١٩٦٥ .

إيفننج بوست" أنه على الباحثين عن أصل الإنسان أن يستمروا فى البحث حتى يكتشفوا أصول أجدادهم القرود!!! [١]

وكما عجز داروين صاحب النظرية المشهورة أن يؤكد من هو جد الإنسان الأول - القرد أم السعدان - فإنَّ مؤلف كتاب "الإنسان الأول" يؤكد ذلك العجز صراحة حين يقول (من المؤسف أن تظل حتى الآن المرحلة الأولى من التطور الإنسانى سراً غامضاً)[٢]

وفى أسـلوب ينم عن اللباقة تفسر دورية "العلوم" الأمريكية العجز فى ذلك قائلة:

(إنَّ نوعية نسب أجداد الإنسان ما زالت نظرية محضة)[٣] - أى ليست من الحقائق - وبنفس الأسلوب نجد أنَّ " علماء الإنسان القردى "قد وضعوا فى مؤتمرهم المعقود سنة ١٩٦٥ تواريخ اعتمدتها مجلة "نيو يورك تايمس" حيث قرروا: (إنَّ جهلنا بشجرة نسب الإنسان ما زالت حتى اليوم جهلاً عجيباً فهناك ما زالت ثغرات)[٤] . إلا أنهم مع ذلك وبتأكيد غريب مستهجن يدللون على وجود الإنسان القردى قائلين كما ورد فى نفس المجلة: (منذ ما لا يقل عن ثلاثين مليون سنة بدأت تظهر الصفات التى تميّز الإنسان عن غيره من الحيوانات)[٥] ويشير الجدول الذى اعتمدوه إلى التأكيد على أنه فى المقام الأول يوجد حيوان اسمه "*Proplio Pithecus*" يشبه القرد المسمى "غيبون *Gibbon*"[٦] والذى وجدت عظامه فى مصر .

تلك كانت المرحلة الأولى من مراحل تطور وتحول الإنسان من قرد إلى إنسان ، أمّا المرحلة الثانية فهى كما يقول جدولهم المعتمد: (إنَّ المرحلة الثانية كانت قبل ١٩ مليون

---

(١) خلق لا تطور ، صفحة (٩٧) ، نقلاً عن: *Saturday Evening Post*
(٢) المصدر السابق ، نقلاً عن: كتاب "الإنسان الأول" *Primates*
(٣) المصدر السابق ، نقلاً عن: مجلة "العلوم *Sciences*" عدد شهر ١١ سنة ١٩٦٦ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة (٩٨) ، نقلاً عن: مجلة "*New York Times*" ، عدد ١١ / ٤ / ١٩٦٥ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) غيبون: قرد هندى ماليزى يتسلق الأشجار بخفة بسبب طول ذراعه .

سنة ، وفيها ظهر حيوان تشبه أسنانه أسنان الإنسان والقردة)[١] لقد زعموا وجود بقايا من هذا الحيوان والذى أطلقوا عليه اسم "*Dryopithecus*"[٢] فى أفريقيا وفى أورازيا[٣] وبعملية حسابية نجد أنّ الفرق بين الحيوان الأول وبين الحيوان الثانى هو فترة زمنية تقدر بـ ١١ مليون سنة ليس لدينا عنها أى علم فى المستحاثات[٤] . وتضيف المجلة (بعد انقراض الحيوان الثانى منذ نحو تسعة ملايين سنة لم نجد فى الصخور أى معلومات خلال سبعة ملايين سنة)[٥] . إلا أنَّ نفس المجلة وفى عدد آخر تستعمل الحكمة والتروى حتى يتم لهم الحصول على براهين مادية حيث تذكر : (إنَّ من الحكمة ألا نؤكد بأنّ الصلة بين الإنسان القردى والإنسان تعتمد على شهادة المستحاثات بل ننتظر اكتشافات جديدة)[٦]

وفى نِسْبَة نَسَب الإنسان إلى الجَد الذى ادعته دورية نيويورك تايمس الذى هو "*Propilio*"[٧] فإنَّ علماء تطور آخرين يرفضون ذلك النَّسَب ، ويوصلون النَّسَب بالقرد المعروف باسم "غيبون" ويقولون بأنه "*Dryopith*"[٨] ، مع رؤيتهم أنَّ أقدم أجداد الإنسان القردى هو حيوان "*Ramapith*"[٩] أى أنَّ لكل منهم روايات توهمها كيفما اتفق !

---

(١) المصدر السابق .

(٢) لا يوجد ترجمة عربية لهذا الاسم ، ويختصر باسم "*Droplio*" .

(٣) أورازيا : اصطلاح يطلق على قارتى آسيا وأوروبا .

(٤) المستحاثات - علم الإحاثة - paleontology -هو علم مستحدث يبحث فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية الغابرة ، كما تمثلها الأحافير الحيوانية والنباتية ، وقد نشأ هذا العلم فى أوائل القرن التاسع عشر ، قاصدين منه إلقاء الأضواء على المسائل النشوئية ، وعلى مسائل تصنيف الحيوان والنبات والعوامل التى تحدد توزعها الجغرافى .أما الأحافير (المستحجرات) fossils : فهى بقايا أو آثار الحيوانات والنباتات التى هلكت أو بادت ودفنت فى طبقات الأرض فى أزمنة غابرة ، وهى تكون عادة متحجرة فى الصخور أو مطبوعة عليها .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق : نقلا عن : المجلة الأمريكية ، عدد تموز ١٩٦٤ .

(٧) اختصار لكلمة : *Propliopithecus* .

(٨) اختصار لكلمة : *Dryopithecus* .

(٩) اختصار لكلمة : *Ramapithcus* . ❖لم تعتمد ترجمة عربية للأسماء الثلاثة السابقة ومثيلاتها .

وتدعى نفس المجلة أنه : (منذ نحو ١٢ مليون سنة أى فى منتصف الطريق بعد ظهور الإنسان الأول "*Dryopith*" ظهرت مخلوقة جديدة أسمتها "*Simiesque*" لها ملامح الإنسان ، اكتشفت فى سلسلة جبال سيواليك)[١]

يتضح بداهة أنَّ الجَد المزعوم "رامابيت" والجَد الآخر "أوسترالوبيت" الذى هو "الإنسان القردى الأفريقي" الذى يطلقون عليه اسم "*Australo Pithecus*" وهو الجَد الثانى المزعوم فى سلسلة النَّسَب توجد بينهما ثغرة عميقة ، وفى هذا تقول جريدة "أخبار العلوم" فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٧/١/٢٨ : (من المؤسف أن يكون بين آخر رامابيت وبين أول أوسترالوبيت ثغرة تمتد نحو عشرة ملايين سنة ليس لدينا عنها أى أثر للمستحاثات وهكذا فإننا أمام هذه المعطيات نجد الصخور صامتة لا تدلى بأى دليل منذ ١٢ مليون سنة وحتى عشرين مليون سنة قبل عصرنا هذا)[٢]

والسؤال الذى يتبادر إلى ذهن كل عاقل ويحتاج إلى إجابة مقنعة هو : من هو الجد رامابيت هذا ، وما هى أوصافه ، وما هو الدليل على أنَّ هذا المخلوق المدعى يتصل بنسَب الأبوة إلى الإنسان؟

ويجيب العلماء على هذا السؤال فى مجلة "*Saturday evening post*":

(**لعَلَّ** الرامابيت كان الشمبانزى الصغير الذى يتمتع بأيد خفيفة وبخفة القرد ، **وقد** يمكن أن يكون من أوائل المخلوقات التى عُرِفَت ، ولكنه ليس بالمخلوق الأول فى أُسرة الإنسان ، وكان لا يقل ذكاء عن الشمبانزى الذى نعرفه الآن ، وليس لدينا إلا فكرة عابرة عن صورة مقطوعة من فيلم طويل)[٣] .

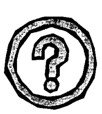
والذى نفهمه من هذا النّص والأوصاف التى يقدمها لنا علماء التطور بأنّ الرامابيت كان حيواناً من أُسرة القرد الإنسانى المزعوم أو القردة كبيرة الحجم ، أما ادعائهم أنَّه

---

(١) سلسلة جبال سيواليك أمام جبال همالايا فى شمال غرب الهند .
(٢) خلق لا تطور ، صفحة (٩٩) ، نقلاً عن : جريدة "أخبار العلوم" عدد ٢٨ /١/ ١٩٦٧ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة (١٠٠) ، نقلاً عن : مجلة "ستر دى ايفننج بوست" .

كان فى سلسلة نسب الإنسان فإنَّهُ وَهم وخيال واسع لا يتصل إلى الحقيقة بسبب ، **لا** سيما وأنّ علماء تطور آخرين لا يؤكدون أنه داخل فى سلسلة التطور الإنساني ، ومن ذلك ما يقوله "د . كلارك" صاحب كتاب "أدلة المستحاثات على تطور الإنسان" **فقد ذكر فى كتابه المذكور:**

(يجوز لنا أن **نتخـــيل** صورة للمراحل التى تعترض بين أجدادنا المعروفة باسم "بيتوكويد *Pithecoides*" وبين "الأوسترالوبيت" ، ولكن إذا **انعدمت** الأدلة الملموسة فى المستحاثات تبقى الفكرة **غير مقنعة**)[1] .



لعل. ربما. قد نتخيل هناك ثغرات من الحكمة ألا نؤكد. قد نجد صعوبة فى التأكد..

وفى استعراض أقوالهم نجد أنه يغلب عليها ورود كلمات مثل: (نتخيل . نظن . قَد . رُبَما . هناك ثغرات . من الحكمة ألا نؤكد ، قلما تكون الاستنتاجات مدعومة بدليل . قد نجد صعوبة فى التأكد . سِراً غامضاً . ما زالت محض نظرية . نتصور أنَّ . مازال البحث جارياً . . . وهكذا) وهى كلها عبارات تشكيكية لا تؤخذ على أنّ أصحابها قاطعون بصحتها ، أو حتى أنّ لديهم ترجيحاً أو غلبة ظن بها ، بل هى افتراضاتٌ وهمية لا أساس لها من الصّحة علقت بأذهانهم وطفقوا يألفون لها الأدلة التى عجزوا عن الإتيان بها ، فلا يجوز أن يُكتفى بالتحدث عن سلسلة النّسَب النازلة عن الجَد الأكبر المشترك والمفترض افتراضاً بلا دليل حتى تنتهى إلى **الأوســـــترالوبيت** المزعوم أيضاً فى حين أنَّ تلك السلسلة ليست إلا هرطقات ونتيجة أوهام أتت من نزغ

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن كتاب: "أدلة من المستحثات على تطور الإنسان" .

الشيطان ، فلماذا يقبل عاقلٌ نظرية تقوم على تخيلات وأوهام لا تستند إلى أى دليل أو إثبات ، وليس لها أى أثر فى الواقع!!!

إنّ الأخذ بتلك النظرية أو ما يناقضها هو أمر عقائدي ، فالعقيدة هى فكرة كلية شاملة عن الكون والحياة والإنسان ، وعما قبل الحياة الدنيا وعما بعدها وهذا يعنى تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل . وذلك يحتم علينا أنَّ كل ما نأخذه كعقيدة يجب أن يكون قد أتى بدليل عقلى يجزم به ويجزم بفساد وبطلان ما يخالفه ، لذا فإن إعطاء نظريات عقائدية بلا دليل يمكن الجزم به هو أمر مرفوض قطعاً ، كما هو مرفوض أيضاً الاعتقاد بنظريات أتت بعبارات تشكيكية لأن تلك العبارات تدل على عدم وجود القطع والجزم عند القائلين بها ، بل تدل على الظن والتوهم مما لا يجوز أخذه فى الاعتقاد ، وبالتالى لا مكان لها لأن تصبح فكرة كلية شاملة .



الفصل الخامس عشر

الإنســـان البدائـــى

يفترض علماء التطور أنّ الإنسان الأول "أوسترالوبيت" قد ظهر قبل مليونى سنة ، ويزعمون أنه كان يعرف صنع الأدوات ، ويزعمون أيضاً أنّ دماغه كان مقارباً لثلث دماغ الإنسان حجماً ، فقد ذكرت "نيويورك تايمس" فى عددها الصادر بتاريخ ١١/٤/١٩٦٥:

(إنّ الإنسان الحاذق " *Homo Habilis*" الذى اكتشفه الدكتور ليكى "*Dr. L. Leakey*" والذى يبدو أنه كان يستطيع أن يصنع أدواته ، يعتبره الدكتور روبنسون "*Dr Robinson.*" وغيره من العلماء شكلاً من أشكال الأوسترالوبيت)[١] . ومن جهته يؤكد كتاب "الإنسان الأول *Primates*" : (إنّ اكتشاف دكتور ليكى يسمح بتحقيق أول فرصة مترابطة بشأن تطور الإنسان من أجداده القردة)[٢]

لقد استمرت أعمال التنقيب والبحث قرناً من الزّمن ، حتى أمكنهم الحصول على بعض العظام التى أمكن بها تجميع هيكل هو أول فرضية ترمى إلى شرح نظريتهم حول كيفية انحدار الإنسان من جد قردى إنساني ، ولكن هل هم قاطعون يقيناً أنّ الأوسترالوبيت كان حقاً قرداً إنسانياً؟ ويجيب العالم التطورى "غرو كلارك *Le Gross Clarck*" بتحفظ : (إنّه لا يمكن أن يطلق لفظ إنسان أو إنسانية على هذا المخلوق إلا مع التّحفظ ، لأنه لا يوجد أى دليل يثبت أنّ ذاك المخلوق كان يملك أى صفة من صفات إنسان اليوم)[٣]

هذا بالنسبة إلى الأسترالوبيت نفسه ، أما بالنسبة للأدوات وفيما إذا كان عرف

---

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١٠١) ، نقلاً عن : جريدة "نيويورك تايمس" عدد ١١/٤/١٩٦٥ .

(٢) يقصد بذلك القرد من نوع *Simlens* . - المصدر السابق ، نقلاً عن كتاب : الإنسان الأول *Primates* " المطبوع باللغة الفرنسية .

(٣) المصدر السابق ، نقلاً عن : الدورية الأمريكية "العلوم" ، عدد : ١٣ / ١٢ / ١٩٥٧ .

صنعها حقاً فتذكر الدورية الأمريكية "العلوم" فى مقال بعنوان "هل كان الأوسترالوبيت والإنسان معاصرين؟ " ما يلي : (يتحدّث الدكتور روبنسون عن اكتشاف ٥٨ قطعة أداة حجرية اكتشفت فى "ستيركفورتن *Sterkfortein*" فى جنوب أفريقيا ، ولهذا الاكتشاف أهمية كبيرة على اعتبار أنّ هذه الصخور تحتوى على بقايا إنسان قردى من نوع "بليستوسى *Pleistocene s*"[١] الأدنى الموجود فى جنوب أفريقيا . .)[٢] . ويختتم د . روبنسون مقاله قائلاً : (إنّ الصفات المذكورة لتلك الأدوات الحجرية تجعلنا نشك بصحة نسبها إلى الأوسترالوبيت ، بل يرى أنّ الفرضية المعقولة فى الوقت الحاضر أن تنسب هذه الصناعة إلى إنسان حقيقي)[٣]

وفى مقال بعنوان "صائدى الطرائد" ظهر فى الدورية الأمريكية "العلوم *Sciences* " فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٥٧/١١/٢٩ : (كتب "ريمون دارت *Raymond Dart*" الذى يعود إليه الفخر فى اكتشاف الأوسترالوبيت الأوائل فى هذه الأيام الأخيرة مقالاً مطولاً عن الحياة الاجتماعية للإنسان القرد ، وهو مقال ممتع ومليء بالتناقضات ، هذا وإنّ المعطيات التى بنى عليها استنتاجه ثم خاتمته ذاتها بدت غير مقنعة فى نظر بعض دارسى التطور ، أما الأدلة التى ساقها دارت على استعمال هذه المخلوقات للنار استعمالاً ذكياً فلم تثبت أمام تجربة التحليل الفردي ، هذا بالإضافة إلى أن بعض الباحثين أمثال "أوكله *Oakley*" قد نسبوا إلى بعض الحيوانات آكلة اللحم " *Carnivova*" مثل الضبع جمع عظام غير الأسترالوبيت ، وقد استخلص "واشبورن *Washborn*" من هذا أنه من الممكن أن لا يكون الأسترالوبيت من الصيادين بل من الطرائد)[٤]

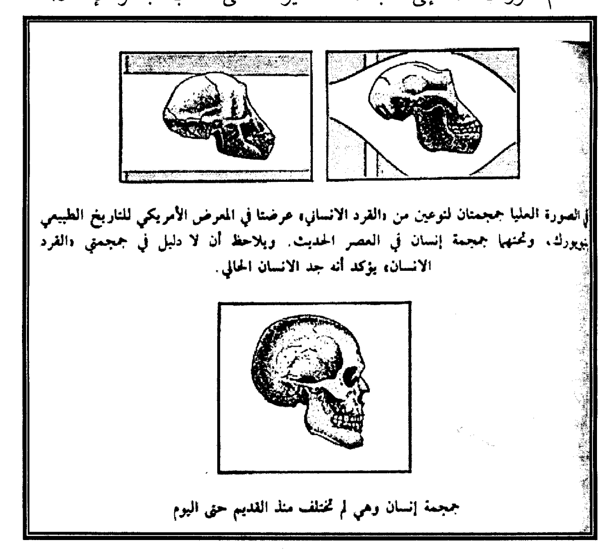
وفى نفى مقولة أنّ الأوسترالوبيت قرد إنساني ، بل هو مجرد حيوان لا صلة بينه وبين الإنسان ، فقد كتب العالِم "ليهرمن *Lehrman . Robert L*" فى كتابه "الطريق

---

(١) بليستوسى من العصر الأول وهو من الحجر المنحوت .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) خلق لا تطور ، صفحة (١٠٢) ، نقلاً عن : مجلة العلوم ، عدد ١٩٥٧/١١/٢٩ .

الطويلة المؤدية إلى الإنسان": (لم يكن الأوسترالوبيت إلا قرداً ذكياً وذا قامة مستوية ، ولم يكن إنساناً . وكانت جمجمته ذات حجم صغير ، وله فوق عينيه صدغي ناتئ ، وفي خط وسط الجمجمة ارتفاع شأنه في ذلك شأن كل القردة الإنسانية)[١] .

وقال "إيشلي *Ashley Montague*" في كتابه "العصور الأولى للإنسان": (إنّ جمجمة الأوسترالوبيت تشبه في شكلها جمجمة القرد شبهاً كبيراً ، وبالتالي فإننا نجد أنفسنا أمام تطورات قادتنا إلى استبعاد هذه الحيوانات في النّسب المباشر للإنسان)[٢] .



في الصورة العليا جمجمتان لنوعين من «القرد الانساني» عرضتا في المعرض الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك، وتحتهما جمجمة إنسان في العصر الحديث. ويلاحظ أن لا دليل في جمجمتي «القرد الانسان» يؤكد أنه جد الانسان الحالي.

جمجمة إنسان وهي لم تختلف منذ القديم حتى اليوم

الإنسان هو الإنسان لم يتغير أو يتبدل أو يتطور ولم يختلف شكل وحجم جمجمته ولم

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١٠٣) نقلاً عن كتاب: *The long road to man* .

(٢) المصدر السابق ، نقلاً عن كتاب: *Les Premiers de 'Homme* .

يتشابه فى ذلك قط مع أى من المخلوقات الأخرى. منذ وُجِدَ إلى الآن [١].

من ناحيتها تؤكد الموسوعة الأمريكية أنَّ أول ظهور الإنسان كان "الإنسان المستوى *Homo Erectus*" وهو الإنسان مستوى القامة الذى يعتبروه "الإنسان العاقل *Homo Spleens*" والذى هو الإنسان الحاضر الموجود ، ويزعمون أنه أرقى أنواع الأوسترالوبيت ، **ويصنفون أنواع الإنسان الأول إلى ثلاثة أنواع :**

إنسان جاوه *Pithecan therapy* : وقد ظهر قبل ٥٠٠ ٠٠٠ سنة .

إنسان بكين *Sinan therapy* : وقد ظهر قبل ٣٦٠ ٠٠٠ سنة

إنسان شيلى *African therapy* : وقد ظهر قبل ٤٠٠ ٠٠٠ سنة .

وتقول المجلة العلمية الأمريكية فى عددها الصادر فى أيار سنة ١٩٦٥ : (إن جميع الذين انصرفوا إلى البحث عن الإنسان الأول متفقون على أنّ الإنسان العاقل الحاضر ينحدر من الإنسان مستوى القامة)[٢] ، أى أنَّ جميع علماء التطور مجمعون على أنّ الإنسان الحالى منحدر من الإنسان مستوى القامة ، فهل إصرارهم هذا ، وهل هذا الإجماع يستند إلى دليل قطعى أكدوا بناء عليه يقيناً على ذلك الإجماع؟ وتجيب نفس المجلة قائلة : (ليس هناك أى دليل مباشر على الانتقال)[٣] فما دام أنهُ ليس هناك أى دليل مباشر ، فكيف اتفقوا وبهذا الإصرار العجيب على أنَّ الإنسان المستوى القامة قد تحول إلى الإنسان العاقل حتماً ، بينما هم يعترفون أنهم لا يستندون إلى أى دليل؟ ليس من جواب على ذلك سوى أنهم سذج عمى البصائر ، أعمى الله قلوبهم وختم على أبصارهم غشاوة فهم لا يعقلون .

ومع إصرارهم على أنَّ الإنسان العاقل قد جاء من نسل الإنسان المستوى القامة ،

---

(١) الصورة المثبتة أعلاه منقولة من كتاب " خلق لا تطور ، صفحة (٣٩) .
(٢) خلق لا تطور ، صفحة (١٠٦) ، نقلاً عن : المجلة العلمية الأمريكية ، عدد : أيار ١٩٦٥ .
(٣) المصدر السابق .

فهم يغالطون أنفسهم حيث تقول نفس المجلة[١] أنَّ المستحاثات التى اكتشفت حديثاً فى المجر تدل على أنّ جماعة راقية تنتسب إلى الإنسان العاقل كانت تعاصر جماعة من الإنسان المستوى القامة ، وبهذه المناسبة فقد كتب "الدكتور وينشستر *M. A.* *Winchester*" أستاذ علم الحياة فى كتابه "علم الحياة وعلاقته بالإنسان" قائلاً : (إنَّ بقايا إنسان سوانسكومب "*Swanscombe*"[٢] فى أوروبا وإنسان كانجييرا "*Kanjera*" فى أفريقيا وغيرهما ، توحى بأنّ الإنسان وجد منذ نحو ٣٠٠ ألف سنة ، وبهذا يكون قد عاصر الإنسان مستوى القامة)[٣]

هذا ولم يمض وقت طويل على علماء التطور وهم يظنون بأنَّ إنسان نياندرتال "*Neanderthal*" هو إنسان قرد ، وهو الحلقة المفقودة للجد المباشر للإنسان الحالى فجاءت أبحاثهم لتقول كما جاء فى مجلة *Harper* ، عدد كانون أول سنة ١٩٦٢ :

(إنَّ إنسان نياندرتال لم يكن دميماً ولا محدوباً ولا كان شكله شكل حيوان كما يُظَنُ غالباً ، بل كانت جماعة منهم تشتكى من التهاب المفاصل)[٤] ، تقول مجلة نيويورك تايمس مجازين : (إنَّ حجم جمجمة الإنسان النياندتال كانت أكبر من حجم جمجمة الإنسان الحالى المتوسط)[٥]

وحتى تتضح الصورة عن ذلك الإنسان المزعوم نرجع إلى الموسوعة الأمريكية حيث تقول (فى البدء كان العلماء يظنون أنَّ إنسان نياندرتال كان ذا هيكل قردي ، دميماً محدوباً وذا مظهر حيواني . ولكنَّ الأبحاث الأخيرة أظهرت أنَّ أجسام رجال ونساء النياندرتاليين كانت إنسانية تامة وكانت مستوية وذوات عضلات نامية ، وكانت

---

(١) المجلة العلمية الأمريكية ، عدد شهر تشرين ثانى سنة ١٩٦٦ .
(٢) سوانسكومب : منطقة فى إنجلترا .
(٣) المصدر السابق ، نقلاً عن : *Ama Its Relation to Mankind. Biology* .
(٤) المصدر السابق ، صفحة (١٠٧) ، نقلا عن مجلة : هابر *Haper* ، فى عدد : ديسمبر ١٩٦٢ .
(٥) المصدر السابق ، صفحة (١٠٨) ، نقلاً عن مجلة : نيويورك تايمس مجازين ، عدد ١٩٦١/٥/١٩ .

دماغهم بحجم دماغ إنسان اليوم)[١]

والغريب المستهجن أن نفس الموسوعة المذكورة ، ومع قناعتها المنشورة آنفاً والتى لا تحتمل أى معنى آخر إلا نفى الصفات الحيوانية عن النياندرتاليين وإعطائهم السمات الإنسانية الكاملة ، ومع هذا تقدم فى مقالٍ ثانٍ صورة لأسرة نياندرتالية ممثلة إياهم كالقرود ذوات الهيكل المتجمع والظهر المحدودب والشكل الحيواني !!! وتفسير هذا الموقف الذى يناقض بعضه بعضاً : هو رغبة كافة دعاة التطور إلى عرض الإنسان بتلك الصورة المشوهة ، لكى يبرروا بالتالى إصرارهم العجيب على أنّ القرد الإنسانى هو جد الإنسان الحالي .



وهناك مستحثات أخرى كانت فيما مضى تُعتبر وكأنها عائدة إلى أنواع مختلفة صنفت حديثاً - ولغاية أرادوها فى نفوسهم - بإلحاقها بالإنسان الحاضر . وكان جنس "كرومانيون *Cro magnon*" الذى وُجدَت بقاياه عام ١٨٦٨ فى كهف كرومنيون فى

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١٠٨) ، نقلا عن : المجلة العلمية الأمريكية .

الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا والذى يتميز بقامته الفارعة المنتصبة ، وبجمجمته الطويلة ، وبعينيه الغائرتين ، ويعتبره بعض العلماء الجد الأعلى للإنسان الأوروبى الحديث[١] كان هذا الجنس - كما يزعمون - يشبه الإنسان الحالى شبهاً تاماً فى جميع صفاته الخارجية ، فقد أكدت المجلة العلمية "ساينس دايجست *Sciences Digest* " بأنَّ دماغ الإنسان ما زال فى تناقص من حيث الحجم منذ إنسان كرومانيون ، وهذا دليل على التراجع لا على التطور نحو الأفضل [٢] .

ويقول "وينشستر *Winchester*" فى كتابه "علم الأحياء وعلاقته بالإنسان" : (لقد مضى وقت طويل كان يُظنُ فيه بأنّ الإنسان الحاضر منحدر مباشرة من إنسان جاوه وإنسان روديسيا والإنسان النياندرتالي ، ولكن مع توفر الأدلة بدت استحالة هذا الأمر ، إذ وجدت بقايا إنسان حقيقى قديم عاصَرَ أجناساً أخرى)[٣]

وفى نفس الموضوع وتأكيداً لما سبق يقول عالم الأحياء "مارش *F. Marsh*" فى كتابه "التطور أو الحلقة المفقودة" : (هناك مثال آخر على تزوير الأدلة فى قضية "دبوا *Du Bois*"[٤] الذى بعد سنوات من إعلانه أحدث ضجة ، والذى قال فيه إنه اكتشف بقايا من إنسان جاوه ، اعترف بأنه فى الوقت نفسه وفى المكان ذاته وجد عظاماً تعود **بلا شك** إلى الإنسان الحاضر)[٥] ، **وكاتب** آخر أدلى بدلوه فى القضية وعالجها بطريقته فى مقال ظهر فى كتاب "*Science moderne*" : (من الجدير بالملاحظة ألاّ نُهمل الهياكل العظمية العائدة لإنسان اليوم ، والتى وُجِدَت فى أماكن متفرقة ، وأكثرها فى الغالب يدل على أنها قديمة ،

---

(١) موسوعة المورد العربية ، الجزء الأول ، صفحة (١٣٩) .

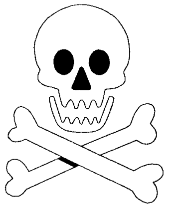
(٢) خلق لا تطور ، صفحة (١٠٨) ، نقلاً عن مجلة : سيانس دايجست .

(٣) المصدر السابق ، صفحة (١٠٩) ، نقلاً عن : *Ama Its Relation to Mankind. Biology* .

(٤) طبيب هولندى أعلن عن اكتشافه "إنسان جاوه" .

(٥) المصدر السابق ، نقلاً عن : *Evolution or special creation* .

إذ لم تكن أقدم من هياكل الإنسان "هومينويد *Hominoid*" والمفترض أنه أقل رقياً منا ، وليس هناك أى دليل راهن يؤكد النظرية التى يراها بعض العلماء ، والقائلة بأنّ إنسان نياندرتال وإنسان جاوه وإنسان بكين وغيرهما يمثلون أجناساً منحطّة انحدرت من الإنسان العاقل عن طريق الانتقال أو الانعزال وغير ذلك ، بل الأصح هو أن نقول بأنّ إنسان اليوم قد انحط عن أجداد كانوا أفضل منه ، إذ من المعلوم أنّ جنس كرومانيون الذى سكن أوروبا فى فترة قريبة من النياندرتال كان أرقى من إنسان اليوم سواء من ناحية القد أو من حيث سعة الجمجمة)[١] ، وإنّ هذا هو أبلغ رد على هرطقات دعاة التطور ، وضحالة فكر من وضع نظريات التطور والارتقاء المادي ، فهو يعطى الدليل على أنّ جميع نظرياتهم كانت عبارة عن افتراضات مسبقة كانت نتاج بتصميم مسبق ولغاية لعقول محدودة وناقصة وعاجزة بلا إثبات وبلا أدلة - وحتى بدون بحوث علمية مسبقة - اللهم إلا لرغبتهم فى الشهرة ولخدمة رغبات متركزة فى نفوسهم ، لذا فقد ابتدعوا نظريات واهية ثمّ طفقوا يبحثون لها عن دليل يؤكدها فى المغاور والكهوف وعلى صفحات الصخور والحجارة وبين الفضلات والنفايات .



لقد اعتمد أصحاب تلك النظريات على العظام والهياكل لإثبات صحة ادعاءاتهم ، وهاهى نفس العظام والهياكل التى سعوا إليها متلهفين عليها ليثبتوا بها صحة أقاويلهم ، إذا بها تكذبهم وتفند دعواهم وتنقض نظرياتهم وتضعهم فى تخبُّط ، فإذا بعلمائهم ينقلبون من مؤيد لتلك النظريات داعياً لها ومثبتاً لأركانها ، ينقلبون إلى رافض لها ومكذب لصحتها .

إننا إذا قمنا بالمقارنة بين المصادر السابقة ، وخاصة المصدر الأخير ، [٢] إذا قارنا ذلك بما جاء فى نظرية التطور والارتقاء المادى التى وضعها داروين مع

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١٠٩) ، نقلا عن كتاب: *Science Moderne* .
(٢) "كتاب " ساينس مودرن *Science moderne* . " .

اقترانها بمفهوم التطور المادى لديهم ، فأنا نجد البَون شاسعاً بين أقوال العلماء ، مما ينتج عنه فساد نظرياتهم ونقضها من أساسها ، وحتى تتضح الصورة أكثر نعود إلى ما اتفقوا عليه من تعريف لتلك النظرية وبالتالى لتعريف مفهوم التطور لديهم : (إنه يعنى ارتقاء الحياة من جهاز عضوى ذى خلية واحدة إلى أعلى درجات الارتقاء وهو بالتالي : التّغير الذى طرأ على الإنسان نتيجة حلقات من التغييرات العضوية خلال ملايين السنين)[1]

أمّا الأفكار الأساسية لنظرية التطور والارتقاء المادى فهى تحديداً كما حددته "الموسوعة العالمية" طبعه (١٩٦٦) : (إنّ نظرية التطور العضوى تنطوى **على ثلاثة أفكار رئيسية هي :**

إنّ الكائنات الحيّة تتبدل جيلاً بعد جيل وتنتج نسلاً يتمتع بصفات جديدة .

إنّ هذا التطور قديم جداً وبه وُجِدت كل أنواع الكائنات الحيّة .

إنّ جميع الكائنات الحيّة يتصل بعضها ببعض بصلة قرابة) [2] .

فتعريف التطور لديهم ، علاوة ما جاء شجرة الأحياء التى وضعها داروين ، [3] يحتم أن يكون تدرج التطور من الصور المنحطة الدنيا للمخلوقات إلى صور أرقى وأعلى مرتبة منها بالتأكيد ، أى أنّ حتمية ظهور مخلوقات أرقى بفعل التطور انحدرت من مخلوقات أدنى وأحط ، وحتمية التطور تحتم انقراض فى المخلوقات الدنيا والتى ظهر بديلاً لها مخلوقات أعلى وأفضل منها وأقدر على الحياة ، هذا هو الأمر الواقع والحتمى كما يقول كتاب " علم الحياة لك " وكما يقول عرّاب التطور سير جولين هكسله : (إنّ التطورية لا تترك أى مجال

---

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١٣) نقلا عن : جريدة "*Houston Post*" .

(٢) المصدر السابق ، صفحة (١٤) نقلا عن : *World book encyclopedia* .

(٣) المصدر الفصل الخامس من هذا الباب .

للخوارق ، فالأرض وسكانها لم يُخلقوا كما هم ، بل تكونوا بالتطور) [١] .

وهـذا التطور الـذى يؤكـده هكسـله جازمـاً ، هـو تطـور بالمقاييس الـتى اعـتمدها داروين وزمـلاءه ، تلـك المقاييس الـتى تعـتمد عـلى **قـاعدة البقاء للأصلح** وذلـك يقتضـى أنَّ كـل طـور آتٍ هـو أفضـل مـن سـابقه ، فهـو بالـتالى يتمتع بصفات أحسن من الطّور الذى سبقه .

وينقض تلك النظرية من أساسها بما فيها من فروض وقواعد وتعاريف ما جاء فى كتاب **ساينس مودرن** آنفاً وما أكده عالم الأحياء مارش ، فالأول يؤكد أنَّ التطور كان من الأعلى إلى الأدنى ومن الرقى إلى المنحط ، والثانى يؤكد تزامن وجود الراقى فى وقت واحد مع الأقل رقياً ، فبأى من نظريات هؤلاء العلماء نأخذ؟ وما من تلك النظريات نأخذ وما نذر؟ .

يؤكد الأستاذ "إيفار *IVAR*" نظريةً حول ما يسمى الإنسان البدائى وأوصافه قائلاً فى كتاب "وكان الله هُناك" : (لقد بدئنا نشعر بأنّ الإنسان البدائى لم يكن متوحشاً ، وقد بقى علينا أن نقتنع بأنّ إنسان بليستوسين لم يكن جِلفاً ولم يكن قِرداً ، ولذا فإنّ الهياكل العظمية التى أُعيد تركيبها ، والتى يقال بأنها تمثل النياندرتال أو غيره من النّاس لم تمثل الحقيقة)[٢] .

أما ما تعرضه متاحف المدن الكبرى من رؤوس أشخاص قبيحة ، جلدها أغبر بلون التراب ، وذات لحى مبالغ فى طولها ، ذات جبهات عريضة واسعة وفك ناتئ ، فالصحيح أنه لا يمكن أن يعرف بواسطة العظام أى شيء عن لون البشرة أو عن السّحنة أو لون اللحية وطولها ، وذلك ما يعترف به العالم الأمريكى ستيوارت حيث يقول :

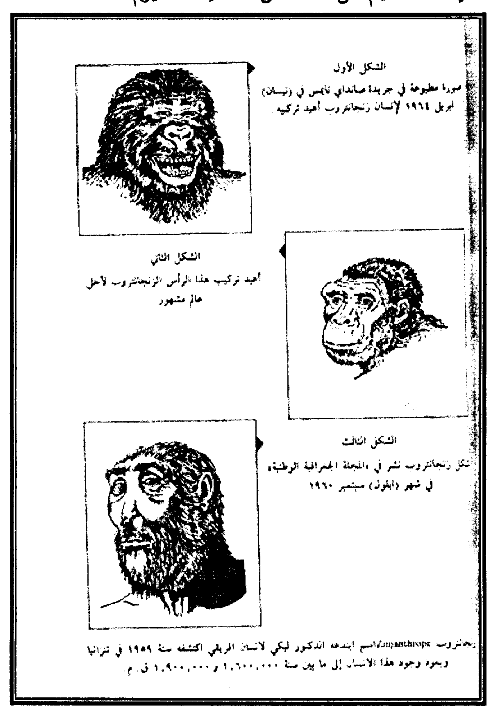
(إنّه من المستحيل إعادة تركيب أى شيء فى هذه الحالات ، بل لعل من الممكن ألا

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن : *Biology for you - Vance Miller. B., B. F. D* .

(٢) المصدر السابق ، صفحة (١١٠) ، نقلاً عن : *Ivar Lissner - Dieu etait Dega La* .

تكون خلقة الإنسان القديم أقل جمالاً من خلقة إنسان اليوم)[1]



لا يمكن أن يُعرف بواسطة العظام أى شيء عن لون البشرة أو السحنة أو لون اللحية وطولها

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١١٢) .

أمّا عن اكتشاف " دكتور ليكى Dr. L. Leakey " الشهير لجمجمة إنسان فى كينيا ، فتقول مجلة " عالم الفكر " فى عددها الرابع من المجلد الثالث ، وفى صفحة (١١) ما يلي : (أعلَنَ الدكتور ريتشارد ليكى مدير المتحف الوطنى فى كينيا فى نوفمبر عام ١٩٧٢ ، أمام الجمعية الجغرافية الوطنية فى واشنطن عن اكتشاف بقايا جمجمة يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون سنة مضت ، وهذه الجمجمة ترجع بذلك إلى مليون ونصف مليون عام عن أقدم أثر أمكن الحصول عليه حتى ذلك الحين ، كما أنه تم اكتشاف ساق ترجع إلى تلك الحقبة من التاريخ فى جبل حجرى بإحدى الصحراوات شرقى بحيرة رودولف فى كينيا ، ويبدو أنّ هذا الاكتشاف سوف يقلب النظريات القائمة بشأن تطور الإنسان من أسلافه المبكرين من عصور ما قبل التاريخ ، فنظريات التطور الحالية وعلى رأسها نظرية داروين تذهب إلى أنَّ الإنسان تطور من مخلوق بدائى له سمات فيزيقية أقرب إلى سمات القرود العليا ، وأنّ أقدم أثر للإنسان ككائن منتصب القامة يرجع إلى نحو مليون سنة فقط ، فى حين أنَّ الاكتشاف الجديد يدل على أنّ الكائن البشرى المنتصب القامة يسير على ساقين اثنتين لم يتطور من كائن أكثر بدائية ، أو أنه انحدر من سلالة أحد تلك الآدميات المشبهة بالقردة ، وإنما عاصرها منذ نحو مليونين ونصف مليون سنة ، وليس من شك فى أنه لو صحَت تلك النظرية لهدمت نظرية التطور الداروينى من أساسها ، ودعمت نظرية الخَلق المستقل)[1]

أما بالنسبة لما يدعونه من المشابهة الهيكلية بين الإنسان والقرود ، إذ يدعون أنّ تكوينه الهيكلى يشبه تكوين فصائل السيميا[2] فإنّ هذا الشبه الهيكلى ليس بالضرورة برهاناً على أننا نسل من أسلاف سيميائية - القرود -

(١) دورية " عالم الفكر " المجلد الثالث ، العدد الرابع ، صفحة (١١) .

(٢) فصائل السيميا *Simian* : فصائل الأورانجتان والغوريلا والشمبانزي .

وأنَّ تلك القرود هي ذرية منحطة للإنسان . ولا يستطيع أحد أن يزعم أنّ سمك القد "*Cod*" قد تطور من سمك الحساس"*Haddock*" وإن يكن كلاهما يسكن المياه نفسها ويأكل الطعام نفسه ، ولهما عظام تكاد تكون متشابهة . وإنما يعنى وبوضوح تام عظمة الخالق الذى أحسن كل شيء خلقه ووازنه وأعطاه كل ما يلزمه فى تكوينه .

إنَّ العلم يشير إلى إبهام يد الإنسان وقدرتها على الإمساك بالعدد والأسلحة ، ويعد ذلك أصلاً لتميز الإنسان ، وإنَّ إبهام القرد التى لا نفع لها لهى برهان قاطع على أنّ إبهام الإنسان لا يمكن أن تكون قد جاءت من إبهام قرود السيميا التى تعيش على الأشجار ، تلك الإبهام المخصصة لتلك العيشة ولهذا النوع من العيش ، والحصان الذى يجرى الآن على إصبع شديدة التّخصص لا يمكنه أبداً أن يستعيد تلك الأصابع التى فقدها على كر الزمن - إن كان قد فقد أصابع أصلاً ، وهو ما لم يحصل - على أننا لا ينبغى لنا أن نُشغلَ أنفسنا بشكل جدى أكثر من اللازم بالترهات والهرطقات والجدل العقيم والفرضيات الوهمية لما حدث لأسلافنا منذ مليونى جيل على الأقل ، ومع هذا يبدو أن البحث عن الحلقة المفقودة سوف يتضح عبثه وعدم جدواه . . .

إنّ جوزة البلوط تسقط على الأرض فتحفظها قشرتها السمراء الجامدة وتتدحرج فى حفرة ما من الأرض ، وفى الرّبيع تستيقظ الجرثومة فتنفجر القشرة ويزود الطعام من اللب الشبيه بالبيضة التى اختفت فيه الجينات ، وهى تمد الجذور فى الأرض وإذا بك ترى شجيرة لتنقلب بعد سنوات شجرة وارفة الظلال باسقة الأغصان ، تعطى بغزارة أجود الثمار . وفى خلال مئات بل آلاف السنين قد بقى فى ثمار البلوط التى لا تحصى نفس ترتيب الذرات تماماً الذى أنتج أول شجرة بلوط منذ ملايين السنين .

لم تحمل شجرة بلوط قط سفرجلاً أوتفاحاً أو موزاً ، ولم يلد أى حوت سمكة ، وحقول القمح المتماوجة هى قمح فى كل حبة من حبوبها ، والشعير هو الشعير ، والشوفان هو الشوفان ، والقانون هو القانون الذى يتحكم فى التنظيم الذرى "الجينات" التى تقرر قطعاً كل نوع من الحياة من البداية إلى النهاية .

لقد قال "هيكل *Heackel*" (أعطنى هواء ومواد كيماوية ووقتاً ، وأنا أصنع الإنسان) . ولكنه أغفل وحدات الوراثة "الجينات" وأغفل الحياة نفسها . لقد كان لو استطاع - ولن يستطيع ذلك أبداً - أن يجد وينظم الذرات غير المرئية ووحدات الوراثة ويمنحها الحياة!!! وحتى فى هذه الحالة كانت النتيجة رياضياً بنسبة بلايين إلى واحد أنهُ كان سيأتى بوحش لا مثيل له . ولو نجح جدلاً - ولن ينجح - لقال أنَّ الأمر لم يكن مجرد مصادفة عشوائية ، ولكن ثمرة عقله الخارق!!!!)[1]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾[2].

---

(١) الفقرات الخمس الأخيرة : منقولة بتصرف من كتاب "العلم يدعو للإيمان" ، الفصل العاشر - وحدات الوراثة - الصفحات (١٣٩ - ١٥٠) .

(٢) سورة الحج : (٧٣) .

الباب الثانى

نقض نظريات التّطور المادى

١- تَزوير الحقائق

٢- الأعضاء البدائية والانتخاب الطبيعي

٣- نقض نظرية التطور والارتقاء المادي

٤- آراء العلماء فى التطور والخلق

٥- وأخيراً...



صورة الغلاف للنسخة العربية من كتاب داروين

أصل الأنواع

The Origin Of Species

الفصل الأول

تزويــر الحقائـــق

إنَّ من يُنكر الخَلق من دعاة التّطور لا يقبل إلا الوقائع المادية المحسوسة والملموسة والتى يستطيع إخضاعها للفحوص المادية والمعامل المخبرية ، لـذا فهـم لا يؤمنون بالمغيبات لأنها فوق مستوى إدراكهم لأنهم يتعاملون مع المحسوسات المادية فقط . ونظراً لكونهم يستندون فى إثبات نظرياتهم على ما تمّ اكتشافه فعلاً - أو ما سيتم اكتشافه لاحقاً - من بقايا عظام وجماجم وهياكل بشرية ، فهم يتعاملون معها بإعطائها الأشكال التى كوّنوها فى عقولهم وأودعوها فى نظرياتهم ، ولقد ثبت أنهم قاموا بالتزوير والخديعة حتى فيما اكتشف فى المستحاثات ، **لكى يثبتوا خداعاً وبطريقة الـتّزوير صحة نظرياتهم وافتراضاتهم حول التطور والنشوء والتخلق.** وكمثال على عمليات التزوير والخداع والتلاعب فى عقول النّاس باسم العلم المجرد النزيه ، نثبت ما ورد فى أحد أعداد الدورية الأمريكية "نيويورك تايمس" لسنة (١٩٥٩) : (إنَّ إنسان بكين الذى مضى عليه ٥٠٠ ألف سنة قد أُعطِى خلقة جديدة ، ليلعب دوراً رئيسياً فى فيلم وثائقى صيني ، وقد أعيد تركيب هذا الإنسان الذى هو إنسان ما قبل التاريخ لهذه الغاية ، وّعُرِضَ الإنسان الجديد على العالم على اعتبار أنه أشبه الناس بالإنسان القديم)[١]

نعــم ، باسم العلم المجرد النزيه وحقائقه ترتكب جريمة التزوير بقصد خداع الناس . . . تزوير وخداع عن سابق قصد ونية فى الأمور العلمية ، والمقصود منه إغفال العقول عن الحقيقة باسم العلم ، وإيهام الناس بصحة ودقّة وصدق نظرياتهم باسم العلم والذى هو علم مزور ، وليس ما سبق هو التزوير الوحيد ، بل لقد عمد علماؤهم لذلك مِراراً وتكراراً ، وكلما افتقدوا الدليل والسّند . وعلى سبيل المثال فإنه

---

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١١٢) ، نقلاً عن جريدة : نيويورك تايمس ، سنة ١٩٥٩

حين أعلن الطبيب الهولندى "دوبوا *Du bois*" سنة (١٩٨١ و١٩٨٢) اكتشافه إنسان جاوه الذى يُدعى "بيتكانتروب" فقد أعلنت "الموسوعة البريطانية" ما يلي : (إنَّ القطع العظمية كانت قطعة من جمجمة تشبه جمجمة قرد كبير "كيبون" وعظم فخذ أيسر وثلاثة أضراس ، وقد اكتشفت هذه العظام بعيدة الواحدة عن الأخرى نحو عشرين خطوة ، واكتشفت قطعة من الفك الأيسر فى مكان آخر من الجزيرة ، ولكن فى طبقة أرضية من العمر ذاته)[١]

وقد مَرَّ معنا فى موضع سابق[٢] ، رأى عالم الطبيعة مارش فى كتابه "التطور أو الحلقة المفقودة" **حيث يقول:**

(هناك مثل آخر على تزوير الأدلة فى قضية دوبوا الذى بعد سنوات من إعلانه الذى أحدث ضجة ، والذى قال فيه أنه اكتشف إنسان جاوة ، اعترف أنه وفى الوقت نفسه وفى المكان ذاته ، وُجِدَ عظاماً تعود بلا شك إلى الإنسان الحاضر)[٣]

فإلى كل من يتشدّق بالعلم واكتشافاته الباهرة ، مبرهناً بذلك على صدق نظرية مفترضة ، **نـتوجه بالســؤال التالي:** هل يمكن أن نَصِفَ العثور على تلك القطع متناثرة بعيدة إحداها عن الأخرى مسافة خمس عشر متراً ، مضافاً لها قطعة وجدت على بعد بضعة كيلومترات أنّ ذلك اكتشاف علمى ودليل على إثبات صحة نظرية؟ ثمَّ هل يجوز لنا الإدعاء أنّ كل تلك القطع كانت لإنسان واحد؟؟؟ .

كانت تلك هى أمثلة بسيطة من أمثلة تزويرهم للعلم وتأويلهم له ، ليكشف لنا عن كنه نظرياتهم الواهية ، ومن مثل ما ورد ذكره وما سيرد لاحقاً ، يتبين لنا بجلاء تام أنّ العلماء الذين نادوا بتلك النظريات لم يجدوا دليلاً أو شبه دليل على صدق مقولاتهم ، اللهم إلا التجائهم إلى العلم يزوروه ليخادعوا به أنفسهم قبل أن يخدعوا

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن : الموسوعة البريطانية .
(٢) انظر : الباب الأول - الفصل الخامس عشر "الإنسان البدائى" ، صفحة (١٣٢) .
(٣) المصدر السابق ، نقلاً عن : *Evolution of special creation* .

الناس فى طريقة إثبات مقولاتهم ، ولكن أنى لهم ذلك . وحتى تتضح الصورة أكثر ، لنأخذ مثلاً آخر من الأمثلة الكثيرة المُثبِتَةُ للتزوير المُتَقَصّد من عالم التّطور "غرو كلارك" **حيث يقول :**

(من الخطأ الكبير أن يعتمد المرء فى هذه الأمور على معطيات غير واضحة . وقضية سن الخنزير مثال على ذلك ، وقصة ذلك أنه فى سنة (١٩٢٢) اكتشفت فى نبراسكا[1] سن قيل أنه سن قرد "إنسان منقرض" . وقد ثبت بعد ذلك أنه سن خنزير بري ، وليس من شك بأنّ هناك قليلاً من العلماء الذين لم يرتكبوا مثل هذه الأخطاء خلال حياتهم العلمية)[2]

ربما يقال أنّ كل تلك الحوادث قد جرى اعتمادها بطريق الخطأ ولم تكن هناك نيّة مبيتة للخداع والتزوير ، إذ أنّ العلماء الذين اكتشفوها واستندوا إليها قد توهموا فى اكتشافهم غير الحقيقة ، وللرد على ذلك نورد واقعة أخرى تدل على النيّة المبيتة فى التزوير وقلب الحقائق وخِداع النّاس ، والتى لا تحمل إلا ذلك ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن تُصرَفَ إلى الخطأ وسوء التّقدير وتشابه الأمور وتعقدها ، بل تُصرَفَ إلى سوء النّية المبيتة فى التزوير وقلب الحقائق لخداع الناس وتوجيههم للاعتقاد الخاطئ ، فقد كتبت "الموسوعة البريطانية" بمناسبة اكتشاف آخر : (لقد كان أعظم اكتشاف بعد ذلك هو اكتشاف "شارل داسون *Charles Dawson*" فى "بلتداون *Piltidown*" فى مقاطعة سويكس فى إنجلترا بين سنتى (١٩١١و١٩١٥) ، إذ وُجِدَ الجزء الأكبر من النّصف اليسارى من جمجمة إنسان ، كما وُجِدَ قطعاً من النصف الأيمن من ذلك مهترئاً فى بعض نواحيه ، ولكن كان معه الضرس الأول والثانى فى مكانهما وحفرة الضرس الثالث" ظاهرة . . . ويرى الخُبراء الإنجليز الآن : بأنّ الجمجمة والفك هما لشخص واحد هو **إنسان بيلتداون**)[3]

---

(١) نبراسكا : إحدى ولايات "الولايات المتحدة الأمريكية "وتقع فى الشمال الغربى من وسط البلاد .
(٢) خلق لا تطور ، صفحة (١١٢) .
(٣) المصدر السابق ، صفحة (١١٣) ، منقولاً عن : الموسوعة البريطانية .

ولكن هل الخبراء الإنجليز الذين اكتشفوا ذلك فأجروا البحوث وأعطوا النتائج ، هل هم منصفون وصادقون فى ذلك؟ وهل كان عملهم فى ذلك حقاً كرجال علم يبحثون بكل تجرد ونزاهة عن الحقائق فقط؟ أم أنهم كسابقيهم اندفعوا وراء رغبة جامحة فى إثبات نظرية مفترضة مسبقاً ، فزوروا لهل الحقائق وخدعوا الناس بها مستغلين العلم الذى يدعونه وألقاب العلماء التى يحملوها؟ .

على كل تلك الأسئلة تجيب دورية "أخبار العلم *Scines news*" فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦١/٠٢/٢٥ : (إنّ من أعظم الأخطاء المكتشفة بالطرق العلمية هى قضية إنسان بلتداون التى اكتشفت فى سويكس فى إنجلترا . . . والذى يعتقد بعض العلماء أنه يرجع إلى نصف مليون سنة إلى الوراء ، وبعد أخذٍ وَرَدٍ ثُبتَ بأنّ هذا ألإنسان لم يكن إنساناً بدائياً قط ، بل هو مجموعة من جمجمة إنسان اليوم وفك قرد ، وقد مُوهَ بواسطة بيكربونات البوتاسيوم وبملح الحديد ، لإعطائه شكلاً متحجراً أقدم من حقيقته ، ولم تصبغ قطع الجمجمة فقط ، بل بُرِدَت الأسنان لكى تظهر وكأنها قد ذابت من الاستعمال)[1]

وكتبت دورية "المختار من ريدرز دايجست" فى عددها الصادر فى شهر تشرين الثانى سنة ١٩٥٦ تقول: (إنّ جميع القطع المهمة قد مُوهَت وزورت أيضاً ، وإنَ إنسان بيلتداون كان عملية تزوير من أولها إلى آخرها ، وفى خِضَم هذه الشهادات بدا أنّ جميع أبطال تمثيلية بيلتداون كانوا أبرياء ما عدا شارل داسون)[2]

أى أنه قد جرى التّزوير المُتَقَصَد لخداع الناس عن قصد وسابق إصرار ، ولم يكن ذلك نتيجة خطأ ما ، ومصداقاً لذلك وتأكيداً لقناعتنا أنّ علماء التطور قد افترضوا نظريات هشّة لا تمت للواقع بأى صلة ولا تقوم على أى دليل يثبت صدقها وصحتها ، وتلمسوا بعد ذلك الأدلة الواهية التى وجدوها أو تلك التى اصطنعوها خداعاً لإثبات

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن: مجلة ساينس نيوز - عدد ١٩٦١/٢/٢٥ .

(٢) خلق لا تطور ، الصفحات (١١٣ - ١١٤) ، نقلاً عن مجلة: المختار من ريدرز دايجست - عدد نوفمبر ١٩٥٦ .

مقولاتهم لعرضها كحقائق علمية ثابتة وباسم العلم المجرد النزيه ، فى حين أنّ النّزاهة منهم براء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وفى ذلك تقول "مجلة العلوم الأمريكية" فى عددها الصادر فى شهر كانون الثانى ١٩٦٥ : (إنّ جميع علماء التّطور لايتورعون عن اللجوء إلى حيلة لينسجوا أدلة وهمية لإثبات ما ليس لديهم عليه من دليل)[١]

لقد جاء المقال المذكور تعقيباً على نَيْزَك[٢] يحتوى على مواد عضوية اتخذه العلماء دليلاً على التّطورحيث قال : (إنّ فحص قطعة من هذا النيزك الذى سقط فى الجنوب الغربى من فرنسا منذ أكثر من قرن من الزمن ، فقد دَلّ على أنّ هذا الجسم السماوى قد مُوِّهَ بمهارة فائقة بمواد عضوية أرضية ، ويبدو أنّ المزورين قد وضعوا قطع النيزك فى الماء كى تلين ، ثم أنهم أضافوا إليه مواد غريبة مختلفة ، ثم أنهم باستعمال الصَّمغ موهوا سطحه لكى يشبه من جديد القشرة التى تحدث بالحرارة الجوية . . . ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ هذا النيزك سقط بعد خمسة أسابيع من إعلان العالم **باستور** *Louis Pastor*[٣] دفاعه العظيم عن خلق الإنسان **والذى كانت لـه ضجـة كبيرة فى الأوسـاطُ، حين أعلن بأن الحياة لا تأتى إلا من الخالق العظيم)**[٤] .

يتضح مما سبق أن التزوير حاصل وموجه ومتقصّد ، وأنّ جميع أو معظم علماء التطور قد جندوا أنفسهم أو جندتهم قوى معينة مستترة خلفهم ، يرأسهم شيطان عتل زنيم ، وكلهم بلا استثناء قد جُندوا لكى يبعدوا الإنسان عن الاعتقاد بأنّ لهذا الكون خالقاً أوجده من العدم ، فعودة الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى خالقاً ومدبراً لهذا الكون

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١١٤) ، نقلاً عن : مجلة العلوم الأمريكية - عدد يناير ١٩٦٥ .

(٢) النيزك : (ج) نيازك : كلمة فارسية معربة ومعناها الرّمح الصغير - تصغير رمح . - لسان العرب - النيزك : جرم سماوى يسبح فى الفضاء فإذا دخل فى جو الأرض احترق وظهر كأنه شهاب متساقط . - المعجم الوسيط - .

(٣) باستور ، *Lois Pastur* . ، مؤسس علم الميكروبات (١٨٢٢ - ١٨٥٩) ، أستاذ الطبيعة بمدرسة الليسسيه فى كلية ويجون عام (١٨٤٨) ، أستاذ الكيمياء بجامعة ستاسبورج عام (١٨٤٩) ، عميد كلية العلوم فى مدينة "ليل" عام (١٨٥٤) .راجع تصريحه عن الخلق فى الفصل الرابع من هذا الباب ، صفحة (١٩٥) انظر أيضاً : الباب الأول ، الفصل الثاني ، صفحة (٢١) .

(٤) المصدر السابق ، نقلا عن : *American Since Magazine* : ١٩٦٥ *January* .

هو الذى يقض مضجعهم ويقلق بالهم ، مما يدفعهم إلى تجنيد كل إمكاناتهم لمحاربة هذا الإيمان بكل الوسائل والأساليب الممكنة - بما فى ذلك تزوير العلم واستعماله سلاحاً فى خداع الناس وتسميم معتقداتهم وأفكارهم - لإبعادهم عن أولى وأهم الحقائق وهى النّاحية الروحية فى الأشياء من كونها مخلوقة لخالق أوجدها من العدم ، مانعين بذلك إدراك الإنسان لتلك الصلة وتصديقه الجازم بها .

وهناك خدعة ثانية تقوم على تقديم معطيات ذات وجهين بشأن التطور وذلك لخداع الجهلاء ، فمن ذلك أننا كثيراً ما نرى مستحاثات مرصوفة بشكل يدعو السذج والجهلاء إلى الظن بأنّ بعضها ناشئ من البعض الآخر ومتولد عنه ، فى حين أنّ علماء التطور أنفسهم يعترفون بعكس ذلك ، وأمثال تلك الخدع معروضة على سبيل المثال فى المعرض الأمريكى للتاريخ الطبيعى بنيويورك ، إلا أنّ كل تلك الخدع والمخاتلات لا تنطلى على أصحاب العقول النيّرة .

وطريقة أخرى فى الخداع تقوم على الإيحاء بأنّ الإنسان منحدر من قرد ، بينما نظرياتهم الحديثة تنفى ذلك ، على أنّ هذا النفى لم يمنع مؤلف كتاب "الإنسان الأول" من أن يعنون الفصل الثامن من كتابه هذا بعنوان: من الإنسان القرد إلى الإنسان [1] .

يتضح من كل هذا أنّ تفسير علماء التطور للمستحاثات وإعادتهم تركيب أجسام أجداد الإنسان المزعومين ليست إلا مهازل علمية تقوم على أوهام وافتراضات واهية ، لا تستند إلى الحقيقة بأى سبب من الأسباب ، وأنّ سلسلة التطور تنطوى على ثغرات كثيرة زمنية وعلمية وجغرافية ، **وتدل المعطيات العلمية الأكيدة إلى أنّ الإنسان لم ينحدر من الحيوان مطلقاً، بل أنّ الله تعالى قد شرَّفَهُ بتكوينه على خلقة إنسانية متميزة عن باقى المخلوقات** . وأن هذا الاختلاف فى التركيب موجود منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد ما دام هناك إنسان وما ظلّت هناك حياة . وبسبب هذا الخلق المتميز للإنسان لا يستطيع التلاقح مع أى حيوان كان ،

---

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١١٤) .

بل سيبقى فى نطاق جنسه تبعاً لأحكام مولده ، هكذا كان . . . وهكذا سيظل دائماً .

إنّ الإنسان لم ينتقل قط من أى طور حيواني، ولم يثبت عكس ذلك لا علمياً ولا تاريخياً كما أنه لم يثبت عقلياً ، إلا أنه قد مرّت حوادث أثبتها التاريخ نقلاً عن مصادر - ثبت صدقها عقلاً - [١] أنَّ الإنسان قد تحول فى أحوال خاصة إلى حيوان ، ولم يكن ذلك سنة من سنن الحياة ولا قاعدة من القواعد ، إنما هى حوادث مسخ وعقاب للمتمردين العاصين[٢] ، وقانا الله تعالى من المسخ والعقاب .

ويكفى أن ننقل تصريح العالم الفسيولوجى "تهمسيان *Tammisian. N. T*" الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية : (إنّ العلماء الذين يؤكدون على أنّ التطور واقع علمى هم منافقون ، وأنّ ما يروونه من أحداث إنما هو من الشعوذات التى ابتدعت ، ولا تحتوى على نقطة واحدة من الحقيقة) واصفاً نظرية التطور أنها : **خليطٌ من الأحاجى وشعوذة الأرقام** [٣] .

أما " كلوتز *Klotz. W. J* " رئيس العلوم فى إحدى الجامعات الأمريكية فيقول : (إنّ الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة)[٤] .

---

(١) القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .
(٢) انظر بحث : من هو الأصلح للبقاء؟ ، الباب الرابع ، الفصل الثامن .
(٣) المصدر السابق ، صفحة (١٩) .
(٤) المصدر السابق ، صفحة (٢٠) .



كل جنس من المخلوقات الحيوانية والنباتية ينتج مثله فى النوع والحجم .

لم تحمل شجرة بلوط قط سفرجلاً أو تفاحاً أو موزاً، ولم يلد أى حوت سمكة... والإنسان لم ينتقل قط من أى طور حيواني.... ولا يستطيع التلاقح مع أى حيوان كان... بل سيظل فى نطاق جنسه تبعاً لأحكام مولده......

هكذا كان وهكذا سيظل أبداً ما دام هناك إنسان وما ظل هناك حياة: قانون وقواعد ونواميـــس يتم بموجبها كل خلق وكل نشـــــوء كان..... (١).

(١) الصورة منقولة من كتاب "خلق لا تطور" صفحة (١٣٦) .

الفصل الثانى

الأعضاء البدائية والانتخاب الطبيعى

من المبررات التى يسوقها علماء التطور للاستشهاد بها على تطور الإنسان: تعللهم بوجود ما يسمونه "الأعضاء القردية = الأعضاء الأثرية = الأعضاء البدائية ، *Vestigial organs*" ، ومن ذلك ما يعتبرونه بقايا أعضاء كانت مفيدة فيما مضى من الأطوار ، وأصبحت فيما بعد مع تطور الإنسان أعضاء زائدة لا نفع لها ولا فائدة منها ، مثل **الغـدّة الصـقرية** ، وقد اعتمدوا كثيراً فى إثبات نظرياتهم على تلك النّظرية .

(والأعضاء البدائية أو الأثرية *Vestigial organs* هى عبارة عن أعضاء قزمة لا فائدة لها عادة توجد فى عدد من الحيوانات "وأحياناً النباتات" أقاربها *relatives* ، تحتوى على هذه الأعضاء فى صورة كاملة وتؤدى وظيفة ما ، وتمثل هذه الأعضاء دليلاً مقنعاً على حدوث التطور مستنبطاً من علم التّشريح المقارن ، إذ لا يمكن تفسير وجودها إلا بأنها جزء من تصميم عام كان موجوداً فى الأسلاف ولم يختف تماماً بالرغم من أنها أصبحت عديمة الفائدة ، ولقد قدّم العالِم الألمانى "فيدرشايم *Weiderscheim*" قائمة تحتوى على حوالى مائة عضو أثرى توجد فى الإنسان سنذكر بعضها هنا بإيجاز ، وخير مثال هو: **الزائدة الدودية** *Vermiform appendix* التى لا تقوم بأى وظيفة فى الإنسان فضلاً عن أنها تمرضهُ إذا التَهَبَت ، وكذا يمكن اعتبار **ضـروس العقـل** *Wisdom teeth* فى الإنسان أعضاء أثرية لا فائدة منها لأنها لا تستعمل فى تفتيت الطعام لصغر حجمها ، أما فى الرّئيسيات الأخرى مثل القردة فإنّ ضروس العقل تكون قوية ومفيدة مثل بقية الأسنان . وهناك أنواع قليلة من **الخنافس**

Bettles لها جناحان ضامران لا يقدران على الطيران ولا فائدة لهما)[١]

(ويؤمن عالم التّطور الأمريكي المعاصر "سيمبسون *Simpson*" أنّ بعض الأعضاء الأثرية التي تفقد وظيفتها الأصليّة قد يحدث فيها تخصيص لأداء وظيفة أخرى . فمثلاً نجد أنّ جناح طائر **البطريق** *Penguin* ضامر إلى حد كبير بحيث لا يسمح للطيران ولكنه أصبح مجدافاً كفؤاً للسّباحة ، وكذلك جناح **النعامة** *Ostirish*" فهو صغير للغاية ولكنه يستعمله كعضو للتوازن خصوصاً حينما يغير الطائر اتجاهه وهو يجرى بسرعة)[٢]

وقد جاء في دورية "المختار من ريدرز دايجست" عدد شهر ديسمبر ١٩٦٦ ما يلي : (منذ عشرين قرن على الأقل ، والأطباء يتساءلون عن عمل عضو صغير بلون رمادى موجود في أسفل العنق وراء عظم القص ويسمى الغدة الصقرية ، وقد اتفق العلماء الحديثون على أنهُ عضو زائد لا فائدة منه بعد أن فقد عمله الأساسي ، غير أنَّ الأبحاث الحديثة التي قام بها علماء أمريكيون وإنجليز وإستراليون وسويديون قد كشف سِرّ هذه الغدة ، وظّنّ أنها الغدّة الرئيسية التي تنظم عمليات الحضانة من الأمراض المُعدية . . . فهل هذه الغدّة هي وحدها هي التي تتولى حمايتنا؟ **كلا** ، بل لقد ثبت بنتيجة التجارب الحديثة التي أجراها الباحثون بأنّ الزائدة واللوزتين والنباتات الغذائية يمكن أن تلعب دوراً مشابهاً في الحضانة) [٣] .

وفي نفس الموضوع كتبت "الموسوعة البريطانية" تنفى فكرة عدم ضرورة ونفع بعض الأعضاء قائلة : (إننا نعرف الآن عدداً من الأعضاء كانت تسمى بدائية ، بينما

---

(١) دورية "عالم الفكر" ، المجلد الثالث ، العدد الرابع ، صفحة (١٩) . في مقال للدكتور علم الدين كمال بعنوان (تطور الكائنات الحية) .
(٢) المصدر السابق ، صفحة (٢٠) .
(٣) خلق لا تطور ، صفحة (١١٦) ، نقلا عن : المختار من ريدرز دايجست ، طباعة مصر ، عدد شهر ديسمبر عام ١٩٦٦ .

هى تقوم بأعمال ذات شأن) .

ونخلص من ذلك أنه لا يوجد لنا أى مبرر للادعاء أو وصف عضو ما بأنَهُ بدائى لا فائدة منه وذلك لمجرد أنّ عقلنا الناقص والعاجز والمحتاج إلى معلومات قد قَصّرَ أو جهل عن فهم ذلك العضو ووظيفته ، أو إدراك حقيقة حكمة الله الخالق فى خلقه ، أو حتى لأنه فى نظرنا لا يعمل بالصورة التى يريد له عقلنا المحدود أن يعمل .

والملاحظ لدى الأطباء أنّ هناك حالات مَرَضية كثيرة تصيب الحَلق أكثر من حالات مرض الزائدة ، ومع ذلك فلا أحد يصف الحلق بأنه بدائي ، فى حين أنهم وصفوا ذلك الجزء من الأمعاء بأنه بدائى ولا لزوم له حين سموه "**الزائدة** *vermiform appendex*" أضف إلى ذلك أنه يجب على أصحاب نظرية التّحول والانتقال أن يثبتوا بأنّ ظهور أعضاء جديدة فى جسم الإنسان هى أكثر نفعاً له ، لأنّ ضمور الأعضاء لا يثبت التّطور بل على العكس يوحى بأنّ الإنسان قد انحطَ وتَراجع ولم يتطور إلى ما هو أصلح كما يزعمون [١] .

إنّ البحث فى الأعضاء البدائية يقودنا إلى أهم أبحاث "أصل ألأنواع" لدى من قال بالتطور وهو بحث "الاصطفاء الطبيعي" أو "الانتخاب الطبيعي" والذى ينبع من قاعدة "البقاء للأصلح" التى بُنى بموجبها بحث "الأعضاء البدائية" ، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من كتاب داروين "أصل الأنواع"[٢] **حيث يقول داروين :**

(ولدينا من الأسباب ما يسوقنا إلى الإيمان بأنّ تغير حالات الحياة التى أدلينا بها فى الفصل الأول[٣] تزيد من قابلية الاستعداد للتّحول فى الأنواع ، بمثل ما تزيدها تأثير السنين التى ذكرتها فى الأسطر السابقة من تغاير الحالات المحيطة

---

(١) إنّ هذا البحث منقول بتصرف من كتاب "خلق لا تطور" للدكتور إحسان حقي ، الصفحات (١١٠ - ١١٦) .
(٢) المرجع ، الفصل الرابع ، الصفحات (٢١٣ - ٢١٨) .
(٣) المرجع الفصل الأول "التحول بالإيلاف" صفحة (١٢٣ - ١٦٦) .

فى الكائنات ، إذ تساعد الانتخاب الطبيعى على إبراز آثاره ، وتهيئ للأنواع جَمَّ الفُرَص للسيادة بما تحْدِثه من التّحولات المفيدة ، ولو لم تظهر تلك التحولات لما كان للانتخاب الطبيعى أثر ما . . .[1] . وقد نستطيع أن نقول على سبيل المجاز : أنّ الانتخاب الطبيعى قوة دائبة الفعل كل يوم ، بل كل ساعة فى استجماع التّحولات العرضية فى العالَم العضوى كافة ، نافية كل ما كان مُضِراً ، مبقية على كل ما كان منها مفيداً صالحاً ، تعمل فى همودها وسكونها عملها الدائم ، ما سمحت الفرص فى كل زمان ومكان ، لتهذيب كل كائن من الكائنات بما يلائم طبيعة حالات الحياة المحيطة به ، ما اتصل منها بالموجودات العضوية وما اتصل بغير العضوية ، غير أننا لا نلاحظ شيئاً من التّرقى المنبعث عن التحول البطىء ، حتى يظهر لنا من الزمان ما استدبر من الدهور فى سبيل إبرازه ، على أننا لا نعلم شيئاً سوى أنّ صور الحياة فى هذا العصر تغاير صور الزمان الماضي ، ذلك ناشئ عن النقص والتخلخل الواقع فى مواد النظر المستجمعة من البحث فى أطوار تكون الطبقات الجيولوجية التى عفت آثارها ودرست رسومها منذ أزمان موغلة فى القدم) [2] .

وكأمثلة على الصراع لبقاء الأصلح الموجب للاصطفاء الطبيعى يقول : (فإنّ ذكور القاطور[3] "التمساح الأمريكي" بعضها يقاتل بعضاً قتالاً عنيفاً ، وتخور إذا اشتّد القتال خوراً شديداً أشبه بخوار الثيران القوية ، ويدور بعضها حول بعض كما يفعل مستوحشو الهنود الحمر فى رقصة الحرب عندهم .

---

(١) المرجع ، صفحة (٢١٦) .

(٢) المرجع ، صفحة (٢١٨) .

(٣) القاطور (التمساح الأمريكي) : *Alligator* ، تمساح أمريكى من فصيلة Alligatoridae ، ويعتبره البعض من فصيلة التمساحيات Crowdilidae ، موطنه أمريكا وأنواعه كثيرة ، وأشد أنواعه افتراسا يقطن فى جنوب الولايات المتحدة ، ويصل طوله إلى عشرين قدماً .

وشوهد أنّ ذكور الصمون[(١)] "السلمون" تقاتل يوماً بأكمله حتى يستقر لكل من الذكور نصيبه من الإناث ، وكذلك ذكور ضرب من الجعلان يقال له **الجعل الوعلي**[(٢)] قد تصيبها جراح خطرة نتيجة تلك المنافسة إذ يقضم بعضها بعضاً بأفكاكها السفلى ، ولاحظ "مستر فابر" أنّ ذكور بعض أنواع الحشرات غشائية الأجنحة[(٣)] تتقاتل قتالاً مراً ، حيث تنتظرها عن كثب أنثى من إناثها تصبح غنيمة المنتصر منها)[(٤)] .

وتحت عنوان "أمثال لفعل الانتخاب الطبيعي أو بقاء الأصلح "يستطرد الكتاب في سرد الأمثلة وتحليلاتها حيث يقول :

(... وليكن الذئب مثالنا الأول : فإنّ هذا الحيوان يعيش على ضروب مختلفة من الحيوان يتغلب عليها طوراً بدهائه ومكائده ، وطوراً آخر بقوته الجسمانية وسُرعَة عَدوِه ، ولنفرض أنّ أسرع الحيوانات عَدوا ، كالغزال مثلاً ، قد زاد عدده في البقاع التي يقطنها الذئب زيادة كبيرة ، وفاق ما يكون قد طرأ على ظروف الإقليم المحيطة به من المؤثرات التي تعين على زيادة عدده ، وأنّ غيره من الفرائس قد تناقص . ولنفرض أيضاً أنّ هذه الزيادة قد طرأت على الغزال خلال فصل من الفصول تشتد وطأة الجوع على الذئاب فيه ، ففي مثل هذه الظروف ، تكون أشد الذئاب عدواً ، وأخفها أجساماً ، وأمتنها بنية ، هي أكبر المجموع حظاً من البقاء ، وبهذا تحفظ نوعها وتنتخبها الطبيعة للبقاء فيها ، إذ تكون قد


تشارلز داروين

(١) الصمون : كلمة مُعَرَبَة "Salmon" من فصيلة الصمونيات *Samonidae* .
(٢) الجعل الوعلي "*Stay Beetle*" : نوع من الحشرات الغمدية الأجنحة ، سمي الوعلي إشارة إلى ملامسه التي تشبه قرون الوعل .
(٣) الغشائية الأجنحة *Hymenoptera* : أنواع متعددة من الحشرات ، مثل : النمل ونحل العسل .
(٤) المرجع ، الصفحات (٢٢٤ - ٢٢٥) .

استعادت في تلك الضائقة المعيشية قوتها التي تتغلب على فرائسها ، سواء في هذا الفصل أو في غيره من الفصول ، عندما نضطر إلى اقتناص فرائس أخر غير الغزلان)[١]

وفي بحث "الانقراض نتيجة للانتخاب الطبيعي" يتعرض داروين إلى (. . . وقد عرفنا مما فصلناه أنّ تأثير الانتخاب الطبيعي مقصور على الاحتفاظ بضروب التحولات التي تكون بحالٍ ما ذات فائدة للصور الحية ، احتفاظاً يجعلها فيما بعد من الصفات الخاصة بتلك الصور الراسخة في طبائعها ، والكائنات العضوية إذ كانت بطبيعتها تزداد زيادة مستمرة بنسبة هندسية كبيرة ، فإنّ كل بقعة من البقاع تصبح مشحونة بما يأهل بها ، يستتبع ذلك أنّ الصور المهذبة المنتقاة تزداد في العدد ، حيث ينقص عدد الصور المنحطة المستضعفة . . . . . .)[٢] .

إلى أن يقول: (استبان لنا من قبل أنّ أكثر الأنواع أفراداً أكبرها حظاً في إنتاج تحولات مفيدة في زمن معين ، ودليلنا على ذلك حقائق أوردناها في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، [٣] أثبتنا فيها أنّ الأنواع العامة السائدة أوفر الأنواع إنتاجاً للضروب ، وعلى ذلك تكون الأنواع النادرة أقل قبولاً للتهذيب واستحداثاً لضروب الارتقاء خلال زمن ما ، فيضرب عليها الاستضعاف في معمعة التناحر على الحياة مستهدفة لغارة شعواء تشنها عليها أعقاب الأنواع المحسنة .

تسوقنا هذه الاعتبارات إلى التسليم بأنه كلما جد الانتخاب الطبيعي في استحداث أنواع جديدة خلال تعاقب الأجيال ، مضت أنواع غيرها ممعنة في

---

(١) المرجع ، صفحة (٢٢٣ - ٢٢٨) .
(٢) المرجع ، صفحة (٢٥٣) .
(٣) يقصد فصل " التحول بالطبيعة " الصفحات (١٦٧ - ١٨٩) من المرجع .

سبيل الندرة درجة بعد درجة ، حتى يأتى عليها الانقراض والصور التى تكون أشد احتكاكاً فى المنافسة بتلك الأنواع المهذبة الراقية ، أكثر الصور معاناة لتلك المؤثرات ، ولقد رأينا فى الفصل الذى عقدناه فى التناحر على البقاء أنّ التنافس أشد ما يكون بين الصور المتقاربة الأنساب كضروب النوع الواحد ، أو أنواع جنس بعينه ، أو الأجناس ذات اللحمة الطبيعية ، وذلك لتشابه أشكالها وتراكيبها وعاداتها واشتباك مصالحها)[1]

ويجدر ملاحظة أنّ الانتخاب الطبيعى فى مقولاتهم تختلف قوته من قطر لآخر ، تبعاً لاختلاف ظروف البيئة بين ذلك القطرين ، هذا ما يؤكده داروين **حيث يقول:**

(والانتخاب الطبيعى لا يؤثر فى النظم العضوية إلا بحسب طبيعة المراكز التى تشغلها الأحياء فى البقاع التى تأهل بها ، فالبقاع إما أن تكون غير مُستعمَرَة البَتّة ، إما أن يكون فى نظامها العام مراكز خالية لم تحتلها عضويات ما ، وبنسبة ذلك يكون تأثير الانتخاب الطبيعي)[2]

وفى نظر داروين وأتباعه فإنّ الصراع بين الكائنات على البقاء المؤدى إلى بقاء الأصلح بطريق الانتخاب الطبيعي ، والذى بدأ أول ما بدأت الحياة ، واستَمَرَ إلى يومنا هذا ، سيستمر مستقبلاً مزيلاً ولاغياً لأنواع وصنوف من الكائنات فشلت فى معركة الصراع على البقاء ، وسيظهر ثبات أنواع ممتازة ، نجحت فى كسب معركة الصراع ، فأثبتت أنها الأصلح الجديرة بالبقاء ، ولبيان أى الأنواع سينقرض ويتلاشى ، ومن سيسود يقول داروين :

(فإذا نظرنا إلى المستقبل أمكننا أن نتنبأ بأنّ مجاميع الكائنات العضوية الحائزة

---

(١) المرجع ، صفحة (٢٥٤) .
(٢) المرجع ، صفحة (٢٦٤) .

لصفات السيادة فى الزمان الحاضر ، بحيث لا تستبين فى مراكز نظامها الطبيعى أى تخلخل أو انشعاب ، هى أقل الجموع تأثراً بعوامل الانقراض ، وأنها سوف تمضى ضاربة فى الازدياد والتكاثر العددى أزماناً طويلة ، ولكننا لا نعرف أى الفصائل سيكون لها الحظ الموفور استناداً على ما رأينا من تاريخ العضويات ، فإنّ بعض العشائر التى حازت فى الماضى أكبر الحظ فى الانتشار والذيوع قد انقرضت . فإذا أوغلنا النظر إلى طيات المستقبل ، أمكننا أن نتنبأ استناداً على ما نراه من تكاثر العشائر الكبرى ، ومضيها متدرجة فى التكاثر العددى بأنّ كثيراً من العشائر الصغرى سوف تنقرض انقراضاً تاماً غير معقبة من السلالات الراقية شيئاً مذكوراً ، ويكون القياس فى هذه الحال أنّ الأقلية العظمى من الأنواع التى تعيش فى عصر من العصور هى التى تفوز بأعقاب سلالات راقية تبقى ثابتة فى الطبيعة إلى مستقبل بعيد . . . غير أنى أضيف إلى ما سبق أنه استناداً على هذا الرأى تكون الأقلية العظمى من الأنواع القديمة ، هى التى أعقبت أنسالاً لاتزال باقية إلى الزمان الحاضر)[1]

وينقض كل ذلك من الأساس ، أنّ نظرة بقاء الأصلح لا تتفق مع الواقع بتاتاً ، إذ أنها توجب انقراض الصّور المنحطة من المخلوقات ، وذلك غير مطابق للواقع ، إذ أنها لا زالت باقية متكاثرة لم تنقرض كما نشاهد ، مكذبة القائلين ببقاء الأصلح ، كما يقول علماء التطور بانقراض أنواع مثل الديناصور وهى الأقوى ، فلِماذا انقرض الديناصور وبقيت الأميبا؟ . **على هذا السؤال وأمثاله** ، وبطريقة ثعلبية فاشلة يجيب داروين قائلاً :

(ولكن قد يُعتَرَضُ علينا بأنه إذا كانت كل الأنواع العضوية تنزع إلى تسلق السُلّم فى نظام الطبيعة ، فكيف يقع فى جميع أنحاء الأرض أنّ عدداً وفيراً من

---

(١) المرجع ، صفحة (٢٧١ - ٢٧٢) .

أحط الصور لايزال باقياً حياً ، وكيف يقع فى كل طائفة من طوائف الأحياء الكبرى أن تكون بعض الصور قد ضربت فى الارتقاء بدرجة كبيرة عن غيرها؟ ولماذا لم تتغلب الصور الأكثر ارتقاء على غيرها من الصور الأدنى وَأفنتها فى كل بقعة من البقاع؟ . يلوحُ لى أنّ لامارك وكان يؤمن بوجود نزعة فطرية حتمية نحو الارتقاء فى جميع الكائنات الحية ، قد لمس هذه الصعوبة وأدركها بعمق ، حتى لقد سبق له أن فرض أنّ الصور الجديدة البسيطة تتجدد دائماً عن طريق التولد الذاتي[1] على أنّ العلم لم يُقم الحجة بعد على صحة هذا الاتجاه ، مهما يكن من أمر ما يمكن أن يتمخض عنه المستقبل إزاء ذلك ، بمقتضى نظريتى لا يترتب صعوبة على استمرار وبقاء الصور المنحطة من العضويات ، ذلك بالانتخاب الطبيعي ، وبالحرى بقاء الأصلح ، لا ينطوى ضرورة على تحول ارتقائي ، بل أنه يقتصر على الانتفاع بالتحولات إذا جدت وكانت ذات فائدة لكل كائن حى فى ظل علاقاته الكثيرة المعقدة فى الحياة)[2] .

ويرجع بعد ذلك إلى التعليل والتأويل والاحتمالات مستعملاً الكلمات التشكيكية: قَد ، يُحْتَمَل ، حيث يستطرد:

(. . . وأخيراً فإنى أعتقد أنّ وجود كثير من الصور المنحطة التّركيب العضوى فى أنحاء العالَم يرجع إلى أسباب متفرقة ، فالتّحولات والتباينات الفردية ذات الفائدة ، قَد لا تكون قد حدثت حتى تتهيأ الفرصة للانتخاب ليعمل ويستجمع ، ومن المُحْتَمَل أنه فى حالة من تلك الحالات كفى فيها الزّمن لإبراز أقصى ما يمكن من الارتقاء والتطور ، وفى حالات أخرى نادرة ، رُبَما يكون قد وقع ما نسميه "نكوص"[3] النظام

---

(١) التولد الذاتي : *Spontaneous Generation* : يعنى تولد الحى من الحي .
(٢) المرجع ، الصفحات (٢٧٤ - ٢٧٥) .
(٣) النكوص : *Retrogression*

العضوي)[1] إلى أن يقوم بالاستخلاص موضحاً:

(والانتخاب الطبيعي ، على أساس اتصاله بتوارث الخصيات في العصور المقابلة ، يَسامتُ نفس الدور الذى ظهرت فيه الخصيات أولاً فى آباء الأنسال ، يغير من صفات البيض أو البذور أو صغار النّسل ، بقدر ما يغير من صفات الأفراد البالغة . أما الانتخاب أجنسى فيمد ضروب الانتخاب الأخرى بمهيئات الاحتفاظ بأقوى الذكور وأعظمها كفاية لملائمة الظروف ، فتنتج أكبر عدد يستطاع إنتاجه من الأنسال القوية ، ويغير من صفات الذكور من طريق تناحرها مع غيرها ، فتنتقل صفاتها إلى الزوجين ، الذكر والأنثى من أعقابهما ، أو إلى أحدهما لا غير وفقاً لما يكون من تأثير الوراثة فى إنتاجها .

فإذا أردنا أن نزن تلك الاعتبارات التى نعزو إلى الانتخاب الطبيعى بميزان الخدمة ، لنعرف مقدار انطباقها على الواقع وتأثيرها فى تهذيب الصور الحية حتى تصبح ذات كفاية تامة لما يحيط بها من ظروف الحياة المختلفة الملائمة لمراكزها التى تشغلها فى الطبيعة ، فذلك ما يجب أن نرجع إليه فى الفصول التالية ، ولو أنه قد ثبت لدينا أنها السبب المباشر فى حدوث الانقراض . أما ما أحدثه الانقراض فى تاريخ العضويات ، فعلم طبقات الأرض خير شاهد عليه)[2] .

وباستعراض جميع ما تقدم من أقوال داروين نجد أنها هرطقات وسفسطات وفارغاً من القول ، يقصد منه زج السامع فى دوامة تبريرات هى أبعد ما تكون عن الواقع ، واستدلالات فى غير مواضعها ، ويفسّر عالِم التّطور "بيير*Beer Sir Gavin*" النظرية فى كتابه "شارل داروين" :

---

(١) المرجع ، الصفحات (٢٧٦ - ٢٧٧)
(٢) المرجع ، الصفحات (٢٨١ ، ٢٨٢) .

(إنّ التطور تابع للاصطفاء الطبيعي ، ويزعم القائلون بالاصطفاء أنّ الطبيعة تلجأ إلى الانتخاب ، وتحتفظ بالانتقال النافع ، وتنفى الانتقالات الضارة ، وبهذه الصورة يتحول الكائن الحى إلى نوع رفيع)[1] .

وأكثر الانتقالات تكون ضارة فكيف تستطيع الطبيعة أن تنتخب؟ ثم لو فرضنا جدلاً بأنّ كائناً من الكائنات حصل على انتقال نافع ، فلا بدّ لهذا الانتقال أن تتلوه انتقالات كثيرة ضارة ، وفى هذه الحالة إذا تدخلت الطبيعة فإنّ كل ماتستطيع فعله هو نبذ هذا الكائن المنتقل ليس إلا ، علاوة على أنّ بقاء الكائن الحى لا يدل بقاؤه على أنه كان نتيجةً للتطور ، بل هو نتيجة ظروف خاصة وعمرٌ محتومٌ . ومثال على ذلك إذا كان لدجاجة بضعة فراخ فأكل أحد الطيور الجارحة بعضها ، فهل يعدُ الباقى أكثر تطوراً من الضحايا وأجدر بالبقاء؟ طبعاً لا ، إضافة إلى أنّ الانتخاب الطبيعى لا يحول الفراخ إلى خراف ولا يحول الأرنب إلى جاموس ، ثم إذا قام رجلان بالتشاجر على أنثى ، فقتل أحدهما الآخر ، وكان القاتل الضعيف ، والمقتول الأقوى الأصح ، فهل الضعيف هو الأجدر على البقاء؟ . . . إنها تفسيرات واهية لم يقتنع بها حتى بعض مشاهير دعاة نظرية التطور ، فكثيرٌ من القائلين بالتحول يعترفون بأنّ الانقلاب والانتخاب الطبيعى مجتمعين لا يكفيان لتفسير آلية التطور ، فقد كتب التطورى المتعصّب "جيمس جري" فى كتابه "العِلم اليَوم" يقول :

(إنّ كلّ علماء الأحياء غير مقتنعين بهذا التفسير ، ويذهب بعضهم إلى أنّ هذه الدعوى تشبه إلى حد ما القول بأنه لو اتفق أن اجتمع عدد كافٍ من القرود ، وضربت على الآلة الكاتبة مدّة من الزمن ، فإنها لا بد وأن تنتهى

---

(١) د .إحسان حقي ، " خلق لا تطور " صفحة (٧٨)

بوضع موسوعة ، وبديهى أنّ هذا القول ليس قابل للتصور قط ، بل لا يوجد شخص يتمتع بقواه العقلية يحمله على محمل الواقع)[١] .

فعلينا إما أن نقبل الاصطفاء الطبيعى كدليل وحيد على آلية التطور ، وأن نقبل بأنّ فيه قسطاً من الخيال ، وإما أن نعترف بأنّ الاصطفاء الطبيعى يقوم على أساس الانتقال العرضى الذى يأتى اتفاقاً وأن نعطى للمصادفة دوراً أكثر أهمية فى هذا الميدان . . . . وإذا اعتبرنا التطور العضوى نوعاً من يانصيب الطبيعة فإنه يبدو من الغرابة بمكان أن تكون أوراق هذا اليانصيب الرابحة بهذا القدر من الكثرة . ومع هذا فإنى أقول: أن ليس هناك ما يثبت أن رأيى خير من غيره من الآراء)[٢] .

وفى نفس الكتاب يقول العالِم التطورى وأستاذ علم الوراثة عند الحيوان فى جامعة إيدنبرج "وادنغتون" ما يلي :

(إنّ هذا القول يعدل الزعم بأنك إذا بدأت بكتابة أربعة عشر سطراً متلاحمة باللغة الإنجليزية ثم أنك غيّرت حرفاً مع الاحتفاظ بالقافية فإنك تنتهى بأن تجد لديك قصيدة من قصائد شكسبير . . . إنّ هذا النوع من المنطق هو انحراف عن جادة الصواب ، وأعتقد أنه علينا أن نكون قادرين على صنع ما هو خير من هذا)[٣]

أما العالم التطورى الشهير "سمبسون *George Gaylord Simpson*" فيقول فى كتابه "جغرافية التطور": (لقد أُهمِلَ البحث عن سبب التطور ، إذ أصبح من الثابت الآن أنّ سبب التطور ليس وحيداً ولا بسيطاً)[٤] لهذا فقد

---

(١) د . إحسان حقي ، " خلق لا تطور " صفحة (٧٩) . نقلا عن: *Progres et Declin - Hugu Miller* .
(٢) د . إحسان حقي ، " خلق لا تطور " صفحة (٧٩ - ٨٠) نقلا عن: *Progres et Declin - Hugu Miller* .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق ، نقلا عن: *Le Geographie de L 'Elevation* .

أعلن العلامة "والاس" : (إنّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان ولا بدّ من القول بخلقه رأساً) ، أما "فرخو" فيقول : (إنّه قد تبين لنا من الواقع أنّ بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً فلا يمكننا أن نحكم بأنّ الإنسان من سلالة قرد أو غيره)[1] أما "أجاسير" فيقول : (إنّ النشوء لا يتم إلا وفقاً لخطّة إلهية حكيمة ، وإنّ الاصطفاء الطبيعي إذا ما حَلّ مَحَلَ الخلق الإلهي فإنّ الإنسان قد جرد من روحه وغدا آلة صماء ، إنّ التفسير الحرفي لنظرية داروين يفسح المجال لِتأليه سوبرمان نيتشه وتمجيد القوى البدنية على أنها الأساس الوحيد للسلوك بين النّاس ، إنّ الفكرة التي يعتنقها الداروينيون عن تناسل نوع جديد بواسطة نوع سابق ليست إلا افتراضاً اعتباطياً يتعارض والآراء الفسيولوجية الرصينة)[2]

ولنعد إلى دراسةٍ واعيةٍ لمقولة الانتخاب الطبيعي وأعضاء الزائدة ، فالرجال ومنذ وُجِدَ الإنسان لا تنمو لِحى لهم أقصَرَ لأنهم يحلقونها ، والنساء أيضاً لا تزول الشُعور من على أبدانهن لأنهنّ يبالغْنَ في إزالتها نتفاً أو بالوسائل الصناعية المختلفة كانت ما كانت ، والقطط التي ليس لها ذيول في جزيرة "مان" لم تتطور هناك هكذا لأنّ أحداً قد قطع ذيل قطّة ، كلا بل أنّ جينة ما "*Gene*" خاصة بالذيل قد فقدتها تلك القطط ، ولكن على الرغم من تلك الكارثة فإنّ القطط اللاحقة قد نشأت صحيحة دون تلك الجينة ، إنّ القائلين بنظرية التطور بالانتخاب الطبيعي لم يعلموا شيئاً ، لا بل أنهم قد تجاهلوا **وحدات الوراثة "الجينات"** ، وقد وقفوا في مكانهم حيث ما يعتبروه أساس التطور ، ألا وهو الخلية ذات الكيان الذي يحتوي على الجينات ويحملها . يقول "ج . سوليفان *Sulivan . N. W. G*" في كتابه "حدود العلم

---

(١) أنور الجندي ، "سقوط نظرية داروين" صفحة (١٤) .
(٢) المصدر السابق .

: "*Limitation of Science*

(إنّ الاتهامات التي تنطوي عليها أقوال "وايت هيد *White head*" لها ما يبررها بالتأكيد ، إننا نحس المرّة تلو المرّة بأنّ المفاهيم الأساسية التي يستخدمها عُلماء الأحياء ليست كافية لمعالجة أهم المشاكل التي تواجههم ، إنّ نظرية الانتقاء أو الاصطفاء الطبيعي "*Natural selection*" على سبيل المثال ، لتبدو مليئة بالفجوات عندما تدرس بالتفصيل ، إنّ المرء ليتقبل بسهولة وبشكل عادي التفسيرات الفيزيائية المحضة على سبيل المثال ، ولكن لا بد له من بذل مجهود عظيم حتى يستطيع الاعتقاد ولو مؤقتاً ، بأنّ جميع التطورات التي حدثت للكائنات الحية على ظهر هذا الكوكب جاءت نتيجة لتغيرات عشوائية " *random variations*" ، وللصراع من أجل البقاء ، إنّ نظرية الاصطفاء الطبيعي لا تفسر ولو من جانب بعيد أكثر الحقائق وضوحاً فيما يتعلق بالعمليّة كلها ، ونعني بذلك اتجاه الكائنات الحيّة نحو الارتقاء ، فإنّ نوعاً من الحياة البدائيّة يبدو لنا كافياً ليفي بالغرض ، ويبدو لنا في هذه الحال أيضاً أنه لن يكون هناك ما يستدعي حتماً ظهور هذا النوع من الحياة البدائية ، لأنّ مثل هذه الحياة لها منافسة الصخور والجمادات في الاستمرار والبقاء)[١]

ويستطرد سوليفان قائلاً : (إنّ الانطباع الذي يراودنا بين وقت وآخر ، هو أنّ علماء الحياة لا يستطيعون الافتراض بأنّ التقدم الفعلي للأحياء يمكن أن يفسر ضمن شروطهم التي يتمسكون بها ، اللهم إلا من قبيل الإيمان بالخوارق)[٢] إلى أن يقول : (إنّ نظرية الانتقاء أو الاصطفاء الطبيعي على فرض التّسليم المطلق بها ، لا يمكن أن تُفَسّرَ ولا أن تبرز إلا على وجه وجود علّة أو

---

(١) مجلة : عالَم الفكر - المجلد الثاني عشر - العدد الثاني - يوليو ١٩٨١ ، صفحة (٢٢٨) ، نقلاً عن كتاب ج . سوليفان : "حدود العِلم" . نشر : الدار العلمية - بيروت سنة ١٩٧٢ ، الصفحات (٦ - ٩) .

(٢) المصدر السابق .

قوة ما تسوق الحياة والأحياء فى سلم التطور صوب الأحسن والأرقى . . . وإلا غدت العملية من أساسها لغزاً مبهماً ، الأمر الذى دفع بعض العلماء إلى البحث عن بعض المفاتيح مثل : **القوة الحيوية** "*Vital force*" **أو "قوة التحقق" أو "الروح** *emtelechy*" وما إلى ذلك . . . ولو قالوا **الله** لحُلّت الأحاجى والألغاز ، ولوجدوا أنفسهم يتحركون فى الطريق الصحيح لفهم معادلة الحياة المعجزة!!!)[1]

أما "ج . ب . س . هولدن *Holane . S . B . J*" أحد ألمع علماء الحياة المحدثين فيقول فى إحدى مقالاته : (إننى لأتصّور وجود قوّة تلازم خط تطور الحياة ملازمة العقل للدماغ ، لقد حاول "رويس *Royce*" فى عام "١٩٠١" إعطاء صورة محددة لهذه القوّة ، وذلك كعقل ذى أبعاد زمانية هائلة ، وذكر أنّ الإحساس القوى الذى يلازم عملية التجدد موجود فى ذلك العقل وجوده فى عقولنا ، وإذا كانت هذه الأقوال تنطوى على عنصر من عناصر الحقيقة ، فإننى أشك فى أن تكون تلك القوة ذات طبيعة مشابهة لطبيعة العقل ، إنّ شكى فى إمكانية وجود نوع من الكائن المجهول!! يلازم عملية التطور يعود إلى الاعتراف بجمال مثل هذا الكائن وبغرابته التى لا تنقضي ، تلك الغرابة التى تشكل الميزة التى ظللت أستشعرها خلال عشرين عاماً قضيتها فى العمل العلمى الدائب)[2]

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .

الفصل الثالث

نقض نظريات التّطور والارتقاء الذّاتي

بعد كلٍّ ما تقدم: لا أظنُّ أنى بحاجة إلى الاستطراد فى أدلّة وبراهين نقض نظرية داروين ، أو نظريات التطور المادى الأخرى - سواء من اعتمد الاصطفاء الطبيعى أو من اعتمد الصدفة العشوائية. فهما قد أثبتتا فشلهما ، إذ أنهما مع تبجح المنادين بهما أنهم لا يؤمنون إلا بالعلم والمختبر والوقائع العلمية ، **لأبعد الناس عن العلم أو الدليل العقلي** . لأنهما قد ظهرتا وقامتا بعد أن وضع أصحابها الفروض المسبقة مع البحث عن وقائع فردية ، وإعطائها صفة العموم للوصول إلى الحقائق الأساسية المرجوة التى قامت عليها قوانين بقاء الإنسان .

لقد وصلت دراسات العلوم إلى كل مجال واتجاه وتغلغلت فى كل اتجاه ، ولكنها وقفت عاجزة أمام الإنسان لم تفهمه ، فقد عجز الإنسان الناقص العاجز أن يفهم نفسه ، وحاول أن يفهم أسرار الحياة ، كما حاول فهم العلوم وأسرار الكون ، ثم عاد ليفتح باباً جديداً من العلوم الظنية أسماه "**علم الإنســــــان**" ، تماماً كما فتح علوم الحيوان والنبات والكيمياء والفيزياء . . . . . ، متعاملاً مع الإنسان المادة كما يتعامل مع غيره من المواد العادية ، فأجرى دراسات حول الأجناس البشرية والسلالات والطبائع والتركيب العضوي ، وهو فى كل يتلمس طريقاً عسيراً ، أعلى بكثير عن مستوى إدراكه ، ونهجاً شاقاً ، إذ أنهم لم يواجهوا الإنسان مواجهة صريحة نيرة ليصلوا من خلالها إلى النتيجة الحتميّة النهائيّة: وهى أنّ الإنسان الموجود هو عاجز وناقص ومحدود ، وما دام كذلك فهو محتاج ولا بدَّ إلى قوّة أعظم منه ، أى أنه محتاج إلى مُبْدِعٌ ومُصَوِر ، بحاجة إلى خالق يوجده من عدم .

نعـــم ، لقد تناسوا الإنسان الموجود ، نسوا أنفسهم ونسوا أن يتفكروا ويُعْملوا العقل فى التفكير فى أنفسهم هم ، تركوه ، تركوا أنفسهم ، تركوا الإنسان الحاضر ليلتمسوه من خلال الأحافير المتحجرة ، والمجتمعات البدائية الدّارسة والمطمورة ،

ولإطلاق الخيال والدّوران فى الحلقات المفرغة التى تنتهى من حيث تبدأ ، فلا توصل إلى هدف أو مبتغى .

يذهب هؤلاء الناس - من يسمى منهم بالباحثين أو العلماء أو حملة ألقاب رفيعة أعلى شأناً للبحث عن الإنسان الموجود ، يبحثون عنه بين الكهوف والمغاور ، وبجانب شواطئ الأنهار والبحيرات وعلى صفحات الصخور . . . يلتمسون من خلال علماء الأحافير آثاره وأدواته ، ليعطوه حقباً تاريخية يطوروا الإنسان معها لأنه مربوط بها ربطاً مُلزِماً ، فهو فى زعمهم يتطور تبعاً لوسائل الإنتاج التى يستعملها وقد صنعها بيديه ! ! وتفرض عليه تلك الآلات الصماء التى لا تعقل ولا تعي ، نوع تفكيره وأسلوب عيشه وتعيّن له ثقافته وحضارته وأيدلوجياته ، ويحاولون من خلال تلك الملاحظات التى تتجمع لهم ، أن يرصدوا الإنسان ليصلوا إلى فُروض ونظريات يقيمون بها مكتشفات تصل إلى كُنه الإنسان ، وليطوروه حسب ما افترضوا من النظريات قبل بدئهم فى البحث والتّحرى والاستقصاء ، وليعطوه الآباء والأجداد والأعمام ممن هم أدنى مرتبة ، كل ذلك والإنسان المبحوث عنه قائم حي ، متحرك شامخ ، جميلٌ فى أجمل الصور ، عاقل مفكّر ، مُدرك فنّان ، عالم فيلسوف ، شاعر كاتب ، عالم متعلم ، لم يتبدل ولم يتغير منذ وُجِد إلى الآن .

وللحقيقة أنّ أساليب ووسائل علماء المادة وعلماء الأنثربولوجيا لن تستطيع أن تصل إلى شيء ، إلا ما هو مقررٌ أساساً فى عقول باحثيها ، وإلا إلى ما افترضوه مسبقاً قبل البدء فى أبحاثهم ، وهو ما ذهبوا للحصول على أدلته فى تلك المغاور والكهوف ، جَرْياً وراء صورة الإنسان البدائى منذ آلاف السنين ، ومن أجل تعزيز افتراضاتهم أنّ الإنسان من سلالة القرود والسعادين التى أنجبتها الزواحف ابنة البرمائيات المتصل نسبها بثنائية الخليّة وجدها الأعظم الذى هو أدناها مرتبة كان وحيداً للخلية ! ! ! [1]

وإنى لأعجب ! ويعجب معى كل عاقل ، لقوم أغلف الله قلوبهم وأعمى

---

(١) الفقرات الخمس السابقة ، منقولة بتصرف عن : كتاب أنور الجندي : مفاهيم العلوم الاجتماعية .

بصائرهم ، إذ يؤكدون تأكيد الواثق المطمئن ، فى شجرة الأحياء التى ابتدعوها أنّ أصل الإنسان قد تدرج فى مراحل تطورية ، أولها الجبلّة وحيدة الخليّة ، وآخرها قبل الإنسان الصعابير ، يؤكدون ذلك تأكيد الواثق المطمئن المتمكن مما يقول ، وفى تسلسل عجيب منتظم ومرتب . . . إلا أنهم لا يستطيعون التأكد من أى نوع من الصعابير على وجه التحديد تنشأ الإنسان حتماً ! وهل أتى من القرد أم من السعدان؟ أنى لأرثى لِحال هؤلاء الذين يرسمون أنفسهم كجهابذة العِلم وأعلام البحث ورواد الاستكشاف . . . يعرفون أجدادهم من الزّمن الغابر الموغل فى القِدَم فى إحدى عشر حقبة من الزّمن ، مؤكدين ذلك بإصرار ، فى حين أنَّ أمانة البحث !!! والحرص على الدّقة والحقيقة والصدق يحتمان ، لا بل يفرضان عليهم ألا يؤكدوا من هو جدّهم الأخير: القرد أم السعدان !!! .

إنّ كل نظريات التطور والنشوء تلك إنما استهدفت إحياء التراث الوثنى كله ، لإعادة صياغته من جديد ، لأجل أن تَصِلَ إلى إبراز مفاهيم ومعتقدات المحافل والجمعيات والمنظمات السرية ، والتى تدفعها أيادٍ خفيةٍ ، استوعبت تُراثَ أشور وبابل واليونان والرومان والبراهمة ، إنّ كل تلك المحاولات تستهدف تضليل الإنسان عن حقيقته ودفعه إلى الطريق الذى ينتهى به إلى الانحلال والتحطم . . .[1] . فَهُم يَرَوْنَ أنّ الطريق الأمثل للاستيلاء على الرأى العام فى العالَم للتحكم فى عقول الشعوب ومصائرها ، تنحصر فى العمل على إقلاقه وتشويشه بطوفان الأفكار والأراء من كل جانب ، بحيث ينتهى الأمر بضياع البشر ، ووقوعهم فى خِضَم الضّلال وحبائل الشيطان[2] .

لقد مضى منذ زمن ، الوقت الذى كان الكافر المستعمر يعتمد فيه حَصْراً على الأساطيل والجيوش لإخضاع الشعوب واستنزاف مواردها ، وإذلال وإفقار أهلها ،

---

(١) المصدر السابق .

(٢) عبد الله التل ، جذور البلاء ، صفحة (٢٦٥) ، بتصرف .وللاستزادة يمكن الرجوع إلى الصفحات (٢٦٥ - ٢٧٠) من الكتاب المذكور .

وظهر مكانه الاستعمار الحديث الأكثر لؤماً وخُبثاً وتأثيراً ، والذى يعمد إلى غزو البلاد واستعبادها ثقافياً وفكرياً واقتصادياً قبل أو بدون الاحتلال العسكري . والكافر المستعمر حين استعمر العالم الإسلامى أرسل طلائعه من أمكر وأخبث وألد الأعداء من المبشرين والمستشرقين وحملة الصلبان ، علاوة على الطابور الخامس المضبوع بثقافته والمفتون بحضارته من أبناء البلاد ، ليمهدوا الطريق لهذا الغزو بتضليل المسلمين وإعمائهم عن دينهم ، وصرفهم عن جوهره ، وإبعادهم عن حُسْنِ الاعتقاد بزعزعة إيمانهم ، فكان كل هؤلاء الطلائع والكتائب الأولى التى مهدت الطريق للاستعمار الكامل .

وقد كشف الباحثون أنّ الداروينية قد استُغِلَت فى محيط السياسة ، مما أدى إلى خلق جو مضطرب أطلت منه مذاهب العبقريّة ، فقد كان قول داروين بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تُسْتأصلَ ، ليحل محلها الأقوى والأقدر على البقاء ، تبعاً لقاعدة البقاء للأصلح ، قد استغلته حركة الاستعمار العالمى كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة[١] .

وأقرب مثال على ذلك: حرب الإذلال والإبادة التى دارت رحاها على شعوب أفريقيا الجنوبية من قبل حفنة من علوج الغرب الكافر المستعمر وحرب القهر الإبادة والإذلال بما فى ذلك هدم البيوت على رؤوس ساكنيها بأحدث الأعتدة وأفتكها ، واستعمال أحدث وأضخم الآلات الجهنمية بما فى ذلك الصواريخ والطائرات ، رافق ذلك الحقد والغل اليهودى المشهور على مدى التاريخ الأشد عداوة للذين آمنوا[٢] ، لقتل وتصفية شعب فلسطين المسلم من قبل أعدائهم وأعداء الله من يهود ، معللين ذلك بالقضاء على الإرهاب ، منفذين ما اعتقدوه من مذهب بقاء الأصلح والصراع

---

(١) أنور الجندي ، سقوط نظرية داروين ، صفحة (١٠) ، بتصرف .

(٢) لقد أثبتت أحداث نيسان الأسود كذب ادعاءات السفهاء من قادتنا القائلة بالفرق بين فرق اليهود ، ومراهنتهم الخاسرة على معسكرات السلام اليهودية ، فقد تسابق قادة اليسار بكل أحزابهم وتكتلاتهم على ذبح وإذلال أهل فلسطين ، والتباهى فى ذلك مثلهم مثل قادة اليمين ، فى تحالف شامل لكل اليهود بأحلافهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾ (المائدة: ٨٢) .

الشرير لتنفيذه . وآخر ما شاهدناه من مجازرهم تلك الهجمة البربرية التى قادها جيش يهود ضد المسلمين فى فلسطين ، تلك المجزرة التى نفذها يهود ابتداء من أوائل شهر نيسان الأسود لسنة ٢٠٠٢م . بمباركة وتوجيه من إمبراطورية الكاوبوى الصليبية "الولايات المتحدة الأمريكية" وهيئة الأمم المتحدة وكل حملة الصليب من إنجليز وغيرهم ، وتخاذل مذل مخجل من أشباه الرجال من حكام المسلمين ، [1] حيث تم ذبح وقتل الرجال وحرق والنساء والأطفال بوحشية بالغة فى مخيم جنين المنكوب وفى أزقة وحوارى نابلس وفى عمارات وشوارع رام الله وبيت لحم وفى كل مدن فلسطين ، فى حرب إبادة استهدفت الأرواح والأموال والبيوت ، حيث تم تنفيذ القتل والإعدام والذبح والإبادة وجرف الأراضى و إتلاف المزروعات ونهب الأموال وانتهاك الأعراض . علاوة على التمثيل المريع بالجثث الطاهرة ، وتركها فى العراء ومنع دفنها لتركها تنوشها الكلاب والوحوش ، والتقصد فى إتلاف المساكن والأشجار والمزروعات والوثائق والمستندات والكتب خاصة نسخ القرآن الكريم وكل ما يستطيعون إتلافه لإشفاء غلهم وحقدهم .

وسبق ذلك حرب الإبادة والقهر والإذلال التى قادها رأسى الكفر أمريكا وبريطانيا على شعب العراق المسلم مستغلين بذلك كل محافل ودوائر العالم من هيئة أمم وشرعية دولية وغيرها من الشعارات الزائفة ، ذلك البرقع الشفاف الذى يخفى الوجه البشع لهؤلاء الكفرة ورغبتهم فى قهر وإبادة المسلمين ، واستنزاف مواردهم ونهب خيراتهم .

وأخيراً استغلال رأس الكفر الولايات المتحدة الأمريكية ، وأتباعهم الأذلاء من رؤوس الحقد والغل ، أحقد وأبشع وألئم وأنذل البشر على الإطلاق "الإنجليز" وغيرهم من دول وشعوب العالم وبخاصة حملة الصلبان منهم ، استغلالهم حدث يوم الثلاثاء

---

(١) لقد أثبتت أحداث نيسان الأسود افتقار كافة حكام المسلمين للرجولة والنخوة والشهامة ، علاوة على تخليهم عن عقيدتهم ودينهم ، كما أثبتت أن كرامة المسلمين لا يمكن أن تتحقق إلا فى ظل حاكم واحد مؤمن مخلص ألا وهو خليفة المسلمين ، الذى يصون كرامتهم ويحمى أنفسهم وأموالهم ويرهب أعداءهم ويقود جيوشهم للقضاء على أعداء الأمة ، وأولهم إمبراطوريات الشر بريطانيا والولايات المتحدة .

المشهود ٢٠٠١/٩/١١ الذى هزّ إمبراطورية الشّر أمريكا وأظهر عجزها وضعفها وعوارها وذلها ، وكشف عن حقيقة زيف الغطرسة والجبروت والتميز الذى يدعونه ، ومع أنَّ كل الدلائل تشير إلى أن الفاعل الحقيقى أو الفاعلين هو كافر أثيم من جنسهم المنحط ، إلا أنهم جرو جيوشهم وعتادهم الجهنمي ، وعقدوا أحلافهم ، فى حرب صليبية آثمة جديدة ، لقتل وإبادة وإذلال وقهر المسلمين وإسلامهم فى أفغانستان البلد الفقير المسلم كخطوة أولى فى طريق إبادة المسلمين والقضاء على إسلامهم ، حيث كَشر كل الكفار الصليبيون عن أنيابهم ، وأظهروا مكنون الحقد فى نفوسهم ، ليثبتوا بجلاء ووضوح عن عقيدتهم المتمثلة بالرغبة الجامحة فى القتل والإذلال ، لاستنزاف موارد الأمم والشعوب ، ونهب خيراتهم ، فقاعدة الصراع من أجل البقاء والبقاء للأصلح هى دينهم وقائدهم وموجههم ، رغم تبجحهم بالرقى والحضارة والمبادئ وحقوق الإنسان والتسامح ، تلك الشعارات البراقة التى أثبتت حوادث الأيام زيفها ، وبالتالى فإن الديمقراطية التى ألبسوها ثوب العدل والمساواة والقانون ، هى فى حقيقتها شر وحقد واستعمار وبلاء ووباء فتاك وجرثومة شرٍ إبتلى بها الإنسان .

وقد استغلت نظرية التولد الذاتى - التى نادى بها داروين ولامارك وأرنست هيكل - منطلقاً إلى الإلحاد ، وجعلها البعض سنداً فى إنكار العقيدة الدينية ، فاتخذت منها فلسفة لإنكار وجود الخالق ، وإعطاء المادة صفة القادر المسيطر على كل شىء ، ومن ثمّ دعى هيكل إلى تأليه الطبيعة ، وإنكار وجود الله تعالى ، ونادى بوحدة الوجود [١] . وظهرت من خلال ذلك نظرية القوّة والتمييز العنصري ، والشعوب المختارة ، كما

---

(١) وحدة الوجود ، *pantheism* : هى القول بأن الله والطبيعة شيء واحد ، وبأنّ الكون المادى والإنسان ليسا غيرَ مظاهرَ للذات الإلهية .ووحدة الوجود تنطوى على إنكار لوجود الله .وقد قالت بها بعض الديانات والفلسفات منذ القدم .فنحن نقع عليها فى المعتقدات المصرية والصينية والهندية . وفى الفلسفة اليونانية أخذ الرواقيّون بهذا الرأى مؤكدين أنّ الله والعالم شيء واحد ، وقال به فلاسفة الأفلاطونية المحدثة .وكذلك فعل بعض الفلاسفة النصارى .وبين المسلمين نجد "وحدة الوجود" واضحاً عند محى الدين بن عربى وعند الحلاج - وكلاهما من رؤوس الصوفية - .أما فى العصر الحديث فكان سبينوزا أكبر القائلين بوحدة الوجود والمدافعين عنها ، وكذلك هيكل . - منقول بتصرف عن : منير البعلبكي ، موسوعة المورد العربية ، المجلد الثاني ، صفحة (١٢٩٨) .

صيغت نظرية القوة عند **نيتشه** ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان ، وبها انتفع دعاة الأرستقراطية ، فوجدوا فيها سلاحهم ، إذ أعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأجداد سادة البشر ومالكى العروش وصانعى التاريخ [١] .

لقد دخل مذهب داروين إلى العالَم الإسلامى عن طريق الترجمات ، وبواسطة مجلة "المقتطف" والدكتور شبلى شميل الذى ترجم "شرح بخنر على مذهب داروين" وتابع ذلك إسماعيل مظهر وسلامة موسى "القبطى الصليبي" ومحمد يوسف حسن ، وغيرهم من عملاء الفكر الغربى الكافر .

إنّ نظرية داروين الواردة فى كتابيه "أصل الأنواع" و "نشوء الإنسان" ، وفى الكتب والمجلات والموسوعات التى كتبها ونشرها تطوريون آخرون ، تفتقر إلى أكثر من دليل لإثباتها ، وقد برهن العلم بعد داروين ، كما برهن العقل ، فساد تلك النظرية وبطلانها . ومن آلاف العلماء المختصين نستعرض على سبيل المثال ما جاء فى مقالة "النتيجة الحتمية" للدكتور "جون كليفلاند كوثران" المنشورة فى كتاب "الله يتجلى فى عصر العلم" :

(فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أنّ المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هى التى أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟ لا شك أنّ الجواب سيكون سلبياً . بل إنّ المادة عندما تتحول إلى طاقة أو تتحول الطاقة إلى مادة فإنّ كل ذلك يتم طبقاً لقوانين معينة ، والمادة الناتجة تخضع لنفس القوانين التى تخضع لها المادة المعروفة التى وجدت قبلها .

وتدلنا الكيمياء على أنّ بعض المواد فى سبيل الزوال أو الفناء ، ولكن بعضها يسير نحو الفناء بسرعة كبيرة والآخر بسرعة ضئيلة ، وعلى ذلك فإنّ المادة ليست أبدية ، ومعنى ذلك أيضاً أنها ليست أزلية ، إذ أنّ لها بداية ، وتدل الشواهد من الكيمياء وغيرها من العلوم على أنّ بداية المادة لم تكن بطيئة أو تدريجية ، بل وجدت بصورة

---

(١)أنور الجندي ، سقوط نظرية داروين ، الصفحات (١٠ - ١١) .

فجائية ، وتستطيع العلوم أن تحدد لنا الوقت الذى نشأت فيه هذه المواد ، وعلى ذلك فإنّ هذا العالم المادى لا بد أن يكون مخلوقاً ، وهو منذ أن خُلق يخضع لقوانين وسنن كونية محددة ليس لعنصر المصادفة بينها مكان .

فإذا كان هذا العالم المادى عاجزاً عن أن يخلق نفسه أو يحدد القوانين التى يخضع لها ، فلا بد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي ، وتدل الشواهد جميعاً على أنّ هذا الخالق لا بد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة ، إلا أنّ العقل لا يستطيع أن يعمل فى العالم المادى كما فى ممارسة الطب والعلاج السيكولوجى دون أن يكون هناك إرادة ، ولا بد لمن يتصف بالإرادة أن يكون موجوداً وجوداً ذاتياً . وعلى ذلك فإنّ النتيجة المنطقية الحتمية التى يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أنّ لهذا الكون خالقاً فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيماً عليماً قادراً على كل شىء حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود تتجلى آياته فى كل مكان)[١]

أما أخصائى علم الحيوان والحشرات ، المتخصص فى دراسة أجنة الحشرات ، الدكتور "إدوارد لوثر كيسل" فيقول فى نفس الكتاب :

(واليوم لا بُدَّ لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يؤمنوا بفكرة[٢] الخلق أيضاً ، وهى فكرة تستشرق على سنن الطبيعة ، لأنّ هذه السُنن إنما هى ثمرة الخلق ، ولا بُدّ لهم أن يسلموا بفكرة الخَالق الذى وضع قوانين هذا الكون ، لأنّ هذه القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول أن يكون هنالك خلق دون خالق : هو الله .

ولو أنّ جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والبُعْد عن التحيز الذى ينظرون به إلى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم ، فإنهم سوف يسلمون

---

(١) كتاب " الله يتجلى فى عصر العلم " الصفحات (٢٤ - ٢٥) .
(٢) هكذا وردت فى المصدر فى حين أنّ الأصح أن يقال " حقيقة " وليس فكرة .

دون شك بوجود الله ، وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسّر الحقائق . فدراسة العلوم بعقل مُتَفَتِح سوف تقودنا بدون شك إلى إدراك وجود السبب الأول الذى هو الله[١] . . . وأعود فأقول إنّ دراسة العلوم بعقل متفتح تجعل الإنسان يسلم بضرورة وجود الله والإيمان به) .

وفى استعراض لنظريات التطور وآثارها ، يقول : "الدكتور محمد عزت نصر الله" فى كتابه "الرّد على صادق العظم" : (نظرية التطور هى فى الأصل فكرة قديمة ، راودت أفكار الإغريق قبل الميلاد بحوالى خمسة قرون ، وهى لا تخرج عن كونها محاولة فاشلة تهدف لإرجاع الأحياء - بما فيها الإنسان - إلى أصل واحد مشترك ، وفى أوائل القرن التاسع عشر تناول لامارك هذه الفكرة وأدخل عليها بعض التعديلات ، ولكنه فشل فى إخراج هذه الفكرة فى إطار علمى مقبول ، فلم تُسعفه الشواهد ولا الأدلة ، ثم جاء داروين بعد لامارك ، فى أواسط القرن التاسع عشر ، واهتم بهذه الفكرة وأدخل عليها تعديلات جديدة ، وكان يقوم بهذا العمل بتشجيع خفى من حركات ومحافل سرّية مشبوهة ، فلما استحسنت تلك الحركات ما توصل إليه لإغراق العالم فى المادية تنفيذاً لبعض حيثيات مخططاتهم المشبوهة الرّامية للسيطرة على العالم ، قادت حملة دعائية للترويج للفكرة[٢] ، حتى ظنّ الناس أنّ داروين هو واضع نظريّة النشوء والارتقاء)[٣]

(ورغم الشّهرة والذيوع ، بل ورغم الملاحظات والإصلاحات العديدة التى أُدخِلَت عليها من قبل أنصار داروين بعد وفاته ، فقد بقيت الفكرة - وما تزال - فى حاجة إلى التأييد العلمي[٤] الخاضع للمشاهدة والعيان ، لأنها تعتمد فى كثير من

---

(١) ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ - قرآن كريم - سورة فاطر - آية ٢٨ .

(٢) للاستزادة يمكن الرجوع إلى : التل ، عبد الله - جذور البلاء ، الصفحات (٢٦٥ - ٢٧٠)

(٣) قال كثير من العلماء أن فكرة التطور العضوى أنهم لا يؤمنون بتلك النظرية ، إلا لأنه لا يوجد بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة!! فقد كتب "سير آرثر كيت" فى كتاب دورى اسمه "*Islamic thought*" العدد ٦١/١٢ ما يلي : (إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأنّ الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر) وهذا ما لا يمكن حتى التفسير فيه!!!

(٤) المصدر السابق ، صفحة (٥٠) .

نواحيها على الحدس والتخمين ، لقصور الأدلة العلمية القاطعة عن إثباتها أحياناً ، أو لأنها لا تخضع للتجربة المعملية ولا تقع تحت الحس . وعليه فتعود النظرية أقرب إلى التلفيقات الوهمية الخيالية منها إلى الأبحاث العلمية التجريبية . ولا يفوتنا أنّ الفكرة فى جميع أدوارها المذكورة لم تحظَ بالصحة المطلقة فى شىء من الأوساط العلمية ، وإنما كان أنصارها ينظرون إليها باعتبارها نظرية مقبولة نسبياً . . . وإذا قصر باع العالم الحاضر عن مساندتها فى جميع خطوطها ومعالمها ، فسوف يمتد إليها فى المستقبل محاولاً مدّها بالبراهين على ضوء ما يتجدد من كشوف ، أما معارضوها وناقدوها ، وفيهم الكثير من أبطال العلم والتاريخ ، فمن بينهم من كان يعتبرها ثرثرة وهراء بُحَت بها حنجرة غبى جاهل) .

إنّ أساس نظرية التطور الحديثة كما رسمها لامارك قبل داروين ، قد اعتمدت على أساس تأثير الوراثة فى نقل الصفات المكتسبة إلى النّسل ، إلا أنّ هذا الأساس قد فقد قيمته العلمية تماماً ، لا بل قضى عليها من الأساس التجارب التى أجراها "غريغور مندل" على نبات البازيلاء ، فبرهنت تلك التجارب بكل تأكيد وبلا شك على عدم تأثير الوراثة فى الصفات المكتسبة ، ولما فقد هذا الأساس رصيده العلمى انهارت النظرية المرتكزة عليه وسقطت من الاعتبار ، لــذا فإنّ الكثير من مشاهير العلماء من يعتبرها مجرد هرطقة ووهم وثرثرة وخيال وفارغ من القول لا تنتسب إلى العلم أوالحقيقة بسبب .

وحتى مؤيدو النظرية ودعاتها لم يستطيعوا الدفاع عنها ، أو إيجاد التبريرات العلمية أو العقلية لإثبات صحتها ، ولا حتى الوقائع التاريخية الثابتة ، ومن حاول منهم ذلك فقد اعتمد فى محاولته على تزوير متعمد للحقائق والتلاعب بها لخداع الناس ، كما مرّ فى فصل سابق ، وهاهو "البرفيسور أ . ي . ماندير" ينفى أن تكون للنظرية ركيزة علمية ثابتة ، بل أنّ كل ما يستطيع أن يبرر لها وجودها أنها أتت بطريق الاستنباط ، حيث **يقول**: (إنّ الحقائق التى نتعرفها مباشرة تسمى "الحقائق المحسوسة *Percieved Facts*" ، بيد أنّ الحقائق التى توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر فى "الحقائق المحسوسة" ، فهنا حقائق

أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا فى هذه السبيل هى الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه "الحقائق المستنبطة *Inferred Facts*" والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين ، وإنما الفرق هو فى التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالواسطة ، والحقيقة دائماً هى الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط)[١] ويضيف ماندير قائلاً :

(إنّ حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئاً عن الكثير الآخر؟ . . هناك وسيلة وهى الاستباط أو التعليل ، وكلاهما طريق فكري ، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة ، حتى ننتهى بنظرية : أنّ الشيء الفلانى يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً)[٢]

وربّ سائل يسأل: كيف يصح الاستنباط المنطقى على حقيقة وجود أشياء لم نشاهدها مطلقاً؟ وكيف يمكن أن نسمى مثل هذا الاستنباط حقائق علمية ، وكل دعاة التطور المادى لا يعتبرون من حقائق العلم ما لم يُشاهد ويُحس ويُلمس؟ وكيف نجزم بحقيقة وجود ما لم نَرَهُ لا نحن ولا من قبلنا ، إنما عللناه بظواهر معينة لا ترقى حتى إلى شبهة الدليل؟ ويجيب ماندير على ذلك قائلاً : إنّ المنهج التعليلى صحيح لأنّ الكون نفسه عقلي [٣] .

فإذا كان مقصد ماندير بقوله أنّ الكون نفسه عقلي ، إذا كان مقصده من ذلك أنّ إثبات مصدر وجوده يجب أن يعتمد على العقل ، فهذا قول صحيح ، وهو ينقض نظرية التطور وينسفها نسفاً ، لأنّ إعمال العقل فى الكون بموجوداته يعنى نبذ أساس النظرية المعتمد على إنكار كل ما لايقع عليه الحس المباشر ، وإنكار كل ما لا يخضع للتجارب المخبرية ، ويعنى أيضاً البحث عن طريق العقل والتفكر بالموجودات

---

(١) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، صفحة (٤٧) . نقلاً عن : *Mander, Clearer Thinking, . E. A* . ٤٦ . *London, p*

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

والسنن ، وهذا ما يؤدى إلى نقض نظريات التطور والإيمان القطعى بوجود خالق لهذا الكون وهو الله تعالى ، وهذا ما سنتناوله فى بحثنا لاحقاً فى باب "الإسلام وخلق الإنسان"[١] إن شاء الله .

أما نظرية "هكسلي" وقروده التى ستكتب صدفة أشعار شكسبير - وشر البلية ما يُضحك - فإنّ مثل تلك الادعاءات لا تدل إلا على رعونة من ادعاها ، إذ هى على قدر كبير من البلاهة والتغابي ، بحيث لا تحتاج إلى الرد أو النقض ، وكثير من دعاة التطور وعلمائه قد أعربوا عن اشمئزازهم واستنكارهم لمثل تلك الهرطقات ، وفى تعليق على قول هكسلى هذا ، وعلى نظرية التطور العضوى يَرد "البروفيسور رايدوين كونكلين" :

(إنّ القول بأنّ الحياة وجدت نتيجة "حادث اتفاقي" شبيه فى مغزاه بأن تتوقع إعداد معجم ضخم ، نتيجة انفجار صدفى فى مطبعة)[٢]

إنّ طبيعة من يدعى العلم والمعرفة والحكمة أن يكون متزناً ، وذلك ما لا ينطبق على "مستر هيكل" وغيره من أدعياء العلم والمعرفة من دعاة التطور ، وأبلغ دليل على ذلك ادعاؤه القدرة على الخلق ، فلو سلمنا جدلاً - مع اقتناعنا التام استحالة ذلك استحالة مطلقة - بقدرته على خلق الإنسان المادة ، فماذا عن سر الحياة "الروح"؟ وماذا عن العقل المميز؟ . ويرد على ادعاء هيكل القدرة على الخلق ، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك "أ . كريسى موريسون *A. Cressy Morrrison*" قائلاً :

(إنّ هيكل يتجاهل فى دعواه الجيـنات الوراثـية *Genes*" ، ومسألة الحياة نفسها ، فإنّ أول شىء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان ، هو الذرات التى لا سبيل إلى مشاهدتها ، ثم سيخلق الجينات أى حملة الاستعدادات الوراثية ، بعد ذلك ترتيب هذه

---

(١) الباب الثالث ، الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٢) الإسلام يتحدى ، صفحة (٧٢) ، نقلاً عن : *The Evidence of God, p*. ١٧٤ . ، والرد هو على تصريح المذكور الوارد فى أول الفصل الثالث عشر من الباب الأول فى هذا الكتاب .

الذرات حتى يعطيها ثوب الحياة . . . ولكن إمكان الخلق لا يعدو واحداً على عدة بلايين ، ولو افترضنا أن هيكل نجح فى محاولته فإنه لن يسميها صُدفة ، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته)[١]

أما عالم الطبيعة "جورج إيرل ديفيس" فيرد على تلك المقولة قائلاً :

(لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه ، فإنّ معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق ، وفى هذه الحالة سنضطر إلى أن نؤمن بأنّ الكون هو **الإله** . . . ولكن إلهنا هذا سيكون يكون عجيباً : إلهاً غيبياً ومادياً فى آن واحد إننى أفضل أن أومن بذلك الإله الذى خلق العالم المادي ، وهو ليس بجزء من هذا الكون بل هو حاكمه ومدبره ، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات)[٢]

إنّ أبسط رد على نظرية داروين هو **قانون السببية** الذى عبَرَ عنه ذلك الأعرابى البسيط وبطريقته البسيطة حين سألوه عن الله تعالى فأجاب : البَعرَة تدُلّ على البعير ، وخطّ السير على المسير ، فكيف بسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا يدل ذلك على العلى الكبير!!! . ونعود إلى "أ . كريسى موريسون" مرة أخرى ليؤكد لنا حتمية التدين ، أى كون الأشياء مخلوقة لخالق :

(إنّ كون الإنسان ، ومنذ بدأ الخليقة إلى الآن ، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم ، ليدل على أنّ الدين فطرى فيه ، ويجب أن يقر العلم بذلك)[٣]

وفى مقام الرّد على "هيكل" وادعاؤه القدرة على الخلق يستطرد "كريسى موريسون" راداً عليه إدعائه ، وكان الرّد فى سياق البحث عن وحدات الوراثة "*Genes*" الموجودة فى نواة كل خلية لكل ذكر وأنثى ، مستدلاً بذلك على وجود الله تعالى **حيث**

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٧٨) ، نقلاً عن : *Man Does not Stand Alone, p*. ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، نقلا عن : *The Evidence of God*. p . ٧١ .

(٣) الإنسان لا يقوم وحده - الترجمة العربية - صفحة (٢٩٠) .

يقول:

(تبلغ الجينات "وحدات الوراثة" من الّدقة أنها - وهى المسؤولة عن المخلوقات البشرية جميعاً التى على سطح الأرض من حيث خصائصها الفردية وأحوالها النفسية وألوانها وأجناسها - لو جُمعت كلها ووضعت فى مكان واحد ، لكان حجمها أقل من حجم الكستبان ، والكستبان الذى يسع الصفات الفردية لبليونين من البشر هو بلا ريب مكان صغير الحجم ، ومع ذلك فإنّ هذه هى الحقيقة التى لا جدال فيها . . . فهى التى تحبس كل الصفات المتوارثة العادية لجمع من الأسلاف وتحتفظ بنفسية كل فرد منهم فى تلك المساحة الضئيلة)[1]

أما عالِم الطبيعة " أدموند و . سينوب " فيقول:

كيف نشأت الحياة؟ ذلك ما لا علم لنا به ، ولا رأى لنا فيه . . . بطريقة ما تنتظم الإلكترونات والبروتونات الدّوارة وجملة أخرى من الجزيئيات المادية ، وتصبح ذرات الكربون أو الأوكسيجين أو الهيدروجين ، وهذه الذرات تتجمع بدورها فتصبح دقائق كبيرة من البروتين ، فإذا انضمت إليها عناصر معدنية مختلفة ، وكمية صالحة من الماء انبنى فيها جبلة حية "بروتوبلاسمية" ثم بطريقة ما مجهولة لدينا تماماً تدلف هذه المادة الموات فجأة إلى الحياة . . .

إنّ الأحيائى مهما بلغ جهده ، مقصور على أن يواجه مشكلات غيبية . . . على أنه يرفع يديه مستغيثاً بأنّ مثل هذه الآراء خارجة عن حدود العِلم ، فلا يعنيه من أمرها شىء . ولكننا ما لم نحدد العِلم تحديداً بالغ الضيق ، فإنّه سيواجه عند تخومه الخارجيّة أشباها فى هذه المشكلات . . . إزاء التساؤل المحرج عن طبيعة الحياة وصفتها سوف لا نلتزم معالجته عن طريق حدود العِلم وحده . . . قد نكون فى حاجة إلى وسائل لا يملكها العِلم فى الوَقت الحاضِر . . . إنّ الإنسان روحٌ أول شىء ، ويتعذّر عليك أن تَصُبّه فى قالب مادى صِرف ، كما يتعذّر عليك أن تزن جمال سيمفونيّة فى كفتى ميزان ، إن

---

(١) الإنسان لا يقوم وحده ، الترجمة العربية ، صفحة (١٣٧) .

الرّوح[1] على ما يُعَرِفَه الدين ، لا على ما يعرفه عِلم النّفس والطب النّفسانى هو أشد المطلوبات إلحاحاً على الإنسان فى هذا العَصر . وأقل ما يكن العِلم نفعاً لنا ، سواء أكان عِلم الأحياء أم أى عِلم آخر فى هذه النّاحية)[2]

كان هذا اعتراف صريح أنّ العِلم لا يتمكن من معرفة شىء قطعى عن نشأة الحياة وخلقها ، نعم إنّ الناحية الروحية فى الأشياء كونها مخلوقة لخالقٍ أوجدها من عدم ، هى حقيقة لا تخضع للعِلم وتجارب مختبراته ، إنما تُدرك باستعمال العقل عن طريق التفكر فى المخلوقات وقوانين الحياة .

وعالِم شهير آخر يدلى بِدّلوه فى الموضوع ، هو العالِم الإنجليزى "روسل ولاس" وهو عَلَم من أعلام التاريخ الطبيعي ، وتعتبر مؤلفاته كمراجع لجميع المشتغلين بعلمى النبات والحيوان :

(إنّ نشوء أى جسم على صورة مركبة مماثلة لفرد من نوعه ، أمر لا يثير فى كثير من الناس أقلّ دهشة ولا استغراب ، ومع هذا فإنه لا يزال باقياً بلا تعليل معقول ، نعم : إنّ أهل العِلم قد كشفوا ظواهر كثيرة تتعلق بالأنظمة الذى تتبعه الأحياء فى نموها ، ولكنهم فيما يتعلق بطبيعة القوى العاملة فى هذا النمو ، وبالعوامل التى تقودها وترشدها وتنظم حياتها ، **لم يعطونا غير ظنون مبهمة وافتراضات لا تغنى من الحقيقة شيئاً** . لقد عرف منذ زمان مديد أنّ كل نمو سواء أكان حيوانياً أو نباتياً يكون بنشوء خليّة أولية وتكاثرها إلى حد ما ، ولكن ما هى الخلية فى ذاتها؟ أهى غير مقدار قليل من المادة البروتوبلاسميّة التى اعتبرها أهل العلم المادة الأولية للحياة؟ على أنها من الناحية الكيمائية أكثر المواد المعرفة تركيباً ، لأنها وإن كانت تتألف من العناصر الأربعة : الكربون ، الهيدروجين ، الأزوت ، الأكسجين ، فقد عُلم الآن أنّ ثمانى

---

(١) المقصود بالروح هنا معناها : إدراك الإنسان لصلته بخالقه ، وليس المقصود المعنى الآخر لكلمة الروح ، وهو سر الحياة .

(٢) د .عزت نصر الله ، الرد على صادق العظم ، الصفحات (٩٨ - ٩٩) ، نقلا عن : أدموند و .سينوب ، حياة الروح فى ضوء العلم ، الصفحات (١٣٨ - ١٤٥) .

مواد أصلية أخرى تدخل في تركيبها هي: الكبريت ، الفوسفور ، الكلور ، البوتاسيوم ، الصوديوم ، الماغنيسيوم ، الحديد . ويزيد على هذه المواد ست أخرى قد تصادف فيها ، وإن كانت ليست من المقومات الأصلية للبروتوبلاسما ، وهذه المواد هي: السيليكون ، الفلور ، البروم ، اليود ، الألومنيوم ، المنجنيز . فالبروتوبلازما والحالة هذه مادة شديدة التركيب ، لا بكثرة عدد المواد الدّاخلة في تركيبها فَحَسْب ، ولكن بشكل اتحاد هذه المواد كيميائياً . وهو الأمر الذي يستعصي على كلّ تحليل فني)[1]

إنّ على الإنسان أن يتفكّر في الخلق معْمِلاً عقله في استخلاص النتائج المتعلقة بالحياة والخَلق على ضوء هذا التّفكير ، والمشاهدات التي يجدر به التفكير بها كثيرة لا تحصى ، وتقع جميعها تحت إدراكه وإحساسه ، وأولها هي **الإنســـان وتركيبه العضـــوي** ، وأبسط ما يكون تركيب الإنسان العضوي هي الخلية . والخلية هي أيضاً وِحْدَة أساسية في تركيب أي مادة كانت ، فالإنسان والحيوان وجميع الكائنات الحيّة - من أبسط أنواعها كوحيدة الخلية إلى أعقد أنواعها - تتكون من وحدات أساسية هي الخلايا .

إنّ الخلية هي تلك الوحدة المتناهية في الصغر المحتوية على مقومات الحياة ، وهي الذخيرة أو الأصل التي تعود إليه كلّ صور الحياة ، وهي المادة الحيّة الأولى التي تسمى "الجِبِلة أو البروتوبلازم" . وهي كما يقول داروين **المادة الحيّة الأولى** ، وتؤدي كلّ خلية وظائفها الحيويّة العديدة بدرجة من الدّقة المتناهية التي عجز الإنسان العاقل الحالي أن يجاري تلك الدقّة في أدق مصنوعاته الآلية .

لقد قام "روسل ولاس" آنفاً بإعطائنا نبذة سريعة عن دقة تكوُن وتركيب وعمل الخليّة ، إلا أنّ ما قام به المذكور لم يكن رأياً خاصّاً به ، بل حقيقة علميّة أكدها كلّ من اشتغل بالعِلم واعتمد نتائجه ، وقد اعتمد العلماء تعريفاً للخلية أو البروتوبلازم هو

---

(١) الدكتور محمد عزت نصر الله ، الرد على صادق العظم ، الصفحات (١٢٦ - ١٢٧) ، نقلاً عن: روسل ولاس ، عالَم الحياة ، الصفحات (٣٩٨) وما بعدها .

كما يقول "د . وليم سيفرتبنر" :

(إنّ المادة الحية المعروفة باسم **البروتوبلازم** هى خليط معقد جداً من الماء والأملاح والسكريات والدهون والبروتينات . وفى هذه المادة الحيّة غير المتجانسة تحدث تلك العمليات التى تؤلف فى مجموعها الحياة)[١]

وتصحيحاً لا بدّ منه لذلك التعريف ، فإنّ تلك العمليات لا تؤلف الحياة أبداً ، إنما هى علامة من علامات الحياة ، فالحياة مظهر من المظاهر وسر من الأسرار ، لا ولن يعلمه أحد إلا الله تعالى ، وَقَفَ أمامه العِلم حائراً عاجزاً ، وقد فشل كلّ من حاول سابقاً ، ووقف أمامها حائرا عاجزاً ، وسيفشل كلّ من سيحاول لاحقاً فى التّعَرُف على كنه الرّوح التى هى سر الحياة . ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[٢] .

إنّ كلّ فرد منَ المخلوقات بلا استثناء من نبات أو حيوان يتألف كما يقول العِلم من البروتوبلازم بلا استثناء ، والبروتوبلازم هو متشابه تقريباً فى كليهما ، إلا أنّ هذا التّشابه هو تشابه نسبي ، أى أنّ البروتوبلازم الحيوانى يتشابه مع البرتوبلازم النباتى ولا يتماثل معه ، وكذلك فإنّه يوجد اختلاف وفروقات بين بروتوبلازم أى كائن وبين بروتوبلازم أى كائن آخر ، وتلك الاختلافات والفروقات هى فروقات أساسية وحيوية ، وإلا لما كانت بيضة الضفدعة التى أنتجت ضفدعة ، ولما نمت بذرة البلوط فأصبحت شجرة بلوط ، وبذرة القمح قمحاً ، وبذرة الشّعير شعيراً . . . . . وهذه الفروقات كبيرة جدّاً وحيويّة جداً ، إلا أنّ العِلم ومختبراته وأجهزته المتعددة الدّقيقة وعقول جهابذته لم تستطع الوصول إلى أسرارها ، ومن أبرز الحقائق فى عِلم الحَياة أنّ كلّ أنواع البروتوبلازم مع الفروق بينها وخفاء مصادرها ، تبدو متشابهة إلى حد كبير وتشبه بياض البيضة وفيه نقط دقيقة ومنتشرة[٣] . ويقول الأستاذ فى جامعة

(١) منقول عن : جيمس ستوكلي ، العلم يزحف ، ترجمة د . محمد الشحات .
(٢) سورة الإسراء (٨٥) .
(٣) منقول بتصرف عن : جيمس ستوكلي ، العلم يزحف ، ترجمة محمد الشحات

فرانكفورت ، وعضو الأكاديمية فى أنديانا ، الدكتور "رسل تشارلز آرتست" :

(إننى أعتقد أنّ كلّ خلية من الخلايا الحيّة قد بلغت من التعقيد درجة يصعب علينا فهمها وأنّ ملايين الملايين من الخلايا الحيّة الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرة الله شهادة تقوم على الفكر والمنطق ، ولذلك فإنى أومن بوجود الله إيمانا راسخاً)[1]

نترك الخلية لنبحث مع " سبنسر " فى قطرة الماء :

(إنّ العالِم الذرى الذى يرى قطرة الماء ، فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والهيدروجين بنسبة خاصّة ، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئاً آخر غير الماء ، ليعتقد عظمة الخالق وقدرته ، وحكمته وعلمه الواسع ، بأشدّ وأعظم وأقوى من غير العالِم الطبيعى الذى لا يرى فيها إلا أنها نقطة ماء ، نقطة ماء فَحَسْب !! وكذلك العالِم الذى يرى قطعة البَرَد وما فيها من جمال الهندسة ودقّة التقسيم ، لا شكّ أنه يشعر بجمال الخالق ودقيق حكمته ، أكبر من ذلك الذى لا يعلم إلا أنها مَطَرٌ تَجَمَدَ من شِدّة البَرْد)[2] .

إنّ دعاة التّطور من أصحاب الفكر المادي ، قالوا : بأنّ خصائص المادة مع عوامل الصدفة هى التى أوجدت الحياة مع أشكالها المختلفة من نبات وحيوان وإنسان ، فقام علماء وقالوا بنظريّة النشوء والارتقاء . وكان أبرز هؤلاء هو تشارلس داروين الذى وَجَدَ كارل ماركس وأتباعه فى نظرية داروين دعماً لفكرهم المادي . **وهنا نطرح السؤال التالي** : هل خصائص المادة وعوامل الصدفة فيها القدرة على إيجاد هذا الإنسان؟ إنّ الأمر يحتاج إلى الجدية والمسؤوليّة فى الاهتمام ، ويحتاج إلى الفكر العميق المستنير فى البحث . إنّ هذا مفترق طرق فى التفكير الإنساني .

(**لن نبحث الآن فى خصائص المادة** : من أودعها فيها ومن فرضها عليها ، وذلك

---

(١)جون كلوفر مونسما ، الله يتجلى فى عصر العلم ، صفحة (٧٧) .من مقال رسل تشارلز آرتست ، بعنوان " الخلايا الحية تؤدى رسالتها" .

(٢)يوسف القرضاوي ، العبادة فى الإسلام ، صفحة (١٧) .

مسايرة لفرضيّة أزلية المادة وملحقاتها ، بل سنبحث فى : هل يمكن لهذه الخصائص التى افترضوا أزليتها ، هل يمكن لها مع عوامل الصدفة أن تصنع الإنسان؟

أولاً دعونا نلق نظرة على بعض هذه الخصائص ، لنتعرّف إلى حدود طبيعتها وسلوكها ، لنأخذ مثلاً ذرة الأوكسجين فإنها تحتوى على ستة إلكترونات فى طبقتها الخارجية فتحتاج إلى إليكترون كى تصبح هذه الطبقة مشبعة ، والهيدروجين يوجد فى ذرته إلكترون واحد قابل للتفاعل ، فتتحد الذرة الواحدة من الأوكسجين مع ذرتين من الهيدروجين لتشكل الماء "H_2O" . أما ذرة النيتروجين فيوجد فى طبقتها الخارجية خمسة إلكترونات ، فتحتاج إلى ثلاثة كى تصبح مشعة ، وهكذا حين يتفاعل النيتروجين مع الهيدروجين فإنّ كلّ ذرة نيتروجين تتحد مع ثلاث ذرات من الهيدروجين لتشكل الأمونيا أو روح النشادر "H_3N" .

وهكذا فإنّ سلوك المادة ، سواء كانت فى شكل عنصر أو مركب أو مزيج ، يكون تابعاً لخصائصها ، ولا يمكن للمادة أن تتصرّف عكس خصائصها أو خارج نطاق هذه الخصائص ، وهذه حقيقة علمية يقع عليها الحسّ مباشرة ، وهى حقيقة علمية أثبتتها تجارب الاختبار .

أما ما يسموه الصدفة فهو عبارة عن الالتقاء العشوائى بين مادتين فأكثر ولكلّ واحدة خصائصها فيؤثر بعضها فى البعض الآخر ، وتحصل نتائج أو مواد جديدة ، فالنتائج التى تحصل من الصّدفة هى وليدة خصائص المادة ، ولا يمكن أن تكون عكسها أو خارج نطاقها ، كلّ ما فى الأمر أنها سميت صدفَة لأنّ الالتقاء بين المادتين لم يحصل بناء على ترتيب سابق مقصود بل كان عشوائياً ، **وسواء كان الالتقاء بين مختلف المواد عشوائياً أو مرتباً عن قصد فإنّ هذه المواد لا تتصرّف إلا طبق طبائعها وخصائصها**... فهل يوجد بين خصائص المادة أن توجد إنساناً كما أوجدت ماءاً أو أمونيا؟

إنّ التدقيق فى هذا وإنعام النّظر فيه يظهر بشكل بسيط وقطعى أنّ المادة ليس من

خصائصها ولا من طبيعتها أن تصنعَ الإنسان . إنّ فى كلّ جهاز من أجهزة جسم الإنسان من الدقة والحكمة والإبداع ما ينطق بلسان فصيح بأنّ هناك مبدعاً حكيماً قادراً هو الذى صنع هذا الإنسان من المادة)[١] .

إنّ الاستنباط والتعليل والتأويل هما الأساس الذى قامت عليه عند علماء ودعاة التطور نظرية "التّطور العلمي" وهو ما أشار إليهم "ماندير" باسم "الحقائق المستنبطة"[٢] وبناء على هذا الأساس يجزم "ماندير" صِدْقَ وصحة النّظرية قائلاً :

(لَقَد ثَبَتَ صِدْق النظرية ، حتى أننا نستطيع أن نعتبرها أقرب شيء إلى الحقيقة)[٣] ويوافقه "سمبسون" فى هذا الصدد قائلاً : (إنّ نظرية النشوء والارتقاء حقيقة ثابتة أخيراً وكلياً ، وليست بقياس بديل صيغ للبحث العلمي)[٤] .

ويعتقد محرر "دائرة المعارف البريطانية ١٩٥٨" أنّ نظرية الارتقاء فى الحيوانات حقيقية ، وإنّ هذه النظرية قد حظيت بموافقة عامة بين العلماء والمثقفين بعد داروين . لذا فليس هناك مجال للشك والارتياب فى صدقها وحقيقتها ، أو الإتيان بما يناقضها ، لأنها ثابتة ولا مجال للطعن فيها أو التدليل على عكسها بتاتاً [٥] .

أما " سير تشارلس لايل *Lil. S. R.* " فيقول:

(ظلّت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد يوماً بعد يوم بعد داروين ، حتى أنه لم يبق شك لدى المفكرين والعلماء فى أنّ هذه هى الوسيلة المنطقية الوحيدة التى تستطيع أن تفسّر الخلق وتشرحه)[٦]

إنّ تأكيدهم هذا يستوجب التساؤل : هل هذه النظرية التى أجمع العلماء على

---

(١) منقول عن : مجلة الوعي ، العدد (٥١) ، تموز ١٩٩١ م .

(٢) يرجع إلى صفحة ١٧٤ من هذا الفصل .

(٣) وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، صفحة (٤٩) . نقلا عن : Ibid, p . ١١٣ . . . .

(٤) المصدر السابق ، نقلاً عن : *Meaning of Evolution, p* . ١٢٧

(٥) المصدر السابق ، نقلاً عن : "دائرة المعارف البريطانية - ١٩٥٨ "

(٦) الإسلام يتحدى ، صفحة (٤٩) ، نقلاً عن : *Revolt against Reason* *p.* . ١١٢ .

صحتها - إن صدق القائل - هل كان ذلك نتيجة شواهد قاطعة ، وهل توصلوا إليها علمياً بإجراء التجارب عليها فى المختبرات؟ والجواب على ذلك بكلّ بساطة وتأكيد: لا . لأنّ ذلك ضرب من المستحيل ، إنّ مزعومة الارتقاء معقّدة ، وهى تتعلق بماضٍ موغل فى القِدَم ، حتى أنه لا يمكن ملاحظتها أو إجراء الاختبارات عليها ، وهى كما أكد "لايل" فى كلمته الآنفة الذكر وسيلة منطقيّة تعتمد على الفرضيات المسبقة والتكهنات الخيالية ، لتفسير مظاهر الخلق ، فهى تبريرات لمزعومات وفروضات مسبقة ، وليسَت إعمالاً للعقل فى الموجودات والظواهر الموجودة فعلاً ، إنّها قياس للحاضر الموجود على الغائب المفقود الذى لا أثر له .

كان هذا هو السّبب الذى دفع المحامى المتحمّس لنظرية الارتقاء والتطور العضوى "سير آرثر كيث" أن يُسَلِمَ بأنّ هذه النظرية ليست بملاحظة أو تجربة ، وإنّما هى مجرد اعتقاد!!! حيث يقول: (إنّ نظرية الارتقاء عقيدة أساسية فى المذهب العقلي)[1]

وربما يكون تعريف أحد المعاجم العلمية للنظرية أبلغ رد حين يُعَرِف نظرية داروين بأنها: (نظرية قائمة على تفسير بلا برهان)[2]

ويفسر لنا العالِم البريطانى الشهير أن إيمانه بتلك النظرية لم يكن إلا تعصباً ومكابرة حين يقول فى كتابه الشهير "عالَم الأسرار": (إنّ فى عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادى للحقائق)[3] أمّا عقيدة "سير آرثر كيث" المثبتة سابقاً ، فيفسر لنا كيفيتها وأسبابها قائلاً: (إنّ نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأنّ الخَيار الوحيد بعد ذلك هو: الإيمان بالخلق الخاص المباشر ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه)!!![4] وحتى أنّ كثيراً من العلماء قد أكدوا أنّ "فكرة التطور

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن: *Revolt against Reason, p* . ١١٢ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة (٥٠) ، نقلاً عن: *Ibid, p* . ١١١ .
(٣) المصدر السابق ، صفحة (٤٢) ، نقلاً عن: *Mysterious Umiverse, p* . ١٨٩ .
(٤) المصدر السابق ، صفحة (٤٣) ، نقلاً عن: *Islamic Thought, Dec* . ١٩٦١ .

العضوي *Organic Evolution*" والذى استنبطت منه فكرة الارتقاء ، سوف يبقى بلا براهين وبلا أدلة علمية!!! لذا: (إنهم لا يؤمنون بهذه النظرية ، إلا لأنه لا يوجد أى بديل لها سوى الإيمان بالله مباشرة)[١]

كان هذا غيض من فيض ، يؤكد لنا أنّ العلماء ودعاة نظريات التطور المادى أنفسهم ينادون بتلك النظريات مع عدم القناعة بصحتها ، وأنهم قد اختلقوها لغاية فى أنفسهم ، ولتحقيق مكاسب وأهداف منظمات سرية ، تدفعها أيدى خفية ، لاستغلالها فى محيط السياسة لاستعباد واستغلال ونهب موارد الشعوب كما مرّ سابقاً[٢] . أمّا ادعاؤهم موافقة العلماء والمثقفين عليها وتصديقهم لمحتوياتها ، فقول يفتقر للصحة ، إذ أنّ مشاهير المثقفين والعلماء قد دعوا إلى نبذ تلك النظرية ، وبالتالي الإيمان بأنّ وراء هذا الكون والإنسان والحياة خالقاً أوجدها من العدم ، ودعوا باسم العِلم المجرد إلى التّمَسك بهذا الإيمان ونبذ جميع أفكار ومقولات التطور المادي ، ونبهوا إلى خطأ وخطورة التمسك بها .

وفى الفصل التالي[٣] سنقوم بمشيئة الله تعالى ، باستعراض أمثلة من أقوال بعض من مشاهير العلماء ، مع ملاحظة أنّ ما سنقدمه من أقوال العلماء تلك ، ليس بالضرورة إيماناً منا بما يقولون ، وليس لعجزنا عن نقض تلك النظرية إلا بأقوالهم ، إنّما هى للتدليل على كذب من يقول بإجماع العلماء كافة على النظرية من ناحية ، وللهمس بأذن كلّ من يستهويهم الأخذ بفارغ القول من الغرب الكافر تقليداً ومحاكاةً وانبهاراً ، أنّ ما يأخذونه عن الغرب الصليبى الكافر - والشرق الوثنى الملحد - من نظريات مادية ، قد نبذها من استعمل عقله منهم ، وتوخى البحث عن الصدق والحقيقة بتجرد ، ونقضها

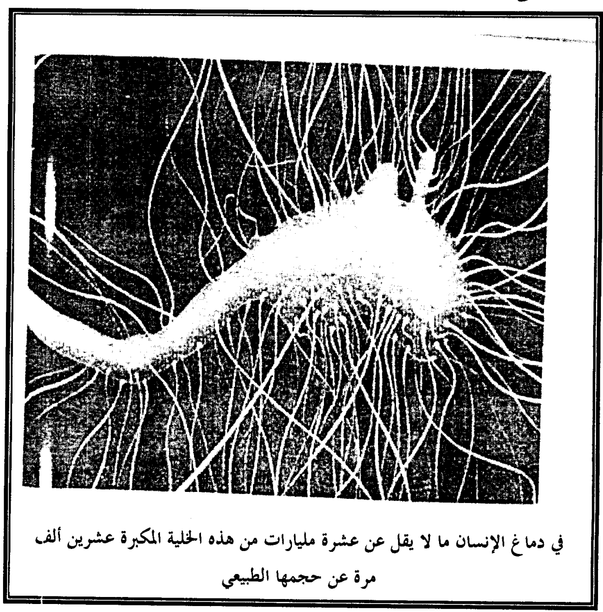
---

(١) المصدر السابق .

(٢) الباب الثانى - الفصل الثالث من هذا الكتاب ، الصفحات (١٦٦ - ١٧٠) .

(٣) الفصل الرابع - الباب الثاني ، الصفحات ١٨٩ وما بعدها ، "آراء العلماء فى التطور والخلق" .

وكفر بها حتى بعض من آمن بها سابقاً ، وكان من غلاة دعاتها ، حين وضحَ لهم عقم وتفاهة تلك النظرية وشبيهاتها ، معترفين بعجزهم أمام قدرة الخالق سبحانه وتعالى .



في دماغ الإنسان ما لا يقل عن عشرة مليارات من هذه الخلية المكبرة عشرين ألف مرة عن حجمها الطبيعي

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

---

(١) فصلت : (٥٣) .

الفصل الرابع

آراء العلماء فى التطور والخلق

يزعم دعاة التطور أنّ نظرية التطور المادى قد لاقت التأييد المطلق من كافة العلماء والمفكرين ، وأنّ إجماع العلماء والمفكرين قد انعقد على التأييد الكامل للنظرية ، وبالتالى نفياً قاطعاً لحقيقة الخلق من العدم ، فَرَدّاً على زعمهم هذا ، رأينا أن نستعرض فى هذا الفصل بعضاً من آراء عدد من كبار ومشاهير العلماء فى كافة ميادين العِلم ، وكلها تشير إلى توجه صحيح ، وإلى عمق واستنارة فى التفكير لدى كم هائل من مشاهير العلماء ، خلافاً لما يدعيه أدعياء العِلم من دعاة التطور المادي .

ونحن إذ نقوم بذلك ، فلا يعنى ذلك بالضرورة إيماناً منا بكل أقوالهم ، ولا يعنى عجزاً منا عن نقض تلك النظرية إلا بأقوالهم ، إنما كان ذلك للتدليل على كذب من يتقول بإجماع العلماء على نظريتهم ، وللهمس بأذن كل من يستهويه الأخذ بفارغ القول من الغرب الكافر تقليداً ومحاكاة وانبهاراً ، أنّ ما يأخذونه من الغرب الصليبى الكافر - والشرق الوثنى الملحد - من نظريات مادية ، قد نبذها من استعمل عقله منهم ، وتوخى الحقيقة بتجرد ، ونقضها وكفر بها حتى بعض من آمن بها سابقاً وكان من غلاة دعاتها ، **واستذكر بالمناسبة قول الشاعر:**

خَلى من المعنى ولكن يفرقع   وما هى إلا كفارغ

يقول الفيلسوف والفيزيائى والرياضى الفرنسي ، مكتشف الهندسة التحليلية "ديكارت *Rene Descartes*" (١٥٩٦ - ١٦٥٠):

(إنّى مع شعورى بنقص فى ذاتي ، أحسّ فى الوقت نفسه بوجود ذات كاملة ، وأرانى مضطراً إلى الاعتقاد بأنّ هذا الشعور قد غَرَسَته فى ذاتى الذّات الكاملة المتحلية بجميع الصفات الكاملة ، وهو الله)[1]

---

(١) د. يوسف القرضاوي ، العبادة فى الإسلام ، صفحة (١٦) .

أمّا المؤرخ والفيلسوف الفرنسى "أرنست رينان" (١٨٢٣ - ١٨٩٢) فقد عانى أزمة إيمان أدّت إلى الارتداد عن الكاثوليكية . وتميزت بحوثه بالنزعة العقلانية وبالإيمان بالعِلم ، فيقول فى كتابه "تاريخ الأديان" :

(إنَّهُ من الممكن أن يضمحلّ كلّ شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعِلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التّدين ، بل سيبقى حُجَةً ناطقةً على بطلان المذهب المادي ، الذى يُريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة فى الحياة الأرضية)[١]

أما عالِم الطبيعة المشهور ، الفيزيائى الأمريكي ، الألمانى المولد ، "إسحاق أينشتاين *Albert Einstein*" (١٨٧٩ - ١٩٥٥) الذى يعتبر أعظم عباقرة العِلم المعاصرين ، منح جائزة نوبل فى الفيزياء عام (١٩٢١) ، وواضع نظرية النسبية ، فيقول :

(إنَّ دينى يشتمل على الإعجاب المتواضع بتلك الروح العليا غير المحددة ، والتى تكشف فى سرها عن بعض التفصيلات القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها ، وهذا الإيمان القلبى العميق ، والاعتقاد بوجود قوّة عليا تستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الإله)[٢] كما يُنْسَب لنفس هذا العالِم قوله : (لا تشكوا فى الخالق فإنه مما لا يُعْقَل أن تكون المصادفات وحدها هى قاعدة الوجود)[٣]

إنه من الملاحظ أنه كلما ازداد عِلم الإنسان واطلاعه على عجائب الكون ، ومعرفته بما فيها من جمال وإحكام ، ولم يقف عند القشور ، بل تعمق فى دراسة أسرار وقوانين وسنن الخلق ، ازداد إيماناً بوجود الخالق وحكمته وعظمته وكمال صفاته ، وفى هذا ينقل لنا "سبنسر" عن "هيرشل"

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن : أرنست رينان ، تاريخ الأديان .
(٢) من كتاب " العالم وأينشتاين " تأليف "لنكولن بارنت ، ترجمة محمد عاطف البرقوقي ، صفحة (١١٦) .
(٣) القرضاوي ، العبادة فى الإسلام ، صفحة (١٧)

قولـه : (كـلما اتسـع نطـاق العِـلم ازدادت الـبراهين الدامغـة القويـة عـلى وجـود خـالق أزلى لا حَـدّ لقوتـه ولا نهايـة : فالجيولوجـيون والفلكـيون والطبيعـيون قـد تعـاونوا عـلى تشـييد صـرح العِـلم ، وهـو صـرح عظمـة الله وحـده)[١] وقـد مـرّ معـنا آنفـاً[٢] اسـتنتاجات "سبنسـر" نفسـه للوصـول إلى الإيمـان بـالله الخـالق عـن طـريق ملاحظة قطرة الماء وقطعة البرد .

ويؤكـد مـا ذهبنا إليه بأنه كلما تعمق الإنسان فى التفكير وازدياد العِلم ، ازداد قرباً مـن الاهـتداء إلى حقيقة الخلـق وحتمية حقيقة وجود خالق خلق الموجودات من عدم ، وذلـك مـا يؤكـده الفيلسـوف "فرنسـيس بـيكون" : (إنّ القلـيل مـن الفلسـفة يمـيل بعقـل الإنسـان إلى الإلحـاد ، ولكـن التّعمق فـيها ينتهى بـالعقول إلى الإيمـان ، ذلـك لأنّ عقل الإنسـان قـد يقـف عـندما يصـادفه مـن أسـباب ثانويـة مبعـثرة ، فـلا يتابـع السّـير إلى مـا ورائهـا ، ولكنه إذا أمعن النّظر ، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدّاً من التسليم بالله)[٣]

أمّا الدكـتور "ميريت ستانلى كونجدن *Stanley*" عضو الجمعية الأمريكية الطبيعية ، وأخصائى فى الفيزياء وعلم النفس وفلسفة العلوم ، فيقول :

(إنّ جمـيع مـا فـى الكـون يشـهد عـلى وجـود الله سـبحانه وتعـالى ، ويـدلّ عـلى قدرتــه وعظمــته ، وعــندما نقــوم نحــن العــلماء بتحلــيل ظواهــر هــذا الكــون ودراســتها ، حــتى باســتخدام الطــريقة الاســتدلالية ، فإنــنا لا نفعــل أكــثر مــن

---

(١) العبادة فى الإسلام ، صفحة (١٧) . ❖ سبَنْسَر ، هربرت *Herbert Spenser* (١٨٢٠ - ١٩٠٣) فيلسوف إنجليزي ، يعتبر أحد أبرز القائلين بـ "الداروينية الاجتماعية" ، آمن قبل داروين بتطور الأنواع من أشكال بسيطة إلى أشكال معقّدة . أشهر أثره كتاب " الفلسفة التركيبية . ❖ هيرشل ، السير وليم Sir William Hershel (١٧٣٨ - ١٨٢٢) ، عالم فلك إنجليزي ، اكتشف الكوكب السّيار "أورانوس" عام (١٧٨١) ، وفى عام (١٧٨٣)اكتشف قمرين من أقمار أورانوس وقمرين من أقمار زُحل . - ويرجع إليه فضل اكتشاف أكثر من ٢٥٠٠ عنقود نجمى وسديم وما يزيد عن ثمانمائة نجم مزدوج .

(٢) الفصل الثالث من هذا الباب ، صفحة (١٨٢) .

(٣) العبادة فى الإسلام ، صفحة (١٧) .

ملاحظة آثار أيادى الله وعظمته ، ذلك هو الله الذى لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولكننا نرى آياته فى أنفسنا وفى كلّ ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته)[1]

إنّ التفكر فى الموجودات الكونيّة ، لأهم الشواهد التى توصل ولا بدّ إلى الإيمان بالله تعالى خالقاً وحيداً لهذا الكون ، ولتثبيت إيمان المؤمن ، وهذا النهج هو الذى أوصل الدكتور ستانلى إلى إيمان الواثق المطمئن ، الذى فَكَرَ وفكر فوصل للقناعة الثابتة التى لا تتزعزع ، كما ورد فيما نقلناه عنه فى الفقرة السابقة ، وعلى نفس النّهج سار "أ . كريسى موريسون *A . Cressy Morrison*" الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك ، **حيث يقول :**

(إنّ استعراض عجائب الطبيعة ليدل دلالة قاطعة على أنّ هناك تصميماً وقصداً فى كل شيء ، وأنّ ثمة برنامجاً ينفذ بحذافيره طبقاً لمشيئة الخالق عزّ وجل . . . إنّ حجم الكرة الأرضية وبعدها عن الشّمس ، ودرجة حرارة الشّمس وأشعتها الباعثة للحياة ، وسُمْك قشرة الأرض وكميّة الماء ، ومقدار ثانى أوكسيد الكربون وحجم النيتروجين ، وظهور الإنسان وبقاؤه على قيد الحياة ، كلّ أولاء تدلّ على خروج النظام من الفوضى ، وعلى التّصميم والقصد)[2]

كتبَ الكاتب والمفكر الفرنسى "مومنيه *Momnieh*" بحثاً فى مجلة "الكوسموس" جاء فيه : (إذا افترضنا بطريقة تعلو عن متناول العقل ، أنّ الكون خُلِقَ اتفاقاً بلا فاعل مريد مختار وأنّ الاتفاقات المتكرِّرة توصلت إلى تكوين رجُل ، فهل يعقل أنّ الاتفاقات والمصادفات تُكَوِن كائناً آخر مماثلاً له تماماً فى الشّكل الظاهري ، ومباينا له فى التركيب الداخلى - وهو المرأة - بقصد عمارة الأرض بالناس وإدامة النّسل فيها؟ ألا يَدُلُ هذا وحده على أنّ

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ، صفحة (٢٠) .
(٢) الإنسان لا يقوم وحده ، الطبعة العربية ، الصفحات (١٨٦ - ١٩٣) .

فى الوجود خالقاً مريداً مختاراً ، أبدع الكائنات ونَوّع بينها ، وغَرَزَ فى كلّ نوع غَرائز ، وَمتعَه بمواهب يقوّم بها أمْرَه ويرتقى عليها نوعه)[١]

وما دمنا نتحدث عن التّناسُل لبقاء النوعين الإنسانى والحيواني ، والغرائز التى تثور متطلبة الإشباع ، ليتم التزاوج والتلاقح الموصل إلى التناسل ، فإلى بحث "التزاوج والتناسل" نرجع مرّة أخرى إلى "أ . كريسى موريسون" حيث يتناول الموضوع قائلاً :

(إنّ الحياة تُرغم على التّناسل لكى يبقى النّوع ، وهذا دافعٌ بلغ من القوة أنّ كل مخلوق يبذل أكثر تضحية فى سبيل هذا الغرض . . . وهذه القوّة الإلزامية لا توجد حيث توجد الحياة ، فمن أين تنشأ هذه الدوافع[٢] القاهرة؟ ولماذا بعد أن نشأت تستمر ملايين السنين؟ إنّه قانون الطبيعة الحيّة . . . الذى يأتى من إرادة الخالق)[٣]

تحت عنوان "الأدلة الطبيعية على وجود الله" كتب أستاذ الطبيعة الحيوية ، الحاصل على درجة الدكتوراه من جامعة كاليفورنيا ، ومدير قسم النظائر والطاقة الذرية فى معامل "أوك ريدج" ، عضو جمعية الأبحاث النووية والطبيعة النووية ، "بول كلارنس إيرسولد" :

(قال الفيلسوف الإنجليزى "فرانسس بيكون" من ثلاثة قرون : "إنّ قليلاً من الفلسفة يقرب الإنسان من الإلحاد ، أما التعمق فى الفلسفة فيرده إلى الدين ، " . . . . ولا شَكّ أنّ اتجاه الإنسان وتطلعه إلى البحث عن عقل أكبر من عقله وتدبير أحكم من تدبيره وأوسع ، لكى يستعين به على تفسير هذا الكون ، يُعَدّ فى ذاته دليلاً على وجود قوة أكبر وتدبير أعظم ، هى قوّة الله وتدبيره . وقد لا يستطيع الإنسان أن يُسَلم بوجود الخالق تسليماً تاماً على أساس الأدلة العِلمية

---

(١) محمد فريد وجدي ، دائرة المعارف العربية ، مادة: إله .
(٢) المقصود بالدوافع : الغرائز .
(٣) الإنسان لا يقوم وحده ، صفحة (١٤٦) .

وحدها ، ولكننا نصل إلى الإيمان الكامل بالله عندما نمزج بين الأدلّة العلمية والأدلّة الروحيّة ، أى عندما ندمج معلوماتنا عن هذا الكون المُتسِع إلى أقصى حدود الاتساع المعقّد إلى أقصى حدود التّعقيد ، مع إحساسنا الداخلى والاستجابة إلى نداء العاطفة والروح الذى ينبعث من أعماق نفوسنا ، ولو ذهبنا نحصى الأسباب والدوافع الدّاخليّة التى تدعو ملايين الأذكياء من البشر إلى الإيمان بالله ، لوجدناها متنوعة لا يحصيها حصر ولا عد ، ولكنها قوية فى دلالتها على وجوده تعالى ، مؤدية إلى الإيمان به . . . . . إنّ الأمر الذى نستطيع أن نثق به كلّ الثقة ، هو أنّ الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتيّة من العدم المطلق ، بل إنّ لهما بداية ، ولا بُدّ لكل بداية من مُبْدِئ ، كما أننا نعرف أنّ هذا النظام الرائع المُعَقد الذى يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان ، وأنّ معجزة الحياة فى حد ذاتها لها بداية ، كما أنّ ورائها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان ، إنها بداية مُقَدَسة وتوجيه مُقّدّس وتدبير إلهى مُحْكم)[1] .

أمّا أشهر من وضع نظريات علم الميكروبات ، وكشف دور الجراثيم فى الإصابة بالأمراض ، كان الكيميائى البيولوجى الفرنسى "لويس باستور*Louis Pastor*"[2] فيقول :

(الإيمان لا يمنع أى ارتقاء كان ، لأنّ كلّ ترقٍ يبين ويسجل الاتساق البادى فى مخلوقات الله ، ولوكنت علمت أكثر مما أعلَم اليوم لكان إيمانى بالله أشَد وأعمق مما هو عليه الآن . . . إنّ العِلم الصحيح لا يمكن أن يكون مادياً ، ولكنه على خلاف ذلك

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ، الصفحات (٣٥ - ٣٨) .

(٢) باستور ، لويس (١٨٢٢ - ١٨٩٥) : كيميائى بيولوجى فرنسي ، أثبت أنّ الخمائر خلايا حيّة ، وكشف دور الجراثيم فى الإصابة بمختلف الأمراض ، عقّم اللبن تعقيماً جزئياً بحرارة تقتل المتعضيات الضّارة من غير أن تُحدث فى المادة المعقمة تغييراً كيميائياً جوهرياً وهو ما يدعى اليوم " البسترة " ، استنبط طريقة للوقاية من بعض الأمراض بالتلقيح .

يؤدى إلى زيادة العِلم بالله لأنه يَدُلُ بواسطة تحليل الكون على مهارة وتبصُر ، وكمال عقل الحكمة التى خلقت النّواميس المدبرة للوجود كما لا حد له) .

كتب الكيميائى وعضو أكاديمية العلوم ، وعميد كليّة الطب الفرنسية ، "الدكتور ويتز *Witts*" **يقول**: (إذا أحسست فى حين أنّ عقيدتى بالله قد تزعزعت وجَهْتُ وجهى إلى أكاديمية العلوم) .

أما الجيولوجى الذائع الصيت ، والمدرس بجامعة السوربون "أدموند هيربرت" فيقول:

(العِلم لا يمكن أن يؤدى إلى الكفر ولا إلى الماديّة، ولا يفضى إلى التشكيك).

كانت تلك الاستشهادات هى آراء بعض أقطاب العِلم الطبيعي ، تم اختيارهم من جم كثير مما ذكره "ليون ووتي" الذى نشر بحثاً تحليلياً للدكتور الألمانى "دينرت" لأكابر ومشاهير العلماء فتبيّنَ له من دراسة ٢٩٠ عقل عالِم شهير ما يلي: "٢٨ منهم لم يصلوا إلى عقيدة ما ، ٢٤٢ أعلنوا على رؤوس الأشهاد الإيمان بالله الخالق ، ٢٠ فقط تبين أنهم غير مبالين بالوجهة الدينية ولا ملاحدة ، فإذا اعتبرنا الغير مبالين من الملاحدة أيضاً ، كانت نسبة المؤمنين منهم ٩٢ ٪")[1]

وجّه أحد رجال الأعمال سؤالاً إلى العالِم الفسيولوجى "أندرو كونواى إيفي"[2] :

سمعت أنّ معظم المشتغلين بالعلوم ملحدين . فهل هذا صحيح؟ فأجابه : (إننى لا أعتقد أنّ هذا القول صحيح ، بل إننى على نقيض ذلك وجدت فى قراءتى ومناقشاتى أنّ معظم من اشتغلوا فى ميدان العِلم من العباقرة لم يكونوا ملحدين .... إنّ الإلحاد ، أوالإلحاد المادي ، يتعارَضَ مع الطريقة التى

---

(١) النصوص الأربعة السابقة ، ترجمها محمد فريد وجدي ، ونشرها فى مجلة "الأزهر" .

(٢) أندرو كونواى إيفي : من العلماء الطبيعيين ذوى الشهرة العالمية ، من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٤٦ . رئيس قسم الدراسات الفسيولوجية والصيدلية بجامعة نورث وسترن ، من سنة ١٩٤٦ إلى سنة ١٩٥٣ . أستاذ فى كلية الطب ووكيل الكلية فى جامعة الينوى حتى سنة ١٩٥٨ ، أستاذ الفسيولوجى ورئيس قسم العلوم الإكلينية بكلية الطب بجامعة شيكاغو .

يتبعها رجل العلوم في تفكيره وعمله وحياته ، فهو يتبع المبدأ الذي يقول بأنه لا يمكن أن تكون آلة بغير صانع ، وهو يستخدم العقل على أساس الحقائق المعروفة ، ويدخُل إلى معمله يحدوه الأملَ ويمتلئ قلبه بالإيمان ، ومعظم رجال العلوم يقومون بأعمالهم حُبّاً في المعرفة وفي الناس وفي الله . . . . وكما قال "ماكس بلانك" العالم الطبيعي الذي فتح الطريق إلى أسرار الذرة : "إنّ الدين والعلوم الطبيعية يقاتلان معاً في معركة مشتركة ضدّ الشّك والجحود والخرافة ، ولقد كانت الصيحة الجامحة في هذه الحرب وسوف تكون دائماً : الله ")[1]

ونقل عن "لورد كليفي" - وهو من علماء الطبيعة البارزين في العالَم - قوله : (إذا فكرتَ تَفكيراً عَميقاً فإنّ العلوم سوفَ تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله)[2]

ومرّة أخرى وكما ورد في كتاب "العالم وأينشتاين" تصريح العالِم الشهير "أينشتاين" صاحب النظرية النسبية : (إنّ الإيمان هو أقوى وأنبل نتائج البحوث العلمية) .

إنّ العلوم تدعم الإيمان بالله تعالى ، هذا ما يؤكده الدكتور "ألبرت ماكوب ونشتر" المتخصص في علم الأحياء ، والأخصائي في علم الوراثة وفي تأثير الأشعة السينية على الدوسوفيلا ، بعد أن حاولت عمته أن يعدل عن قراره دراسة العلوم ، خوف أن يقضي ذلك على إيمانه بالله :

(وإنني لأشعر بالغبطة تملأ قلبي اليوم ، بعد أن درست العلوم المختلفة ، واشتغلت بها سنوات عديدة ، ولم يكن في ذلك ما يزعزع لإيماني بالله ، بل إن اشتغالي بالعلوم قد دعم إيماني بالله حتى صار أشد قوة وأمتن أساساً مما كان عليه من قبل ، ليس من شَكٍ أنّ العلوم تزيد الإنسان تبصراً بقدرة الله وجلاله ، وكلما اكتشف الإنسان جديداً

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ، الصفحات (١٥٠ - ١٦٢) .
(٢) المصدر السابق ، صفحة (٢٣) .

فى دائرة بحثه ودراسته زاد إيمانه بالله)[١]

نعم . . . إنّ الآيات والدلائل التى يجدها العالِم فى مختبره ، والباحث فى مشاهداته ، كلّ تلك الدلائل والمشاهدات إن أعمل العقل فى التفكر بها بنزاهة وتجرد ، ورغبة فى الوصول إلى الحقيقة ، فستوصل حتماً وبدون شك إلى النتيجة الحتمية القاطعة ، وهى الإيمان بالله تعالى خالقاً لهذا الكون بموجوداته ومدبراً له ، وستوصل بالتالى إلى الإيمان القاطع بعقم وتفاهة جميع النظريات المادية والإلحادية ونبذها .

وفى مجال تصنيف الكائنات الحية ، توصل العالم الإنجليزى "جون رى *Ray. J*" فى القرن السابع عشر ، لإيجاد نظام تصنيفى حين عرّفَ النّوع "*Species*" بأنه المجموعة من الأفراد المتشابهة التى تنحدر من آباء تشبهها . وقال : "**النّوع لا ينتج من نوع آخر**" كما افترض "ري" أنّ عدد الأنواع فى الطبيعة ثابت ومحدود [٢] .

أما العالِم السويدى "كارل لينيوس *Linnaes . C*" (١٧٠٧ - ١٧٧٨) فقد توصل إلى الأسلوب التقليدى فى التصنيف والذى ما زال قائماً حتى يومنا هذا ، ويستند هذا النظام على أوجه الشبه فى تركيب أجسام الكائنات الحية التى تنتمى إلى نفس المجموعة فى التصنيف ، مرتكزاً فى نظامه على تعريف "ري" للنوع ، وعلى اعتقاده **أنّ كل نوع ثابت لا يعتريه تغيير** ، وبذلك فإنّ عدد الأنواع محدود [٣] .

لقد كانت تلك الآراء التى سقناها فى هذا الفصل ، هى آراء لمشاهير العِلم فى معظم تخصصاته ، وهى جميعها - وكثير غيرها ، لايتسع المجال لذكرها - تُكَذِبُ ادعاء من قال بإجماع العلماء على صحة نظريات التطور المادي ، بل تَدُلّ على توجه نَيِرٍ نحو الإيمان بالله تعالى ، تدعمه الأدلة والبراهين القاطعة .

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ، الصفحات (١٠٤ - ١٠٥) .
(٢) د . عدنان بدران وآخرين ، البيولوجيا ، صفحة (١٠٤) .
(٣) المصدر السابق .

أما من تلبسوا بثياب العلماء من دعاة التطور المادي ، فإنَّه ينقصهم الوعى والفكر المستنير والنّزاهة والتجرد ، وإلا لكان مصير نظرياتهم التلاشي ، فلو أعملوا عقولهم فى المخلوقات وقوانين الوجود ، وفى أنفسهم ، لآمنوا كما آمن من كان قبلهم ، وكما آمن من أتى بعدهم .



كل جنس من المخلوقات الحيوانية والنباتية ينتج مثله في النوع والحجم.

النوع لا ينتج من نوع آخر

الفصل الخامس

وأخـــيراً...

لقد كتب داروين منذ حوالى المائة وخمسين عاماً فى الفصل السادس من كتابه "أصل ألأنواع" ، يقول: (إنى لا أشُكّ بأنّ اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي ، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى درجة أنى حتى اليوم ، لا أفكر بها إلا وتعترينى هَزّة)!!!

كان هذا النّص فى الفصل السادس - باب مشكلات النظرية - ، وظهر فى الترجمة العربية طباعة سنة (١٩٥٩) ، ومما يلفت النظر أنّ هذا النّص بالكامل قد جرى حذفه من طبعة مطبعة النّهضة[1] التى قام بترجمتها "إسماعيل مظهر"!!!! .

فهل يمكن لعاقل أن يؤمن بنظريّة واهية كتلك على أنها حقيقة واقعة يجب الإيمان والتسليم بها ، فى حين أنّ من نُسِبَ إليه ابتداعها واختلاقها ، ومن عُرِفَ أنه عَراب النظرية ومرجعها ، حتى أنها قد اشتهرت بنسبتها إليه ، يهتز للاعتراضات التى وَرَدَت ، أو التى سَترِد على النظرية؟ ولا أخال عاقل سَيُفَسِرَ الهَزّة التى ستعترى داروين ، أنها هزة الواثق المطمئن إلى صحة وسلامة نظريته!!!

هذا علاوة على أنه بعد مرور قرن ونصف على ابتداع تلك النظرية ، وعلماء التطور مستمرون فى أبحاثهم ، دائبون نشطون من أجل إثباتها ، ورغم ذلك فإنهم عاجزون تماماً عن إثبات واقعيّة التطور المادى ومصداقية نظرياته ، رغم الأبحاث الطائلة التى قاموا بها ، ورغم الإمكانات الهائلة التى وضعت تحت تصرفهم ، ورغم تسخير العِلم والمعامل والمختبرات ، ورغم الخدع والتزويرات التى قام بها البعض الآخر منهم ، ورغم توجيه الإعلام بكافة وسائله لصالحهم ، وذلك ما اعترف به مؤلف كتاب "سنة العِلم" المطبوع باللغة الإنجليزية عام (١٩٦٦) حيث يقول:

---

(١) المرجع ، الصفحات (٣٢٨ - ٣٩٠) .

(على الرغم من النجاحات التى أحرزها عِلم الآثار ، فإنّ العلماء ما زالوا فى بداية المهمة العظيمة التى يتوخونها ، ونعنى بذلك مَعْرِفَة تاريخ الإنسان) .

كما أنّ التناقض واضح جداً فى أقوال وتصريحات مشاهير علماء النظرية المتحمسين لإثباتها ، ففى مطالعة كتاب العالِم "دويز هنسكى *Dobzhansky. T*" المعرف باسم "الأساس الحيوى لحرية الإنسان" نجده يقول بصراحة : (لقد ثبت بما لا يدع مجال للشك ، حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، بأنّ التطور أمر واقع . . .)[1] . فى حين أنه بعد صفحتين من هذا القول يَرجع ليقول وفى نفس الكتاب : **(مما لا شكّ فيه أنّ المظاهر التاريخية المتممة لحلقات التطور ما زالت غير معروفة تماماً... ولا نستطيع أن نرى الأسباب التى قرّرت تطور النّوع الإنسانى إلا من خلال ضَبَاب)**[2] .

فهو من جهة يؤكد ويجزم بما يرغبه ويريده من أنّ التطور هو حقيقة وأمر واقع يجب الاعتراف والإيمان به ، نجده من جهة أخرى يعترف ويقر بأنّ المظاهر التى قرّرت حلقات هذا التطور غير معروفة تماماً!! بل وأنه يراها من خلال ضباب!!! وهل يرى شيئاً ثابتاً واضح المعالِم من خلال ضباب؟ وما أخاله يقصد إلا أنّ كلّ تلك النظريات المادية ما هى إلا سَراب خادع تشبث به وتعلق تائهون هائمون على وجوههم .

أما "الموسوعة البريطانية" فتقول : (ليس لدينا أدنى شَك فيما يتعلق بكون التطور حقيقة واقعة ، وأنّ الأدلة عليها فى الوقت الحاضر غير قابلة للنقض)[3] .

غير أنه ورغم هذا التأكيد القاطع على رجحان أدلتهم التى لا يتطرق إليها النقض أو الشّك ، نجد أنّ نفس الموسوعة المذكورة آنفاً وفى موضع آخر تصف تلك الأدلة الغير قابلة للنقض قائلة : (إنها غير كافية ، وغير متسلسلة ، بل أنّ بها كثير من الفجوات . . .)[4] . وتردف نفس الموسوعة قائلة : (إننا ما زلنا لا نعرف شيئاً عن هذه الظواهر الحيوية التى

(١) خلق لا تطور ، صفحة (١٧) ، نقلا عن : *The biology basis of human freedon* .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) خلق لا تطور ، صفحة (١٧) .

قررت هذا التغيير)[1]

أما "سير بيير Sir Gavin Beer" فلم يتردد بأن يقول فى كتابه الأخير المطبوع بعنوان "شارل داروين" مايلي : (لقد أعلن داروين بأنّ الأدلة سوف توجد فى يوم من الأيام ، وقد أتى هذا اليوم لأنّ سلسلة المستحاثات التى مَرّ ذكرها تقدم لنا الأدلة القاطعة على أنّ الإنسان ثمرة التطور)[2]

غير أنّ هذا التأكيد على الأدلة القاطعة التى ادعاها "بيير" ، لم يمنع عالماً آخر هو "د . كلارك Le Gros Clark" أن ينقض ذلك الادعاء قائلاً : (إنّ العثور على مستحاثات لأجدادنا الحقيقيين ، أوحتى العثور على نماذج الجماعات الجغرافية المحليّة التى انبثق عنها أجدادنا الحقيقيون أمر احتماله من الضعف بحيث نرى من العبث توقع إمكان حصوله)[3] .

إنّ إثبات نظرية داروين وشبيهاتها من نظريات التطور المادي ، لهو أوهى من خيط العنكبوت ، ولا يستطيع عاقل أن يطلق على نظرية التطور المادى صفة الحقيقة العلمية ، لأن تلك النظرية هى فى حقيقتها أبعد ما تكون عن كونها من الحقائق ، بل هى تخيلات وأوهام لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، وقد قرّرَ ذلك "د . كلارك" وهو أحد علماء التطور المشهورين ، ومن أشهر المتحمسين لها ، بالعبارات التالية : (من المؤسف أن تكون كل الأجوبة التى طرحت لمعرفة أصل الإنسان ، تقوم على دلائل غير مباشرة ، وأكثرها يقوم على فرضيات)[4] .

ونقص الأدلة أو حتى انعدامها ، هو رأى أخبر به معظم علماء التطور ، وممن اعترف بذلك "رئيس الجمعية الأمريكية لتقدم العلوم" ، حيث قال بصدد حديثه عن التطور :

(تعال معى لنقوم برحلة فرضية فيما قبل التاريخ ، ولنتصوّر الزّمن الذى ظهر فيه

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ، صفحة (١٨) ، نقلاً عن : غرو كلارك ، أدلة المستحاثات على تطور الإنسان .
(٤) المصدر السابق .

نوع الإنسان "سابين *spiens*" ، ولنقطع بسرعة آلاف السنين التى تعتمد فى القسم الأكبر من معلوماتنا الحاضرة عنها على الحدس والتخمين والاستنتاج ، إلى أن نصل إلى فترة الوثائق التاريخية التى تسمح لنا بالتقاط بعض الوقائع . .)[١] .

وأول عصر الوثائق ، مضت آلاف السنين من عمر الإنسان قبل أن تبدأ - على حد زعمهم - وعلمائهم يزعمون بأنّ مراحل التطور التى يظن بأنها قد سبقت عصر الوثائق ، والتى لم يرها الإنسان الحديث رؤية العين ، إنّما بُنيت على الحدس والظن والشك والتأويل والتفسير والبحث النظرى الافتراضى ، أى هى بالتالى عبارة عن مجموعة من الفرضيات .

أمّا بالنسبة لعمدة كتبهم ، وأشهر مراجعهم ومصادرهم ، وهو كتاب عرابهم الشهير "داروين" صاحب النظرية المسماة باسمه وهو كتاب "أصل الأنواع"[٢] فقد أبدى أحد مشاهير العلماء الإنجليز بالملاحظة التالية عليه :

(لقد أحصى ما جاء فى كتاب "أصل الأنواع" فوُجِد أكثر من ٨٠٠ جملة ارتيابية ، مثل قوله : قد نستطيع أن نستنتج ، قد يمكن أن يكون . . . . إلخ ، فالمرء الذى يبحث ليفهم لا يلبث عند سماع هذه العبارات الارتيابية أن يقع فى حيرة من هذه التناقضات ، إذ يرى بعض العلماء يؤكدون على التطور بصراحة ، ويرى آخرون يعترفون بأنّ كل الاستنتاجات هى فرضية)[٣]

وهذا التناقض هو الذى دفع العالِم الفسيولوجى الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية "تهميسيان *N. Tahmisian*" إلى القول : (إنّ العلماء الذين يؤكدون على أنّ التطور واقع علمى هم منافقون ، وأنّ ما يروونه من أحداث إنّما هو من الشعوذات التى ابتدعت ولا تحتوى على نقطة واحدة من الحقيقة) إلى أن يصف تلك النظرية بأنها :

---

(١) المصدر السابق ، نقلاً عن مقال للمذكور نشر له فى مجلة "العلوم" الأمريكية .
(٢) The *Origin of Species, Sharles Darwin* .
(٣) خلق لا تطور ، صفحة (١٩) .

(خليطة مضطربة من الأحاجى وشعوذة الأرقام)[١] أما رئيس فرع العلوم بإحدى الجامعات "كلوتز *Klotz . W. J*" يقول: (إنّ الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة)[٢]

وذكر "ويكرز شامبرز*Wikers Chamber*" فى كتابه "الشهادة *Witness*" حادثاً كان من الممكن أن يصبح نقطة تحول فى حياته ، ذكر أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلفت أذناها نظرهُ ، فأخذ يفكر أنّ من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الأذن بمحض اتفاق ، بل لا بد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة ، لكنه طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر إلى أن يؤمن بالذات التى أرادت فدبرت ، لأنّ ذهنه لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة [٣] . ويعلق الدكتور "تامس ديودباركس" على ذاك الحادث بقوله: (إننى أعرف عددا كبيراً من أساتذتى فى الجامعة ، ومن رفقائى العلماء الذين تعرضوا مراراً لمثل هذه المشاعر ، وهم يقومون بعمليات كيماوية وطبيعية فى المعامل)[٤] .

يتضح من تلك الرواية ، أنّ الأدلة مهما كانت مقنعة وقاطعة ، فمن الممكن ألا تقنع بعض الناس ، لأن أبواب عقولهم المادية موصدة دون أى كلام عن الله والإيمان ، ومن المؤكد أنّ موقفهم هذا ليس لأن الاستدلالات والبراهين المطروحة أمامهم ضعيفة أو عاجزة ، بل إنّ ذلك راجع إلى تعصبهم المقيت ضد كل ما يوصل للإيمان ، ويشير إلى ذلك العالِم البريطانى الشهير "سير جيمس جينز" فى كتابه "عالم الأسرار" حيث مرّ معنا سابقاً قوله: (إنّ فى عقولنا الجديدة تعصباً يرجح التفسير المادى للحقائق)[٥]

إنّ غريزة التدين هى غريزة فطريّة فى الإنسان ، لايخلو منها أى إنسان كان ، ومن

---

(١) المصدر السابق .
(٢) المصدر السابق ، صفحة (٢٠) .
(٣) الإسلام يتحدى ، صفحة (٤٢)
(٤) المصدر السابق ، نقلاً عن: *The Evidence of God, p* . ٧٣ - ٧٤ .
(٥) المصدر السابق ، نقلا عن: *Mysterious Universe, p* . ١٨٩ .

أبرز مظاهرها التقديس ، وأمثال هؤلاء ، يكابرون ويكبتون تلك الغريزة ، فيصرفون مظهر التقديس المنبثق عنها إلى تقديس الطبيعة أوتقديس العلم أوتقديس مظاهر معينة ، ليصرفو مظهر الغريزة لتقديس تافه بدل عبادة الله ، فالتعصب الأعمى للتفسير المادى للحياة له جذور عميقة ، يصعب معها اثناؤهم عنها حتى بالأدلة الدامغة ، ويعلق على ذلك العالِم الأمريكى "جورج بلونت" : (إنّ كون العقيدة الإلهية معقولة ، وكون إنكار الإله سفسطة ، لا يكفى لاختيار الإنسان جانب العقيدة الإلهية ، فالناس يظنون أن الإيمان بالله سوف يقضى على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التى استعبدت عقول العلماء واستهوت قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم)[١] .

يتضح مما سبق أنهم بتعصبهم اللاعقلانى الساذج للتطور المادي ، قد قصدوا منه بعناد عدم الإيمان بالحقائق رغم سيطرتها علىعقولهم أحياناً ، صارفين بذلك ثوران غريزة التدين المتطلب الإشباع إلى إشباع منحرف ، ولا أرى تعليقاً على ذلك أبلغ من المثل العربى العامى القائل : "عَنزَة وإن طارت" وحقاً فإنّ الكفر فى حقيقته لا يعدو أن يكون إلا عِناداً !!!

ويرد الأستاذ "أ. كريسى موريسون" على نظريات التطور المادى مناقشاً:

(إننا نستطيع أن نضع نظرية تبين كيف تطورت جميع الكائنات الحية من الخلية الأصلية ، ولكن العِلم يقف عند هذا الحد ، ويمكننا أن نتفق مع ذوى العقول الممتازة الذين أدت بحوثهم المضنية إلى إعطائنا فكرة حقيقية عن الوقائع الطبيعية للحياة المادية ، ولكننا غير ملزمين بالوقوف حيث وقفوا ، لأنهم لم يتبين لهم صنع الخالق فى كل ذلك .

إنّ كون الإنسان فى كل مكان ومنذ بدء الخليقة حتى الآن ، قد شعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم ، [٢] يدل على أنّ الدين فطرى فيه ، ويجب أن يقر العِلم بذلك ، وسواء أحاط الإنسان صورة محفورة بشعوره بأنّ هناك قوّة

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٤٣) ، نقلاً عن: *Blount, the Evidence of God, P. Gorge H* . ١٣٠ .

(٢) إنّ الكاتب يشير هنا إلى غريزة التدين الموجودة فطرياً لدى الإنسان ، والناتجة عن شعوره بالنقص والعجز والاحتياج .

خارجية للخير أو الشّر أم لم يفعل ، فإنّ ذلك ليس هو الأمر المهم ، بل الحقيقة الواقعة هى اعترافه بوجود الله ، والذين أتيح لهم العِلم بالعالَم لا يحقّ لهم أن ينظروا نظرة الازدراء إلى فجاجة الذين سبقوهم أو الذين لا يعرفون الآن الحق كما نراه .

بل أننا على العكس من ذلك يجب أن تأخذنا الرّوعة والدّهشة والإجلال لاتفاق البشر فى نواحى العالم عن البحث عن الخالق والإيمان بوجوده! أوليست روح الإنسان[١] هى التى تشعر باتصالها بالله؟ أم نخشى أن نقول بأنّ الحافز الديني[٢] الذى لا يملكه إلا الإنسان هو جزء من هذا الكائن الواعى كأيّة صفة أخرى من خصائصه؟ [٣] إنّ وجود الحافز هو برهان على قصد العناية الإلهية[٤] ولا يقل شأناً عن عقل الإنسان المادى الذى يكمن فيه كونه الحساس [٥] .

إنّ أى ذرة أو جزيء[٦] لم يكن له فكر قط ، وأى اتحاد للعناصر لم يتولد عنه رأى أبداً ، وأى قانون طبيعى لم يستطع بناء كاتدرائية ، ولكن كائنات حية معينة قد خلقت تبعاً لحوافز معينة للحياة ، وهذه الكائنات تنتظم شيئاً تطيعه جزئيات المادة بدورها ، ونتيجة هذا وذاك كل ما نراه من عجائب العالَم ، فما هو هذا الكائن الحي؟ هل هو عبارة عن جزئيات وذرات؟ أجل ، وماذا أيضاً؟ شيء غير ملموس ، أعلى كثيراً من المواد لدرجة أنه يسيطر على كل شيء ، ومختلف جداً عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالَم ، لدرجة أنه لا يمكن رؤيته ولا وزنه ولا قياسه . وهو فيما نعلم ليست له قوانين تحكمه [٧] .

---

(١) الروح هنا : إدراك الإنسان لصلته بخالقه .

(٢) غريزة التدين .

(٣) كالعقل والإدراك والتكلم وانتصاب القامة مثلاً .

(٤) إنّ الدين الإسلامى وكل الأديان السماوية قبل تحريفها ، تدعو الإنسان إلى استعمال العقل والتفكر فى الموجودات للإيمان بالله تعالى . والإسلام يرفض ما يسمى (إيمان العجائز) الذى لا يقوم على التفكر وإعمال العقل .

(٥) إنّ الإنسان من دون المخلوقات جميعاً - بما فى ذلك جميع الحيوانات - هو الوحيد الذى يملك العقل المميز ، والذى بواسطته يحكم على الواقع أو الشيء ما هو ، وذلك بنقل الواقع إلى الدماغ بواسطة الحواس مع وجود معلومات سابقة تفسر هذا الواقع . وهذا ما يطلق عليه (العملية التفكيرية) .

(٦) *A tom or Molecale* .

(٧) المقصود هنا هو الله تعالى خالق القوانين .

إنّ روح الإنسان هى سيدة مصيره ، ولكنا نشعر بصلتها بالمصدر الأعلى لوجودها ، وقد أوجدت للإنسان قانوناً للأخلاق لا يملكه أى حيوان آخر ولا يحتاج إليه ، فإذا سمى أحد ذلك الكيان بأنه أفضل لتكوين المادة ، لا لشيء إلا لأنه لا يعرف كنهه بأنبوب اختبار ، فهو إنما يزعم زعماً لا يقوم على برهان ، إنّه شيء موجود ، يظهر نفسه بأعماله وتضحياته وبسيطرته على المادة ، وعلى الأخصّ بقدرته على رفع الإنسان المادى من ضعف البشر وخطئهم إلى الانسجام مع إرادة الله .

هذه هى خلاصة القصد الرّباني ، وفيها تفسيرات للاشتياق الكامن فى نفس الإنسان ، [١] للاتصال بأشياء أعلى منه ومن نفسه ، وفيها كشف عن أساس حافزه الديني ، هذا هو الدين [٢] .

والعِلم يعترف باشتياق الإنسان إلى أشياء أسمى منه ويقر بذلك ، غير أنه لا ينظر نظرة جديّة إلى مختلف العقائد والمذاهب ، وإن يكن يرى طرقاً تتجه إلى الله ، والذى يراه العِلم ويقرره جميع المفكرين ، هو أنّ الاعتقاد العام بوجود الله له قيمة لا تقدر .

إنّ تقدم الإنسان من الوجهة الأخلاقيّة وشعوره بالواجب إنما هو أثر من آثار الإيمان والاعتقاد بالخلود ، وأن غزارة التدين لتكشف روح الإنسان ، وترفعه خطوة خطوة حتى يشعر بالاتصال بالله ، وإنّ دعاء الإنسان الغريزى لله بأن يكون فى عونه وخاصة فى ساعات الشّدائد لأمر طبيعي ، وإنّ أبسط صلاة تسمو به إلى مقربة من خالقه ، إنّ الإنسان لا يقوم وحده)[٣] ويستطرد "موريسون" متسائلاً عن سر الحياة ، وهل هى من صنع المادة ، فيقول: (إنّ المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها ، ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة ولا أى اتفاق فى الظروف الكيماوية والطبيعية قد تخلقه المصادفة

---

(١) المقصود هنا : غريزة التدين ، الناشئة عن الشعور بالعجز الطبيعى فى الإنسان ، وحاجته للخالق المدبر ، وربط ذلك بالإيمان بوجود الآخرة حيث يحاسب الإنسان على ما قدمت يداه ، وذلك ما يدفع الإنسان إلى ما يسمى (مزج المادة بالروح)الذى يدفع الإنسان للتقيد بما أمر الله والابتعاد عما نهى .

(٢) هذا هو الدين : اعتقاد جازم ، وتقيد بالأحكام التى يفرضها هذا الاعتقاد .

(٣) العلم يدعو للإيمان ، الصفحات (١٩١ - ١٩٦) .

يمكنها أن تأتى بالحياة إلى الوجود)[١]

ولـه أيضاً: (فالحياة هى المصدر الوحيد للوعى والشعور ، وهى وحدها التى تجعلنا ندرك صنع الله ويبهرنا جماله ، وإن كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوه)[٢] .

وفى إثبات بطلان نظرية المصادفة ، يقول "الدكتور إيرفنج وليام نوبلوتشي"[٣]

(إنّنى أعتقد فى وجوده سبحانه وتعالى لأننى لا أستطيع أن أتصور أنّ المصادفة وحدها تستطيع أن تفسّر لنا وجود الالكترونات والبروتونات الأولى ، أو البروتوبلازم الأول ، أو الذرات الأولى ، أو الأحماض الأمينية الأولى ، أو البذرة الأولى ، أو العقل الأول ، إننى أعتقد فى وجود الله ، لأنّ وجوده القدسى هو التفسير المنطقى الوحيد لكل ما يحيط بنا من ظواهر هذا الكون التى نشاهدها)[٤]

أما أخصائى الكيمياء الجيولوجية "واين أولت"[٥] فيدلى بدلوه فى الموضوع بقوله: (ويسلم كثير من الناس تسليماً منطقياً بوجود الغاية أو الحكمة من وراء الظواهر الطبيعية ، ولا شك أنّ اعتقاد وجود إله خالق لكل الأشياء يعطينا تفسيراً بسيطاً سليماً واضحاً عن النشأة والإبداع والغرض أو الحكمة ، ويساعدنا على تفسير جميع ما يحدث من الظواهر ، أما النظريات التى ترمى إلى تفسير الكون تفسيراً آلياً فإنها تعجز عن تفسير كيف بدأ الكون ، ثم ترجع ما حدث من الظواهر التالية للنشأة الأولى إلى محض المصادفة ، فالمصادفة هنا فكرة يستعاض بها عن فكرة وجود الله بقصد إكمال الصورة والبعد بها عن التشويه ، ولكن حتى بغضّ النظر عن الاعتبارات الدينية عامة ،

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٩٦) .

(٢) المصدر السابق ، صفحة (٨٨) .

(٣) إيرفنج وليام نوبلوتشي: أستاذ العلوم الطبيعية ، حاصل على درجه الدكتوراه من جامعة إيوا ، أخصائى الحياة البرية فى الولايات المتحدة ، أستاذ العلوم الطبيعية فى جامعة ميتشجان منذ سنة ١٩٤٥ ، أخصائى فى وراثة النباتات ودراسة شكلها الظاهري .

(٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، صفحة (٥٤) .

(٥) واين أولت: أخصائى الكيمياء الجيولوجية ، حاصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا ، زميل بحوث بالمعمل الكيماوى الجيولوجى بنيويورك ، عضو الجمعية الجيولوجية الأمريكية .

نجد أنّ فكرة وجود الله أقرب إلى العقل والمنطق من فكرة المصادفة ولا شك ، بل لأن ذلك النظام البديع الذى يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على وجود إله منظم وليس على وجود مصادفة عمياء تخبط خبط عشواء)[١]

وفى النّظر إلى الحقائق دون ملل أو تحيز ، وهو ما عَنوَنَ به مقاله يقول "الدكتور إدوارد لوثر كيسيل"[٢]

(. . . فالعلوم تثبت بكل وضوح أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، فهناك انتقال حرارى مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة ، ومعنى ذلك أنّ الكون يتجه إلى درجة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ، ويومئذ لن تكون هناك عمليات كيماوية أو طبيعية ، ولن يكون هناك أثر للحياة نفسها فى هذا الكون ، ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ، ولا تزال العمليات الكيماوية والطبيعية تسير فى طريقها ، فإننا نستطيع أن نستنتج أنّ هذا الكون لا يمكن أن يكون أزلياً ، وإلا لاستهلكت طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط فى الوجود ، وهكذا توصلت العلوم - دون قصد - إلى أنّ لهذا الكون بداية . وهى بذلك تثبت وجود الله ، لأنّ ما له بداية لا يمكن أن يكون قد بدأ نفسه ولا بد له من مبدئ ، أو من محرك أوّل ، أو من خالق هو الإله . . . ولا يقتصر ما قدمته العلوم على إثبات أنّ لهذا الكون بداية ، فقد أثبتت فوق ذلك أنه بدأ دفعة واحدة منذ نحو خمسة بلايين سنة ، والواقع أنّ الكون لا يزال فى عملية انتشار مستمر تبدأ من مركز نشأته ، واليوم لا بد لمن يؤمنون بنتائج العلوم أن يأمنوا بفكرة الخلق أيضاً ، وهى فكرة تستشرق على سنن الطبيعة ، لأنّ هذه السنن إنما هى ثمرة الخَلق ، ولا بد لهم أن يسلموا بفكرة الخالق الذى

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ، الصفحات (١٣١ - ١٣٢) .

(٢) د . إدوارد لوثر كيسيل : أخصائى فى علم الحيوان والحشرات ، حاصل على دكتوراه من جامعة كاليفورنيا ، أستاذ علم الأحياء ورئيس القسم بجامعة سان فرانسيسكو ، متخصص فى دراسة أجنة الحشرات والسلامندر والحشرات ذوات الجناحين .

وضع قوانين الكون ، لأنّ هذه القوانين ذاتها مخلوقة ، وليس من المعقول أن يكون هناك خَلق دون خالِق : هوالله . . . ولو أنّ جميع المشتغلين بالعلوم نظروا إلى ما تعطيهم العلوم من أدلة على وجود الخالق بنفس روح الأمانة والعِلم والبعد عن التّحيز الذى ينظرون به إلى نتائج بحوثهم ، ولو أنهم حَرروا عقولهم من سلطان التأثر بعواطفهم وانفعالاتهم ، فإنهم سيسلمون دون شَك بوجود الله ، وهذا هو الحل الوحيد الذى يفسر الحقائق ، فدراسة العلوم بعقلٍ متفتح سوف تقودنا بدون شّك إلى وجود السبب الأول الذى هو الله)[١] .

وفى معرض حديثه عن الانتخاب الطبيعي ، فى نفس المقال ، يستطرد قائلاً :

(. . . . . . . والانتخاب الطبيعى هو أحد العوامل الميكانيكية للتطور ، كما أنّ التطور هو أحد عوامل عملية الخلق ، فالتطور إذن ليس إلا أحد السنن الكونية أو القوانين الطبيعية ، وهو كسائر القوانين العلمية الأخرى يقوم بدور ثانوي ، لأنه هو ذاته يحتاج إلى من يبدعه ، ولا شك أنه من خلق الله وصنعه ، والكائنات التى تنشأ بطريق عملية الانتخاب الطبيعى قد خلقها الله أيضاً كما خلق القوانين التى تخضع لها ، فالانتخاب الطبيعى ذاته لا يستطيع أن يخلق شيئاَ وكل ما يفعله هو أنه إحدى الطرق التى تسلكها بعض الكائنات فى سبيل البقاء أو الزوال عن طريق الحياة والتكاثر بين الأنواع المختلفة ، أما الأنواع ذاتها التى يتم فيها الانتقاء فإنها تنشأعن طفرات تخضع لقوانين الوراثة وظواهرها ، وهذه القوانين لا تسير على غير هدى ولا تخضع للمصادفة العمياء كما يتوهم الماديون أو يريدوننا أن نعتقد)[٢]

وفى مقال بعنوان "الكشوف العلمية تثبت وجود الله" كتب عالِم الطبيعة ، الدكتور "جورج إيرل دافيز"[٣] : (ولا يمكننا أن نثبت وجود الله عن طريق الالتجاء إلى الطرق

---

(١) المصدر السابق ، الصفحات (٢٧ - ٢٨) .

(٢) المصدر السابق ، صفحة (٢٩) .

(٣) د . جورج إيرل دافيز : عالم الطبيعة ، حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة منيوستا ، رئيس قسم البحوث الذرية بالبحرية الأمريكية ببروكلين ، أخصائى فى الإشعاع الشمسى والبصريات الهندسية والطبيعية .

المادية وحدها ، إذ لم يقل أحد بأنّ الله مادة حتى نستطيع أن نصل إليه بالطرق المادية ، ولكننا نستطيع أن نتحقق من وجود الله باستخدام العقل والاستنباط مما نتعلمه ونراه ، فالمنطق الذى نستطيع أن نأخذ به ، والذى لا يمكن أن يتطرّق إليه الشك ، هو أنه ليس هنالك شيء مادى يستطيع أن يخلق نَفسَه ، وإذا سلمنا بقدرة الكون على خَلق نفسه فإننا بذلك نصف الكون بالألوهية ، ومعنى ذلك أن نعترف بوجود إله ، ولكننا نعتبره إلهاً مادياً وروحياً فى نفس الوقت ، وأنا أفضِل أن أومن بإله غير مادى خالق لهذا الكون تظهر فيه آياته وتتجلى فيه أياديه ، دون أن يكون هذا الكون كفواً له .

إنّ التطور الذى تكشف عنه العلوم فى هذا الكون ، هو ذاته شاهد على وجود الله . فمن جزئيات بسيطة ليس لها صورة معينة وليس بينها فراغ نشأت ملايين من الكواكب والنجوم والعوالم المختلفة لها صور معينة وأعمار محددة تخضع لقوانين ثابتة يعجز العقل البشرى عن الإحاطة بمدى إبداعها . وقد حملت كل ذرة من ذرات هذا الكون ، بل كل ما دون الذرة مما لا يدركه حِسٌ ولا يتصور صغره عقل ، قوانينها وسننها وما ينبغى لها أن تقوم به أو تخضع له .

هذه أدلة كافية ، ولكن هنالك ما هو أشد إعجازاً وأكثر دلالة على وجود الله . . . إنّ كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله ، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأنّ الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها)[1] .

كلما تعمق العلماء المشاهير ، والعباقرة الأعلام ، أصحاب الفكر النّير ، فى أبحاثهم العلمية ، تتضح لهم الحقيقة الثابتة القاطعة ، وهى خطأ وضلال نظريات التطور المادي ، مما يأكد لهم قطعية الحقيقة الثابتة وهي : أن الخلق قد تَمّ على يد الخالق المبدع المدبّر ، وهذا هو فحوى ما صرّح به العالِم الدكتور "شارل ريشيه" عضو المجمع العلمي ، مدرس الفيزيولوجيا فى جامعة الطب الفرنسية ، فى مقدمة لكتاب "الظواهر النّفسية" بصورة مبطنة وعاجزة وغير جريئة : (ولماذا لا نصرح بصوت جهوري : أنّ هذا

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ، الصفحات (٤٠ - ٤١) .

العِلم الذى نفخر به إلى هذا الحَد ليس فى حقيقته إلا إدراكاً لظواهر الأشياء ، وأما حقائقها فتفلت منا ، ولا تقع تحت حواسنا ، وأن الطبيعة الحقيقية **للنواميس** التى تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى أن تلم بها عقولنا)[١] .

لقد وصف الفيلسوف الإنجليزى "سبنسر *Spencer*"[٢] الداروينية - وهو من أشهر دعاتها - **بأنها نظرة مادية** ، فهى لا تستعين فى تفسيرها الأشياء والوقائع بغير المادة ، وبالتالى لا توافق على وجودٍ غير مادى فى شيء من مظاهر الكون ، وإنما تركز اعتمادها على أساس قوانين المادة وتفاعلاتها فحسب ، فى شتى مجالات الحياة ، فإذا درست الإنسان مثلاً جنحت إلى شرح وتوضيح القوانين التى بها تستجيب الأشياء لبيئاتها وتتفاعل معها فى عملية مادية طويلة استغرقت ملايين السنين ، بدأت بتطور الأميبا لتنتهى بالإنسان الحاضر بجسمه المادى وعقله المدهش . فالمادة فى نظرهم هى الوحيدة وهى المتنفذة وهى الفاعلة بتوجيه من قوانين التطور التى هى وحدها المتحكمة والمسيرة للمادة ، لتظهر أولاً فى وحيدة الخلية ، ثم فى المركبات البدائية ، لتتبعها فى الأحياء المعقدة التركيب ، وأخيراً لتنتهى فى الإنسان الممتاز عن غيره من المخلوقات بعقله وإدراكه ، وبتعبير أدق : **فى عقل الإنســـان ذاته** . . . وهذه هى الحلقة الأخيرة من سلسلة التطور فقط ، فيها من الغموض والإبهام مما يجعل الداروينية تتخبط فى ظلام دامس .

والسِّر فى ذلك أنّ موضوع **العقل البشـــرى** يعتبر للآن سِراً من الأسرار التى لم يهتدِ العِلم إلى حقيقته ، ولم يتوصّلَ أبداً إلى حَلّ أسرار وحقائق هذا اللغز المحيِّر .

فإذا جاز لأحَدٍ أن يؤمن بالتطور المادى حتى يصل إلى الإنسان ، فإنّ أى عاقل لا يمكن أن يستوعب كيف تطور هذا الإنسان من بهيمى - كما يزعم الرويبضات[٣] ممن

---

(١) عن كتاب : الظواهر النفسية ، لمؤلفه " ماكسويل " النائب العام فى مقاطعة بوردو الفرنسية .

(٢) هيربرت سبنسر Herbert Spencer : (١٨٢٠ - ١٩٠٣) ، فيلسوف إنجليزي ، يعتبر احد أبرز القائلين بـ (الداروينية الاجتماعية)آمن قبل داروين بتطور الأنواع من أشكال بسيطة إلى أشكال معقدة . أشهر آثاره (الفلسفة التركيبية) .

(٣) الرويبضات : جمع رويبضة ، وهى تصغير كلمة رابض ، والتاء هى للمبالغة وليس للتأنيث : وهو الرّجل التافه يتكلم فى أمور العامة . وفى حديث الرسول ﷺ : ((وينطق فيهم الرويبضة . . .)) .

يَدّعون العِلمَ - إلى إنسان عاقل مميز ، يُدركُ الأدلة ويحكم عليها بعقله ، هذا العقل الذى هو السّبَب فى إبداع الإنسان فى العلوم والصناعات والآداب والفلسفات؟

وفى موضوع العقل البشرى يتحدّث الدكتور أحمد البطراوى فى حيرة وعجب قائلاً :

(. . . ولا شَكّ أنّ استحداث الحياة من الجماد سِرٌ كانَ ولا يزال محجوباً عن بصيرة العلماء ، ولكنّه ليس بالسّر المحير ، فمثله ولا يقل عنه روعة ولا عجباً استحداث العقل البشرى المبدع فى واحد من ذلك الحيوان الذى حَيّرَ استحداثه أبا العلاء ،[1] وهكذا يكون استحداث حيوان عاقل هو الإنسان أدعى للحيرة والعجب مرتين ، ولعَلّ هذا هو السّبب فى أنّ دراسة الإنسان لنفسه كانت تسير على مهل وكان خطوها وئيداً ، وهو فِعلاً ما زال حتى الآن فى حيرة من نشأة الحياة ، وفى عجب من نشأة عَقلِه)[2]

وما دام العِلم الحديث قد عَجِزَ وفشلَ فى أن يعرف من طبيعة العَقل شيئاً يمكنه التأكيد عليه ، فَإنّ كل محاولاتهم الهادفة إلى تفسير العقل ليست سوى افتراضات متَشَكّكَة مُتَأرجحة ، وحَلّ لنظريات واهية يرتاب العِلم فى صحتها ، لذا فلا يمكن بحال أن تتصف أحكام العاجزين بالصّحّة المطلقة ، وإنّ أوهى تفسيرات فى العقل كانت نظريات وتفسيرات الماديين حيث تخبطوا وعجزوا عَجْزاً واضِحاً فى تفسير ماهيته أو الوصول إلى حقائق رموزه وأسراره .

أمّا من أدرك نِعمَة العقل الذى وَهَبَه إياهُ من فَطَرَهُ ، فهو يَسْتَعْمِلَهُ فى تمييز الخطأ من الصواب ، والحَقّ من الباطل ، يستعملَه بعمق واستنارة تامة ، بَعْدَ تمعنه فى أسرار الكائنات الحيّة ، والقوانين التى تُسَيِّرَ وجودها ونموها وتكاثرها ، والقوانين التى فُرِضَت على المخلوقات جميعاً من كائنات حيّة أو حتى من جمادات ، تُسَيّرَها بنظام بديعٍ دقيق ومتوازن ، ليصلَ بذلك إلى الحقيقة القطعيّة وهى **التّصــديق الجازم المطابق**

---

(١) يشير الكاتب لأبى العلاء المعرى يصف فيه الإنسان حيث يقول : والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد والبيت من قصيدة له مطلعها : غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باكٍ ولا ترنم شادي .

(٢) الدكتور أحمد البطراوي ، الجنس البشرى فى معرض الأحياء .

للواقـــع بأنّ كلّ تلك القوانين والعقول والمخلوقات قد كونها وأبدعها وفرضها خالق مدبر هو الله تعالى.

يعلِّق "أدموند و . سينوت" على عمليات البحث عن تفوق الإنسان العلمي وتطوره ومحاولات علماء الآثار والأحافير الكشف عن مكنوناتها ، فى مقال له بعنوان "ابن الطبيعة الثائر" ورد فى مقدمة كتاب "أصل الأنواع" **حيث قال**:

(لم تكن قولة الشاعر "بوب" - بأنّ العِلمَ بالإنسان ، أمثل سبيل بالإنسانيّة - بأبين قيمة ، فى أى وقت منها فى عصرنا هذا ، ففى مستوى من مستويات العِلم ، نجد أنّ الإنسان موضع البحث الناشط الدّقيق ، احتفرت عظام أسلافه من جوف الأرض لكى تُستَكنَه منها الوسيلة التطورية التى من طريقها وصل إلى مكانته العليا فى هذا الزمن ، أما العديد الوافر من المقومات التى تقوّم ذاته ، فقد درست بوسائل من علم الوظائف حادة باترة ، ومضى عِلم النّفس يكشف عن مكنون عقله ، وطفق علماء البشر يصرفون من جهد البحث الدقيق فى الكشف عن قوالب حياته الاجتماعية ، مثل ما يصرف الإحيائيون نحو مستعمرات النّمل والنّحل ، أما ماهى طبيعته ، فقد انقطع لمدارستها الشاعر والفيلسوف واللاهوتي ، بكل ما أوتوا من همّة وقدرة ، ولقد انكشف لنا الكثير من أمره ، ولكن تبقى الأكثر مما لم يُعرَف ، فالإنسان ما يزال قادراً على الإفلات من ثقوب الشباك التى تحاول أن نصيده بها ، إنه عَقِد بحيث يتعذّر أن يحصر فى قالب ، شقيت النّواحي ، بحيث يعسر أن يعرف ببساطة ، إنّه مزيج من المتناقضات المحيرة ، إنّه ما يزال بحق : جلال الكون ونكتته وسره)[1]

ينعت "سير راى لنكستر *Sir Rey Lanketer*" الإنسان واصفاً إياه "ابن الطّبيعة الثائر" ، إلا أنّ داروين لم ينظر إلى الإنسان من هذا المنظار ، كما لم ينظر إليه نظرة سينوت - الواردة فى الفقرة السابقة - بل لقد نظر إلية من زاوية أخرى ، أقصر باعاً من تلك مع قصرها وضحالتها ، لقد نظر إليه من خلال الزّاوية التى رسمها فى كتابه "أصل

---

(١) المرجع ، الصفحات (٤٨ - ٤٩) .

الأنواع" ، وقد فَسَّرَ فيه أسباب التطور العضوي ، وقام بتطبيقها على الإنسان فى كتابه الثاني "نشوء الإنسان" والذى نشره بعد كتابه الأول بعدة سنوات [١] .

لقد اقتصر داروين فى كتابيه عن أصل الإنسان وتطوره بالنّظر من زاوية واحدة افترضها افتراضاً هي: **أن الإنسان يعود فى أصله العضوى إلى عالَم الحيوان** . لم يمرّ بذهنه قط أنّ فيه ازدواجيّة ، وأنه علاوة على تركيب الإنسان الجسدي ، والذى قد يتشابه فى بعضها بعض المشابهة مع بعض الحيوانات ، إلاّ أنه يختلف عن الحيوان بانتصاب القامة وبجمال الخلقة ، والأهم من ذلك **العقـــل المميز، أى بالدماغ الصـــالح للـــربط**[٢] والذى يستطيع بواسطته إجراء عمليّة التّفكير ليحكم بها على الواقع وأن يتصرّف طبقاً لذلك الحكم ، وأنّ هذا الإنسان به طاقات كامنة ، تحوى الغرائز والحاجات العضويّة والتى يسعى لإشباعها كلما ثارت متطلبة الإشباع إشباعاً إنسانياً مميزاً ، بعيد كل البعد عن طريقة الحيوان فى إشباع غرائزه .

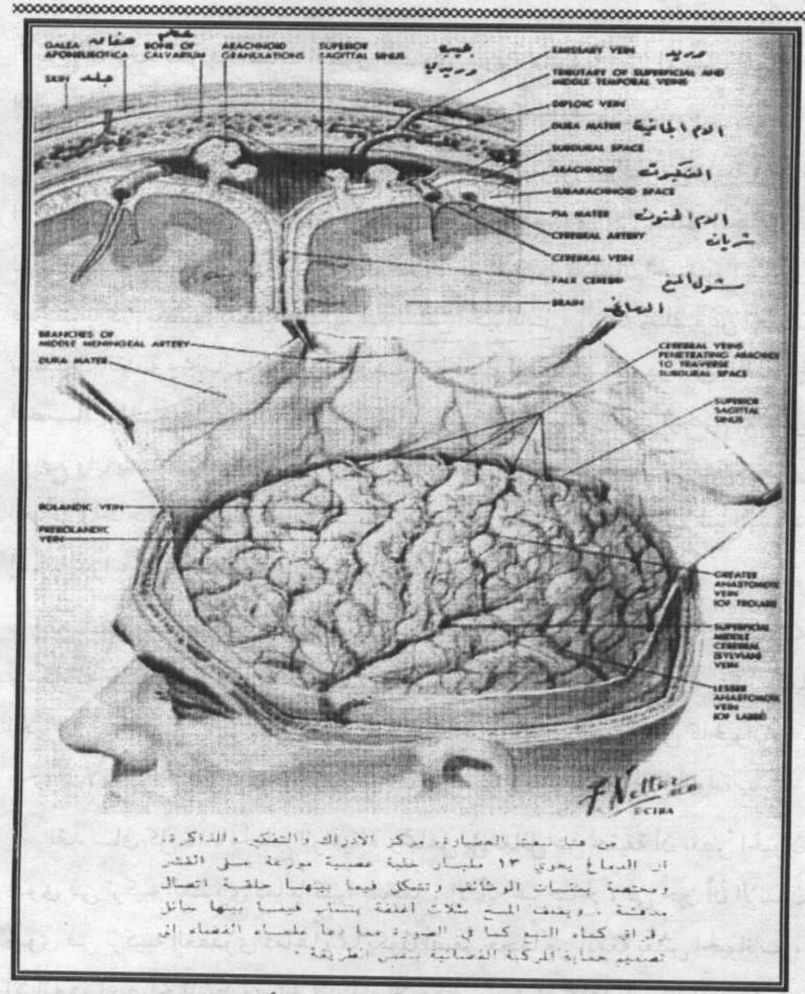
نعـــم: لقد تجاهل داروين كل تلك الفروقات الجوهرية ، وبذل كل طاقاته وإمكاناته صارفاً كل جهوده لإثبات أنّ الإنسان بجسده حيوان: حيوان لأنه يتكاثر كما الحيوان . . . . . . وحيوان لأنه يتغذى كالحيوان . . . وحيوان لأنه يتنفس كالحيوان . . . وحيوان لأنه يبول ويغوط كالحيوان . . . ولأنّ له أعضاء جسدية كما فى الحيوان . . .

لقد ساق كل تلك الحجج الواهية ، وتجاهل بل تغافل عن حقيقة أن بعضّ الحيوان يحوى فى تركيبه العضوى دماغاً كبيراً ضخماً ، إلا أنه غير صالح ، فى حين أنّ الإنسان يحوى فى تركيبه العضوى دماغاً ربما يكون أصغر حجماً من أدمغة بعض الحيوانات ، إلا أنه دماغ صالح للربط وصالح لإصدار الأحكام . . . كما وتجاهل الغرائز الموجودة فى الإنسان وطريقة إشباعها المميزة عن طريقة إشباع الحيوان لغرائزه .

---

(١) المرجع ، صفحة (٤٩) .

(٢) الدماغ BRAIN: هو حشو المخ من أعصاب ونحوها ، وفيه المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ، وهو مركز التفكير فى الجسم ، وموقعه الرأس .والفرق بين دماغ الإنسان وبين دماغ الحيوان: أنّ دماغ الإنسان صالح للربط لإعطاء الحكم على الواقع ، فى حين أنّ دماغ الحيوان ليس صالحاً للربط .



من هنا تنبعث الحضارة، مركز الادراك والتفكير والذاكرة؛ ان الدماغ يحوي ١٣ مليار خلية عصبية موزعة على القشر ومختصة بمتباين الوظائف وتشكل فيما بينها حلقة اتصال مدهشة . ويغلف المخ ثلاث أغشية ينساب فيما بينها سائل رقراق كماء النبع كما في الصورة مما دعا علماء الفضاء الى تصميم حماية المركبة الفضائية بنفس الطريقة .

إنّ الإنسان يحوى فى تركيبه العضوى دماغاً أصغر حجماً من أدمغة بعض الحيوانات، إلا أنه دماغ صالح للرّبط وصالح لإصدار الأحكام [١] .

---

(١) ارجع إلى صفحة (٢١٤) .



الصبغيات . الشيفرة السرية للخلق

في هذه الأشكال الغريبة (الصبغيات) يكمن التصميم والهندسة الكاملة لخلق الإنسان ، فهي خريطة مصغرة ولكن مليارات المرات ، وهي مفتاح خلق الإنسان ، وهي خلاصة مكثفة جداً ، مع ذلك فإن سر الإنسان يبقى معجزاً ما بين القطاعات الثلاث التي تشترك في تركيب هذا الصبغي أو ما يسمى الحمض النووي حيث تشترك أربعة أحماض أمينية وسكر خماسي وحمض فوسفور في انتاج منظومة الخلق الرائعة للإنسان .

الصبغيات *Chloromosomes* بالغة الأهمية لأنها تحمل المورثات*genes* التى تحدد الصفات الوراثية المميزة [١].

ولكن ما خطب صلة الإنسان بخالقه وهى إحدى تلك الغرائز - غريزة التدين - وما علاقة الحيوان بالروح التى هى صلة الإنسان بخالقه تعالى؟ إنّ ذلك ما لم يتعرّض له نفياً أو تأكيداً ولم يعره أى انتباه .

لقد حدد موضوعه مسبقاً ، حاصراً إياه فى دائرة أنّ الإنسان كائن حى

---

(١) ارجع إلى : هامش صفحة (٦١) .

تجرى عليه سُنة وقوانين التطور جريها على كافة الأحياء التى هى دونه ، وباختصار فإنّه قد وضع نتائج مسبقة لفكرته ، ووضع القواعد لإثباتها ، ومضى فى الاسترسال لإثباتها بأى وسيلة ممكنة ، مُعْمِياً نفسه بل متجاهلاً الحقائق التى تبرهن على عكس نظريته وتتبرها تتبيراً .

نعــم ، لقد فَشل داروين وكل المنادينَ بمقولة التطور العضوى من الرّدِ على كل تلك الحقائق ، حتى أنّ "إسماعيل مظهر" وهو من أشدّ المتحمسين لنشر مذهبهم المادي ، ومترجم كتاب "أصل الأنواع" إلى اللغة العربيّة ، قد تعرّض لتلك الحقائق فى مقدمته للكتاب المذكور ، **حيث يقول**:

(لقد وَقَفَ إنسان القرن التاسع عشر يترنح من أثر الصدمة ، هل يودع الإنسان معتقداته القديمة كلها ويدفنها فى ثرى الفكر كما دفن من قبلها معتقدات وأوهاماً؟ هل هو حيوان ولا شيء غير ذلك؟ ما خطب إنسانيته؟ وما خطب طبيعته المزدوجة التى رافقه الاعتقاد بها الألوف من السنين منذ أن كان كائناً قليل الحَول فاقد الحيلة يسكن الكهوف ويغتذى بما يجد ، لا بما يشتهي؟ لقد انتهى "داروين" من أمر الجسد ، فأثبت أنه جسد حيوان أرقى من غيره ، ولكن ما خطب النفس؟ ماخطب الروح؟ وما خطب الغيب ، الذى تحيط به أسبابه إحاطة السوار بالمعصم؟

كان مذهب "داروين" انتصاراً للمادية الصرفة ، ولكنه انتصار لم يكن حاسماً ولم يكن قاطعاً ، غير أنّ الفكر بعد أن اصطدم بصخرة التطور مضى يتخبط غير مستقر ، ومضى زمن طويل قبل أن يدرك سواد الناس أن داروين إنما يتناول ببحثه العلمى عصر "ما بعد الخلية" التى هى أساس الحياة بكل صورها ، ولكنه لم يعرض للبحث فى عصر "ما قبل الخلية" ليعرف كيف نشأت الحياة فى تلك الصورة البسيطة ، ومن أين هبط ذلك السر الرهيب: سر الحياة الذى جعل من المادة الجامدة كائناً حياً .

إذن لم يكن انتصار المادية انتصاراً حاسماً قاطعاً ، بل كان انتصاراً جزئياً ، لم يتجاوز أنه تفسير لبعض وجوه من خصيات المادة ، تناول داروين منه ناحية المادة الحيّة ، أى المادة بعد أن دَبّت فيها الحياة ، ولكن ما الحياة؟ ذلك هو سرّ الأسرار!

عندما شعر الماديون بأنَ انتصارهم لم يكن حاسماً ، وأنّ الحياة وإن شئت فقل ماهية الحياة ، هى الصخرة التى تتحطم عليها أسس المادية ، قالوا بالتولد الذاتي ، أى أنّ الحياة **قد** تتولد ذاتياً من مادة غير حيّة ، **غير أنّ ذلك لم يقم على شيء من حقائق العلم، ولم يثبته الأسلوب العلمي، لأنّ العلم إنما يثبت كما قال "باستيان": إنّ كل حي يتولد من حي مثله.** وإذن فهناك حادث خطير وقع فاصلاً بين عصرين: عصر ما قبل الخلية ، وعصر ما بعد الخلية ، وفى الكشف عن السر الذى يختفى من وراء ذلك الحادث ينطوى مستقبل الإنسان كله ، أيتجه إلى المادة؟ أم يتجه إلى الروح؟

لقد ظهر للباحثين أن للأحياء مقومات تبثها فيهم فطرة الحياة ، وأنّ لجميع هذه المقومات مظاهر لم يعللها العِلم الطبيعى ولا عِلم الأحياء ، ولا تعود كذلك إلى تفاعلات كيموية ، **فما هى إذن؟** لقد عجز العِلم المادى عن أن يجيب على هذا السؤال حتى الآن [1] .

إنّ تميز الإنسان بالعقل عن باقى المخلوقات ، وسر بداية الأشياء وتوجه الإنسان الروحى نحو الإيمان بوجود خالق ، والتى أشار إليها إسماعيل مظهر كما ورد سابقاً واصفاً إياها بأنها "**سر الأسرار**". كل تلك الأبحاث قد حَيّرَت داروين نفسه واصفاً إياها **بالمشاكل العميقة** كما ورد فى فى كتابه المنشور باسم" *life & Letters*" والذى يضم طرفاً من حياته وعدداً من رسائله إلى

---

(١) المرجع ، الصفحات (٥٩ - ٦٠) .

بعض العلماء المعاصرين له ، **حيث يقول:**

(إنّ ثمة مصدراً للاعتقاد في وجود الله يرتبط بالعقل ، وله في نظري أهمية أكبر بكثير من المصادر المتعلقة بالمشاعر والأحاسيس ، وهذا المصدر يأتي من الصعوبة البالغة - أو بالأحرى استحالة تخيل هذا الكون الفسيح الرائع الذي يشمل الإنسان بقدرته على النظر إلى الماضي البعيد وإلى المستقبل البعيد أيضاً - على أنه نتيجة للمصادفة البحتة أو نتيجة للضرورة . **وحين أفكر بهذه الطريقة أشعر بأنه لا بدّ لي من البحث عن علة أولى لها عقل بصير يشبه على حدّ ما عقل الإنسان.** وهذا يعطيني الحق بأن أوصف بأني مؤمن بالله ، وقد كانت هذه النتيجة واضحة في ذهني بقدر ما أتذكر في الوقت الذي كتبت فيه "أصل الأنواع" . ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الفكرة تضعف بالتدريج ولكن مع شيء من التّقلب والتّراوح ، ولكن هنا يثور الشّك: هل يمكن أن نثق في عقل الإنسان - الذي أعتقد كل الاعتقاد أنه نمى وتطور من عقل بسيط كعقول أبسط الحيوانات وأدناها - حين يستنتج مثل هذه الاستنتاجات الضخمة؟)[1]

ويرفع داروين يديه عند هذه النقطة مستسلماً - حسب ما يقوله داونز - ثم يعلن في النهاية: **(لا أستطيع أن أدعي بأنني ألقي بصيص من الضوء على مثل هذه المشاكل العقيمة، فإنّ سر بداية الأشياء كلها غير قابل للحل، أمّا فيما يتعلق بي شخصياً فإنني قانع بأن يكون موقفي هو موقف اللاإرادي حول هذا الموضوع)**[2]

ونحن بدورنا نقول أنّ العقل الذي وهبنا إياه الله تعالى لا يقف عاجزاً أمام

---

(١) دورية (عالم الفكر) ، المجلد الثالث ، العدد الرابع (١٩٧٣) ، صفحة (٧) . - دورية (تراث الإنسانية) ، المجلد التاسع ، العدد الأول (١٩٧١) ، صفحة (١٢٦) . - ر .داو نز ، كتب غيرت العالم ، طباعة نيويورك (١٩٥٦) ، صفحة (١٦٢) .

(٢) المصدر السابق .

مـا وصـفه داروين بالمشاكل العميقة إن استُعمِلَ استعمالاً صحيحاً وباستنارة ، حيث سيقود حتماً لحل عقد الإنسان جميعها ، وأولها الإيمان بالله تعالى ، لـذا فقد خاطب الله تعالى العقل الإنسانى للتفكر فى مخلوقاته - بما فيها خلقه هو - ليستدل وليصل إلى الحقيقة الدامغة وهى الإيمان بالله تعالى الخالق الأحد الصمد ، قال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[1] .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾[2]

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[3]

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[4] .

---

(١) الغاشية : ١٧ - ٢١ .
(٢) الطارق : ٥ - ٨ .
(٣) فصلت : ٣٥ .
(٤) المؤمنون : ٩١

الباب الثالث

الإسلام وخَلق الإنسان

[١] العقل يوصل إلى الإيمان

[٢] خلقُ الإنسان فى نظر الإسلام

[٣] خلَقُ الإنسان فى نصوص القرآن

١. خلَقُ آدم عليه السلام

٢. إبليس ومعركته مع الإنسان

٣. خلَقُ الزّوجة (حوّاء)

٤. مولد عيسى ابن مريم

٥. أصحاب الكهف والرّقيم

٦. إعادة الحياة

الفصل الأول

العقـــل يوصـــل إلـــى الإيمـــان

إنّ الملاحِظَ للموجودات الثلاث التى يدركها عقل الإنسان وهي : **الكَـــوْن والإنسان والحياة،** بعمْقٍ واستنارة ، يَجِدُ أنها مَحْدودَة . فالإنسانُ مَحْدودٌ لأنّه ينمو فى كلّ شيء إلى حَدٍ لا يَتَجاوَزَهُ ، فهوَ مَحْدود ، والحَياة مَحْدودَة لأنّ مَظهَرها فردى فقط ، والمُشاهَدُ بالحس أنّها تنتهى بالفرد فهى محدودة .

وَالحُكم على الإنسان يَجِبُ أن يَنْصَبّ على ماهيته ، أى على جِنْسِه ، فما يَصْدُق على الماهِيَة يَصْدق على الجنس كلّه مهما تَعَدّدَت أفراده . وبِما أنّ الماهِيّة فى فَرْدٍ مُتَحَقِقَة فى الفَرْد الواحِد "وفى كلّ فَرْد" وَالفَرْد الواحِد يَموت ، فَذلك يَعْنى أنّ جِنْس الإنسان يَموت ، وما دامَت الحَياة تنتهى فى الفَرْد الواحِد فَمَعْناه أنّ جنس الحَياة تَنْتَهى فَهِى مَحْدودَة .

وَالحَياة فى الفَرْد - إنْساناً كانَ أو حَيَواناً - أمْرٌ يُحَسّ وإن كان لا يُلْمَس ، وَيُفَرّقُ بِالحِسّ بَيْنَ الحَى والمَيّت ، وهذا المَحْسوس مَوجود فى الكائِن الحَى ومن مظاهِرِه النّمو والحَرَكَة والتَكاثُر ، وهو مُمَثّل كليّاً وجزْئياً فى الفرد ولا يرتبط بأى شيء مطلَقاً .

والكون محدود ، لأنّه مجموعة أجرام ، وكل جرم منها محدود ، ومجموع المحدودات محدود بداهة ، وذلك لأنّ كلّ جرم منها له حُدود ، أى له أوّل وآخر ، فمهما تَعَدّدَت تلك الأجرام فإنّها تظلّ تنتهى بمحدود ، **والمحـــدود هـــو العاجـــز والنّاقص والمحـــتاج لإيجاد شيء من العدَم، أى عاجزٌ عن إيجاد ما إحتاج إليه .** ولا يقال أنّ الأشياء المُدْرَكَة المَحْسوسة احتاجَت لِبَعْضِها ولكنّها فى مَجْموعها مُسْتَغنِيَة عن غيرها ، لا يُقال ذلك لأنّ الحاجَة إنّما تَظهَر وتَتّضِح للشيء الواحِد ، وتُلمَسُ لَمساً ولا تُفْرَضُ فَرْضاً نَظَرِياً لشيء غير موجود فَيُفْتَرَض وجوده ، فلا يقال أنّ النّار فيه قابليّة الإحراق وحتى تَحرِق فقد احتاجَت لِجِسْم فيه قابليّة الاحتراق ، فلو اجتمعا معاً

لاستغنيا ولم يحتاجا لغيرهما ، لا يُقال ذلك لأنّه فَرَضٌ نَظَري ، فالحاجة للنار وللجِسْم القابِل للاحتراق هى حاجَةٌ لشيء موجود حِسّاً ومَحْسوسٌ بإحْدى الحَواس ، أو مُدْرَك عَقْلياً ، وهو بالطبع مما يقع الحِسّ على مَدْلولِهِ حتى يَتَأتى إدراكه عَقْلاً ، فالحاجة هى لشيء موجود ، والنّار والجِسْم لا يوجَدُ من اجتماعهما شيء يحصل فيه الاستغناء أو الحاجَة .

وكذلِكَ الأشياء التى فى الكَوْن لا يحصل من اجتماعها الاستغناء أو الحاجَة . فالحاجَة والاستغناء متمثلان فى الجِسْم الواحد .

وبما أنّ مفهوم الاحتياج مُتَعَلِقٌ بعَدَم الاستغناء ، الذى هو فى الجِسم الواحِد ، لذا فمفهوم الاشتراط المادى المتعلق بعدم فصل الأشياء بعضها عن بعض هو مفهوم خاطئ[1] لأنه لا يوجد شيء يتكوّن من مجموع ما فى الكون حتى يوصف بأنّه مستغن أو محتاج . فقولهم أنّ مجموع الأشياء التى فى الكون مستغنٍ أو محتاج هو وصف لواقعٍ غير موجود ، لأنّه وصف لشيء متخيّل الوجود لا لشيء موجود . والبرهان يقوم على حاجة شيء معيّن موجود فى الكون ، لا لمجموعة أشياء يتخيل لها اجتماع يتكون منه شيء فيُعطى وَصْفُ

---

(١) مفهوم الاشتراط الماركسي : ورد هذا المفهوم كبند أول من مواد قوانين المادية الجدلية " الديالكتك " والذى ينص على : إنّ الطبيعة شيء واحد مرتبط ، ترتبط فيه الأشياء والظاهر ارتباطاً عضوياً فيما بينها ويقوم بعضها على بعض ، ويكيف بعضها بعضاً بالتبادل .والديالكتك يعتبر الطبيعة كلاً واحداً متماسكاً ترتبط فيه الأشياء والحوادث ارتباطاً عضوياً ، ويتعلق أحدها بالآخر ويكون بعضها شرطاً لبعض .والديالكتك لا يعتبر الطبيعة تراكماً عرضياً للأشياء ، أو حوادث بعضها منفصل عن بعض أو أحدها منعزل .أى حادث لا يمكن فهمه إذا نظر إليه بمعزل عن الحوادث .يقول ستالين : الديالكتك يعتبر الطبيعة كلاً واحداً . . . كما يقول : ترتبط الأشياء والحوادث ارتباطا عضوياً .ويقول إنجلز : وحدة العالم قائمة على ماديته .كما يقول ستالين : يكون بعض الحوادث والأشياء شرطاً للبعض .كما يقول مفسراً : أى حادث لا يمكن فهمه إذا نظر إليه منفرداً بمعزل عن الحوادث . .أما هيجل فيقول : الشيء بذاته ليس حقيقياً بينما الكل هو الوحيد الحقيقى لمزيد من التوسع - لمن رغب - يمكن الرجوع إلى : - د .محمد عزت نصر الله ، الرد على صادق العظم ، الصفحات (٣٠٣ - ٣٢٠) . - أسس الاشتراكية العربية ، صفحة (٦٧) وما بعدها . - ستالين ، المادية الجدلية والمادية التاريخية ، الصفحات (١٦) وما بعدها . - الماركسية فى الفلسفة ، الصفحات (٣٤ - ٧٥) . - إنجلز ، ضد دهرنج ، صفحة (٧٤) . - بيس وكافنج ، بولتزير ، الجزء الأول ، الصفحات (٥٠ - ٨٠) .

الحاجة أو الاستغناء ، لذا فهذا فَرَضٌ تَخَيّلي وليسَ واقِعِيّاً ولا يَرْقى حَتّى إلى أنه فَرَض نظري .

ولا يُقالُ أنّ الأشياء احتاجَت إلى بَعْضِها فَأكْمَلَت بعضها فنفت بذلك الاحتياج ، لا يُقال ذلكَ لأنّ الاحتياج ولو إلى شيء واحِدٍ في الدّنيا يُثبتُ أنه لا يوجَدُ في الكَوْن شيء مُسْتَغْنٍ الاستغناء المُطْلَق ، فَمُجَرَدُ احتياجه لشيء واحد في الوجود يُثْبِتُ ولا بُد وَصْفُ الاحتياج ، فاحتياج الجزء إلى جُزْءٍ آخرَ يُثْبِتُ له وَصْفَ الاحتياج قَطْعَاً . وهذا كله ملموس محسوس بالنّسبة لجميع الأشياء المَوْجودَةِ على سَطْح الأرض وَلِما وَصَلَ إليه الإنسان من الأجرام .

هذا علاوة على أنّ الكَوْنَ هو مَجْموعَة أجرام ، وكُلّ منها يَسير بِنِظام مَخْصوص ومُحَدّد ، وهذا النظام إمّا أن يكون جُزء منه ، أو خاصّة من خاصّياتِه أوشيء آخر غَيْره ، فهو بالتّحديد أحَدُ هذه الاحتِمالات الثّلاثة وليس غَيْرها ولا يُمْكِن أن يكون غَيْرها مُطْلَقاً ، أمّا كونه جُزْءاً منه فباطل ، لأنّ سَيْر الكواكب يكون في مدار معيّن لا يتعدّاه ، والمدار كالطريق هو غير السائر فيه ، والنظام الذي يسير فيه ليس مجرد سَيْرِهِ فقط ، بل تَقَيُّدِهِ بالسّير في هذا المدار لا يتعداه . ولذلك لا يمكن أن يكون هذا النظام جُزْءاً منه ، وأيضاً إنّ السّيْرَ نفسه ليس جزءاً من ماهِيّة الكوكَب بل عملٌ له ، ولذلك لا يمكن أن يكون جزءاً منه ، وأمّا أنهُ خاصيّة من خَواصه فباطلٌ ، لأنّ النظام ليس هو سير الكوكب فَحَسْب ، بَل سَيْرَهُ في مَدار معين . فالموضوع ليس السّير فقط بل السّير في مدار ونظام معيّن ، فإن كان السّير من خَواصه كان عليه أن ينظم سَيْر نفسه ، وحينئذٍ يستطيع أن ينظم نظاماً آخر ما دام من خواصه التّنظيم ، والواقع أنه لا يستطيع ذلك ، ولهذا لا يمكن أن يكون من خواصه ، وما دام ليس جزءاً منه وليس من خواصه فهو غيره قطعاً وبالتّأكيد ، فيكون قد احتاج إلى غيره ، أي احتاج الكون إلى نظام ينظمه .

وأمّا الحياة فإنّ احتياجها إلى الماء والهواء ملموس محسوس ، وأمّا الإنسان فإنّ احتياجه إلى الطّعام والشّراب والهواء ملموس محسوس ، وعليه فإنّ الكونَ والحياة والإنسان كائنة في حالة احتياج دائم .

ومدلــول كــلمة محتاج يعنى أنه مخلوق، لأنّ مجرد حاجته تعنى أنه عاجــز عــن إيجاد شيء من العدم، أى عاجز عن إيجاد ما احتاج إليه، فهو ليس خالقاً، وما دام ليس خالقاً فهو مخلوق. لأنّ الوجودَ كله لا يخرج عن خالقٍ ومخلوق ولا ثالث لهما قطعاً ، وهذا ليس فَرَضاً وإنّما يَدُلّ عليه الواقع المحسوس للمخلوق ، وهذا المخلوق إمّا أن يكون مخلوقاً لنفسه أو مخلوقاً لغيره ، أمّا كونه مخلوقاً لنفسه فباطل ، لأنه يكون مخلوقاً لنفسه وخالقاً لها فى آنٍ واحد ، وهذا باطل ، فلا بُدّ أن يكون مخلوقاً لغيره ، وهذا الغير هو الخالق . وهذا الخالق هو أَزَلى واجب الوجود .

أمّا كونه أزلياً لا أول له ، فلأنّه إن كان له أولٌ كان مخلوقاً ، إذ قد بدأ وجوده من حد معين ، فكونه خالقاً يقتضى بأن يكون أزَليّاً . إذ الأزَلى تَسْتَنِدُ إليه ولا يَسْتَنِدُ إلى شيء .

والمحدودِيَة والأزَلِيَة ليستا اصطلاحاً وُضِعَ له تَعْريف اصطلاحي ، ولا مدلولاً لكلمة وُضِعَ لها فى اللُغَة لفْظٌ يَدُلُ عليها ، وإنّما واقعٌ مُعَيّن كالبحث فى الفكر سواء بسواء ، فحين نقول أنّ الكون محدود إنّما نُشيرُ إلى واقع معين وهو كونه له بداية وله نهاية ، فالبحث فى هذا الواقع وليس فى كلمة محدود . وكونه له بداية وله نهاية قد قام البرهانُ الحسى فيكون البرهان على واقع معين لا على معنى الكلمة لغوياً . فواقع المحدود هو أنه له أول وله آخر ، وواقع الأزَلى هو ما ليس له أولٌ ، فيكون واقع المحدود غير واقع الأزلي ، فيكون الكلام عن واقع معين لا عن مدلول الكلمة لغوياً .

والبرهان على أنّ وجودَ الخالق حَقيقة ملموسة محسوسة هو فى منتهى البَساطَة ، فإنّ الإنسانَ يحيا فى الكَوْن فَهُوَ يُشاهِدُ فى نفسه وفى الحياه التى يحياه وفى كُلّ شيء فى الكون تغيراً دائماً وانتقالاً من حال إلى حال ، وَيُشاهِدُ وُجودَ أشياء وانعدام أشياء ، ويُشاهِدُ دِقّةً وتنظيماً فى كل ما يرى ويلمس ، فَيَصِلُ من هذا عن طريق الإدراك الحِسى إلى أنّ هناك موجِداً لهذا الوجود المُدْرَك المَحْسوس ، وهذا أمْرٌ طبيعى جدّاً .

ومثال على ذلك فَإنّ الشّخْص ليَسْمَعُ صوتاً فَيَظُنُ أنه صوت رجل أو امرأة أو آلة ، ولكن يوقن أنه صوت ناتج عن وجود شيء نتج عنه الصّوت أمراً قطعيّاً عند سَماعِه ،

فقد قام البُرهان الحسى على وُجودِهِ ، فيكون الاعتقاد بوجود شيء نتجَ عنه الصّوت اعْتِقاداً جازماً قام عليه البُرْهان القَطْعي ، ويكون هذا الاعتقاد أمْراً طَبيعِياً مادام البُرهان الحِسى قد قام عليه .

وكذلك فإنّ الإنسان يُشاهِدُ التّغَيُّرَ فى الأشياء ، ويُشاهِدُ انعدام بعضها ووجود غيرها ، ويُشاهِدُ الدّقّة والتّنظيم فيها ، ويُشاهِدُ أنّ كُل ذلِكَ ليس منها ، وأنها عاجِزَة عن إيجادِه وعاجِزَة عن دَفْعِه ، فيوقن أنّ هذا كله صادر عن غير هذه الأشياء ، ويوقِن بِوُجود خالِقٍ خَلَقَ هذه الأشياء ، هو الذى يُغَيّرها ويعدمها ويوجدها وينظمها ، فكان وُجود هذا الخالِق الذى دَلّ عليه وُجود هذه الأشياء وتغيرها وتنظيمها أمْراً قَطْعِياً عِند من شاهَدَ تغيرها ووجودها وانعدامة ودقّة تنظيمها ، فقد قام البُرهان الحِسى بالحِس المُباشر على وُجودِهِ وهو بُرْهان بمنتهى البَساطَة ، لذلك جاءت أكثر براهين القُرآن الكريم لافتَة النّظَرَ إلى ما يَقَع الحِس عليه - أى حس الإنسان - للاستدلال بذلك على وُجود الخالق ، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾[1]

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾[2]

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾[3]

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ ﴾[4].

---

(١) الانفطار: ٦ - ٨ .
(٢) الغاشية: ١٧ - ٢١ .
(٣) الطارق: ٥ - ٨ .
(٤) الطور: ٣٥ - ٣٦ .

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[١] .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[٢] .

هذا هو واقع الإيمان: **تصديقٌ جازمٌ مطابقٌ للواقع عن دليل** . وحتى يتحقق هذا الإيمان ويرسخ ، فلا بد من أن يَحْكُم العقل على صِدْقِهِ بِالأدِلَةِ القَطْعِيَة ، لذا فقد دعا الإسلام الإنسان إلى التَّفَكُر فى المخلوقات لِيَسْتَدِلّ بها على أنها مخلوقة لِخالِق ، وتكرر طلب التّفكر فى القرآن الكريم مصحوباً بضرب الأمثلة الدالة على الخَلق فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم .

أمّا بالنِسْبَة لإنكار الخَلْق لدى الشيوعيين وغيرهم من الماديين فى العصر الحديث ، فإنّ موضع الإنكار عندهم يرتكز على قولهم أنّ العلاقات المتبادلة بين الحوادث وتكييف بعضها بعضاً بصور متقابلة ، هى قوانين ضرورية لتطور المادة المتحركة ، وأنّ العالم يتطور تبعاً لقوانين المادة المتحركة ، أى لقوانين حركة المادة[٣] .

هذا هو موضع إنكار وجود الخالِق عندهم ، فالتّعقيد جاءهم من تفسير ما فى العالم من تغير وانتقال من حال إلى حال ، وما فيه من وجود بعض الأشياء بعد أن لم تَكُن ، وانعدام أشياء بعد أن كانت ، أو على حَدّ تعبيرهم من تشكل المادة بأشكال مختلفة ، ويفسرون ذلك بأنهُ يحْدُث من قوانين المادة وليس من شيء غيرها ، فقوانين حَرَكَة المادة هى التى تؤثر فى العالم الذى يتطور تبعاً لتلك القوانين ، هذا هو موضع الإنكار ، لذا كان المطلوب هو حَلُ تلك العقدة لديهم ، أى أنّ محل البحث هو قوانين

---

(١) المؤمنون: ٩١ .

(٢) فصلت: ٣٥ .

(٣) قوانين حركة المادة: هى ثانى بنود قوانين المادية الجدلية " الديالكتيك " ، ولزيادة الاطلاع على تفسيراتهم وخاصة تفسيرات: ستالين ، إنجلز ، شيركوف ، جارودي .... إلخ يمكن الرجوع إلى نفس المصادر المدونة فى حاشية الصفحة (٢٢٧) .

المادة وليس تغير العالم ، وإذا حُلّت تلك العُقْدَة انتفى جميع ما ينادون به من التطور والارتقاء المادي وخلافه ، لأنّ كل تلك الأبحاث ارتكزت على عقدة قوانين المادة ، فإذا ثَبتَ أنّ هذه القوانين لَم تَأتِ من المادة لا هي من خَواصِها ، وإنّما هي مفروضة عليها فَرْضاً من غيرها أي من خارجها ، فإنّهُ يكون هناك غير المادة من يؤثر فيها ، وبذلك تبطل نظريتهم وتُحَلُ العقدة لديهم ، إذ يثبت لديهم أنّ العالم ليس سائراً تبعاً لقوانين حركة المادة ، بل سائرٌ بتَسيير من أوجَدَ له هذه القوانين وفرضها عليه فَرْضاً وأجْبَرَهُ أن يَسير بِحَسبها ، فبذلك تنتقض النظرية وتحل العقدة حَلاً جَذْرياً .

أمّا كون تلك القوانين لَم تَأتِ من المادة ، فذلك لأنّ القوانين هي عبارة عن جَعْل المادة في نِسْبَة معينة أو وَضْع معين ، فالماء مثلاً حتى يتحول إلى بخار أو جَليد ، إنّما يتحول حسب قوانين معينة ، أي حسب نسبة معينة من الحرارة ، فإنّ حرارة الماء ليس لها في بادئ الأمر تأثيرٌ في حالتِه من حيث هو سائل ، لكن إذا زيدت أو أُنْقِصَت حرارةُ الماء جاءت لَحْظَةٌ تعدلت فيها حالة التّماسُكِ التي هو فيها وتحوّل الماء إلى بُخار في إحدى الحالات أو إلى جَليد في الحالة الأخرى . فإنّ هذه النّسْبَة المُعَيّنَة من الحَرارَة هي القانون الذي يجري بحسبه تَحَول الماء إلى بخارٍ أو جليد ، وهذه النسبة أي كونُ الحَرارَة بمقدار معين لمقدار معين من الماء لَمْ تأتِ من الماء ، لأنه لو كانت منه لكان بمقدوره أنْ يُغَيِرَها وأنْ يخرُج عنها ، وإنّما هي مفروضَة عليه فَرْضاً ، فَدَلّ ذلك على أنها لَيْسَت منه قَطْعاً ، وكذلك لم تأتِ من الحَرارَة بدليل أنها لا تستطيع أن تُغَيّرَ هذه النسبة أو تخرج عنها ، وأنها مفرضة عليها فَرْضاً ، فهي ليست منها قَطْعاً ، فتكون تلك القوانين ليست من المادة .

أمّا كَوْنُ هذه القوانين ليست خاصية من خَواص المادة فلأنّ القَوانينَ ليست أثراً من آثار المادة الناتجةِ عنها حتى يُقالُ أنها من خواصها ، وإنّما هي شيء مفروضٌ عليها من خارجها ، ففي تحول الماء ليست القوانين من خواص الماء ولا من خواص الحَرارَة ، لأنّ القانون ليس تحول الماء إلى بُخار أو إلى جَليد ، بل القانون هو تحوله بنسبة معينة من الحرارة لنسبة معينة من الماء ، فالموضوع ليس التّحول وإنّما التحول بنسبة معينة من

الحرارة لنسبة معينة من الماء ، فهو ليس كالرؤية فى العين التى هى من خواصها ، بل هو كون الرؤية لا تكون إلا بوضع معين مخصوص ، هذا هو القانون ، فكون العين ترى خاصية من خواصها ، ولكن كونها لا ترى إلا بوضع مُعّين وَمَخْصوص ليس خاصية من خواصها وإنّما أمْرٌ خارج عنها ، والنّار من خواصها الإحْراق ، ولكن كونها لا تحْرِقُ إلا بأحْوال خاصة ليس خاصية من خواصها بل هو أمر خارج عنها ، فخاصية الشيء هى غَيْر القواين التى تُسَيره ، إذ الخاصية هى ما يعطيه الشيء نفسه وينتج عنه : كالرؤية فى العين وكالإحراق فى النّار وما شابه ، ولكنّ القوانين التى تُسّيِرُ الأشياء هي : كون الرؤية لا تحصل من العين إلا بأحوال خاصة ومخصوصة وكون الإحراق لا يحصل من النّار إلا بأحوال خاصة ، وكون الماء لا يتحول إلى بُخار أو إلى جَليد إلا بأحوال مخصوصة ، وهكذا . . . . . .

وبما أنه ثبت أنّ هذه القوانين ليست من المادة ولا خاصية من خواصها فتكون آتية من غيرها ومفروضة عليها فَرْضاً من غيرها ومن خارجها ، وبذلك يثبت أنّ غير المادةِ هو من يؤثر فيها ، وبذلك يثبت بطلان نظرية الماديين عامة والشيوعيين خاصة لأنه ثبت أنّ العالَمَ ليس سائراً تبعاً لقوانين حركة المادة بل هو سائر بتسيير من أوجد هذه القوانين وفرضها عليها فَرْضاً ، فيكون العالم بحاجة لمن وضع هذه القوانين وفرضها عليها فرضاً ، وما دام بحاجةٍ إلى من فَرَضَ عليه هذه القوانين ، فالعالَمُ ليس أزَلياً ، وما دام ليس كذلك فهو مخلوق ، لأنّ كونه ليس أزَلِياً يعنى أنهُ وُجِدَ بَعْدَ أن لم يَكُن فهو مخلوق لخالق ، وهذا الأزلى الخالق هو مدلول كلمة الله سبحانه وتعالى . نعم : إنّه الله تعالى الخالق المُصَوِرُ المُدَبِرُ الذى لا يمكن إلا أن يكون أزلياً سَرْمَدِياً واجِب الوجود [1] .

---

(١) إنّ هذا البحث مقتبس من عدة مصادر ، يمكن لمن شاء الرجوع إليها ، وهي : - تقى الدين النبهاني ، التفكير - نظام الإسلام - الشخصية الإسلامية . - محمد محمد إسماعيل ، الفكر الإسلامي . - سميح عاطف الزين ، لمن الحكم؟ ، طريق الإيمان . - محمد حسين عبد الله ، مفاهيم إسلامية . - جون كلوفر مونسما ، الله يتجلى فى عصر العلم .

الفصل الثانى

خلق الإنسان فى نظر الإسلام

لقد كرّم الله الإنسان ، وجعله أرقى المخلوقات على الإطلاق ، كَرّمَهُ بالعقل وحُسْنِ الخَلْق والخُلُق . . . كَرّمَهُ بالعقل المميز بين الخطأ والصواب والحَق والباطل . . . وبناء عليه فقد كَلّفَهُ بالعبادة وغيرها من الواجبات . . . كَرّمَهُ بحسن الصورة وجمالها . . . قال تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1]

وليس الإنسان فى مفهوم الإسلام أى من النظرات الثلاثة التى عَرّفَه بها الفكر البشري :

ليس الإنسان حيواناً كما يقول الماديون فى علومهم الاجتماعية .

ليس الإنسان آثماً بحكم الوراثة كما تقول بعض الديانات .

ليس الإنسان مجبور التناسخ كما تقول البوذية والهندوكية [2] .

لا ، ليس الإنسان أياً من تلك الأوصاف التى يلصقونها به ، والتّعاريف التى يعرفونه بها . بل هو الإنسان المخلوق فى أحسن تقويم ، الإنسان المُسْتَخْلَف فى الأرض ، الممتاز عن كل ما خَلَقَ الله فى الكون ، إنّه الإنسان الذى كَرّمَهُ الله بالعقل وفتح له آفاق الحياة . . . كرمه بالعقل والتميز وكرمه بهدايته النّجدين .

وكما يقرر الإسلام أنّ الإنسان هو مادة مخلوقة مميزة ، وأنّ الفرد ليس من صنع المناخ أو البيئة أو العادات ، فكذلك يقرر أنه ليس مجرد ظاهرة اجتماعية فى وجوده المادي ، أو طفرة[3] متطوّرة ، بل أنه مخلوق له كيانه الذاتى الخاص ، وله رابطته مع

---

(١) التين : (٤) .

(٢) أنور الجندي ، مفاهيم العلوم الاجتماعية ، بتصرف .

(٣) طفرة : وثبة .

الجماعة فى نفس الوقت ، وله العقل والإدراك الذى يُمَكِّنُهُ من أن يُمَيِّزَ الخبيث من الطَيِّب ، لذا فقد حَمَّلَهُ الأمانة ، وَكَلَّفَهُ بالعبادة ، وأَمَرَهُ بالتفكر والتَعَمُّقَ والاستْنارة والكِياسَةَ والفِطْنَة ، وحَثه على إعمال العقل فى الموجودات للاستدلال من خلال ذلك بصفته مخلوقاً عاقِلاً مُمَيزاً على وجود الخالق المُدَبِر ، ليكون هذا الإيمان الآتى عن دليل : ثابتاً وراسِخاً وقَطْعِياً .

إنّ الإسلام يُقدِمُ الإنسان فى أجْمَلَ صورة وأبْدَعها ، فهو فى نظر الإسلام ليس حَيَواناً ، وهو أيضاً ليس آثِماً بحُكْم الوراثة ، كما أنه ليس شَيْطاناً ، وليسَ مَلاكاً ولا إله ، وليس ابن الرّب ولا ثالث ثلاثة .... كلا إنّهُ ليس أى من تلك الأوصاف التى يصفونه بها ، إنّما هو الإنسان المخلوق فى أحْسَن صورة وأصَحَّ قامة وأجْمَلَ قَد ، خليفة الله على الأرض ، وهو من سُخِرَت له المخلوقات جميعاً ، وذُلِلَت له الآرْضَ بجبالها وأنهارها وبحارها وسهولها وقفارها ، فالإسلام يضع الإنسان فى موضعه الصحيح اللائق به ، وفى ذلك قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[1]

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾[2]

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[3]

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[4]

---

(١) التين : (٤) .
(٢) ص : (٧١ - ٧٢) .
(٣) الإسراء : (٧١) .
(٤) التغابن : (٧) .

إنّ الإسلام لم يُمرِغْ الإنسان فى الوَحل كما مرغته الجاهلية الحديثة . . . ولم يمتهن من كرامته ولم يُنْقِص من قَدره . . . نعم: لقد أشار إلى حقيقة منشأه وتكونه وخلقه ، إنّما ليس كما أشارت الدارونية ، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ** ﴾[2] وليس بعد هذا حقارة فى المنشأ . . . إنّه الطين المتعفن والماء المهين ، ولكن: ما الإيحاء الذى يعطيه التّوجه الإيماني؟ إنّه لا يدلى بتلك الحقائق "وهى حقائق نهائية قاطعة لأنها أتت من المصدر الأوحد الذى يعلم دقائق الأمور عن يقين" . . . لا يوحى بتلك الحقائق ليوحى بحقارة الإنسان ، أو ضآلة قدره ودوره فى الحياة ، مما أوحت به الدارونية إلى أتباعها الذين صاغوا كل التفسيرات الحيوانية للإنسان . . . إنّما يُرْدِف ذلك بالحقائق الأخرى المكملة لها ، حقائق التّفضيل وحسن التصوير والاختيار للأمانة الكبرى: أمانة الخلافة فى الأرض . فتعمل هاتان الحقيقتان معاً لربط هذا الكائن الإنسانى بالله ، وصيانته فى نفس الوقت من الغرور المُرْدى والتّمَرُد الذميم[3] .

إنّ الإنسان فى تصوير ووصف الإسلام له ، ومن خلال فهم واقعه: هو مادة فقط ، وهذه المادة المخلوقة لها صفات خاصة ، فهو مكون من قبضة طين منفوخٌ بها روح الله ، وفى هذه النّفخة سر الحياة ، [4] إذ بدونها يبقى إنسان مجرد مادة ومادة فقط ، والاثنتان مرتبطتان إحداهما بالأخرى ممتزجتان متزاوجتان غير منفصلتين ، فهو ليس مادة وكفى فيهبط إلى مستوى الجماد ، وهو ليس بلا عقلٍ فيهبط إلى مستوى الحيوانات والحشرات والديدان ، وهو ليس روحاً فيؤله أو يتأله ، بل هو مزيج دقيق ، مخلوق مادى كَوّنَه الله وصوره فأحسن تصويره من طين نُفِخَ فيه روح الله التى هى سر الحياة ، ومُزَيّن عن باقى الخَلق بأنّ الله تعالى قد أنعم عليه بالعقل المميز ، ومع أنّ الله

---

(١) الحجر: (٢٦) .

(٢) المرسلات: (٢٠) .

(٣) محمد قطب ، جاهلية القرن العشرين ، صفحة (١٩٣) ، بتصرف .

(٤) الروح: كلمة لها مدلولان ، الأول هو إدراك الإنسان لصلته بالله تعالى . والمدلول الثانى وهو المقصود فى الفقرة: سر الحياة

قد زينه بالعقل ورفع به مستواه عن باقى المخلوقات ، إلا أنه قد وضعه أمام امتحان عظيم ، سيحاسب عليه يوم القيامة - إمّا شاكراً تلك النعمة ، وإمّا كفوراً بها - وفى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[2] ، قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾[4] .

لقد مَنّ الله على الإنسان إذ وهبه العقل ، كما وهبه السّمع والبصر والفؤاد فهداه النّجدين وعلمه وأدبه وأرشده محسناً تعليمه وتأديبه وإرشاده ، لذا فقد هيأه الله لحمل الأمانة وللخلافة فى الأرض ، فهو عنصر فعال فى الأرض ، وهو كيان متميّز ، مُزَيّنٌ بالعقل والحس والإدراك ، وليس مجرّد مادة تافهة وُجِدَت صُدْفَة تتحكم بها عناصر الطبيعة وتعصف بها حتمياتها ، تُحَركه الصدف ويعبث به تعاقب الليل والنهار ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّها ﴾[5] ﴿ واللهُ أخرَجَكُم من بُطون أمهاتِكُم لا تعْلَمونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ والأَفْئدَةَ لَعَلّكُم تَشْكُرون ﴾[6]

وبناء على ما حباه الله من نعمة العقل والإدراك والتمييز ، وبما أنه أرفع المخلوقات شأناً عند خالقها ، وبعد أن دعاه الله إلى أن يُنْعِمَ النّظَرَ والتّدقيقَ فى الموجودات جَميعاً وما حولها وما يتعلق بها من سُنَنٍ وقَوانينَ وأمورَ حياة ، لِيَسْتَدِلّ بها على وجود الله تعالى كخالِق ومدبر لهذا الكَوْن ، فلا بُدَّ أن يَحْصل من إمعان النَّظَر والتَّأمُل والتّفَكُرَ فى

---

(١) الشمس : (٧ - ١٠) .
(٢) البلد : (٨ - ١٠) .
(٣) الإنسان : (١ - ٣) .
(٤) القيامة : (٣ - ٤) .
(٥) البقرة : (٣١) .
(٦) النحل : (٧٨) .

المَوْجودات والقوانين إيمانٌ راسخٌ هو إيمان المُسْتنير المُتيَقِن الذى نَظَرَ ونَظَرَ وفَكّرَ وفَكّرَ بعُمْقٍ واستنارةٍ ثُمَّ وَصَلَ نتيجةَ النّظَرَ والتّفْكير إلى القَطْع واليَقين بالله جَلّت قُدْرَتُهُ ، فَكانَ ذلكَ اعتقاداً جازماً لا يُخالِطَهُ أدنى شَك أو ارتياب ، فالإسلام قَدْ أعطاه البَراهين الدامغَة مَصحوبَة بالأجْوِبَة المُقْنِعَة لِكُلِ استفساراته ، فَعَمَدَ إلى حَل عُقْدَة الإيمان عِنْدَهُ حَلاً يُوافِق الفِطرَة ، يملأ العَقْلَ اقتناعاً والقَلب طَمَأنينة ، وبما أنّ الإنسان قد توصل بالدَليل العقلى أنه مخلوق لِخالِق ، وأنّ هذا الخالِق هو موجِبُ الوُجودِ ومُدَبره ، وبما أنه أرفع المخلوقات شأناً عند خالقها ، وَجَبَ أن يُكَلّفَ هذا الرّفيع الشأن بالمُهمّة الشاقة :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾[١]

وبناء على حمل الأمانة ، وحتى يتمكّن الإنسان من الاستمرار فى ذلك والنّجاح فيه ، فقد سَخّرَ الله تعالى كل المخلوقات له من جمادٍ وحيوان :

﴿ اللَّهُ الَّذِي سخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢] .

وذلك أنّ الله تعالى الخالق الحق قد مَيّزَ الإنسان بأن حَباهُ العقل ، فهو بالعقل قد تَفَرّدَ عن سائر المخلوقات ، وهذا التّفرد لم يخلقه الله عبثاً ولا باطلاً ولا عشوائياً بلا قصد ، وإنّما خلقه بالحق لأمرٍ عظيم وجليل ، وهو تهيئة الإنسان لتلقى التّكليف الإلهى دون مخلوقات الله جميعاً ، وجعل العقل مناط التّكليف ، وجعله قادراً على إدراك هذا التكليف ، والقيام بتبعاته ، سيما وأنّ فى هذا العقل صفة الاعتزاز بالذّات ، ولهذا فإنّه عندما عُرِضَ عليه التّكليف كما عُرِضَ على سائر المخلوقات لم يَتَوانَ فى القبول منطلقاً من اعتزازه وثقته بنفسه وقدرته ، فَقَبِلَ التّكليف ، واستعدَّ لتحمل

---

(١) الأحزاب : (٧٢) .
(٢) الجاثية : (١٢ - ١٣) .

تبعاته ، لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً** ﴾[1]

ولولا اعتزاز الإنسان بعقله وثقته بنفسه وبقدرته لأحجم عن القبول ، ولأدخَلَ نفسه فى موكب الكون السائر بطاعة الله والانقياد له دون هذا التكليف ، ولكن الله علاّم الغيوب ، وقد خلق العقل وخلق قدراته شاء له أن يقبل هذا التكليف ، فقد خلقه فى حالة تمكنه من حمل هذا العبء إن هو أراد فانطلق من قاعدة الانقياد والطاعة لله ، فإن هو فعلَ ذلك بقى فى موكب الحق ، بل واستحق أن يتسنّم الذروة فيه ، وإلا خرج عنه إلى غضب الله وعقابه .

إنّ عقل الإنسان انطلق من قاعدة الانقياد والطاعة لله ، فعندما عُرِضَ عليه الإسلام قَبِلَهُ واستسلم لخالقه بالطاعة ، فكان عقلاً مُسْتَنيراً واعياً مُدْرِكاً لِمَسْؤولِياته ، ناهِضاً لتحمل تبعات ما قَبِلَهُ ، هذا العقل هو عقل الإنسان المُسْلِم ، وهو بهذا القبول قد بقى ضمن موكب الكون الحق ، بل كان رائِداً فيه .

ومن العقل من أعماه الاعتزاز والثقة بالنفس وبقدرته فلم ينطلق من قاعدة الانقياد لله والطاعة له ، وإنّما استكبر وتطاول وجمح به الغرور ، وهذا العقل هو عقل الإنسان الكافر ، فأتعس هذا العقل صاحبه ، وأورده موارد التهلكة ، فخرج هذا الكافر باستكباره وتطاوله وجموحه على موكب الكون إلى غضب الله وعقابه ، إذ أن الأرض ومن فيها وما عليها ، والشمس وضوءها ، والقمر ونوره ، وسائر الأجرام التى نعرفها وندركها وتلك التى قصرت عقولنا عن معرفتها وإدراكها كلها بلا استثناء تسير معاً فى موكب كونى خاضع مطيع ، يسبح الله ويسجد له وينقاد إليه ويطيعه ، فى مقدمة هذا الموكب **الإنسان المسلم وعقله** ، ولم يتخلف عنه سوى **الإنسان الكافر وعقله** ، فهو وحده هو النّشاز فى هذا النّسَقَ الكونى البديع ، يصاحبه ويرافقه إبليس والكفار من الجن ، قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي**

---

(١) الأحزاب : (٧٢) .

السَّمَاوَات وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاء ﴾[١] .

إنّ مفارقة الكفار لهذا الموكب الكوني ، هذه المفارقة والمباينة وصفها رب العزة الخالق تعالى بأقبح وصف وأرذله بقوله تعالى: ﴿ إنّما المُشْركونَ نَجَسٌ ﴾[٢] ولَم يَردُ فى الآيات القرآنية ذكر النجاسة إلا مرّة واحدة فحسب هى هذه المرّة ، أطلقها الله سبحانه وتعالى على المشركين ، وحيث أنّ الكون مخلوق على الطهارة ، فإنّ وصف الكفار بالنّجاسة أبلغ رد على مغايرتهم لما عليه الكون ، وخروجهم على خطه ومنهاجه مما يستوجب نبذهم تماماً كما تنبذ النجاسات ، فالكفار من الإنس والجن هم حالة النشوز فى هذا الكون [٣] .

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يفاضل بين مخلوقاته ، فقد فَضَّلَ الإنسان على سائر المخلوقات ، بل أنهُ قد جعل مخلوقاته فى الأرض والسموات مُسَخَّرَة لهذا الإنسان الكريم ، فالموكب الكونى الحق تسير فيه مخلوقات الله بالحق ما عدا الكفار من الإنس والجان ، فى مقدمة هذا الموكب وعلى قمته الإنسان المسلم المؤمن بالله الخالق [٤] .

وليس معنى تكريم الله للإنسان رفعه عن مستواه ، كما أنه لا يخفضه عن مكانته الصحيحة ، فالإسلام يقرر مكانة الإنسان على الأرض داخل هذا الموكب الكوني ، ويؤكد حق استخلافه وأمانته ، ومسؤوليته الفردية مما يستوجب البعث والجزاء ، لذا فقد وقف الإسلام إزاء الإنسان موقفاً مخالفاً لكل الفلسفات والعقائد الأخرى ، وأقام

---

(١) الحج : (١٨) .

(٢) التوبة : (٢٨) .

(٣) ومع هذا نرى أحد من يدعى العلم من أصحاب العمائم والزى المميز ، والعلم منه براء ، يعلن فى إحدى الفضائيات العربية عن تورعه عن إطلاق لفظ الكفر على اليهود والنصارى الكفار بنص القرآن فى عدة مواضع منه ، مدعياً أن إطلاق لفظ الكفر عليهم لم يرد فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة !! نفاقاً وولاء للكفار . اللهم إنا نبرأ إليك مما فعل ويفعل السفهاء منا .

(٤) عويضة - محمود عبد اللطيف ، حمل الدعوة الإسلامية واجبات وصفات ، صفحة (٨ - ١٠) بتصرف .

مفهومه على أساس تكريم الإنسان صاحب العقل المستنير الذى آمن بربه خالقاً لهذا الكون ، هذا الإنسان الداخِل فى موكب الكون السائر بطاعة الله والانقياد له ، إذ قد قبل تكليف الله تعالى له بحمل الأمانة والاستخلاف فى الأرض ، فنظر الإسلام له بوصفه مخلوقاً مزيناً بالعقل والإدراك سائراً فى طاعة الله ، أى بوصفه كياناً متكاملاً متميزاً .[(١)]

لقد خلق الله الإنسان وميزه عن الحيوان ، إذ وهبه عَقْلٌ يفكر به ، ويحكم به على الواقع ، وجعله يستطيع تصور الواقع الماثل أمامه ، وحتى الواقع الذى لم يقع عليه حسه ، إذ يمكن أن نتصور وببساطة متناهية كيف يصلى الناس فى المسجد الحرام ويطوفون بالبيت العتيق ويسعون بين الصفا والمروة علماً بأنّ أجسامنا هنا ، كما يمكننا أن نتصور الهلع والفزع والفوضى والتخبط الذى استولى على حكام الولايات المتحدة قبل العوام من شعبهم إثر حادث الحادى عشر من أيلول فى نيويورك وواشنطن ، كاشفين البرقع الشفاف من الجبروت الزائف الذى يخفى جبن الكفار وحرصهم على الحياة ، كما يمكننا أن نتصور واقع الحرب الصليبية الحاقدة التى شنها الكفار على المسلمين فى أفغانستان ، بكل غل وحقد وخسة ونذالة ، وصمود المسلمين هناك أمام حرب الإبادة الغاشمة التى شنها عليهم أصحاب الفيل من الكفار الصليبيين ، وأحلافهم من حكام المسلمين ومن بقية دول الشرك والكفر الحاقدين على المسلمين وإسلامهم . وقبلها حصار القوات الصليبية الغازية للعراق ومسلسل القهر والإذلال والتجويع والإبادة الذى أعقبه ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، والحصار الاقتصادى والإذلالى على المسلمين بالعراق وليبيا والسودان تحت ستار الشرعية الدولية الصليبية ، ونحن هنا لم نشاهد ذلك ولم نراه ، كما نتصور وحشية ونذالة وخسة المجازر المتتالية التى نفذها الصليبيون وأتباعهم المدعوون "تحالف الشمال" فى أهل البلاد بعد أن استتب لهم الوضع هناك وبالأخص المجازر التى نفذت فى الأسرى العزل خلافاً لكل

---

(١) الجندى -أنور ، شبهات التغريب فى غزو العالم الإسلامي ، صفحة (٣٢١) . بتصرف .

الأنظمة والمواثيق ، وسكوت العالم أجمع على ذلك بما فيهم حكام المسلمين ، ونحن هنا لم نشاهد ذلك ولم نراه . كما يمكننا وببساطة متناهية أن ندرك الموقف الجهادى البطولى الذى وقفه الرجال المجاهدون فى مخيم جنين المنكوب بالتصدى وبإمكاناتهم المحدودة لجيش الغزاة فى نيسان الأسود معطلا دخولهم المخيم ما يزيد على عشرة أيام ، موقعا بهم الخسائر ، وأن نتصور الرعب الذى استولى على جند الكفر اليهود الجبناء المزود بأعتى وأفتك الأسلحة ، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾[1] .

لذا يمكننا أن ندرك وببساطة متناهية واقع فساد تعريف الإنسان أنه حيوان عاقل !!!! وأن يترجم حسب ما يقصده الكفرة على أنه حيوان ذو دماغ - أى مراكز ذاكرة وإحساس - لقد كرّم الله الإنسان فلم يسمه حيواناً لأنه ليس بحيوان ، ولكن الكافرين لا يعقلون ، ولو كانوا يعقلون لما ألصقوا بأنفسهم صفة الحيوانية ، علماً بأنّ مجرد تسميته بأنه حيوان يعنى زوال الكرامة الإنسانية ، ومن هنا أتى حكم الشّرع - كما فهمه الفقهاء المسلمين - عنيفاً على من ينادى غيره بقوله: يا حمار ، يا حيوان ، يا قرد ، ياكلب .... إلخ سواء بسواء كمن ينادى غيره: يا كافر ، يا مرتد ، يامشرك .... باعتبار كل من الحالتين معصية [2] .

---

(١) (الحشر: ١٣ ، ١٤) حيث أهدى هؤلاء المجاهدون الأبطال بطولتهم إلى كافة قادة وحكام وجنرالات المسلمين ، والرويبضات من مثقفونا المدعون بعدم استطاعة تلك الدول وجيوشها على نزال وقتال اليهود الجبناء رغم الترسانة الضخمة من الأسلحة المكدسة فى مخازنهم ورغم الجيوش الجرارة التى فى بلاد المسلمين . وليثبتوا للعالم أجمع أن دويلة يهود هى أوهى من بيت العنكبوت ، وأن مصير جميع الدويلات والإمبراطوريات القائمة فى العالم صغيرها وكبيرها بما فيها إمبراطورية الشر أمريكا قريبا إلى زوال بهمة الرجال وقوة إيمانهم ، ولكن ذلك لن يتحقق إلا بالجهاد يعقد راياته خليفة المسلمين .

(٢) التطور والإنسان ، صفحة (١٥١) .

الفصل الثالث

خَلْقُ الإنسان فى نصوص القرآن

إنّ القرآن الكريم - وهو المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامى - قد تناول قصّة خَلْق الإنسان ، ابتداءً من خلق جد البشرية آدم عليه السلام ، وهو أول البشر على الإطلاق ، مروراً بمن خُلِقَ بعده من البشر ، وصولاً إلى محمد عليه الصلاة والسّلام وأمته الكريمة ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وإلى أن تكف الشمس والقمر عن الدوران ، فألقى ظلالاً من نور ينير ظلام قلوب النّاس .

وفيما يلى من بحثنا سننعم فى هذا الفصل إن شاء الله بدراسة بعض تلك النصوص الكريمة ، والتّمعن فيها حتى تتضح الصورة ، ويزهق الحق الباطل ، فأمّا الزبد فيذهب هباءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

١- خلق آدم عليه السّلام

تبدأ قصة خلق آدم عليه السّلام ، أو واقعة خلق الإنسان الأول أبى البشر ، بمحاورة بين الله تعالى وملائكته ، ومن هنا تبدأ أول قصّة البشريّة وخلق الإنسان . تبدأ بإعلان ميلاد الإنسان وخلقه خَلْقا مباشِراً ومتقصداً ، لا وجودَ للصدفة العشوائية ولا للتطور من البهيميّة إلى البشريّة ، كما أنه ليس طفرة من طفرات الطبيعة ، واحتفالاً بمولد الإنسان ، وتعظيماً لقدرة الخالق المبدع الذى صوره ، فقد أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لأول البشر ، وقد سجدوا جميعاً إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

ومن هنا يرى بعض الفقهاء ، أنّ الإنسان ليس أفضل من كل الموجودات فقط ، بل هو أفضل من الملائكة أيضاً [١] . إذ هو متميز عنهم فى الخَلق ، فأمرهم بالطاعة والخضوع له حين أمرهم بالسجود له .

لقد استخلف الله الإنسان فى الأرض ، وحتى يتحقق له هذا الاستخلاف فلا بُدّ له من أن يُمَكّنَ من استعمال الوسائل الماديّة التى تحقق له هذا الأمر ، فقد سُخِرَت له الموجودات الكونية جميعها ، وَهُيأت له الأرض وَذُلِلَت لتكون طوع تصرف الإنسان : يزرعها لتنتج له ما يأكل ، ويبنى عليها بيت سكنه ، ويسير فى شِعابها وتلالها لمعاشِه ومباشرة أعماله ، وّسُخِرَ له البَحْرَ : يركبه بالفلك والسُّفن والقوارب ، ومنه يأكل طعامه ، كما سُخّرت النباتات والأنعام له ولمعاشه .

ولولا تمكين الله تعالى للإنسان ، وإعطاؤه السّيطرة بتسخير كل تلك الموجودات له ، لما استطاع العيش فى هذه الحَياة الدنيا ، وبالرغم من كل هذه النِّعَم التى مَنَّ الله عليه بها - وهى كثيرة لا تُعَدُّ ولا تُحصى - فإنّا نراهُ قليلاً ما يكون لله المُنعم الرازق المتفضل حامداً أو شاكراً ، بل كثيراً ما نراه ضالاً شاطاً ، كافراً بأنعم الله ، جاحِداً

---

(١) النبهانى - الشيخ تقى الدين ، التفكير ، صفحة (٥) . - سابق - سيد سابق ، العقائد الإسلامية ، صفحة (١١١) . - القرطبى - محمد بن أحمد ، الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) ، صفحة (٢٩٤) .

فضله ، [1] متبعاً خطوات الشيطان وجنده من دعاة المادّية والوثنية والإلحادية والعصبية القبلية والقومية ، كافراً بأنعم الله طوراً ومُشركاً به أطواراً ، عاصياً أوامره مُسْتَحِلاً حرماته ، متمرداً على كل النواميس والسُّنن التى سنها لهم الخالق المنعم المدبر .

يُعلمنا القرآن الكريم أنّ قصة خَلق البشرية قد بدأت بآدم عليه السَّلام ، وَسَبَقَ ذلك مُحاوَرَةٌ بين الله تعالى وبين ملائكته ، مُخْبِراً إياهم بأنهُ سيستخلفُ فى الأرضِ خَليفَة وهو الإنسان متمثلاً بادئ الأمر بآدم ، وأنه سيمكن لهم فى الأرض بإعطائهم السُّلطان عليها .

تعجب الملائكة ووجلت قلوبهم ، لقد رأى الملائكة فى أنفسهم أنهم أحق بخلافة الأرض من ذلك المخلوق المُنْتَظَر ، إذ هم يسبحون بحمد الله ويقدسونه ولا يعصونه ما أمرهم ، فلماذا يستخلف فيها من إذا تمكن فيها عصاه وأفسد فيها وبطش وسفك الدماء؟ فأجابهم العالِم العليم أنه يعلم ما لا يعلمون .

وهنا يعرض القرآن الكريم تكريم آدم الإنسان ، فهو علاوة على استخلافه فى الأرض ، قد أكرمه الله بالعقل والإدراك والتفكير ، وفضَّله على الملائكة بالعِلم ، فقد علمه الله تعالى أسماء الموجودات جميعاً ، ولمّا سأل الملائكة أجابوا : ﴿ **سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إلا ما عَلَّمْتَنا** ﴾[2] فالله تعالى وحده هو عالِم كل شىء ، ذو الحكمة والعِلم ، وليس لأحد كان أن يعلَم إلا ما علمه الله .

عندها طلب من آدم أن ينبئهم الأسماء ، فلما طلب منه ذلك أخبرهم آدم بجميع الأسماء ، وذلك ما يُظْهِرُ فضل آدم عليهم بزيادة علمه عنهم ، وهنا يذكرهم الله أنه يعلَم ما لا يعلمون ، وأنّ له حكمة أرادها فى خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض ، فالله تعالى عليم بكل الخفايا والأسرار وبواطن الأمور ، عليم بما يُظهرون بالقول

---

(١) حتى بلغ الكفر والصفاقة والوقاحة فيه أن تبجح الصليبى " ريجان " الرئيس السابق للولايات المتحدة ، على ما تناقلت وسائل الأعلام ، بعد الحرب الصليبية التى شنوها على العراق ، بالادعاء بأنهم هم الذين يتحكمون بالقدر!!!

(٢) البقرة: (٣٢) .

والفعل ، وبما قد يكتمونه فى أنفسهم .

إنَّ تعليم آدم الأسماء لا يقتصر على المسميات نفسها ، بل هو تَعليمٌ وَتَثْقيفٌ عام بكل المخلوقات والموجودات وكيفيّة الاستفادة منها ، وَتَعْليمٌ بِصِفات الأشْياء وَخواصِها وطرق الاستفادة منها حيث هى مسخرة لـه ، فهو عِلْـمٌ عام شامِلٌ يحوى الأسماء وصفاتها [1] . فى ذلك يقول العلامة تقى الدين النبهاني : وأمّا قوله تعالى ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا** ﴾[2] فإنّ المراد منه مسميات الأشياء لا اللغات ، أى علمه حقائق الأشياء وخواصها ، أى أعطاه المعلومات التى يستعملها للحكم على الأشياء)[3]

وهنا لا بد لنا من معرفة أنّ الإنسان يختلف عن غيره من المخلوقات بالعقل أى القدرة على التفكير ، والتفكير حكم على ماهية شيء أو حكم على واقع ، وحتى يتم هذا التفكير بصورة تعطى الحكم الصادق الصحيح لَزم أن يستكمل هذا التفكير الشروط اللازمة لـه ، فعملية التفكير تجرى بنقل الواقع المحسوس إلى الدِّماغ بواسطة إحدى الحواس مع ضرورة وجود معلومات سابقة عند الإنسان المُفَكر تفسر ذلك الواقع ، فإذا انعدمت إحدى تلك الأساسيات لا يتم الحكم على الواقع أو على الشىء بالصورة الصحيحة ، **وعناصر التفكير أربعة :**

١ . دماغ صالح .

٢ . واقع محسوس .

٣ . حواس .

٤ . معلومات سابقة .

وبما أنّ الله تعالى قد وَهَبَ آدم الدّماغ الصالح والحواس ، وَأَوْجَدَهُ فى واقع معيّن ، لذا لزم أن يُزَوِدَهُ الله تعالى بالمعلومات "الأسماء وصفاتها وخواصها" حتى تتم عمليّة

---

(١) تفسير ابن كثير ، المجلد الأول ، صفحة (٧٤) . بتصرف .

(٢) البقرة : (٣١) .

(٣) النبهانى -الشيخ تقى الدين ، الشخصية الإسلامية ، الجزء الثالث ، صفحة (١١٧) .

التفكير للحكم على الأشياء والوقائع . لذا فقد علّم الله آدم كلها .

إنَّ قصَّة خَلق آدم وما رافقها من وقائع وأحداث ، قد وردت مفصلة فى القرآن الكريم فى عدة مواضع ، شارحة ومفصلة ، معلمة إيانا ، مبينة لنا وقائعها الحقيقية ، طالبة منا الاعتقاد الجازم بها ، فإلى النُّصوص القرآنيّة التى تقص علينا ذلك ، قال تعالى :

١ . من سورة البقرة .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾[1]

٢ . من سورة الأعراف .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾[2]

جاء فى الظلال : (إنّ الخَلق قد يكون معناه : الإنشاء والتّصوير ، وقد يكون معناه : إعطاء الصورة والخصائص . . . وهما مرتبتان فى النشأة لا مرحلتان . . . فإنّ "ثُمّ" قد لا تكون للترتيب الزمنى ولكن للترقى المعنوي ، والتّصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود فالوجود يكون للمادة الخامة ، ولكن

(١) البقرة : (٣٠ - ٣٤) .
(٢) الأعراف : (١٠ - ١١) .

التّصوير بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص - يكون درجة أعلى من درجات الوجود . فكأنه قال : إننا نمنحكم مجرد الوجود ، ولكن جعلناه وجوداً ذا خصائص راقية ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾[1] وعلى أية حال فإنّ مجموع النصوص القرآنية فى خلق آدم عليه السلام وفى نشأة الجنس البشري ، ترجح أنّ إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه . وأنّ الترقى فى تاريخ الإنسان كان ترقياً فى بروز الخصائص ونموها وتوزيعها واكتسابها الخبرة العالية . **ولكن لم يكن ترقياً فى وجود الإنسان** من تطور حتى انتهت إلى الإنسانيّة كما تقول الداروينية .

ووجود أطوار مترقية من الحيوان تتبع ترتيباً زمنياً - بدلالة الحفريات التى تعتمد عليها نظرية النشوء والارتقاء - هو مجرد نظرية ظنية وليست يقينية ، لأنّ تقدير أعمار الصخور ذاته فى طبقات الأرض لا يتم إلا ظناً !! أى مجرد فرضٍ كتقدير أعمار النجوم من إشعاعها . وليس ما يمنع من ظهور فروض أخرى تُعَدِلها أو تُغيرها أو تنسفها نَسْفاً . على أنه - على فرض العلم اليقينى بأعمار الصخور - ليس هناك ما يمنع من وجود أنواع من الحيوان فى أزمان متوالية بعضها أرقى من بعض . . . ثم انقراض بعضها . . ولكن هذا لا يحتم أن يكون بعضها متطور من بعض . . . لاتستطيع أن تثبت فى يقين مقطوع به أنّ هذا النوع تطور تطوراً عضوياً من النوع الذى قبله من الناحية الزمنية - وفق شهادة الطبقة الصخرية التى يوجد فيها - ولكنها تثبت أنّ هناك نوعاً أرقى من النوع الذى قبله زمنياً . . . وعندئذٍ تكون نشأة النوع الإنسانى نشأة مستقلة ، فى الزمن الذى علم الله أنّ ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقى لهذا النوع ، وهذا ما ترجحه النصوص القرآنية فى نشأة البشرية ، وتفرد الإنسان

---

(١) طه : (٥٠) .

من الناحية البيولوجية والفسيولوجية والعقلية والروحية . هذا التفرد الذى اضطر الداروينيون المحدثون "وفيهم الملاحدة بالله كلية" للاعتراف به ، دليل مرجح على تفرد النشأة البشرية ، وعدم تداخلها مع الأنواع الأخرى فى تطور عضوي)[١] .

وقال ابن كثير : (وذلك أنه تعالى لمّا خلق آدم عليه السّلام بيده من طين لازب ، وصَوَّرَهُ بشراً سوياً ونفخ فيه من روحه ، أمر الملائكة بالسّجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله ، فسمعوا كلهم وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، وهذا الذى قررناه هو اختيار "ابن جرير" أنّ المراد بذلك كله آدم عليه السلام . وقال سفيان الثورى عن الأعمش بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ﴾ قال : خلقوا فى أصلاب الرجال وصوروا فى أرحام النساء . . . ونقل ابن جرير عن بعض السّلَف أيضاً أنّ المراد بخلقناكم ثم صورناكم : الذُّرِيَّة)[٢] .

وقال الأستاذ عبد الوهاب النّجار : (**خلقنا أصلكم الذى نسلكم وكنتم من أبنائه ، فَخَلَقْنا له خَلْقٌ لَكُمْ**)[٣] .

٣ . من سورة الحجر .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ من صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُون * وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ من قَبْلُ من نَّارِ السَّمُوم * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَة إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَال مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُون * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه من رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجدينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾[٤]

---

(١) قطب -سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، المجلد الثالث ، الصفحات (١٢٦٤ - ١٢٦٥) . ويمكن الرجوع إلى فصل "حقيقة الحياة" فى القسم الثانى من كتاب "خصائص التطور الإسلامى ومقوماته" .

(٢) تفسير ابن كثير ، المجلد الثاني ، الصفحات (٢٠٢ - ٢٠٣) .

(٣) النجار - عبد الوهاب ، قصص الأنبياء ، صفحة (٢) .

(٤) الحجر : (٢٦ - ٣١) .

الصلصال : هو المنتن من الطين . **الحمأ** : هو الطين الأسود المنتن . **المسنون** : هو المتغير . وجاء في "لسان العرب" : (الصلصال من الطين ما لم يُجعل خزفاً ، وكل ما جَفَّ من طينٍ أو فخار . والمسنون هو المُصَوَّرَ وهو المتغير المنتن . والحمأ هو الطين الأسود المنتن . من حمأ مسنون أى متغير منتن)[1]

أمّا أبوبكر الرازى فيقول : (الصلصال هو الطين الحر خُلِطَ بالرّمل فصار يتصلصل إذا جف ، فإذا طبخ بالنّار فهو الفخار ، والحمأ هو الطين الأسود ، والحمأ المسنون هو المتغير المنتن)[2]

قال الدكتور محمد البهي : (الصلصال هو الطين اليابس الذى له رنين وصوت ، والحمأ هو الطين الأسود المتغيّر ، والمسنون هو المصوّر والمصبوب ، أى صورنا هيكل هذا المخلوق المعهود من طين يابس طال اختلاطه بالماء حتى تغير واسود لونه)[3]

كما ورد فى تفسير ابن كثير : (من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام ، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون ، وقال قتاده : استلّ آدم من الطين ، فإنّ آدم عليه السلام خُلق من طين لازب وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ** ﴾[4])[5] .

١ . من سورة الكهف .

﴿ **وَإِذْ قلنا لِلْمَلائِكَةِ إسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاّ إبْليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ**

(١) ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد (١١) ، صفحة (٣٨٢) .
(٢) الرازي : أبو بكر ، تفسير الصحاح ، الصفحات : (١٥٣) و (٣٦٨) .
(٣) البهي - الدكتور محمد ، تفسير سورة الحجر ، صفحة (١٩) .
(٤) الروم : (٢٠) .
(٥) تفسير ابن كثير ، المجلد (٢) ، صفحة (٥٥١) .

أمْرِ رَبِّهِ أفَتَتَّخِذونَهُ وَذرِيَّتَهُ أولياءَ مِنْ دونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌ بِئْسَ للظالمينَ بَدَلاً ﴾[١]

٢ . من سورة "ص" :

﴿ وَإذ قالَ رَبُّكَ للمَلائكَةِ إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طين * فَإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَختُ فيهِ مِنْ روحي فَقَعوا لهُ ساجدينَ * فَسَجَدَ المَلائكَةُ كُلهمْ أجْمَعونَ * إلاّ إبْليسَ اسْتَكبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ ﴾[٢] .

٣ . من سورة المؤمنون .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقنا الإنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طين ﴾[٣]

وفيما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال :

«إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، منهم الأحمر والأسود والأبيض وما بين ذلك ، ومنهم الحزن والسهل وبين ذلك ، وإنّما سمى آدم لأنه من أديم الأرض»[٤] .

---

(١) الكهف : (٥٠) .
(٢) ص : (٧١ - ٧٤) .
(٣) المؤمنون : (١٢) .
(٤) رواه مسلم فى صحيحه .

٢- إبليس ومعركته مع الإنسان

سأل الله تعالى إبليس عن سبب امتناعه عن السجود لآدم ، وقد أمره الله بذلك ، فكان تعليل إبليس لذلك يتضمن الغطرسة والكِبْرَ والغرور والجموح ، معللاً تمرده وعصيانه وخروجه من موكب الكون الحق السائر بطاعة الله والانقياد له أنّ أصل نشأته خير من أصل نشأة آدم ، فإبليس قد خُلق من نار ، فى حين أنّ آدم قد خُلِقَ من مادة الطين ، والنّار أعلى مرتبة من الطين ، فكان تعليله لِلأمرتعليلاً مادِيًا بحتاً ، فقد تعرض فى تعليله لبحث المادة التى تمَّ منها الخلق ، غاضّاً الطرف عن أنّ أى منهم لم يقم بخلق نفسه ، ولم يكن له الرأى أصلاً فى اختيار المادة التى خلق منها ، ودون النظر فى تكريم الله لِلإنسان باختصاصه فيما لا يدخل فى مجال الجسد - أى العقل والإدراك والتمييز والعِلم - وذلك كافٍ لتفضيله على الملائكة وسائر المخلوقات .

إنّ عدم انصياع إبليس لأوامر الله الخالق المدبر ، هو عصيان وتمرد على الذّات الإلهيّة ، وصلف وتكبر وغطرسة وجرأة ، وحقّ للعاصى الظالِم نفسه أن ينال عقوبة ما أثمت يداه ، فأتى العقاب رهيباً على قدر حجم المعصية ، إذ أوعِدَ النار والخروج من الجنة ، لأنّ الجنة ونعيمها لا يكون للمستكبرين العصاة المتردين .

طلب إبليس من ربه إمهاله إلى يوم البعث والحساب ، متوعداً ذريّة آدم - التى بسبب أبيهم لحقه ما لحق من غضب الله - متوعداً إياهم بالسّعى الدائب لغوايتهم وإضلالهم بالتزيين لهم بعصيان الله وعدم حمده وشكره وتسبيحه ، فأنْظَرَهُ الله تعالى متوعداً إياه ومن تبعه من ذرية آدم بعذاب يوم عظيم .

خرج إبليس من الجَنَة حقيراً ذليلاً صاغراً مطروداً من رحمة الله ، متوعداً آدم وذريته بقيادتهم للمعاصى والآثام ، مزيناً لهم سوء الأعمال ، مبعداً إياهم ما استطاع لذلك سبيلاً عن طاعة الله ، صارفاً إياهم للشرك والإلحاد والكفر والضلال .

ويتوعد الله تعالى إبليس ومن اتبعه بالعصيان من ذرية آدم: استخف وأبعد عن الصواب من استطعت ، وأفرغ جهدك بكل ما استطعت من أنواع الإغراء . . . . .

شاركهم فى كسب الأموال الحرام وفى صرفها فى المعاصى والمنكرات . . ساعدهم وأنسالهم على الكفر ، أغرهم وزين لهم الفساد والإفساد ، زين لهم النفاق والكذب والفجور ، قدهم إلى كل باطل وضلال ، أبعدهم عن الحق ما استطعت ، ويحذر رب العزّة محذراً البشر من ذرية آدم أنه ما يعدهم الشيطان إلاّ الغرور والكذب والضلال . أمّا من أخلص من عباد الله المؤمنين فليس للشيطان عليهم من سبيل ، فلا سلطة ولا قدرة له على إغوائهم وإضلالهم إن أخلصوا النية وأخلصوا العمل وتوكلوا على الله خالقهم ومصورهم ، وكفى بالله نصيراً .

أسكن الله آدم وزوجه حواء الجنّة ، مبيحاً لهما أن يتمتعا بكل النّعم فيها ، يأكلان ويشربان كل ما تشتهى أنفسهما من ثمراتها وخيراتها ، إلاّ شجرة واحدة أمرهما ألا يقرباها ، وألا يتذوقا ثمرها ، إذ هى محرمة عليهم . وإن فعلا خلاف ذلك يكونا قد ظالمى نفسيهما بعصيانهما أمر ربهما إذا خالفا أمره ، أى أنهما قد وضعا أمام امتحانٍ يترتب عليه تقرير مصيرهما ، مما يترتب عليهما فى حالة المخالفة والعصيان جزاء وعقاب .

(لم يخبرنا النّص القرآنى ما نوع تلك الشّجرة ، فقال بعضهم : الحنطة "القمح" وقال آخرون : شجرة التفاح . وقيل : هى الكرمة ، لذا حُرّمَ علينا الخمر . وقيل هى السّنبلة وقيل هى شجرة التين . وقال ابن عطية : وليس فى شى من هذا التعيين ما يَعْضُدُهُ خبَر ، وإنّما الصّواب أنْ يُعْتَقد أنّ الله تعالى نهى آدم عن شَجَرَةٍ فخالَفَ هو إليها وعصى فى الأكل منها)[1] . وما دام القرآن لم يعلمنا ماهى تلك الشجرة الممنوعة ، فليس لنا محاولة التّكهن عن ماهيتها ، ولا يعنينا من أمرها شىء . والله تعالى أعلم .

لقد كان موضوع الشجرة المحرمة على آدم وزوجه هى أول منفذٍ لإبليس ينفذ منه إلى إغواء آدم وزوجه قبل أن يبدأ فى إغواء نسلهما مستقبلاً ، لذا فقد سُرَّ إبليس به واغتنمها فرصة إشفاء غليله بغواية عدوه آدم وزوجه ولينتقم منهما ، فأخذ يُفْرغ جهده

---

(١) تفسير القرطبي ، المجلد الأول ، صفحة (٣٠٥) .

بالتزيين لهما ، والتزلف لكليهما ، بإقناعهما بالأكل من تلك الشّجرة المحرمة عليهما .

كان من ضمن الوسائل التى توسل بها الشيطان لهما لحثهما على العصيان وسيلة الإغراءات بأنّ تلك الشجرة هى **شَجَرَة الخلد** والنّعيم المقيم الذى لا يفنى ، وأنّ منع الله لهما من الأكل منها كان لئلا يصبحا مَلَكَين ، ولئلا يخلدا فى الجنة ذات الخيرات والنعم الكثيرة ، ولكى يصدقاه فقد أقسم على أقواله بمختلف الأيمان المغلظة ، مُقْسِماً على أنه لهما النّاصح الأمين .

ومن كثرة إلحاح الشيطان عليهما ، وحتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ، فقد نسى آدم وحواء أنّ إبليس هو فى حقيقته عدوهما اللدود الحاقد إلى يوم البعث والحساب ، وأنه لا يمكن بحالٍ من الأحوال أن يكون لهما النّاصح الأمين ، فوقعا فى مكائد الشيطان عدوهما ، وعصيا أمر ربهما بأكلهما من الشّجرة المحرمة عليهما . ولّما تذوقا طعمها تكشفت لهما عورات أنفسهما ، فطفقا يجمعان من أوراق الجنّة ليواريا عوراتهما ، فناداهما ربهما مؤنباً وزاجراً لهما عصيانهما : ﴿ **أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾[1] عندها أحسّا بحجم مَعصيَتِهما وسوءَ ما قَدْ فَعَلا ، وَشَعَرا حجم معصيتهما بمخالفة أمر ربهما ، فأخذهما النّدَم الشّديد ، وتوجها تائبين مبتهلين متضرعين إلى الله ربهما أن يتوب عليهما ويرحمهما ويغفر لهما مخالفتهما وعصيانهما : ﴿ **قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾[2]

قَبِلَ الله التّواب الرّحيم تَوْبَةَ آدم وحواء فغفر لهما : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾[3] والإنسان خَطاء ، وللخطأ والعصيان - حتى الإسراف بهما وحتى الكفر - علاج هو التّوبَة . فالتوبة تغسل المعصية ، والعاصى التائب مغفور الذّنب ، فالإنسان لم يخلق آثِماً ، ولم يلاحقه إثم ما صنع أبواه ، فَأَبَواهُ قَدْ تابَ اللهُ عليهما ،

---

(١) الأعراف : (٢٢) .
(٢) الأعراف : (٢٣) .
(٣) البقرة : (٣٧) .

غَفَر لهما ذنبهما ، ولن يأخذ الله الأبناء بذنب الآباء أبداً . قال رسول الله ﷺ: «**كُلّ بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون**»(١) وذلك مطابق لقوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾(٢)

بعد أن تاب الله على آدم أنزله وزوجه حواء من الجنة إلى الأرض ، وأخبرهما أنهُ سَيَكون بين نسلهما عداء لبعضهم البعض ، وأنّ سكناهم منذ اليوم سيكون الأرض يعمرونها ويتمتعون بها مُسْتَخلفين فيها ، ومُسّخرة ومن بها ومن عليها ولذرياتهم من بعدهم ، إلاّ أنّ تلك السُّكنى فى الأرض سَتَكون إلى حين من الزّمَن ، أى أنها سَتَكون سُكنى عابِرَة لحين انتهاء أعمارهم المقدرة عليهم ، وأنّ الله سَيُزَوِدَهُم بالهُدى والرَشاد ، فمن سار على الدّرب القويم وهُدى الله تعالى فلن يقع فى المـآثِم والذُنوب ولن يشقى بها ، وسيحيون ويموتون فيها ، ومنها سَيُبعَثون يوم الحساب ، حيث سيجزى كل منهم جزاء ما قدّمت يداه ، خيراً كان أم شَراً . وسنستعرض إن شاء الله بعض النّص القرآنى لتلك الحادثة :

١ . من سورة البقرة .

﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾(٣)

---

(١) سنن الترمذي : (٢٤٩٩) .
(٢) الزمر : (٥٣) .
(٣) البقرة : (٣٥ - ٣٨) .

٢ . من سورة الأعراف .

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾[١]

٢ . من سورة الكهف .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً * مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[٢]

---

(١) الأعراف : (١٢ - ٢٥) .
(٢) الكهف : (٥٠ - ٥١) .

٣ . من سورة "ص"

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾[1]

٤ . من سورة الإسراء .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إَلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إَلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[2]

٥ . من سورة طه .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى * فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا

---

(١) " ص " : (٧٥ - ٨٣) .

(٢) الإسراء : (٦١ - ٦٥) .

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾[1] .

استعرضنا فيما مرّ قصّة آدم عليه السّلام ومعركته مع إبليس ، كما قصّها علينا رب العزة فى محكم التّنزيل ، إنها قصّة الإغواء ونوازغ الوسوسة ، ابتدأها إبليس مع أول البشر وأبيهم ، واستمرّ بها ولا زال مع ذريته ، بدءاً بقابيل وهابيل ابنى آدم ، وسيستمر بها إلى يوم القيامة ، يبين لنا النّص القرآنى وقائع الحدث بتسلسل جميل ، لا لنضيف إلى علمنا معلومة جديدة ، ولا لنزيد قصصنا قصة أخرى مشوقة ، بل ساقها إلينا لنتذكر فنعتبر ، فإبليس يعمل جاهداً لغواية البشرية ما استطاع لذلك سبيلاً ، وجنود إبليس دائبون جاهدون بهمة لا تفتر ونشاط مستمر فى إغواء البشر وإضلالهم وصرفهم عن السير فى موكب الكون الحق السائر فى طاعة الله وتسبيحه . . . فقد كذّبَ الناس الرُّسُل ، وعصوا الله ربهم ، وألحد وكفر بالله وأنعمه عليهم أناس ، وادعى النبوة والألوهية آخرون ، وآخرون أنكروا الخلق رغم شواهده الماثلة أمام أعينهم ، وآخرون عللوا وجود أنفسهم والمخلوقات جميعاً بالصّدفة العشوائية ، وعللوا النّمو والتكاثر بالتطورالمادي . . . كل هؤلاء وأولئك هم أتباع إبليس وجنوده ، كما أنّ من أتباعه الكاذب والمنافق والزانى وآكل الرّبا وموكله والعلماء المفتون بجوازه . . . ومشايخ السّلطان الذين يقولون على الله الكذب . . . وأول أتباعه وجنوده وأصفقهم وجهاً من أنكر وجود الله تعالى وأنكر الخلق وكذّب الرُّسُل .

ولا أرى موجباً فى هذا البحث المحدد الهدف أن نتناول بالتّفصيل والإسهاب شرح هذه الآيات الكريمات ، فقد أوفت كتب التّفسير كل آيات القرآن الكريم حقها من التّفسير ، فعلى من رغب الاستزادة والتّفصيل العودة إلى كتب التّفسير وهى كثيرة وفى متناول يد الجميع .



(١) طه : (١١٥ - ١٢٣) .

٣- خلق الزوجة (حواء)

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١) وَقالَ تَعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾(٢) وقالَ رَسول الله ﷺ: **«خلقت المرأة من ضلع أعوج فإن تقمها تكسرها وإن تتركها تستمع بها على عوجها»**(٣).

قال المفسرون: (لمّا أسكنَ الله تعالى آدم الجنّة كان يمشي بها وَحْشياً، (٤) لم يكن له من يجالسه ويؤانسه، فألقى الله عليه النّوم، فأخذ ضِلعاً من أضلاعه من شِقِهِ الأيسَرَ يقال له "القيصري" فخلق منه حواء من غير أن يحسَّ آدم بذلك ولا وجد ألماً، ثم ألبسها من لباس الجنَّة وزيّنها بأنواع الزّينة، وأجلسها عند رأسه، فلما هبَّ من نومه رآها قاعدة عند رأسه، فسألته الملائكة يمتحنون علمه: ماهذه ياآدم؟ فقال: امرأة، ولما سألوه عن اسمها قال: حوّاء. ولما سألوه: لمن خلقها الله؟ قال: لتسكن إلى وأسكن إليها..)(٥).

إن الله تعالى قد خلق "**حـــواء**" لتكون "**زوجَة**" لآدم، يسكن إليها وتسكن إليه. وبالتالى ليبدأ الفصل الثانى من نظام الخلق الذى سنَّهُ الله تعالى، **ألا وهو التزاوج والتناســل**، الذى فَرَضَهُ الله تعالى **القانون الوحيد الذى يتم به وحده خلق الإنسان** بعد خلق آدم وحواء، ولم يُخرج عن هذا القانون إلا "عيسى ابن مريم عليه

---

(١) الروم: (٢١).

(٢) الأعراف: (١٨٩).

(٣) العسقلاني، فتح البارى شرح صحيح البخاري، مجلد (٩: ٢٥٢). - تفسير القرطبى (١/ ٣٠٢).

(٤) أي استوحش وحنَّ إلى الرفيق.

(٥) القصة مقتبسة بتصرف من: النيسابوري، قصص الأنبياء، الصفحات (٢٩ - ٣٥). - ابن كثير، البداية والنهاية، (١/ ٧٤). - القرطبي، تفسير القرطبي، (١/ ٣٠١، ٣٠٢).

السَّلام" لحكمة أرادها الله تعالى .

لقد خلق الله الإنسان "الرَّجل والمرأة" فى فطرةٍ معينةٍ تمتاز عن الحيوان ، فكلاهما إنسان لا يختلف أحدهما عن الآخر فى الإنسانية بشىء ، ولا يمتاز أى منهما بأى امتياز من امتيازات الإنسانية مطلقاً ، لذا فقد هيأهما الله سوية لخوض معترك الإنسانية فى مجتمع واحد وجعل **بقاء النَّوع الإنسانى** متوقفاً على اجتماع الرّجل والمرأة فى مجتمع واحد ، وقد خلق الله فى كلٍ منهما طاقات حيوية هى نفس الطاقات الموجودة فى الآخر ، وأودع فى نفس كل منهما الرّغبة لإشباع جوعات وثورات تلك الطاقات ، كما أودع فى نفس كل منهما القابلية لإثارة تلك الطاقات لتتطلب الإشباع ، وأياً كان نوع تلك الطاقات فقد أودعها الله فى كليهما .

والطاقات الكامنة فى نفس الإنسان نوعان ، تبعاً لنوعية الإثارة - من داخلية وخارجية - وتبعاً لحتمية الإشباع من عدمه حين تتطلبه ، وتبعاً لما ينتج فى حالة عدم الإشباع إثر تطلبه **وهى نوعان :**

الحاجات العضوية : مثل الجوع والعطش وقضاء الحاجة .

الغرائز : التى تقسم بدورها إلى ثلاث أنواع : [غريزة التدين . غريزة النوع . غريزة حب البقاء]

والغرائز جميعها هى كامنة فى كليهما ، فهى موجودة فى المرأة كما هى موجودة فى الرّجل ، وبنفس الصفة والنوعية ، كما أنّ فى كليهما القدرة على التفكير بنفس القوة ، فالعقل الموجود فى أى منهما هو نفس العقل الموجود فى الآخر .

إلا أنَّ "بقاء النوع الإنساني" الذى هو من الأهداف العليا لصيانة المجتمع التى حافظ عليها الإسلام ، قد حُصِرَ فى اجتماع الرّجل والمرأة ؛ فغريزة النوع وإن أمكن أن يشبعها ذكر من ذكر "لواطاً" أو أنثى من أنثى "سحاقاً" ، إلا أنّ مثل هذا الإشباع - وإن تَمَّ - لا يمكن مطلقاً أن يؤدى الغاية التى من أجلها وُجِدّت تلك الغريزة فى الإنسان ، إلا فى حالة واحدة هى أن يشبعها الذكر من الأنثى وأن تشبعها الأنثى من الذكر .

لــذا فإنّ صلة الزوجية من الناحية الجنسية هي الصلة الطبيعية التي لا غرابة فيها ، والتي تمت حكمة الله تعالى أن تكون **قانون وجود النوع الإنساني** ، فهي الصلة الأصلية التي بها وحدها يتحقق الغرض من إيجاد الغريزة ، ألا وهو بقاء النوع الإنساني . فإذا وقعت بينهما هذه الصلة على شكل الاجتماع الجنسي كان ذلك بديهياً ومنطقياً وطبيعياً وبعيداً عن الغرابة ، بل كان مثل هذا الاجتماع أمراً حتمياً ولازماً لتحقق بقاء النوع الإنساني ، إلا أنّ إطلاق هذه الغريزة هو أمر مضر للإنسان وحياته الاجتماعية .

ونظرة الإسلام إلى الغرض من وجود الغريزة أنَّه : "**النّسْـل لـبقاء النوع الإنساني**" ، **لذا** فقد وَجَّهَ الإنسان لجعل نظرته لتلك الغريزة منصبَّة عل الغرض الذى وُجِدَت من أجله فى الإنسان ، وشدد على حصر النظرة بهدف بقاء النوع الإنسانى لدى كل من الرجل والمرأة ، بغض النظر عن اللذة والاستمتاع الحاصلتين طبيعياً وحتمياً نتيجة الإشباع .

وبما أنّ الإسلام يعتبر أن لا صلاح لأى جماعة إلا بتعاون أفرادها - ذكوراً وإناثاً - باعتبارهما أخوَين مُتضامِنَيْن تضامن مودة ورحمة ، لذا فقد أكّدَ الإسلام على ضرورة إيجاد مفهومٌ عند الناس - ذكوراً وأناثاً - عن كيفية إشباع غريزة النوع وعن الغاية من وجودها ، فأنشأ لهم نظاماً اجتماعياً متميزاً ، يُزيل تسلط مفاهيم الاجتماع الجنسي ، بجعلها أمراً طبيعياً وحتمياً للإشباع لأجل تحقق النسل والتكاثر ، كما يزيل مفهوم حصر تلك الصلة باللذة والاستمتاع ، وبالتالى يجعلها نظرة تستهدف مصلحة الجماعة بالتناسل والتوالد [١] .

وباستعراض بعض النصوص القرآنية التى تناولت الموضوع ، نرى أنها أتت منصبة على "**الزوجيّة**" مما يثبت أن خلق الغريزة وإيداعها فى الإنسان ذكره وأنثاه كان أصلاً

---

(١) هذا البحث منقول بتصرف عن كتاب "النظام الاجتماعى فى الإسلام" للعلامة تقى الدين النبهاني ، الصفحات (١٨ - ٢١) .

لأجل هدف سام هو: **الزوجية للنسل والتكاثر بهدف بقاء النوع الإنساني .**
قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[1]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلنا رُسُلاً مِنْ قَبلِكَ وَجَعَلنا لَهُمْ أَزواجاً وَذُرِّيَّةً ﴾[3]

﴿ وَاللهُ جَعَلَ لكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزواجاً * وَجَعَلَ لكمْ مِنْ أزواجِكمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[4]

﴿ وَمِنْ آياتِهِ أنْ خلقكم منْ تُراب ثُمَّ إذا أنتمْ بَشَراً تَنْتَشِرونَ * وَمِنْ آياتِهِ أنْ خلقَ لكمْ منْ أنفسكمْ أزْواجاً لِتَسْكنوا إليْها وَجَعَلَ بَيْنَكمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إنَّ في ذلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكرونَ ﴾[5]

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾[6]

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾[7]

---

(١) الأعراف: (١٨٩) .
(٢) النساء: (١) .
(٣) الرعد: (٣٨) .
(٤) النحل: (٧٢) .
(٥) الروم: (٢٠ ، ٢١) .
(٦) الشورى: (١١) .
(٧) النجم: (٤٥) .

إنَّ الله تعالى قد سلط الخلق على الزوجين الذكر والأنثى من ناحية الزّوجيّة ، وحصر التوالد والتكاثر بين البشر بها ، هذا هو قانون الخلق الوحيد الذى به وحده يخلق ويوجد أى إنسان ، وهو المفهوم الوحيد الذى غرسه فى أذهان البشر ، وكرر ذلك حتى يظل المفهوم والنظرة إلى الصلات بين الذكر والأنثى منصبة على الزوجيّة أى على النّسل لبقاء النوع الإنساني ، نفياً ومبطلاً أى نظرة أو مفهوم يخالف ذلك .

وبدراستنا لواقع العيش فى المجتمع الجاهلى فى الجاهليّة الأولى ، وهى الفترة التى سبقت الإسلام ، وأحوال المرأة بالذات ، نجد واقعها أنها كانت متاعاً أو كالمتاع ، لاتملك من أمر نفسها شيئاً ، ولا يُعْتَرَفُ لها برأى أو إرادةٍ أو مشورةٍ حتى فى شؤونها الخاصة ، وقد كانت نظرة الزراية بها والهضم لحقوقها والنفى لشخصيتها تسود العالَمَ أجمع ، وليس عند العرب فقط ، فكانوا يكرهون أن يرزقوا الإناث . قال تعالى :

﴿ وَإِذَا بُشِّـرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾[1]

إنَّ الإسلام قد نظر إلى الإنسان "رجلاً كان أم امرأة" أنهُ إنسان فيه الغرائز والميول وفيه العقل والإدراك أيضاً ، وأباح وهيئ ومكن الإنسان التمتع بلذائذ الحياة ، ولكن على وجه يحفظ الجماعة والمجتمع ، ويؤدى إلى تمكين الإنسان من السّير قدماً لتحقيق سعادة وهناء الإنسان داخل مجتمع متوازن تسوده الطمأنينة وتحكمه السنن والقوانين والضوابط الموافقة للفطرة التى أودعت بالإنسان . وبما أنّ حفظ النوع الإنسانى من أهداف الإسلام العليا لصيانة المجتمع ، ولأجل تحقق تلك الأهداف والغايات أتت ضرورة وحتمية الحفاظ على النَّسب ، وبناء عليه فقد حصر الإسلام صلة الجنس **بالزواج أو ملك اليمين** . وللحفاظ على النسب وللحيلولة دون اختلاطه ، فقد سَنَّ الأنظمة والأحكام التى تكفل المجتمع من اختلاط النّسب وتلك التى تكفل الحفاظ عليه ، بجعل كل صلة أو علاقة تخالف ذلك وتخرج عنه جريمة تستوجب أقصى أنواع

---

(١) النحل : (٥٨ ، ٥٩) .

العقوبات الرادعة ، ولبشاعة تلك الجرائم وخطورتها على المجتمع وحتى تكون العقوبات زاجرة رادعة ، فقد سُنت ضمن الحدود التوقيفية التى لا يجتهد فى مضمونها ، محذراً من الرأفة والرَّحمة لمرتكبوا تلك الجرائم ، قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

من هنا يتبين مدى الفرق الشاسع بين نظرة الإسلام للاتصال الجنسى المنبثق عن نظرته لطبيعة الغريزة الكامنة فى الإنسان ذكره وأنثاه ولطرق إشباعها ، ونظرته للمرأة نفسها وللناحية الزوجية التى تقتضيها وتفرضها طبيعة وجودها مع الرجل فى مجتمع واحد ؛ وبين نظرة الجاهلية الحديثة ، فإنَّ كل وجهات نظر الجاهلية الحديثة ومفاهيمها مسلطة على الناحية الجنسية وكيف نستمتع بها ، بل وكيف نكثر من انتهال المتعة واللذة . وبناء على تسليطهم على الناحية الجنسية فقط كوسيلة للمتعة واللذة وكهدف وغاية ، فمن الطبيعى أن يترتب على ذلك نظرة للمرأة أنها بوتقة لإشباع الرّغبات الجنسية ، لا بل وسيلة من وسائل الإثارة والإيقاع وإشباع الشهوات الجنسية ، صاحب ذلك اعتبارهم أنَّ عدم إشباع الغريزة بالجنس المطلق بلا ضوابط ، وعدم إطلاق العنان لممارسته يشكل خطر على الصحه والعقل ، وكبتٌ للغريزة التى لا بد من إطلاقها ، وبما أنهم فهموا أنَّ وظيفة المرأة فى ذلك هو الاستمتاع بها والإثارة ، كان الحل الوحيد فى نظرهم للمشكلة هو إيجاد المناخ المناسب للإثارة لدى كل من الرجل والمرأة بكل الوسائل المتاحة .

وبما أنّ عقولهم قد قصرت وعجزت عن إدراك السّبب الذى من أجله خلقت الغريزة فى الإنسان وهو بقاء النوع الإنساني ، بالعلاوة على اعتقادهم بحيوانية الإنسان ، فإنهم بالتالى قد فهموا العلاقة بين الرجل والمرأة من ناحية جنسية فى شكلها البدائى الحيواني ، لذا فلا مانع عندهم لا بل من الطبيعى والبديهى والمنطقى - ما دام

---

(١) النور : (٢) .

الجنس وممارسته قد أصبحا لديهم هدفاً يُسعى إليه لتحقيق اللذة والنشوة والاستمتاع - أن يُمارَسَ الجنس بصورة حيوانية منحطة ، ما دام يفى بالمطلوب ويحقق الغاية ويوصل للإشباع ، فمن الطبيعى أن يُمارَسَ الجنس بصورةٍ شاذة ، كأن يمارسه رجل مع رجل ، أو أن تمارسه أنثى مع أنثى ، أو إتيان المرأة فى غير موضع الحَرْث "موضع الحمل والتناسل" .

لقد أثبتوا بذلك نظرية التطور !!! إذ طوروا الإنسان رجعياً ، فحتى الحيوان البهيم الغير عاقل ، والذى تطور الإنسان بزعمهم من نسله ، لم ينحط إلى درجة الشذوذ بأن يواقع الذكر منه الذكر ، أو أن تواقع الأنثى منه الأنثى ، أو أن يواقع الذكر منه أنثاه فى غير موضع التناسل ، إلا فى حالات نادرة .

قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]

لقد كان خلق حواء الزوجة كما فهمه آدم عليه السلام ، وكما علمه الله تعالى ، لتسكن إليه ويسكن إليها ، أى للزوجية التى تعنى السّكن والمودة والرحمة ، كما تعنى التلاقح والتزاوج ، والإشباع الصحيح لجوعات الغرائز وثوراتها ، والمنتجة للنسل والذرية والنسب ، ولإيجاد النسل الإنساني ، وللمحافظة على بقاء النوع الإنسانى واستمرار وجوده ، هذا النوع الذى سيحمل الأمانة والاستخلاف فى الأرض ، ولينتظم فى موكب الكون السائر فى طاعة الله وعبادته . وليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

(١) البقرة : (٢٢٢ ، ٢٢٣) .

٤- مولد عيسى ابن مريم

لقد جعل الله تعالى سنته فى الخلق والميلاد قائمة على **قانون الزوجيّة** ، فشاءت قدرته تعالى ألا يولد إنسان إلا باختلاط مائى الرّجل والمرأة ، ومرور هذا الاختلاط بالأطوار اللازمة لِتَكوُّنَ المخلوق فى حَمْلٍ تحمله امرأة ، ثُمّ تَكوّن الجنين فى رحمها بتزاوج وتلقيح .

هذه هى السُّنَة التى سَنَّها الله تعالى قانوناً وناموساً لازماً فى خلق الإنسان - كل إنسان - لا ولن يتخلف عن ذلك ولم يسبق تخلف حالة واحدة ، فلا يمكن أن يوجَدَ إنسان إلا بتلك الطريقة . إلا أنَّ مشيئة الله وقدرته اقتضت أن يُخلقَ آدَمُ أوّلَ البشر مِنْ تُرابٍ أمْراً مُخالِفاً لِتِلْك القاعدةِ ، وَأنْ تُخلقَ حَواء مِنْ ضِلعِ آدَمَ الأيْسَرَ أمْراً آخَرَ مُخالِفاً لِذلكَ الناموس . وَاسْتَمَرَّ تَكوّنُ وإيجاد الجِنس الإنسانى بطريقة المُعاشَرَة والتزاوج بين ذكر وأنثى ، ليتم اختلاط المائين معاً ، والتلقيح فى رحم الأنثى التى تحمل فى أحشائها ذلك الجنين الذى كان ثمرة اتصال جنسى بين ذكر وأنثى ، لتحمله قدَراً مَعلوماً ، يخرج بعدها بعملية ولادة بشراً سوياً .

إلا أنَّ ميلاد نبى الله عيسى عليه السّلام ، قد تم بطريقة خالفت تلك القاعدة وشذت عنها ، فلم تتم بقانون الخلق وناموسه ، إذ سبقت إرادته وحكمته تعالى أن يأتى هذا المولود إلى الدنيا بطريقة خارقة للقاعدة والقانون ، ليخالف ميلاده الشريف ميلاد جميع من أتى قبله وجميع من سيأتى بعده مستقبلاً من البشر ، أى بمعجزة تكون آية أخرى من آيات الله لتدلل على قدرته فى الخلق ، فكان ميلا د عيسى عليه السّلام بعملية "**ولادة بـــدون أب** *Partheno senis*" إذ أتى ميلاده الشريف المبارك من أم حملت به بدون أى اتصال جنسى مع رجل ، فكان الحمل والميلاد من أم عذراء[1] بتول[2] لم يمسسها بشر مطلقاً ، فلم يمتزج ماؤها بماء رجل بتاتاً ، لِيُذكرّ الله تعالى الناس

---

(١) العذراء : هى التى لم تلد ، ولم يسبق لها الزواج أو الوطء ، ولم تفضّ بكارتها .

(٢) البتول : هى العذراء المنقطعة عن الزواج إلى العبادة .

جميعاً : أنَّ مَنْ خَلقَ عيسى قد خلق من قبلِهِ آدَمَ بدون أم ولا أب . وفى ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]

وإذا تجاوز البشر حادث خلق الإنسان أصلاً وإنشاءه على هذه الصورة ، فإنَّ ميلاد عيسى عليه السلام يكون أعجب ما شهدته البشرية فى تاريخها الطويل . إذ هو حادث لم تعهده البشرية لا من قبل ولا من بعد ، والإنسان لم يشهد خلق نفسه ، وبالتالى لم يشهد خلق أول إنسان من غير أبوين ، واعتاد البشر على مر التاريخ ، ومن خلال تعاقب الدّهور والأيام أن يروا الخلق والتكوين يأتى مشاهداً بالسُّنَة المعهودة والطريقة الثابتة ، فلم يعهدوا أن يأتى إنسان كائنا من كان إلى هذه الحياة الدنيا بلا اتصال جنسى بين رجل وامرأة ، أى بين ذكر وأنثى . فأتت المعجزة الإلهية تبرز العجيبة الثانية فى مولد عيسى ابن مريم من غير أب . . . . . من أم عذراء بتول لم تمارس الجنس مطلقاً ولم يمسسها بشر ، وذلك مخالف وخارق للعادة التى جرت منذ وُجِدَ الإنسان نفسه على هذه الأرض ، ليشهدها البشر ، ثم لتظل عالقة بأذهانهم مُذكرة الناس جميعا بقدرة الله ، ولافتة النظر إلى المعجزة الأولى ميلاد آدم .

لقد جرت السُّنَة فى الخلق واستمرار الحياة أن يكون ذلك بالتناسل والتكاثر الآتى من اتصال جنسى بين ذكر وأنثى ، جرت هذه السُّنَة أحقاباً طويلة ، حتى استقر فى تصور البشر أنّ تلك هى الطريقة الوحيدة والناموس الأوحد . ونسوا حادث وجود النوع الإنسانى أصلاً ، ذلك الحادث الذى لم يشاهده بشر ، فشاءت إرادة الله وقدرته أن يَضرب لهم مثلاً يُشاهدونه بأعينهم وهو ميلاد عيسى ابن مريم ليذكرهم بقدرة الله المطلقة التى لا تخضع ولا تحتاج لقوانين ولا لنواميس ولا لقواعد ، إذ أنه إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون .

يقص علينا القرآن الكريم قصة ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام :

---

(١) آل عمران : (٥٩) .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا * قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا * قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا * فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾[1]

ممن وُلِدَ المسيح؟ من فتاةٍ عذراء بتول طاهرة نقية تقية ، نذرت نفسها لعبادة الله ربها ، لم يُعرَف عنها وعن أسرتها إلا التُقى والصلاح والنقاء والطهارة ، كانت معروفة لقومها أنها مِثال الطهارة والعفة ، حتى أنها تنتسب إلى هارون أبى سدنة المعبد اليهودى المتطهرين . . . . أنها عذراء بتول ، لم تقترف الزنا والفاحشة ، ولم تمارس الاتصال الجنسى لا حلالاً ولا حراماً . يؤكد ذلك شهادة قومها : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾[2] وبصريح النص القرآنى الذى يؤكد أن الميلاد كان من عذراء بتول تقية نقية طاهرة ، لا بل مثال للطهارة والعفة ، أحصنت فرجها ولم تقترف الزنا والسفاح والآثام ، ذات التربية الصالحة والمنبت الطيب الأصل من سلالة الأتقياء الأطهار : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[3]

وضعت مريم حملها آتية بالمعجزة لبنى إسرائيل ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً ﴾ ، تحمل لهؤلاء القوم المشهورين بالعصيان والتمرد والتشكك حتى من الآيات البينات والحقائق المعلومة

---

(١) مريم : (١٦ - ٢٤) .

(٢) "يا أخت هارون" عبارة درج يهود فى ذلك الوقت إطلاقها على الفتيات المشهود لهم بمنتهى العفة والطهارة والتقى والصفاء والنقاء ، وإحصان الفرج وغض الطرف . - مما يعنى شهادة من قومها فى معرض التعجب والاستهجان على فعلها الظانين به إثماً .

(٣) التحريم : (١٢) .

بالدليل الباتر ، صورة أخرى من صور آيات الله ومعجزاته علهم يتفكرون ، قال تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]

لقد حملت مريم ابنة عمران العذراء البتول حملها الشريف الطاهر ، ووضعته غلاماً زكياً ، حملت هذا المولود وأتت به أهلها . فدُهِش القوم وهم يرون ابنتهم الطاهرة العذراء المنقطعة للعبادة ، تحمل لهم طفلاً وضعته لا يعرفون له أب!!! فانطلقوا يُقرِّعونها ويوبخونها بإتيانها هذا الفِعل الفظيع المُستَنكر . . . طفقوا يذكرونها بتقواها وصلاحها المشهود ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ . كيف لا وهى من تلك الذرية المشهود لهم بالتقى والصلاح!!! كيف تأتى بذلك الفعل الشنيع الفاحش المستهجن المستقبح وهى سليلة الصالحين الأتقياء العباد القانتين المخلصين!!! . إنّ معلوماتهم الموثقة أنه لا يمكن أن يأتى مولود إلى هذه الدنيا مطلقاً إلا باتصال جنسى بين ذكر وأنثى "مشروع أو غير مشروع" ، فلا يمكن أن يكون حمل وولادة إلا بطريقة الزوجية المشروعة ، أو بالسِفاح غير المشروع . وكلاهما تزاوج واتصال جنسى بين ذكر وأنثى يُنتج تلقيح وحمل وولادة ، والسِّفاح هو تزاوج غير مشروع ، لـذا فهو مستقبح ومستهجن ، خاصة إن أتى من مريم ابنة عمران ، التى هى كما هوعلمهم ومعرفتهم العذراء التقية المنقطعة للعبادة ، ابنة كرام الناس الأعلام الأبرار . وبما أنها أتتهم تحمل مولوداً بلا زواج ، فالقاعدة أنها ما دامت عذراء لم تتزوج بعد ، فمنطقهم يقول بأنها قد حملت

---

(١) مريم : (٢٧ - ٣٥) .

بمولودها سفاحاً ولا بد .

وجواباً لتساؤلاتهم وشكوكهم فقد أشارت للمولود أن يسألوه ليأخذوا الرد منه وقد نذرت الصوم عن الكلام عبادة لله وامتثالاً ، مما أثار استنكارهم لذلك قائلين ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ؟ . فكانت المعجزة الأخرى الخارقة العجيبة ، إذ تكلم المولود فى مهده على غير المألوف المعهود ، معجزة أخرى من معجزات الله تعالى ، فتكلم المولود فى المهد على غير المعهود المألوف آية أخرى من آيات الله الدالة على قدرته ، ونفى لأى ارتياب أو شك قد يعلق فى الأذهان بشأن طهارة أمه الوالدة ، وهو بالتأكيد دليل دامغ على أنّ فى ولادة المولود سرٌّ جديدٌ من أسرار الخلق . هذا الخلق المعجزة . **والمعجزات هى أمور خارقة للعادة للتدليل على نبوة نبى أو رسالة رسول.** إذاً فإنّ خلق عيسى عليه السلام بهذه الصورة الخارقة للعادة هى أيضاً من علائم النّبوة التى تنبئنا به النّصوص القرآنية به .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ * وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ

اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[١]

إنَّ ولادة عيسى ابن مريم عليه السّلام ، بكل ما رافقها من خرق للقوانين والنواميس المعروفة لدى الناس ، كانت آية من آيات الله ، تُعلن قدرة الله تعالى وأنه سبحانه وتعالى لا يتقيد ولا يلتزم - متى شاء - في خلقه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات الذى يَسيرُ العالم عليها مُجْبَراً بأمر الله . وقد اتخذ البعض من ولادة عيسى عليه السلام بدون أب حجة على ألوهيته ، كما اتخذ البعض الآخر ذلك منفذاً للطعن فى أُمه أو للتشكيك فى وجود المسيح ، وهؤلاء جميعاً يخاطبهم الله تعالى فى القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[٢] فتعالى الله الأحد الصمد عما يدعون ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾[٣]

حملت مريم بالمسيح عليهما السلام بمجرد نفخ الرّوح ، وطبيعى أنها مرَّت بجميع أدوار الحمل إلى أن وضعت حملها وأتت بمولودها ، والنّص القرآنى لم يذكر لنا شيئاً عن تلك الأدوار . يقول البيضاوى فى تفسيره : (وكانت مدة حملها سبعة أشهر ، وقيل ستة ، وقيل ثمانية ، ولم يعش مولود وضع لثمانية غيره ، وقيل ساعة) . ولما أذن الله تعالى أن يكون وضع وميلاد ، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة فى موضع فى مدينة "بيت لحم" من أعمال فلسطين . يقول البيضاوي : (إنَّ الزَّمن كان شتاء والنخلة يابسة ، وإنّما كان مجيئها لتستتر أو لتعتمد عليها) . أما ابن كثير فيقول : (ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويضعن لميقات أجلهن ووضعهن ، إذ لو كان

(١) آل عمران : (٤٢ - ٥١) .
(٢) آل عمران : (٥٩) .
(٣) الإخلاص : (١ - ٤) .

خلاف لذكر)[١]

وعن النبى ﷺ قال : **«من شهد أن لا إله إلاّ الله وحده لاّ شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله ، وأنّ عيسى عبده ورسوله ، وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»**[٢] .

إنَّ مدة الحمل التى ذكرنا من روايات المفسرين ليس لها سند من دليل قطعي ، فالنّص القرآنى لم يتعرض له ، كما لم يرد فى الحديث الشريف أى ذكر لذلك الحمل الشريف كيف تمَّ وكم كانت مدته ، ولم يذكر لنا هل كان حملاً عادياً كحمل بقية النساء أم غير ذلك ، إذ اقتصر الإخبار بنفخ الروح والحمل والميلاد فقط . قال تعالى: **﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾**[٣]

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾[٤]

نعم يعلمنا الله تعالى فى محكم التنزيل بنفخ الروح ، ثم يعرج ليقص لنا كيف تم الميلاد: **﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾**[٥]

إنَّ الحمل المعهود يتم بتلقيح بويضة المرأة من نطفة الرجل ، فتبدأ النطفة الأمشاج "الملقحة" فى النشاط والنمو فى أطوار معروفة ، إذ تكون علقة فمضغة ، ثم تكسى العظام باللحم بعد أن ينشز اللحم ، إلى أن يستكمل الجنين أيامه المعهودة [٦] .

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جزء (٢) ، صفحة (٦٥) .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) الأنبياء : (٩١) .
(٤) التحريم : (١٢) .
(٥) مريم : (٢٢ - ٢٣) .
(٦) وذلك ما سنتعرض له بالتفصيل فى "الباب الرابع" من هذا الكتاب ، إن شاء الله .

ونعود إلى حمل مريم بعيسى عليهما السلام ، فهل تمت مراحل هذا الحمل بعد نفخ الروح؟ أم هل تولد الجنين بعد نفخ الروح مختصراً المراحل المعهودة فأتى الوضع والميلاد بعد نفخ الروح مختصراً المراحل المعهودة فأتى الوضع والميلاد رأساً بعد نفخ الروح ، فكان حملاً خفيفاً فى مدة مختصرة؟ . إنَّ أياً من تلك الاحتمالات لم نجد له جواباً شافياً لها ، بل لم يتعرض له النص القرآني . وبما أنّ الموضوع من متعلقات العقيدة ، **والعقيدة لا تُأخذ اعتقاداً إلا بالنص القطعى من قرآن أو حديث متواتر** ، لذا فنقتصرُ فى ذلك على ما ورد به النص ، وليس لنا الاجتهاد أو التخمين فى ذلك ، والله تعالى أعلم .

يعلمنا النص القرآنى أنَّ مريم بعد أن حملت حملها انتبذت من أهلها مكاناً نائياً قصياً بعيداً عن الأنظار ، لتواجه المخاض الذى ألجأها إلى جذع النخلة ، لتضع حملها الطاهر ، ولتواجه المجتمع والناس كافة بالآية المعجزة .

هذه هى قصة ميلاد رسول الله عيسى ابن مريم عليه السَلام ، كما أتت فى محكم التنزيل ، مكذبة كل الادعاءات والروايات المختلقة الملفقة ، عبد الله ورسوله ، بشر كباقى البشر ، أتى بحمل وميلاد من أنثى حاضرة شاهدة معروفة ، تعيش بينهم ، تأكل مما يأكلون وتشرب مما يشربون ، فهو ليس ابن الله ولا ثالث ثلاثة ، إنسان بشر ليس إله ولا رب ولا ابن رب ، ولا ملاك ، استعرضناها فى بحثنا كصورة فريدة ومميزة من صورخلق وميلاد الإنسان .

﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1]

إنّه عيسى ابن مريم الإنسان ، عبد الله ورسوله . الشريف الطاهر المبارك ، المرسل رحمة إلى بنى إسرائيل العصاة المكابرين ، ليعيد الضالين منهم إلى

---

(١) مريم : (٣٤ - ٣٥) .

عقيدة التوحيد ، مصدقاً للتوراة كتاب الله المنزل على نبى الله موسى ، ومرسلاً بكتاب الله "الإنجيل" المتضمن رسالته إليهم بشرائع وأحكام جديدة ، بعضها مثبتاً لما أتت به التوراة ، والبعض الآخر مبدلاً ومخالفاً لما أتت به التوراة ، أتاهم بشواهد ومعجزات تدلل على رسالته ، معجزة فى مولده ، ومعجزة فى تكلمه فى مهده ، ومعجزة إحياءه الموتى وشفاءه للمرضى ، ومبشراً برسول يأتى من بعده اسمه أحمد .

إن عيسى عليه السلام الوليد الناطق فى المهد ، عبد الله ورسوله ، ليس ابن الله وليس رباً ولا إلهاً ولا ثالث ثلاثة ، كما يلحد إليه المشركون الكافرون . . . هذه هى حقيقته فى مولده وفى نشأته ، لقد أنكر المولود كل تلك الاتهامات إذ تكلم فى المهد على غير عادة المواليد ، خارقاً النواميس فى مهده تماماً كما خرقها فى ميلاده .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[1]

---

(١) مريم : (٣٠ - ٣٣) .

٥- أصحاب الكهف والرقيم

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1]

إنَّ قصة الفتية الذين فروا بدينهم من بطش وجبروت الطغاة ، هى قصة تتكرر كل يوم وفى كل مكان ، وفى كل الأمم والشعوب والأقوام . (إنَ أصحاب المبادئ والمعتقدات الصحيحة فى كرب وشدّة وبلاء دائم ، منذ أن خلقَ اللهُ الخلقَ إلى يومنا هذا ، وذلك أنه ما من أمة أو شعب أو قوم إلا ولهم عقائد يعتنقونها ، وأفكار يحملونها ، وأحكام ينظمون بها أمورهم ، ارتضوا لأنفسهم هذه العقائد والأفكار والأحكام وألفوها على مرور الزمن ، واستعدوا للدفاع عنها ، وذلك أنها غدت جزءاً من حياتهم ، وهذه سنة الله فى خلقه لم تتخلف فى الأمم والشعوب والأقوام ، لذا فإنّه ما من نبى أو رسول جاء لقومه بعقائد وأفكار وأحكام جديدة مغايرة لما هم عليه إلا ورفضوه وما يدعوهم إليه ، وكذبوه وآذوه ، فنال كل نبى أو رسول من صنوف الأذى وألوان العذاب ما نجده فى كتاب الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾[2] وحيث أنَّ أتباع الأنبياء والرُّسُل يحملون الدعوات من بعدهم ، فهم كذلك يتعرضون للأذى والتعذيب)[3] قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *

---

(١) الزمر: (٤٢).

(٢) الأنعام: (٣٤).

(٣) عويضة - محمود عبد اللطيف ، حمل الدعوة - واجبات وصفات - ، الصفحات (١٠٠ - ١٠٢) ، بتصرف.

إنَّ الَّذِيـنَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾[١] (ولما جاء في الحديث الشريف عن خباب بن الأرت : . . . قال : «**كان الرجل قبلكم يُحفر له في الأرض ، ويجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصدّه ذلك عن دينه ، ويمشّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه . . .**»[٢] فحامل المبدأ الصحيح مشعل هداية للناس من رسل وأنبياء أو من أتباعهم ومن اهتدى بهديهم وسار على نهجهم ، فإنه لا يهادن ولا ينافق ، ولا يخضع لضغوط الامتحان والفتنة[٣] .

(وقد نال رسول الله ﷺ ، ونال أصحابه من أذى قريش وقبائل العرب ماهو معروف ومشهور ، لكنّ الأنبياء والرُّسُل وكذلك أتباعهم من بعدهم ما كانوا ليتركوا حمل الدّعوة وتبليغ الشّرائع والأحكام خضوعاً للعذاب والأذى ، بل كانوا يصبرون ويصبرون على ما يلاقونه حتى يحكم الله بينهم وبين أقوامهم ، وما عُرفَ أنّ نبياً أو رسولاً أو أتباع نبي أو رسول تركوا حمل الدّعوة وتخلوا عن حمل الأمانة خضوعاً للامتحان والتعذيب ، فالصبر على العذاب والأذى سنة لا تتخلف في كل من يحمل الدّعوة الحق من أنبياء ورسل وأتباعٌ على مر العصور والدّهور)[٤] .

(إنّ حمل الدّعوة يعني بالتأكيد ضرب العقائد والأفكار والأحكام المألوفة لدى الناس ، واستبدال عقائد وأفكار وأحكام أخرى بها ، كما يعني التعرض للأذى والعقاب والامتحان والفتنة ، وما يجب حياله من التحلي بالصبر وتحمل المكاره ، وانتظار الفرج من رب العالمين . فالبلاء والعذاب أمران لا بد من حصولهما أثناء حمل الدّعوة ، كما أنّ الصبر والتحمل أمران لا بد من وجودهما لدى حامل الدّعوة ، وعندما تعرض الرسول ﷺ للتعذيب من أهل الطائف توجه إلى ربه داعياً مبتهلاً ، كما

---

(١) البروج : (١ - ١٠) .
(٢) رواه البخاري وأحمد و النسائي و أبو داود .
(٣) المصدر السابق ، بتصرف .
(٤) المصدر السابق ، الصفحات (١٠٢ - ١٠٦) ، بتصرف .

روى محمد بن كعب القرظي) : [١]

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين: أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني؟ إلى قريب يتهجمني ، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل على غضبك . .» [٢] .

(إنّ الفتنة والامتحان التى يتعرض لها حملة الدّعوة كانت وتكررت وستكون وتتكرر ، فما دام تعاقب الليل والنهار فسيكون هناك جلادون ومن يجلدون ، وحامل الدّعوة يتحدى ولا بد الجلادين العُتاة ، يتحدى المجتمع "وقادته والناس كافة" بعقائده وأفكاره ومفاهيمه وأحكامه وأعرافه وتقاليده ، كما يتحدى الحكام والجلادين ، ثابتاً على المبدأ ، مسفهاً العقائد والأفكار والأحكام والمفاهيم والعادات والأعراف ، صابراً على الأذى والعذاب والبلاء الذى سيتعرض له نتيجة ثباته على المبدأ . لذا فقد صنفه الرسول ﷺ فى صف واحد مع سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [٣]

وحتى يتم أمر الله تعالى فإنّ الأعداء يفتحون السجون والمعتقلات ، ويشهرون العصى والسياط ، ويحاربون حملة الدعوة بقطع الأرزاق وحتى بقطع الأعناق ، يعلنون الحرب على حملة الدعوة فى كل المجالات ، ليحولوا بينهم وبين حمل الدعوة والثبات عليه والاستمرار فيه ، فَمَنْ فتِنَ ومن ترك

---

(١) عويضة - محمود عبد اللطيف ، حمل الدعوة - واجبات وصفات - ، الصفحات (١٠٢ - ١٠٦) ، بتصرف .

(٢) رواه ابن هشام فى السيرة ، ورواه البغوى فى التفسير ، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن طريق عبد الله بن جعفر .

(٣) آل عمران: (١٨٥) .

حمل الدعوة استجابة للضغوط فقد سقط ، وحقق المفتون والساقط لأعداء الدعوة وأعداء الله ما يصبون إليه ويطمحون فيه)[١] .

(وكما ثبت رسول الله ﷺ على الدعوة وعلى حملها ، فقد ثبت صحابته رضوان الله عليهم ثباتاً لا نظير له ، والأمثلة على ذلك كثيرةً ومعروفة ومشهورة ، وما قصة تعذيب بلال فى بطحاء مكة وثباته على الحق ، وما قصة آل ياسر وتعذيبهم برمضاء مكة وصبرهم بخافية على أحد ، وكتب السيرة تقص علينا قصص ثباتهم على حمل الدعوة ، كما تقص علينا أساليب التعذيب التى استعملها طغاة مكة مع الرسول ﷺ ومع صحابته من بعده)[٢] .

وكما ثبت الرسول ﷺ وصحابته على المبدأ فلم يهنوا ولم يضعفوا ، فكان منهم بلال وآل ياسر وسمية وخبيب وغيرهم صابرين محتسبين ، فقد ثبت قبلهم فتية الأخدود كما أعلمنا الله فى سورة البروج ، الذين صبروا على العذاب وثبتوا على المبدأ حتى فاضت أرواحهم الطاهرة إلى بارئها مستبشرة بلقائه ، وقد أعطانا الرسول ﷺ نماذج صادقة من الثبات على الحق ، وهم أصحاب عيسى ابن مريم عليه وعليهم السلام الذين نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب ، فلم يهنوا ولم يُفتنوا ، بل صبروا وثبتوا .

كما أن ممن ثبت على المبدأ أخوة لنا عذبوا حتى الموت فلو يهنوا ولم يضعفوا ، لا بل صبروا وصمدوا محتسبين حتى فاضت أرواحهم الطاهرة الزكية إلى بارئها مستبشرة بلقائه ، كما حصل مع العلامة "سيد قطب" ومن سبقه من قتلى الثبات على المبدأ الحق ومن لحقهم بعد ذلك من إخوانهم الذين استشهدوا على يد عبد الناصر وخلفائه من حكام مصر . وكما حصل مع قتيل الثبات على المبدأ الحق "عبد الغنى الملاح" الذى استشهد عام ١٩٦٣ فى بغداد

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١٠٩) ، بتصرف .
(٢) المصدر السابق ، صفحة (١١٣) ، بتصرف .

تحت تعذيب حكام البعث له . وكذلك "ناصر سريس وبديع حسن بدر" ورفاقهم من شهداء الثبات على المبدأ الذين قتلهم وسحلهم فى الشوارع طاغية ليبيا معمر القذافي . والمهندس "ماهر الشهبندر" ورفاقه من الشهداء الذين قتلهم طاغية العراق صدام حسين . . كل هؤلاء وغيرهم كثير ممن سبقهم ومن أتى بعدهم ، لقوا ربهم وهم على عهدهم لم يتزعزع لهم إيمان ، ولم تلن لهم قناة ، ولم يحنوا هاماتهم للطغاة ، لم يُفتنوا بل اختاروا الثبات على المبدأ والتحدى به . **أليست كل نفس ذائقة الموت؟ أليس لكل أجل كتاب؟**

كما أنّ إخواناً لنا كانوا ولا يزالوا متعرضين للفتنة والامتحان ، يلاقون كل أصناف الفتن والعذاب فى سجون الطغاة فى أوزباكستان ، وفى سجون رعاة البقر الأمريكان فى معتقلات غوانتنامو فى كوبا ، وفى كل مكان ، فمنهم من قضى نحبه شهيداً صابراً محتسباً ، ومنهم من ينتظر ثابتاً على المبدأ متحدياً الطغاة . **وأخيراً** إخواننا الملتجئون للكهوف والمغر فى أفغانستان الصابرة ، والحرب الصليبية الغاشمة التى تصب عليهم حمم الموت والعذاب والإبادة ، صابرين محتسبين غير مفتونين متحدون أصحاب الفيل وحلفائهم من شرار الناس ، لم يخضعوا ولم تلن لهم قناة . قال تعالى : **﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾**[1]

لقد التجأ نفر من الصحابة حملة المبدأ رضوان الله عليهم إلى الحبشة فراراً بدينهم وعقيدتهم ، وهرباً من ظلم الطغاة وفتنتهم ، وحديثا هرب فتية آمنوا بربهم من المسلمين إلى الكهوف فى أفغانستان هرباً من ظلم وجبروت الطغاة الصليبيين الكفرة وأحلافهم الشيطانية . وقصة الفتية الذين التجئوا للكهف هى

---

(١) الأحزاب : (٢٣) .

قصة المؤمن صاحب العقيدة الذى فر بدينه وعقيدته من الطغاة ثابتاً على المبدأ ، فاراً من الفتنة والظلم والطغيان ، قال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾[1]

التجأ الفتية إلى الكهف ليضرب الله عليهم النعاس ، فيستغرقون فى نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[2]

وهنا معجزة أخرى من معجزات الخلق ، الدالة على قدرة الله الخالق ، تلك المعجزة التى ساقها النص القرآنى لتخاطب العقول التائهة والباحثة عن الحقيقة على حد السواء ، إذ فجأة تدب فيهم الحياة بعد ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً من النوم : ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِن

---

(١) الكهف : (١٣ - ١٦) .

(٢) الكهف : (١٧ ، ١٨) .

يَظْهَروا عَلَيْكُمْ يَرْجُموكُمْ أوْ يُعيدوكُمْ فى مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تفلحوا إذاً أبَداً ﴾[١]

إنَّهُم لم يعرفوا كم لبثوا فى نومهم هذا فها هم يتناجون فيما بينهم حذرين خائفين على دينهم وعقيدتهم من فتنة وجبروت الطغاة الكفرة ، لايدركون أنّ مئات الأعوام قد مرت ، وأنّ أجيالاً قد تعاقبت ، وأنّ مدينتهم التى شهدت طفولتهم وشبابهم والتى فارقوها ونزحوا عنها فراراً بدينهم وخوفاً من الامتحان قد تغيرت معالمها ، وأنّ الظلمة الطغاة المتسلطين قد زالت دولتهم ، وأنّ خبرهم كفتية فروا بدينهم وعقيدتهم فى عهد الملك الظالم قد أصبحت تاريخاً يرويه الخلف عن السّلف ، وأنّ الأقاويل والروايات قد تباينت حولهم وحول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ هربهم وانقطاع أخبارهم ..... ولنا أن نتصور ضخامة المفاجئة التى اعترت الفتية بعد تيقن زميلهم طول الزمن وبعده منذ فارقوا مدينتهم هرباً بدينهم ، وتبدل أحوال الدنيا حولهم ، حيث لم يعد فى مدينتهم شىء من الباطل الذى أنكروه وقاوموه وهجروا مدينتهم فراراً منه ، وأنهم بالتالى من جيل مضت عليه السنين والقرون ، وأنهم بالتالى أعجوبة فى نظر الناس ، وآية من معجزات الله تعالى القائل : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾[٢]

والكهف : هو الغار الواسع فى الجبل . **أما الرَّقيم** : فقد قال ابن عباس : هى قرية خرجوا منها . وقال مجاهد : الرّقيم واد . وقال السّدي : الصخرة التى كانت على

---

(١) الكهف : (١٩ ، ٢٠) .
(٢) الكهف : (٩ - ١٣) .

الكهف . وقال ابن زيد : كتاب . وقال آخرون : كتاب فى لوح من نحاس . وقال ابن عباس : بل من رصاص . ولابن عباس أيضاً : الرّقيم كتاب مرقوم عندهم فيه الشرع الذى تمسكوا به .

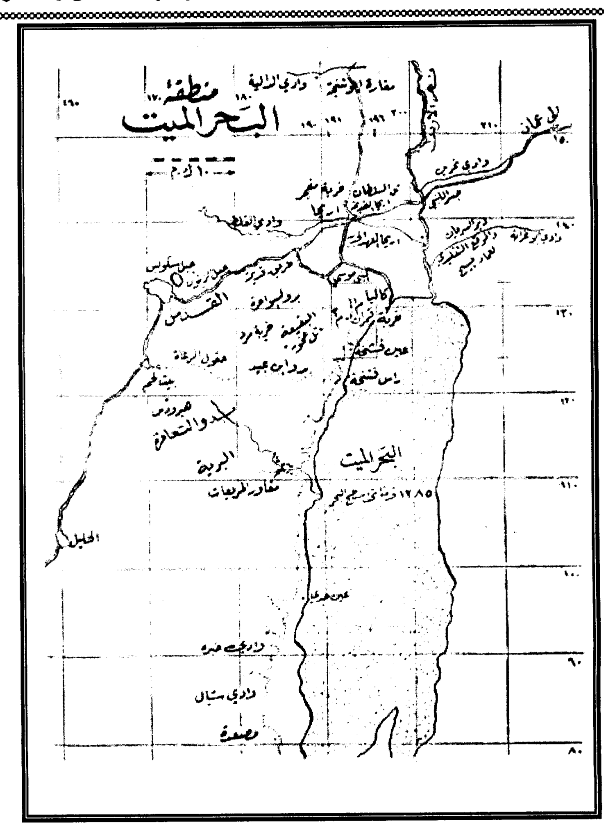
لقد اختلف المؤرخون فى مكان الكهف ، فقال كثيرون بأرض أيلة ، وقال آخرون : نينوى . وقيل فى البلقاء ، وقيل فى بلاد الشام ، وقيل فى بلاد الروم .

ويذهب "عطية زاهده" إلى أنّ الكهف هو فى خربة (قمران) بجانب البحر الميت إلى الشمال من الفشخة فى فلسطين ، حيث يقول : (وعلى أيّة حال فإنّ أحداً من الناس لم يسبق له أن أشار إلى علاقة أهل الكهف بمخطوطات البحر الميت ، وكان مؤلف الكتاب هو من أول من بَيَّنَ أنَّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا فى قمران قرب البحر الميت ، والوثائق الرّسمية التى فى حوزته ، علاوة على على المصادر العلمية تثبت ذلك . .)[١] .

إنّ قصة أصحاب الكهف والرقيم هى آية أُخرى من آيات الله ، آيات الخلق الشاهدة على قدرة الله تعالى ، لذا رأيت أن يفرد لها هذا الجزء لرؤيتى علاقتها الأكيدة بالخلق وقدرة الله تعالى على الخلق والبعث ، استئناساً بقوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[٢]

---

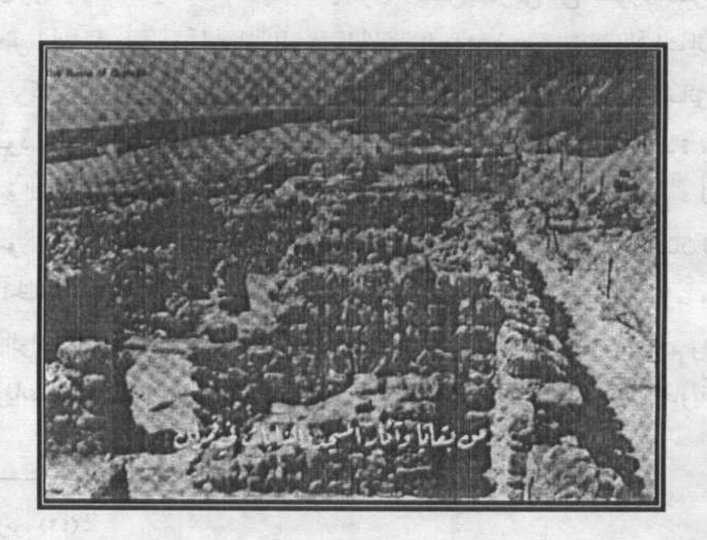
(١) زاهدة - عطية عبد المعطي ، أصحاب الكهف والرّقيم ، صفحة (١) .
(٢) يس : (٧٨ - ٨٣) .



موقع خربة قمران حيث اكتشفت بها مخطوطات البحر الميت



هل هذا الكهف الواقع فى خربة قمران قرب البحر الميت هو كهف أهل الكهف والرقيم؟



٦- إعادة الحياة

إنَّ الروح هى سِرُّ الحياة ، كما أنَّ لها مظاهر وآثاراً تدل عليها ، ومن مظاهر الروح: الفقه والعقل والاستماع والإبصار والحركة الإرادية ، فلا توجد إلا بوجود الروح ، فإذا نزعت الروح فقدت كل تلك الآثار والمظاهر وانعدمت الحياة ، وفى النَّوم يتوفى الله الأنفس ويقبض الأرواح ، لذلك فالنائم يفقد مظاهر الروح من الفهم والإدراك والإبصار والاستماع والحركة الإرادية ، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾[1]

وحادثة "أصحاب الكهف والرَّقيم" هى من الشّواهد الدّالة على قدرته تعالى ، حين أوقف حياة هؤلاء الفتية وقبض أرواحهم - إلى أجل مُسَمى - فاستغرقوا فى سَبات عميق لمدة قرون عدة ، ثُمَّ أعاد إليهم الحياة ليكونوا آية دالة على عظمته وقدرته تعالى .

وليست تلك الحادثة هى فريدة نوعها ، إذ يورد لنا النَّص القرآنى حادثة مشابهة جرى فيها إعادة الحياة ، تلك الحادثة يسوقها النص القرآنى فى "سورة البقرة" فى معرض الحديث عن سرّ الحياة والموت والخلق والبعث ، ومن ضمن الآيات العديدة التى يركز فيها القرآن على الجانب العقائدى لإنشاء التصورالصحيح لحقائق هذا الوجود ، ليدرك المسلم حقائق عقيدته من خلال رؤية واعية عميقة ومستنيرة ، تلك الرؤية القائمة على الأدلة والشواهد المؤدية إلى الجزم واليقين الثابت المطمئن ، ليؤدى للتصور الشامل لحقيقة هذا الوجود وارتباطه بخالقه ، ومن ثم إلى إدراك الإنسان لصلته بالله الخالق إدراكاً يقينياً ثابتاً ، بحيث يوجد لدى الإنسان إيماناً أى تصديقاً جازماً مطابقاً لهذا الواقع الذى أحسه وأدركه عن دليل عقلى ثابت ، يبعد عن الظّن والوهم والشك ونظريات الاحتمال . فإلى النّص القرآني: ﴿ **أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى**

---

(١) الزمر: (٤٢) .

عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]

لم يعلمنا النّص القرآنى من هوالرجل المارعلى القرية ، كما لم يعلمنا من تلك القرية الخاوية على عروشها ، ولو شاء لأعلمنا ، ولو كانت حكمة النّص لا تتحقق إلا بهذا الإفصاح ما أهمل القرآن ذكره . والذى يعنينا من ذكر تلك القصة هو عظمة الحدث وجلاله ، والعِبَر التى نستخلصها من الحدث ، والدلائل التى يدل عليها ، بغض النظر عن اسم الشخص الذى حدثت معه ، وبغض النظر عن اسم القرية .

ولأنَّ النَص القرآنى لم يذكر الأسماء وتجاهلها ، فقد اختُلِفَ فيها ، إذ قال عكرمة وقتادة والربيع بن أنس والضحاك والسّدي : أنّ المار هو "عزير بن شرحيا" . وقال وهب ابن منبه وآخرون : هو "أرمياء بن خلفياء"[2] . أمّا القرية التى مرّ عليها ، فقال عكرمة ووهب وقتاده : هى "بيت المقدس" . وقال الضحاك : هى "الأرض المقدسة" . وقال السدي : هى "سلماباد" . وقال الكلبي : هى "دير ساير" . وقيل : هى "دير هرقل" . وقيل : هى "قرية العنب"[3] على بعد فرسخين من بيت المقدس .

لقد ذهب أغلب المؤرخين إلى أنّ المار بالقرية هو "العزير" ، واشتهرت القصة بينهم باسمه ، وهى كما يرويها ابن كثير عن إسحاق بن بشر بإسناده : إنَّ عُزيراً كان عبدٌ صالحاً حكيماً فى بنى إسرائيل ممن تعلم التوراة وحفظها ، خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعاهدها ، فلما انصرف أتى إلى قرية خالية خاوية على عروشها حين قامت الظهيرة وأصابه الحر ، فدخل القرية الخربة وهو على حماره ، ونزل عن حماره ومعه سلّة تين وأخرى فيها عنب ، فنزل فى ظلّ تلك الخربة وأخرج قصعة معه فاعتصر من العنب

---

(١) البقرة : (٢٥٩) .
(٢) قالوا أن "آرمياء بن خلفياء" هو الخضر عليه السلام .
(٣) أى مدينة "الخليل" من أعمال فلسطين .

الذى كان معه فى القصعة ، ثم أخرج خبزاً يابساً معه فألقاه فى القصعة ليبتل فى العصير ليأكله ، ثم استلقى على قفاه ، وأسند رجليه إلى الحائط ، فنظر سقف تلك البيوت ورأى ما فيها وهى قائمة على عروشها ، وقد باد أهلها ، ورأى عظاماً بالية نخرة ، فقال: ﴿ **أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ . والقول هنا ليس قول المتشكك المنكر للبعث والإحياء ، بل هو قول ينطوى على التعجب . فبعث الله ملك الموت فقبض روحه ، وأماته مائة عام .

فلما أتت عليه مائة عام ، وكان فيما بين ذلك فى بنى إسرائيل أمور وأحداث . قال: فبعث الله إلى عزير ملكاً فخلق قلبه ليعقل ، وعينيه لينظر بهما فيعقل كيف يحيى الله الموتى ، ثم ركّب خَلقَهُ وهو ينظر ، ثم كسى عظامه باللحم والشعر والجلد ، ثم نفخ فيه الروح ، كل ذلك وهو يرى ويعقل فاستوى جالساً . فقال له المَلَك: كم لبثتَ؟ . قال: لبثتُ يوماً أو بعض يوم ، وذلك أنه كان لبث صدر النهار عند الظهيرة ، وبعث فى آخر النهار والشمس لم تغب ، فقال **أو بعض يوم ولم يتم لى يوم**. فقال له المَلَك: بل لبثتَ مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك ، يعنى بالطعام الخبز اليابس ، وشرابه العصير الذى اعتصره فى القصعة ، فإذا بهما لم يتغير حالهما ، فذلك قوله تعالى ﴿ **لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ يعنى لم يتغير ، وكذلك التين والعنب غض لم يتغير شىء من حالهما . فكأنه أنكر فى نفسه فى قلبه فقال له المَلَكَ: أنكرت ما قلت لك؟ انظر إلى حمارك ، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه وصارت نخرة ، فنادى المَلَكُ عظام الحمار فأجابت وأقبلت من كل ناحية حتى رَكَّبَهُ المَلَكَ وعزير ينظر إليه ، ثم ألبسها العروق والعصب ، ثم كساها اللحم ، ثم أنبت الجلد والشعر ، ثم نفخ فيه الروح ، فقام الحمار رافعاً رأسه وأُذنيه إلى السَّماء ناهقاً . فذلك قوله تعالى: ﴿ **وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا** ﴾ يعني: وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً فى أوصالها حتى إذا صارت عظاماً مصوراً بلا لحم ، ثم انظر كيف نكسوها لحماً . ﴿ **فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ**

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى من إحياء الموتى[١] .

ولرب سائل يتساءل: هل هذا الرجل المار على تلك القرية الخربة المحطمة على قواعدها كان ملحداً كافراً بالخلق والبعث بعد موت فألقى جملته ﴿ **أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ إنكاراً وجحوداً؟ . وعلى هذا التساؤل يجيب صاحب الظلال:

إنَّ القائل ليعرف أنّ الله هناك ، ولكن مشهد البلى والخواء ووقعه العنيف فى حسه يجعله يحار: كيف يحيى هذه الله بعد موتها؟ وهذا أقصى ما يبلغه مشهد من العنف والعمق فى الإيحاء . . . وهكذا يلقى التعبير القرآنى ظلاله وإيحاءاته ، فيرسم المشهد كأنّما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر أنى يحيى الله هذه بعد موتها!! كيف تدبُّ الحياة فى هذا الموات؟ ﴿ **فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ** ﴾ لم يقل له كيف ، إنَّما أراه فى عالم الواقع كيف!!! فالمشاعر والتأثرات تكون أحياناً من العنف والعمق بحيث لا تُعالَجُ بالبرهان العقلي ، وحتى بالمنطق الوجداني ، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذى يراه العيان . . . إنّما يكون بالتّجربة الشخصية الذاتية المباشرة ، التى يمتلئ فيها الحس ، ويطمئن بها القلب ، دون كلام! . . ﴿ **قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ** ﴾ . وما يُدريه كم لبثَ ، والإحساس بالزمن لا يكون إلا مع الحياة والوعي؟ على أنَّ الحس الإنسانى ليس المقياس الوحيد للحقيقة ، فهو يُخدَعُ ويَضِل فيرى الزمن المديد قصيراً لملابسة طارئة ، كما يرى اللحظة الصغيرة دهراً طويلاً لملابسة طارئة كذلك!: ﴿ **قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ** ﴾ .

وتبعاً لطبيعة التجربة ، وكونها تجربة حسّية واقعية ، نتصور أنَّهُ لا بُدَّ كانت هُناك آثار محسوسة تصور فعل مائة عام . . . وهذه الآثار المحسوسة لم تكن فى طعامه وشرابه ، فلم يكونا آسنين متعفنين: ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ** ﴾ وإذا فلا بد أنّ هذه الآثار المحسوسة كانت ممثلة فى شخصه أو فى حماره: ﴿ **وَانظُرْ إِلَىٰ**

(١) ابن كثير ، قصص القرآن ، الصفحات (٦٣١ - ٦٣٤) . - ابن كثير ، البداية والنهاية ، مجلد (١) ، الصفحات (٤٣ - ٤٦) .

حمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ . . . أية عظام؟ عظامه هوَ؟ . لو كان الأمر كذلك - كما يقول بعض المفسّرين أنّ عظامه هى التى تعرت من اللحم - للفتَ هذا نظره عندما استيقظ ، ووخز حسه كذلك ، ولَمَا كانت إجابته : ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ .

لذلك نُرَجِحُ أنَّ الحمار هو الذى تعَرَّت عظامه وتفسّخت ، ثمَّ كانت الآية هى ضَمُ هذه العظام بعضها إلى بعض وكُسْوَتها باللحم وردها إلى الحَياة ، على مرأى من صاحبه الذى لم يمسه البلى ، ولم يصب طعامه ولا شرابه العفن ، ليكون هذا التباين فى المصائر والجميع فى مكان واحد ، مُعَرَّضونَ لِمُؤثرات جوية وبيئية واحدة ، آية أُخرى على القدرة التى لا يُعْجِزها شىء ، والتى تتصرف مطلقة من كل قيد ، وليدرك الرجل كيف يحيى هذه الله بعد موتها!!!![1]

نعـــم ، إنَّ ظلال النَّص القرآنى توحى إلينا بخطأ ما ذهب إليه ابن كثير وغيره من رواية "بشر بن إسحاق" السابقة من تعرى عظام صاحب العظام وإعادة كسوتها باللحم ، فالآية كانت فيه ﴿ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ ، وذلك يعنى أنه لم تُبلى عظامه فى حين بليت عظام حماره .

كانت تلك قصّة من القصص العديدة ، التى أتى بها القرآن الكريم لِلَفت انتباه الإنسان إلى قدرة الله المطلقة فى الخلق والإنشاء والإماتة وإعادة البَعْث ، لتكون برهاناً آخر يُضاف إلى البراهين العديدة فى طريق الإيمان ، وهكذا قالَ الرَّجُل الذى مرّت به التجربة شخصياً ولم تُنْقَلُ إليه نقلاً أو روايَةً ، بل شاهدها بعينيه وأحسها ولمسها بنفسه : ﴿ أَعْلَـــمُ أَنَّ اللَّـــهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . . . قدير على الخلق من عَدَم . . . وقدير على قبض الروح ونزع الحياة متى شاء . . . وقدير على إعادة الحياة وبعث الإنسان من جديد .

---

(١) قطب - سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مجلد (١) ، جزء (٣) ، الصفحات (٢٢٩ - ٣٠٠) .

الباب الرابع

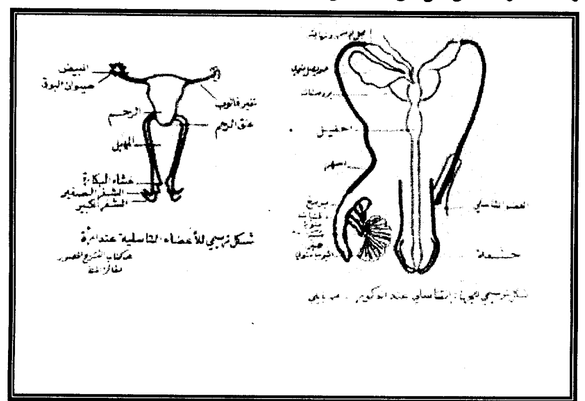
عملية الحمل والولادة وتكوّن الإنسان

الفصل الأول

الشَّــهوة والجهــاز

إن بقى فى النفوس شىء من الشّك والرّيب بعد كل ما أعلمنا الله به وهدانا إليه ، إذا بقى أى شك فى البعث والحساب بعد الموت ، فليتفكر الإنسان فى نفسه وفى مراحل تكونه وتخلقه يجد البرهان والدليل . قال تعالى ﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** ﴾[١]

لقد خلق الله سبحانه وتعالى البشر بنى آدَمَ ، وكرّمهم على غيرهم من المخلوقات ، وجعل بقاء النوع الإنسانى مرتبطاً بالزوجية والتناسل الحاصل بينهما ، لذا فقد خلق الله لكل من الزوجين جهازاً تناسلياً خاصاً ، يُقابل جهازاً تناسلياً آخر خاصاً بالطرف الآخر ، ومن كل من الجهازين مجتمعين يتخلق الإنسان .



شكل تخطيطي للأعضاء التناسلية عند المرأة

ولم يوكل التكاثر والتناسل إلى هذين الجهازين العضويين فحسب ، إنَّما زرع فى

---

(١) الذاريات : (٢٠ ، ٢١) .

كُلٍّ من الذكر والأُنثى الغريزة القوية الدافعة ، فيبرز اندفاع تلك الغريزة فى مظهر الجوعات الجنسية المتطلبة الإشباع ، فشاءت إرادة الله تعالى أن تثور جوعة الجنس متطلبة الإشباع ليتحقق بقاء النوع الإنساني . وفى ذلك يقول "ابن القيم الجوزية" :

(ثم لَمّا أراد الله سبحانه وتعالى أن يذر نسلهما - أى آدم وحواء - فى الأرض ويكثره ، وضع فيهما حرارة الشّهوة ونار الشّوق والطَلَب . وَأَلْهَمَ كُلاً منهما اجتماعه بصاحبه ، فاجتمعا على قدر . . . ثُمَّ اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن قدّرَ لخروجها - الشّهوة - أقوى الأسباب المستفرغة لها من خارج وداخل . . . فقيض لها صورة حَسَّنها فى عين الناظر وشوقه إليها . وساق أحدهما إلى الآخر بسلسلة الشَّهْوَةِ والمَحَبَةِ ، فَحَنَّ كل منهما إلى امتزاجه بصاحبه واختلاطه به ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . . . **وجعل هذا محل الحَرْث وهذا محل البَذر ليلتقى الماءان على أمر قد قدِّر**)[1]

هذا بالنسبة للغريزة وشهوتها - أى ثورتها متطلبة الإشباع - . أمّا بالنسبة للتركيب العضوي : فالجهاز التناسلى المذكر - محل البذر - "*Male Genitalia*" يتكون من مصنع للنطف "*Spermatozzons*" ومن مجموعة من الأنابيب الدقيقة الملتفة التى توصل تلك النطف عبر السائل المنوى إلى الإحليل "*Penis*" ، والإحليل "القضيب" هو عضو انتصابى بانصباب الدّم فيه حتى يمكن ايلاجه فى الفرج "*Tiller*" ، وقذف هذه النطف بالقرب من عنق الرحم فى المرأة .

ويتكون الجهاز التناسلى الأنثوى - محل الحرث - "*Female Genitalia*" من أعضاء تناسلية ظاهرة وأخرى باطنة . **أمّا** الظاهرة فتشتمل على فتحة الفرج "*Insertion Vent*" وعلى حافتيه الشفران الصغيران والشفران الكبيران ، وتقع فتحة الفرج فى الدهليز . . . ويقع أمام فتحة الفرج صماخ[2] قناة مجرى البول . وعند التقاء

---

(١) ابن قيم الجوزية ، التبيان فى أقسام القرآن ، صفحة (٣٣٨) .
(٢) صماخ : ثقب .

الشفرين الصغيرين من أمام يقع البظر"*Clitoris*" . أما التقاء الشفرين الكبيرين من أمام فيكون جبل الزهرة .

أمّا الأعضاء الباطنة فتشمل مصنع النطف الأنثوية وهم: المبيضان "*Ovaris*" ، والرحم "*Viterus*" وقناتيه ، والمهبل "*Vegina*" ، مخزن الحرث حيث يختزن الجنين .

إنّ بقاء النوع الإنساني متوقف على الزوجية المنتجة للذرية . والزوجية تعتمد على التقاء وتزاوج جهازين تناسليين ، أحدهما ذكرى والآخر أنثوي ، ليقوما معاً بإنتاج المخلوق فى عملية دقيقة ، كما يعتمد ذلك أيضاً على الشهوة الكامنة فى الإنسان ذكره وأنثاه وهى غريزة النوع التى تثور طالبة الإشباع ، ودافعة كلا الزوجين "الذكر والأنثى" إلى الالتقاء الجنسى والتزاوج ، إذ أودعت لدى كل منهما الشّهوة للالتقاء بقرينه بقصد الإشباع بالاستمتاع واللذة ، ليتم أمر الله تعالى الذى قُدر ، بالتناسل لبقاء النوع الإنساني .

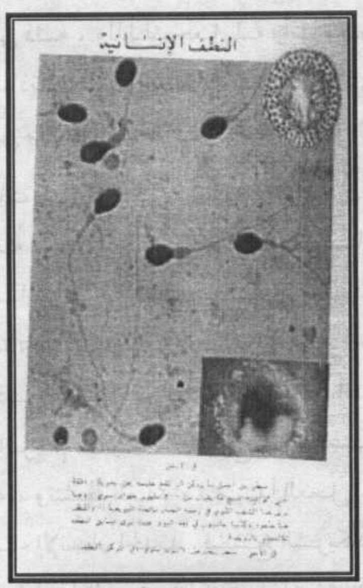
(وهكذا نجد بأنّ نظام الزّوجية هو الوسيلة الوحيدة لبقاء الحياة التى شاء الله بقاءها واستمرارها على الأرض بالتناسل. ونظام الزّوجية هو الدليل الثابت على ما فى اطراد الزّوجية فى النبات والحيوان من دليل على القصد ونفى المصادفة، ويظل التكوين الجنينى للإنسان فى تصويره، وخلقته وعظامه وكسوته، وقراره المكين إلى قدره ومدته، فى زوايا ظلمته..... أعظم دليل على القصد الإلهي. قال تعالى: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ ﴾[1]

بويضة (*Ovum*) مثل بيضة الدجاجة ، ولكنها أصغر منها بكثير ، قطرها يتراوح بين جزء وبين جزئين من (١٠) أجزاء من المليمتر . ووزنها جزء من مليون جزء من الغرام وفيها مُح (*cytopalasme*) وفى المح (الحويصلة الجرثومية*Nuyau*) التى يبلغ قطرها

---

(١) الزمر: (٦) .

جزءاً من (٧٠٠) جزء من القيراط [١] . وفيها تكمن (النطفة الجرثومية *Nucleole*) التى يبلغ قطرها جزءاً من (٣٠٠٠) جزء من القيراط . . . . هذه هى البويضة . تتكون فى ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح فى سائلها الألبومينى (الزلالى *Albumin*) . فإذا نمت هذه الحويصلة وازداد السائل الذى فى باطنها ، يتمدد غشاؤها ويرق ثم ينفجر وتخرج البويضة منها ومن المبيض كله .



الجهاز التناسلى المذكر "محل البذر" يتكون من مصنع للنطف ومن مجموعة من الأنابيب الدقيقة التى توصل تلك النطف *Spermatozoons* عبر السائل المنوى إلى الإحليل.....

وتسير البويضة إلى فم (البوق *Oviduct*) وهو عبارة عن طريق ضيق دقيق قطره قطر شعرة ، يختبئ وراء (الرحم *Uterus*) ويمتد منه إلى (المبيض *Ovay*)

---

(١) القيراط : هو جزء من ٢٠ جزء من المثقال الذى يساوى ٤ . (٢٥ جرام) .

ويدخل (الحيوان المنوى المذكر *Male Spermatzoon*) من الرحم حتى يصل إلى (البوق *Oviduct*) حيث يلتقى بالبويضة . ولكن هذا الحيوان صغير جداً جداً بالنسبة إلى البويضة ، فطوله عبارة عن ٦٠ جزءاً من ألف جزء من المليمتر ، يسبح بسرعة هائلة فى السائل (المنوي*Spermatic*) الذى يقذف به ، وسباحته تتم فى حركة لولبية حى تؤتى السّرعة المطلوبة ، وجوهر هذا الحيوان المَنَوِى فى رأسه لا فى ذنبه ، ولذلك جعل له رأس مُكوّز وَجُعِلَ برأسه عنق لولبي ، وَجُعِلَ لعنقه ذنب طويل يَضرب به الماء الذى يسبح فيه ويقذف بنفسه ، وجعل هذا الذيل معقوداً بأنشوطة لينفكّ عنه إذا دخل البويضة .

أما عدد الحيوانات المنوية الذكرية (*Male Spermatzoons*) فيربو على (٢٠٠) مليون ، ولكنه لا يصل إلى البويضة إلاّ من كان أقواها وأسرعها ، حتى يمكنه اختراق الباب الخاصّ الذى يوصله إلى البويضة ، الباب المسمى: باب الجاذبية (*Cone d'attraction*) فعندما يدخل الحيوان المنوى ينغلق الباب ، وتنقطع الجاذبية وبذلك تموت جميع الحيوانات المنوية الأخرى . ثم تستقرّ البويضة فى (الرَّحْم *Uterus*) ، فتفتح خلايا غشائه المخاطي ، وتتسع الشعيرات الدموية فيه ، وتنشط الغدد ، ثم يبدأ العمل المشترك ما بين الحيوان المنوى والبويضة فى بناء الإنسان الجديد . فيمشج الشريكان كلّ ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النووى (الكروموزات *Chromosomes*) وما فيها من الخلق المخلقة (الجينات *Genes*) التى خطّتها وخلّقتها وسوّتها يدُ المُقدِّر الخالق لها قانوناً وسُنّةً عبر الأجيال من الجدود والآباء إلى الأبناء والأحفاد من (سلالة من طين) ثم (سلالة من ماء مهين) لتتكوّن من هذا الاختلاط (النطفة الأمشاج *Fertilized Ovem*) التى أشار إليها أحسن الخالقين:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[1]

---

(١) الإنسان : (٢) .

وعناصر التخطيط والتخليق والتسوية التى يخلِقُ الله بها المضغة لتكون بشراً سوياً فرداً يتميز عن غيره من الناس بكل صفاته الجسدية والعقلية من شكلٍ وقدٍ ولون وذكورةٍ وأنوثةٍ وجمال وذكاء وأخلاق ترسم كلها للفرد الخطوط الأولى من حظه فى الحياة .

وهكذا فإنّ البويضةَ التى تحمل فى نواتها عناصر التخطيط المذكورة ، تسير النطفة الأمشاج سيراً رهواً بطيئاً فى البوق فلا تنتهى منه إلى الرّحم إلا بعد ثمانية أو عشرة أيام ، تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيماً بعد تقسيم لكى تهيىءلكل قسم وتعدّه للدور الذى سيقوم به فى تكوين الجنين الجديد أو فى حفظه وحمايته ووقايته أو تغذيته .

وعندما تصل تلك البويضة الملقحة إلى الرّحم تلتصق بجداره ، وتبدأ خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرّحم ، فتجعل حول الجنين غلافاً فوق غلاف فوق غلاف . . . .

فالغلاف الأول الظاهر الذى يحيط بجميع الأغشية ويسمى (السّلى *Chortion*) فهو المعدّ فى جانبه الملتصق بجدار الرّحم كوسيلة للتغذية الأولية ثم لتكوين المشيمة الحجبية ، وفى جانبه الظاهر غير الملتصق بجدار الرّحم كوسيلة لوقاية الجنين وحفظه .

والغلاف الثانى ينسج تحت الكوريون ليحيط بالجنين إحاطة كاملة من وراء غلاف مائى يحيط بالجنين إحاطة مباشرة ليقيه مع الغلافين الأولين كل صدمة أو رجة تأتى من الخارج . وتبدأ فى الوقت نفسه ، الخلايا الجرثومية (المخلّقة) التى تكون الجنين سيرها فى تطورها من نطفة إلى علقة إلى مضغة ، على الترتيب الذى فى القرآن الكريم .

ومن هذه المضغة المخططة المخلقة بكروموزوماتها المتخالطة وجنيناتها يبدأ تكوين الأعضاء والأحشاء ، كما بدأ تكوين أغشية الحفظ والوقاية والتغذية من خلايا المحّيّة غير المخلقة . فيقوم قسم من الخلايا الجرثومية بتكوين مبادئ القلب ، بينما يقوم قسم آخر منها بتكوين المخ ومبادئ العمود الفقري ، إلى

جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين مبادئ الأحشاء من الجهاز الهضمى والتنفسى والتناسلي ، إلى جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين العظام ، كل فى دائرة اختصاصه . فلا ينتهى الشّهر الثانى إلا وتكاد المضغة تصبح إنساناً كاملاً بجميع أعضائه وأحشائه وأعصابه . وهنا السِّر فى الخلق ، إذ أنّ هذه الخلايا لها من فطرة الخالق ما يعطيها القدرة على أن تسوّى إنساناً كاملاً ، ولكنها تصير عاجزة حين تصبح هى نفسها إنساناً كاملاً عن أن تخلق ذبابة . ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾[1]

أمّا الوظيفة التى تقوم بها المشيمة (*Placenta*)[2] فهى آية أخرى من آيات الإعجاز فخلايا الكوريون وخلايا جدار الرّحم تشترك كما قلنا فى صنع المشيمة للجنين . . . وهذا الجنين الجديد ، يحتاج إذا صار مضغة وتكونت أعضاؤه إلى طريقة من التغذية غير الطريقة الامتصاصية الارتشاحية الساذجة التى تحصل بين خمل الكوريون وبين جيوب الدم الرّحمية ، لأنّ حاجة الجنين إلى الدّم إذا كبر ستكون أكبر ، وحاجة الدّم إلى التصفية إذاً ستكون أكثر ، وبما أنه لا يجوز أن يدخل دم الأم بذاته إلى الجنين ، وأنّ دَمَ الجنين يجب أن يتخلص من أقذاره وسمومه كما يتخلص كل حيوان ، فلا بد من وجود آلة كبرى تتولى هذا الترشيح والتوريد والتصدير بين دم الأم الوارد المطهَّر ودم الجنين الصادر القذر ، فكانت المشيمة العجيبة التى بنتها الخلايا من خمل الكوريون وأهدابه ومن جيوب الدّم الرحمية ، وجعلتها موصولة بسّرة الجنين بحبل يحمل منها إليه عناصر الغذاء والأوكسجين التى تستخلصها المشيمة من دم الأم ، ثم الحبل من

---

(١) طه : (٥٠) .

(٢) المشيمة أو السخذ : عضو مؤقت متصل بباطن جدار الرحم عند معظم الثدييات ، بواسطتها يتلقى الجنين غذاؤه ، وهى مؤلفة من أنسجة مستمدة من الأم والجنين معاً ، وتتصل بالجنين بحبل سرى غليظ تمتد أوعية الجنين الدموية عبر هذا الحبل إلى المشيمة ثم ترتد راجعة إلى الجنين ، تمتص المشيمة الغذاء والأوكسجين من الأم فينقلان عبر الأوعية الدموية فى الحبل السرى إلى الجنين ، وتحمل الفضلات التى يفرزها الجنين إلى المشيمة فيمتصها دم الأم إلى خارج الجسم .

الجنين إلى المشيمة فى وريد آخر ما يتكون فى الجنين من سموم وأقذار ، حتى إذا خرج الجنين إلى عالَم النور والهواء والثدى وأصبح قادراً على تنفس الهواء برئتيه وامتصاص الغذاء بشفتيه ، وقادراً على حرق قمامته فى سَحْره ، ولفظها من نحره ، قطعت المشيمة عن الولد وسُدّ باب السّرة إلى الأبد [١] .

إنّ هذا النظام الغريب ، والجهاز المعقد الدقيق ، والتصميم العجيب فى خلق الإنسان من بين الصلب والترائب ، فى حيوان الذكر المنوى وبويضة الأنثى ، ثم تخلقه فى الأجنّة فى بطون النساء ، لهو الآية الكبرى والدليل الدامغ على قدرة الله تعالى فى الخلق والتصوير . . . ولو تأمل الإنسان وتفكر لوعى وتبصر . ويكفى الإنسان الواعى الباحث عن الحقيقة المجردة التأمل والتفكير فى الدّقة المتناهية فى هذا الجهاز البالغ التعقيد والنظام البديع الذى يُسَيّره ، بحيث لا يترك أى مجال للصدفة . بل تنظيم دقيق جداً لا يترك شاردة ولا واردة إلا وأعد لها نظام سيرها مسبقاً ، ليتم التناسل والتكاثر بموجبه حفاظاً على النوع الإنساني . لذا يوجه الله تعالى الدعوة للإنسان للتأمل والتفكير فى خلق نفسه ، بما فى ذلك هذا الجهاز المعقد الدقيق والنظام البديع المسير له :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾[٢] ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[٣]

هذا هو الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، وجعل أصل وجوده من طين وتراب الأرض ، وأوجب عليه أن يتم خلقه ووجوده بقانون واحد

---

(١) الزين - سَميح عاطف ، مجمع البيان الحديث - قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، الصفحات (٦١ - ٦٦) . بتصرف .
(٢) الطارق : (٥ - ٨) .
(٣) فصلت : (٣٥) .

هـو: الزوجـية المؤديـة إلى التناسـل والـتكاثر ، وليـتم ذلـك فقـد خلـق لكـل مـن الذكـر والأنـثى هـذا الجهـاز المعقـد ، وزرع فـى نفـس كـل مـنهما الشـهوة الغريـزية إلى الجـنس الآخـر ، لتـثور متطلـبة الإشـباع ، ليـتم أمـر الله مـن الـتوالد والتناسـل والتكاثر ، للمحافظة على بقاء النوع الإنساني .

ومما يجـدر الانتـباه إلـيه : "أنّ المسـافة بـين الـنطفة فـى خصـية الـرجل أو بويضـة المـرأة حتى يجتمعا معاً مسـافة بعـيدة ، ففـى الأنـثى تـتكون البويضـة مـنذ كانـت هـى جنيناً فـى بطـن أمهـا . . . وتـنمو بـبطء شـديد ، ثـم تـتوقف عـن الـنمو هـامدة فـترة طويلـة مـن الـزمان . . . وتـبدأ نموهـا مـرة أخـرى بعـد الـبلوغ . . . . بويضـة واحـدة كـل شـهر ، لا تـتوقف مـنذ الـبلوغ إلى سـنّ الـيأس ، إلا عـند حـدوث الحمـل . أمّـا فـى الذكـر فـإنّ خلايـا الخصـية تظـلّ هـامدة حـتى سـنّ الـبلوغ ، عـندها تسـتيقظ مـن رقدتهـا وهجعـتها الطويلـة ، وتـبدأ فـى إنـتاج وإخـراج ملايـين الحـيوانات المـنوية . وتحـتاج الخصـية إلى سـتة أسـابيع تقريـباً حـتى يكـتمل فـيها نمـو الحـيوان المـنوي . فـإذا مـا الـتقى الحـيوان المـنوى "نطفـة الـرجل" بالبويضـة "نطفـة الأنـثى" ولقحهـا بأمـر الله . . . تكوّنـت عـندئذٍ الـنطفة الأمشـاج المخـتلطة مـن مـاءى الذكـر والأنـثى ، وتحـتاج إلى أسـبوع تقريـباً حـتى تـبدأ فـى العلـوق فـى جـدار الـرحم ، ويـتم علوقهـا وانغـرازها فـى يومـين ، فـتكون مـرحلة مـا تسـتغرقه الـنطفة الأمشـاج أربعـين يومـاً كاملة"[1]

إنّه جهاز دقيق . . . بقوانين ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فرضها من خلقها وأبدعها ، وألزم هذا الجهاز السّير بهذا القانون لا يخالفه . ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ** ﴾[2]

(١) الزين - سميح عاطف ، مجمع البيان الحديث - قصص الأنبياء فى القرآن الكريم ، صفحة (٥٧) بتصرف .
(٢) الدهر : (٢) .

الفصل الثانى

التكويـــن [١]



قال الله تعالى:

[١] ﴿ أوَ لَــمْ يَرَ الذينَ كَفَروا أنَّ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ كَانَتا رَتقاً فَفَتَقناهُما وَجَعَلنا مِنَ الماءِ كُلَّ شيءٍ حى أفَلآ يؤْمِنونَ ﴾ [٢]

لقد كانت السموات والأرض منسدتين ، ففتق السّموات فجعلها سبعاً والأرض سبعاً . وكانت السّماء لا تُمطر ، وبعد فتقها بدأت تمطر ، والأرض لم تكن تنبت ، فبدأت بالإنبات ، وصارت صالحة للحياة .

[٢] ﴿ وَهُــوَ الَّذي خَلَق السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّة أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [٣]

والمراد بخلق السموات والأرض هو جمع أجزائها وفصلها وفتقها من سائر ما يختلط بها من المواد المشابهة المركومة . وكان عرشه سبحانه يومها على الماء ، أى أنّ المادة الأولى التى كان يتألف منها الكون هى الماء . وأمّا قوله سبحانه وتعالى **﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾** فيعنى احتواءه السموات والأرض ، وأخذه فى تدبيرهما .

---

(١) هذا الفصل بالكامل (بدون الحواشى السفلية) ، منقول بتصرف عن كتاب : مجمع البيان الحديث - قصص الأنبياء فى القرآن الكريم) ، سميح عاطف الزين ، الصفحات (٣٩ - ٥٧) .
(٢) الأنبياء : (٣٠) .
(٣) هود : (٨) .

[٣] ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١)

[٤] ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾(٢)

[٥] ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾(٣)

[٦] ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾(٤).

طباقا: أى بعضها فوق بعض من غير مماسة.

ماترى فى خلق الرّحمن من تفاوت: أى تباين وعدم تناسب.

فارجع البصر: أى أعده إلى السّماء.

هل ترى من فطور: أى هل ترى من صدوع وشقوق؟

ينقلب إليك البصر خاسئاً: أى ذليلاً لعدم إدراك الخلل.

وهو حسير: أى كليل منقطع عن رؤية الخلل.

نحن لا نريد البحث فى العوالم السماوية ، وما خلق الله فيها ، وما هى عليه من أحكام وتنظيم ، بل نترك هذا لِمَنْ يريد أن يعرف ما فى هذا الكون من اتساع ودقة وانتظام ، فيعود إلى علم الفلك ، ليرى فى الحقائق التى أثبتها ذلك العلم ما يدهش

---

(١) الذاريات : ريات : (٤٧ - ٤٩) . بأيد : يعنى بقوة .

(٢) البقرة : ٢٥٥ (آية الكرسي) . لا يؤوده : يعنى لا يعجزه حفظهما .

(٣) ق : (٦ - ٨) . . فروج : أى شقوق تعيبها .

(٤) الملك : (٢ - ٤) .

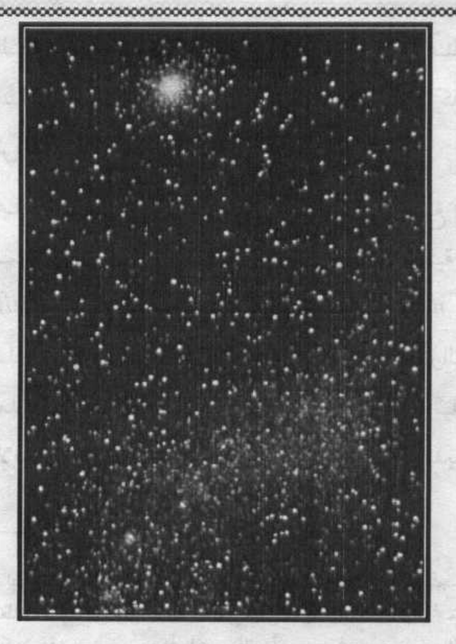
العقول ، ويرمى النفوس فى الذهول . لكننا نكتفى بالإشارة هنا إلى ما له علاقة بموضوع خلق الإنسان وتكوينه من خلال العلم المذكور ، ولأن كان فى إشارتنا جزء يسير من ذلك الفيض الذى لا ينبض .

لقد توصل علماء الفلك إلى التقرير بأنّ المجرة[1] التى يقع فى طرفها النظام الشمسى والتى تسمى "درب التبان" ويسميها الإفرنج "الطريق اللبنية" أو "الدرب اللبنية *Milky way galaxy*" ، يقع ورائها كثير من "السُّدُم *nebolas*"[2] ، ومن جملته "سديم المرأة المسلسلة" الذى يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، وقد قدّرالعلماء حتى الآن ، من هذه السدوم بعدما رأوها آلات التصوير حوالى (٥٠٠) ألف سديم ، ويقولون أنه لو تقدمت تلك الآلات وازدادت إتقاناً فلربما رأوا أكثر من مليون سديم .

---

(١) المَجَرَّة "*Galaxy* " : نظام سماوى يتألف من نجوم وسُدُمْ "*Nebolas* " ومادة بَيْنَجيمية "*Interstellar* " . والمجرة التى يؤلف نظامنا الشمسى جزءاً منها تشتمل على ما يقارب مئة مليار نجم . وهى تدعى " الطريق اللّبنية" . وفى هذا الكون عدد لا يحصى من المجرات . وقالوا أنّه يوجد نحواً من خمسمائة مليون مجرّة . وهى تنزع إلى التجمع فى عناقيد ، أكبرها " عنقود كوما*Coma cluster* " الذى يتألف من عشرة آلاف مجرة تقريباً .

(٢) السّديم ***Haze*** : هو ضباب رقيق ناشئ عن وجود الدخان أو الغبار أو الملح فى الهواء ، أو عن وجود بعض جسيمات الماء البالغة الصغر فيه ، وقد ينشأ السّديم فى شهور الصيف الحارّة عن احترار الهواء على نحو غير متوازن مما يؤدى إلى تفاوت فى الكثافة وتفاوت فى انكسار موجات الضوء أيضاً . أما المقصود فى البحث فهو ما يسمى " السّديم أو الغيمة السديمية *Nebula* " وهى كتلة سحابية الشكل من غاز أو غبار أو منهما معاً ، تكون فى الفضاء البينجمى " أى الواقع بين النجوم " وتتوهج بفعل أشعة النجوم المجاورة المنعكسة عليها . أما إذا عدمت هذه الأشعة فعندئذ تبدو أشبه بكتلة سوداء تحجب ضياء النجوم الأكثر بعداً وهى تعرف فى هذه الحال "السديم المظلم *dark nebula* " . وهناك نظرية وضعها الرياضى الفرنسى " لابلاس " عام (١٧٩٦) تسمى "السّديمية *Nebular hypothesis*"وهى تقول بأنّ الشمس نشأت من سديم غازى ضخم ساخن دوّار ، برد شيئاً فشيئاً وتقلص متخذاً شكل كرة . ولقد كان من نتائج هذا التقلص أن انفصلت عن الشمس حلقات غازية ما لبثت أن تقلصت بدورها وشكلت الكواكب السّيارة ، وهكذا نشأ فى رأيه النظام الشمسي . ولقد أخذ علماء الفلك بتلك النظرية طوال القرن التاسع عشر ، تكاثرت معها سهام النقد الموجهة إليها ، ومن ثم أخذ العلماء بنظرية جديدة معارضة هى " النظرية الكويكبية *Planetesimal hypothesis*" وهى افتراض طلع به العالمان الأمريكيان " توماس تشمبرلين وفورست مولتون " عام (١٩٠٦) لتقسير نشوء الكواكب السيارة . وهى تقول أنّ الشمس لم يكن لها فى الماضى السحيق كواكب سيارة تدور حولها ، وأنّ كتلاً ضخمة من المادة فصلت عنها بفعل جاذبية نجم أكبر منها ، وأن هذه الكتل التى تدعى الكويبكات اتخذت لها مدارات إهليليجية حول الشمس ثم اتحدت لتشكل ما يعرف " الكواكب السيارة . أما " الكويكب أو السيير*Plantoid - asteroid*" فهو كما يقولون جرم سماوى صغير يدور مثل الأرض وسائر الكواكب



أمّا الأرض " *Earth* " : وهى ما لها علاقة مباشرة ووثيقة بالإنسان وحياته ، إذ هو يعيش فوقها فهى - فى علم الفلك - إحدى الكواكب السّيارة فى النظام الشّمسى الذى يقع فى طرف مجرتنا ، والتى ورائها مئات الآلاف من المجرات والسُّدُم . . . وهى الكوكب السيّارة الوحيد التى أُتيح لها من بين الكواكب الأخرى فى هذا النظام أن تكون صالحة للحياة ، وذلك بما خصّها الله به من كثافة وجاذبية وحركة وهواء وماء وما إلى غيرها من أسباب الحياة .

إنّ فى النظام الشمسى عدة سيارات كبار غير الأرض ، منها ما هو أقرب إلى الشّمس من الأرض ، ومنها ما هو أبعد ، ومنها ما هو أكبر ، ومنها ما هو أصغر ، ومنها ما هو أسرع دوراناً حول الشمس وحول محوره ، ومنها ما هو أبطأ ، ولكنها كلها منفتقة عن السّماء - كما يقول القرآن الكريم - أو منفصلة عن الشّمس - كما يقول علماء الفلك - والمعنى واحد . **وأشهر السيارات فى النظام الشمسى هي:**

عطـــــــــارد "Mercury": يـــدور كالأرض حول نفسه وحول الشمس، ومدّة هذا الدوران ٨٨ يوماً فى الحالتين، وهذا يعنى أنّ عطارد لـــه وجهـــان، أحدهما موجه دائماً نحو الشمس، فنصفه شمس والنصف الآخر زمهرير... وكثافته تقارب كثافة الأرض، الجاذبية به قليلة. ليس فيه هواء... ولهذه الأسباب فهو لا يصلح للحياة.

الزهرة "Venus": تدور هى الأخرى على نفسها فى نفس المدة التى تدور بها حـــول الشّمس، أى خلال ٢٢٥ يوماً، وهى مثل القمر، تـــتجه بـــأحد وجهـــيها نحو الشّمس، والوجه المتجه نحو الشّمس حرارته ٩٠ درجة، بينما الوجه الثانى ٢٠ درجة تحت الصفر. ليس فيها هواء ولا ماء، بل فيها بخار سميك، وتلك المزايا تجعلها غير صالحة للحياة.

المـــريخ "Mars": يـــدور حول نفسه مرة كل ٢٤ ساعة تماماً كما الأرض، ولكـــنه يـــدور حـــول الشمس ٦٨٧ يوماً، ويبعد عن الشّـــمس ١٤٢ ملـــيون ميل، وحرارته فى النهار بضع درجات فوق الصفر، ولكنها فى الليل تنزل إلى ٧٠ درجة تحـــت الصـــفر، سطحه بر لا بحر فيه ولا ماء، وإن توهم بعـــض الباحثين فى النصف الأول من القرن العشرين أنّ عـــلى ســـطحه أحياء... هواؤه مؤلف من غاز أثقل من الأوكسيجين. جاذبيته ١/٣ جاذبية الأرض، فلا تكفى إذاً لحفظ الأوكسيجين فى هواؤه. ولهـــذه الأســـباب فهـــو

لا يصلح أبداً للحياة على رأى المحققين من العلماء.

المشـــــتري "Jupiter": يتم دورته حول الشّمس فى ١٢ سنة، ويدور على محوره فى كل ١٠ ساعات، يبعد عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل تقريـــباً، ودرجـــة الحرارة فيه ١٣٠ درجة تحت الصفر، كثافـــته ¼ كـــثافة الأرض، ويرجح العلماء أنه كتلة من الغـــاز والمـــواد الذائـــبة، فمن البديهى ألا يكون صالحاً للحياة.

زُحَل "Satorn": يتم دورته فى ٢٩ سنة حول الشمس، ودورته على محوره فى ١٠ ســـاعات، وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل، فيصل إليه من حرارة الشمس جزء من ٩٠ جزء مما يصل إلى الأرض، كثافته أقل من ¼ كثافة الأرض، ويظهر أنّ مـــادة سطحه مائعة متحركة، فمن الطبيعى أنه لا يصلح للحياة.

امّا "أورانوس **Uranus**" و "نبتون **Neptune**"[١] و "بلوتو **Pluto**"[٢]

فعدم صلاحها للحياة أظهر لأسباب كثيرة، لاسيما وأنّ الأول يـــتم دورتـــه حول الشّمس كل ٤٨ سنة تقريباً، ويـــدور على محوره فى ١٠ ساعات، وبعده عن الشّمس

(١) يطلق هذا الاسم أيضاً على إله البحر عند الرومان .

(٢) يطلق هذا الاسم أيضاً على إله الموتى والعالم السفلى عند الرومان . أما " بلوتس *Plutos* " فهو يطلق على إله الوفرة والثروة عند اليونان .

١٧٢ مليون ميل. أمّا الثانى فيتم دورته حول الشّمس فى ١٦٩ سـنة تقريباً، ويدور حول محوره فى ١٠ ساعات، وبعده عن الشّمس ٢٧٩٢ مليون ميل تقريباً. أمّا الثالث فيـتم دورتـه حول الشّمس فى ٢٤٧ سنة، وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل تقريباً. فيكون كل من فصلى الشتاء والصيف فى أحدهما ٤٢ سنة، والثانى ٨٤ سنة، والثالث ١٢٣ سـنة، أما النهار فهو خمس ساعات فى كل منهم، وكذلك الليل.

أمّا الأرض والتى أنعم الله علينا بخلقها لسكنانا ومعاشنا فى آيات كثيرة ، وذكّرنا بمافى هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام ، فهى الكوكب السيّار الوحيد الذى جعله الله صالحاً للحياة دون غيرها من الكواكب: فقربها من الشّمس معتدل ، وحرارتها معتدلة ، ودورتها اليومية معتدلة وكافية لإحداث ليل ونهار معتدلين صالحين للسعى والراحة معاً ودورتها السنوية معتدلة وصالحة لإرواء الزروع وإنضاجها ، علاوة على امتيازها بالماء والهواء الصالحين للحياة .

وهذه المزايا السبع هى التى فرض الخالق قوانيها لتجعل الأرض صالحة للحياة ، ذلك أنّ حجمها أصغر من حجم الشّمس بمليون و٣٠٠ ألف مرة ، وكتلتها أى وزنها أقل من وزن الشّمس بـ٣٣٢ ألف مرة تقريباً - حسب أقوال علماء الفلك - وأنها أكثف من الكواكب السيارة جميعاً ، بل أكثف من الشّمس نفسها ، لأنّ كثافة الشّمس هى ربع كثافة الأرض ، فالثقل النوعى لكل جسم فى الشّمس أخف من الثقل النوعى للجسم نفسه وهو على الأرض ، وإنّ بعدها عن الشّمس ٩٣ مليون ميل ، ودورتها اليومية حول الشّمس تتم فى٣٦٥,٢٥ يوم ، وشكل مدارها حول الشّمس إهليلجي ، وسرعة دورانها حول نفسها ألف ميل فى الساعة ، وسرعة دورانها حول الشّمس بمعدل ١٨ ميل فى الثانية ، أى نحو ٦٥ ألف ميل فى الساعة . ووضعها على مدارها مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة .

ويقول العلماء - افتراضاً - أنه لوكان حجم الأرض أكبر أو أصغر ، ولو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر ، لاختل أمر الحياة أو تغير أو تشوه . لأنّ حجمها متناسب مع سرعتها ومع دورتها ومع ثقلها وتناسب مع قوّة جذبها ، فلو زاد الحجم أو نقص لتغيرت السرعة والمدّة ، ولو قلّ جذبها لأفلت الأوكسيجين منها ، ولولا الدورة اليومية لما كان هناك ليل ونهار دائبين ثابتين .

ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل فى الساعة أو قلت ، كما هو الحال فى بقية السيارات ، فكانت مثلاً مئة ميل فى الساعة لأصبح طول النهار ١٢٠ ساعة ، أو لا حترقت زروعنا فى لهيب النّار ، وذوت فى زمهرير الليل ، ولاختل ميزان العمل فى النهار والراحة والنوم فى الليل ، لكن هذه السرعة ثابتة لم يطرأ تبديل فى ثانية واحدة منذ خلقها الله الحكيم الخبير وفرض عليها قوانينها ، ولولا الجاذبية التى تربطنا بالأرض لَطِرنا عن ظهرها وانتثرنا انتثاراً نحن وبيوتنا ، بل لولا التعادل الدقيق بين الجاذبية التى تلصقنا بالأرض ، وقوّة البعد عن المركز "*force centrifuge*" التى تطردنا عن سطحها ، لطرنا وطارت بيوتنا ، وزحلت بحارنا من وسط الأرض إلى القطبين . . . **فســبحان الذى قدّر كل شىء بكل الإتقان والدّقة، مما جعل الأرض صالحة للحياة.**

وبعــد ، ، إذا تأملنا فى تلك القوانين التى جعلت من الأرض وحدها دون سائر السيارات الأخرى ، **فإننا قد نتسائل**:

ولم كانت الأرض وحدها هكذا؟... من أجل أن تكون فيها حياة.

ولمن تكون هذه الحياة؟... لمن شاء الله أن يكون خليفة فى الأرض.

ومن هو هذا الخليفة؟... إنّه الإنسان.

ومــم خلــق الإنســان؟... من تراب الأرض وطينها، أى من الأرض نفسها.

ومــاذا يعــنى ذلــك؟... يعــنى أنّ الله سبحانه وتعالى عندما جعل

الأرض وحدها هى الصالحة، فقد شاءت قدرته وإرادته لمن يعمر تلك الأرض أن يتكوّن منها، وأن ترتبط حياته بها، ثم يعود إلى أصله من التراب، فكما يبدأ من تراب يعود إلى تراب....... وهذه آية الله الكُبرى ومشيئته العُظمى فى تكوين الإنسان وخلقه، فقد شاء أن يجبل الإنسان الأول من طين الأرض وصلصالها ويُخلطَ بمائها، ثُمَّ يُعجن حتى تتكون الصورة التى أراده عليها، وما أن يلفحها الهواء وتصلها حرارة الشّمس حتى تستمسك وتصلب وتشتد، ويأتيها الروح بإذنه تعالى، فتستوى بشراً سَوِياً.

وهكذا يكون أصل الإنسان من الأرض ، وقد خصّها الله بالحياة ، فمن الطبيعى أن يكون الإنسان كائناً حياً ، وحياته تستمر من الأرض الحيّة ، لأنّ هذه الأرض هى التى تمده بالغذاء والماء ، وبدونها لا حياة ، فكل ما يأكله الإنسان إنما أصله من الأرض سواء أكان لحماً أو خضاراً أو فواكه أو حبوباً ، حتى إذا امتنع الإنسان عليه أكل وشرب ما تعطيه الأرض فقد بعد عن الحياة ، وبعد فقدانه حياته فإنه إلى الأرض يعود ، قال تعالى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾[1] .

لقد سمى الله الإنسان الأول (آدم) لأنه خلقه من أدمة الأرض ، والأدمة فى اللغة إنّما هى مشبهة بلون التراب ، وآدم أدماً بين القوم . (أصلح وألف ووفق بينهم) وفى هذه الخصيصة الأخيرة معنى جوهري ، وهو للدلالة على خواصّ الفكر والإرادة والنطق التى يتصف بها الإنسان عن سائر المخلوقات . وهنا السِّر الإلهى أيضاً ، إذ جعل اسم الإنسان الأول يقترن بأصله ، وبالتالى يحمل المزايا والصفات التى لا تكون إلا للإنسان من سائر المخلوقات ، وفى ذلك من التأكيد على العناية بالإنسان .

إنّ الإرادة التى جعلت هذا الكون المترامى الأطراف ، الذى لم يقدر العقل البشرى على أن يُلِمَّ به أو أن يعرف له حصراً على هذه الصورة من التكوين ، وجعلت له هذا

---

(١) طه : (٥٥) .

النظام الخارق فى الدّقة والإتقان ، بحيث تسْبَحُ الأفلاك والمجرات والكواكب والكويبكات التى لا تُعَدُّ ولا تحصى ، فى نطاق محدد ومحدود معين ثابت لايحيد عنه ومجبر على التقيد التام بأنظمته وقوانيه المفروضة عليه . إنّ تلك الإرادة التى أقامت هذا الانتظام الشامل الكامل الدقيق ، وهى على ما هى عليه من القوّة والاقتدار لقادرة على أن تمنح من قدرتها قدرة لأى كائن حتى تصبح له القدرة والحركة ، وعلى سبيل التشبيه مع الفارق : فبمقدار ما يُعطى الإنسان الآلة التى يصنعها طاقة حرارية أوشحنات كهربائية ، تكون تلك الآلة قادرة على التحرك والسرعة . وهكذا فإنّ النفخة الإلهية فى الإنسان وهى ما عليه من اقتدار وقوّة قد فعلت فعلها فى الجسم الترابي ، عندما نفخ الله فيه من روحه ، فاستوى بشراً ذا قدرات خارقة تكمن فى ما انطوت عليه تلك الروح التى جعلها فيه ، وتقف عند الحدّ الذى شاءت القدرة الواهبة لها أن تحْتَدَ بِهِ .

وفى هذا العصر أثبت العِلم أنَّ مادة هذا الكون تتألف من العناصر الأربعة :

التراب ، الماء ، النار ، الهواء

وأنّ هذه العناصر الأربعة تتكون هى نفسها من عناصر وعناصر ، وأنّ هذه العناصر الكثيرة تتكون من أجزاء صغيرة ، وأنّ تلك الأجزاء الصغيرة مكونة من أجزاء أصغر منها بكثير هى (الذرات *Atomes*) التى تبلغ من الصغر حداً كبيراً ، إذ قدّر حجم الذرة الواحدة بجزء من خمسين مليون جزء من البوصة ، أمّا وزنها فيتراوح على اختلاف العناصر ، بين جزئين و٣٩٥ جزءاً من مليون مليار من الغرام ، وهذا الحجم مع صغره المتناهى يراه العُلماء عظيماً بالنسبة لحجم الالكترونات والبروتونات التى تتألف منها الذرّة ، إذ الفرق بين حجم الذرّة كلها وبين حجم الالكترون الذى هو فيها كالفرق بين حجم ذرّة غبار وبين غرفة فى منزل .

إنّ للذرّة غلاف تدور فيه نواة أو نوايات كثيرة ، أمّا الغلاف فهو مؤلف من (الكترون *Electron*) واحد أو الكترونات كثيرة بحسب العناصر ، وأمّا (النواة *Rucleus*) فتتكون من (بروتون *Proton*) واحد أو أكثر ، أو بروتونات كثيرة ،

وتتكون من (نوترون*Neotron*) واحد أو نوترونات كثيرة ، إلا فى الهيدروجين فلا يوجد فيه نوترون . أما الالكترون فهو وحدة كهربائية سالبة ، والبروتون هو وحدة كهربائية موجبة ، والنوترون هو وحدة كهربائية محايدة ، لا سالبة ولا موجبة .

وحسب هذا المفهوم ، فالمادة والعالَم كله ونحن معه ، عبارة عن وحدات أو شحنات كهربائية . أى أن العالم كله يتألف من طاقات كهربائية متجمدة بشكل ذرات وعناصر .

وقد كان العالم "أينشتاين *Einstein . A*" هو أوّل من جاء بنظرية النسبية[١] التى تقول بأنّ المادة والقوة هى شىء واحد ، وقد صحت نظريته علمياً عندما أمكن فلق الذرة وتحويل مادتها إلى قوة ، وبناء على نفس النظرية فما دام ثبوت أنّ المادة والقوة شىء واحد ، فقد أمكن أن تتحّول المادة إلى قوة ، [٢] كما ثبت علمياً بتحطيم الذرة ، فقد يثبت يوماً إمكان تحويل القوة إلى مادة ، مما يكون دليل للمتشككين بإمكان خلق مادة العالَم من العَدَمْ .

وهكذا فإنّ "أينشتاين" قد وضع أساس العِلم الحديث الذى يقول بالوحدة بين المادة

---

(١) نظرية النسبية "*Relativity*" نظرية فى الكون وضعها أينشتاين عام (١٩٠٥) ، تبحث فى حركة المادة وسرعة الضوء والجاذبية ، والعلاقة بين المادة والقوة .

(٢) وبناء عليه فقد تمكن العقل البشرى من إنتاج القنبلة الذرية "*atomic bomb*" تلك الآلة الشيطانية التى تستمد قوتها المدمرة من انشطار بعض العناصر الثقيلة كالبولتوليوم واليورانيوم وتحولها إلى طاقة لقذفها بوابل من النيوترونات ونشوء ما يعرف ب "التفاعل المتسلسل *chain reaction*" . وقد صُنِعَت أولى القنابل الذرية المدمرة فى الولايات المتحدة الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية ، وقام رأس الكفر الصليبى بإلقاء أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما باليابان فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ . بأمر من رئيسهم المجرم هارى ترومان ، فجعلتها قاعاً صفصفاً ، وقضت على عدد لا يحصى من سكانها الأبرياء لإشفاء غل الكفار الحاقدين ، وليتمكنوا من استعمار العالم والتحكم فى مصائر الناس . وبعد ثلاثة أيام ألقى الكفرة الأمريكيون قنبلتهم الجهنمية الثانية على مدينة ناغازاكى باليابان ، فقتلت أربعين ألف شخص من المدنيين الأبرياء وجرحت أربعين ألف آخرين ومحت جزءاً كبيراً من المدينة . ليظل عملهم هذا ناطقاً أبد الدهر ومذكراً البشرية جمعاء بإجرام هؤلاء الكفرة المتباهون بديمقراطيتهم العفنة حيناً ، وبعلمانيتهم الكافرة حيناً آخر ، وبصليبيتهم الكافرة الحاقدة أحياناً أخرى . وبعد رأس الكفر الولايات المتحدة صنع الاتحاد السوفييتى البائد قنبلته الذرية الأولى ، وتبعه كل من بريطانيا الصليبية وفرنسا الصليبية والصين الشعبية . . . على التعاقب .

والقوة ، وبتحويل المادة إلى قوة وفنائها ، وقد استنتج من خلال نظريته النسبيّة فكراً محدداً حول الخلق والفناء ، خلافاً للقول: "لاشىء فى الطبيعة يخلق ، ولا شىء يفنى" ، وبذلك أوصله علمه وتفكيره العميق المستنير إلى الإيمان بالله تعالى خالقاً لهذه الموجودات من العدم وإلى أنّ العِلم لا يستقيم فى سيره بدون إيمان ، وأنّ إعمال العقل فى التفكر فى المخلوقات لا بد أن يوصل إلى إيمان بالله تعالى ، وفى ذلك قوله:

(إنّ أجمل هزّة نفسيّة نشعر بها هى تلك الهزّة التى تَعْرونا عندما نقف على عتبة الخفاء من باب الغيب ، إنّها النواة لمعرفة الحق فى كل فن وعلم ، وإنّه لَميت ذلك الذى يكون غريباً عن هذا الشعور ، فيَعيش مُسْتغلقاً رُعْباً ، من غير أن تجد روعة التّعجب إلى نفسه سبيلاً ، إنّ جوهر الشُّعور الدينى فى صميمه هو أن نعلم بأنّ ذلك الذى لا سبيل إلى معرفة كُنه ذاته موجوداً حقاً ويتجلّى بأسمى آيات الحكمة وأبهى أنوار الجمال ، التى لا تستطيع ملكاتنا العقلية المسكينة أنْ تدرك منها إلا الجِبليّة فى السطح دون الدقائق فى الأعمال . أى إيمان عميق بالحكمة التى بُنِى عليها الكون كان إيمان كبلر ونيوتن؟ [1] وأى شوق لهّاب كان شوقهما لأنْ يريا أضأل شُعاع من نور العقل المتجلى

---

(١) كَبْلر جوهانس "*Jphannes Kepler*" (١٥٧١ - ١٦٣٠): عالِم فلك ورياضيات وبصريات ألماني ، يُعتبر المؤسس الحقيقى لعلم الفلك الحديث ، وضع ثلاثة قوانين شهيرة خاصة بحركات الكواكب ، تعرف باسم: "قوانين كبلر *Kepler's Laws*" **ينص القانون الأول منها**: على أنّ جميع الكواكب تدور حول الشمس فى مسار يتخذ شكل قطعْ ناقص "*ellipse*" يقع مركز الشمس فى بؤرتيه أو مركزيهُ . وينص القانون الثاني: على أنّ الخط الذى يصل مركز الشمس بمركز الكواكب يرسم مساحات متساوية فى فترات متساوية من الزمن . أما القانون الثالث: فينص على أنّ مربع المدة الزمنيّة التى يستغرقها دوران الكوكب حول الشمس يتناسب تناسباً طردياً مع مكعب بعده المتوسط عن الشمس . **أما الثانى فهو** "سير إسحاق نيوتن *Sir Isaac Newton*" (١٦٤٣ - ١٧٢٧): رياضى وفيزيائى إنكليزي ، يعتبر أحد أبرز وجوه الثورة العلمية فى القرن السابع عشر ، وأحد أعظم العباقرة فى تاريخ العلم الحديث ، وضع "النظرية الجسيمية فى الضوء *Corpuscular theory*" وهى نظرية فى الفيزياء . قال فيها أنّ الضوء يتكون من جسيميات مادية تنطلق فى جميع الاتجاهات من سطوح الأجسام المضيئة . وقد حل محل النظرية السابقة "النظرية الموجبة *Wave theory*" للعالم الهولندى "كريستيان هايجنز" . أما النظرية الثانية فهي: "قانون الجاذبية والتجاذب *a Gravity and gravitation*" الذى ينص على أنّ قوة التجاذب بين كتلتين تتناسب تناسباً طردياً مع حاصل ضرب الكتلتين ، وتتناسب تناسباً عكسياً مع ربع المسافة التى تفصل بين مركزيهما . وأما نظريته الثالثة فكانت: "قوانين الحركة فى الديناميكا *Law* Dyanamics" التى تقول على أنّ الجسم الساكن يظل ساكناً ، والجسم المتحرك يظل متحركاً بسرعة =

فى هذا الكون؟ . . . . . إننى لا أستطيع أن أتصور عالماً حقاً لا يُدرِكُ أنّ المبادئ الصحيحة لعالم الوجود مبنيّة على حكمة تجعلها مفهومة عند العقل ، إنّ العِلمَ بلا إيمان ليمشى مشية الأعرج ، وإنّ الإيمان بلا عِلم ليتلمّس تلمّس الأعمى)

أما الرّبط القرآنى بين أول الخلق وبين تتابع هذا الخلق فهو واضح وصريح فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[1]

﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ** ﴾ إيجاداً من العدم مع عدم سبق وجود المادة الأصلية . أما قوله ﴿ **مِن سُلَالَةٍ** ﴾ فيشير إلى أنّ المواليد كلها أصول للإنسان ، وأنه المقصود بالذات الجامع لطبائعها . ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً** ﴾ بالإنضاج والتخليص الصادر عن القوى المعدّة لذلك ، ففى قوله هذا ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً** ﴾ : تحقيق لما صار إليه الماء من خلع الصور البعيدة ، وقوله ﴿ **فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ يعنى الرّحم ، ومكين تعنى - كما ثبت لاحقاً - أنّ الرحم مجهز فى تكوينه وفى خصائصه بما يُمَكِن أشدّ التمكين للجرثومة التى يكون منها اللقاح من الحفظ والوقاية والدفاع عنها .

أمّا الطور الثالث فهو ﴿ **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً** ﴾ : أى صَيَّرناها دماً قابلاً للتّمدد والتخلق والعلوق باللزوجة والتماسُك ، ومما يميز العلقة عن غيرها من الأطوار هى **النشوب والتعلق وإحاطة النطفة الملقحة بالدّم المتجمد الغليظ** . وقد ثبت فى علم الأجنّة أنّ النطفة التى يتكون منها اللقاح فى منى الرجل ، تعلو رأسها نازعة كالسنان فتهاجم البويضة فى الرّحم ، وتخرقها لتعلق بها ، ولذا سميت علقة ، فإذا امتزجتا يكون التحول

=ثابتة فى خط مستقيم ما لم تؤثر عليه فى كلتا الحالتين قوة خارجية ، وأنّ هذه القوة الخارجية تُسَرّع حركة الجسم فى اتجاهها هى وهذا التسارع يتناسب تناسباً طردياً مع القوة الخارجيّة.

(١) المؤمنون: (١٢ - ١٤) .

الأول للنطفة إلى علقة ، ولما كان بين هذه المراتب من المهلة والبعد ما ستقرره ، فقد عطفها بـ "ثم" المقتضية المهلة ما بين هذا الدور والأدوار الأخرى .

وبعد انقضاء المهلة المحددة يأتى الدور التالى وهو تحويل العلقة مضغة ، أى تحويل ذلك الدّم الغليظ جسماً صلباً قابلاً للتفصيل والتخليط والتصوير والحفظ وجعل مرتبة المضغة فى الوسط وقبلها ثلاث حالات وبعدها كذلك ، لأنها الواسطة بين الرّطوبة السّيّالة والجسم الحافظ للصور .

ثم يأتى دور العظام ﴿ **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا** ﴾ أى صلبنا تلك الأجسام بالحرارة والشدّة حتى قبلت التوثيق والرّبط والإحكام والضبط ، وذلك بعد تخلق الأعضاء المشاكلة للعظام ويتحول دم المحيض مُغذيا ، وقوله ﴿ **فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾ يعنى حال تحويل الدّم إلى لحم وشحم والدور الذى يكون فيه الإنسان كالنبات : ﴿ **وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا** ﴾[1] .

بهذا تكون أطوار الخلق سبعة . وقد ربط بعض المفكرين بينها وبين عدد الكواكب السّيارة السبعة ، كما ربطوا بينها وبين عدد السموات وهو سبعاً ، وعدد الأيام التى يتكون منها وهى سبعاً ، وتسمية القرآن بالسبع المثاني .

وبعدما يشتدُّ المخلوق ويفيض بالحياة والحركة مِن نفخ الرّوح فيه ، يستوى بشراً سوياً ، إنساناً فيه من دقة الخلق والتصميم والتصوير مما يشير إلى عظمة الخالق المصور المبدع ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ ومعنى خلقاً آخر هو تكوينه على صورة الإنسان ، بعدما كان خلقه فى أطواره الأولى متشابهاً مع خلق الحيوانات الأخرى ، كما يشير إلى ذلك العِلم

---

(١) نوح : (١٧) .

الحديث ، فإنّ العالِم الطبيعى الألمانى "فون باير *Von Baer*"[1] ، قام بجمع أجنة حيوانات مختلفة فى مرحلة خاصة من مراحل تطورها ، واحتفظ بها فى وعاء زجاجى به مطهر حافظ من التعفن والتمصّل ، ولثقته فى نفسه ، لم يضع على كل جنين ما يوضح هويته أو نوعه ، وعندما عاد إليها ليدرسها لم يستطع أنْ يرجع معظمها إلى أصولها التى جاءت منها ، لـــذا فقد كتب فى مذكراته : (إننى لا أستطيع أنْ أحدّد إطلاقاً إلى أيّة فصيلة أو رتبة تنتمى هذه الأجنّة . . . فقد تكون لسّحالى أو لطيور صغيرة أو لحيوانات ثديية فى مراحل نموها المبكّر . . . . . فكم هى متشابهة فى أشكالها وتكوينها هذه البدايات لأجنّة تلك الحيوانات !!!)

ومما لاشكّ فيه أنّ هذا التكوين للمخلوقات إنّما هو نتاج لنظام الزّوجيّة ، هذا النظام الذى يقول العلماء بأنه مطرد وشامل لجميع الأحياء من الحيوانات والنباتات كلها بطريقة واحدة ونَسَقٌ واحد ، وأعضاء متماثلة ولقاءً متماثلاً ، فيتساءلون كيف اتفق هذا الإطراد والشمول والتماثل فى كل حي؟ لقد استلفت هذا الإطراد نظر الفيلسوف "هنرى برغسون *Henri Bergson*"[2] . فبعد أن تكلم عن حاسّة الإبصار ، واستبعد أنْ يكون إ طرادها فى الإنسان وفى جميع الحيوانات على نسق واحد ، وتركيب مماثل أثراً من آثار المصادفة ، قال :

(وإذا سلمنا بأنّ هذه المصادفة جائزة الحدوث فى تكوين حاسة الإبصار الواحدة فى جميع الحيوانات، وقلنا أنّ الحيوانات ترجع إلى نوع واحد، فماذا نقول فى النبات وهو نوع آخر يسير فى

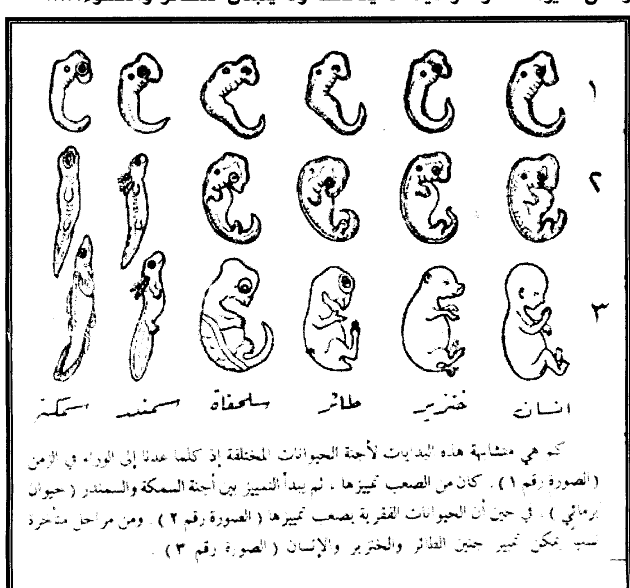
---

(١) فون باير "*Von Baer* " (١٧٩٢ - ١٨٧٢) : عالم طبيعى بروسي ، تخصص فى علم الأجنة ، له نظريات فى التطور الطبيعى الجنيني . . . . انظر صفحة (٤٩) - الفصل الثالث - الباب الأول .

(٢) هنرى برغسون : فيلسوف فرنسى (١٨٥٩ - ١٩٤١) ، قال بأنّ العالم المادى قوّة كامنة تعمل على تطوير المتعضيات والكائنات . وقد دعا هذه القوة "دفعة الحياة" أو "الدافع الحيوى" (*lan vital*) . ومن أشهر آثاره : "التطور الخلاق *L'Evolution creatrice*" عام (١٩٠٧) ، منح جائزة نوبل فى الآداب عام (١٩٢٧) .

طـريق مخـتلفة كـل الاخـتلاف عن طريق الحيوان إذا نحن رأيناهما يسـيران عـلى طـريقة واحـدة واحـدة في عملـية التناسل؟ فكيف اتفـق أن اخـترع الحـيوان الذكـورة والأنوثـة، ووفـق النـبات إلى الطريق نفسها وبالمصادفة نفسها؟)

ونحن نضيف إلى تساؤلات هذا الفيلسوف تساؤل آخر وهو: **لماذا ألزمت تلك المخلوقـات نفسـها وأبناء جنسها بتلك الطريق وفرضتها على نفسها وعلى غيرها قانوناً وحيداً لا يتخلف ولا يتبدل للتكاثر والنشوء؟!!!.**



كم هي متشابهة هذه البدايات لأجنة الحيوانات المختلفة إذ كلما عدنا إلى الوراء في الزمن (الصورة رقم ١). كان من الصعب تمييزها . ثم يبدأ التمييز بين أجنة السمكة والسمندر (حيوان برمائي) . في حين أن الحيوانات الفقرية يصعب تمييزها (الصورة رقم ٢) . ومن مراحل متأخرة نسبياً يمكن تمييز جنين الطائر والخنزير والإنسان (الصورة رقم ٣) .

الفصل الثالث

عملية الحمل وأطواره(١)

لقد كان أصل الخلق من تراب ، كان هذا فى الخلق الأول ، خلق آدم عليه السلام ، ثم تم خلق حواء من ضلعه الأيسر ، وخلق فى كليهما غريزة النوع التى من آثارها الميل الجنسي ، ميل كلا الجنسين للجنس الآخر ، أما ثورة الغريزة فإنها تتطلب الإشباع ، والإشباع يتم بمعاشرة جنسية بين ذكر وأنثى (جماع) ، وفى اجتماع الزوجين الذكر والأُنثى والذى يتم بمعاشرة جنسية ليتم فى نهايتها قذف السّائل المنوى من قضيب الرّجل المولج فى فرج الأنثى وبالذات فى رحمها أو مهبلها ، وتكون لحظة بلوغ المرء قمّة اللذة والنشوة الجنسيّة ، فيندفع هذا السائل المتدفق من قضيب الرّجل والمحتوى على النطفة مُلقحاً بويضة المرأة ، ليُكوّن هذا التلقيح اتحاداً بين إفرازات النسل الذكرية وبين إفرازات النسل الأنثوية ، مكوناً "النطفة الأمشاج" التى هي: النطفة المختلطة من الحيوان المنوى الملقِح لبويضة المرأة ، أى ما يُدعى: "البويضة الملقحة *Fertilized Ovum*" التى تتحرّك فى قناة الرحم لتصل إلى الرّحم "القرار المكين" فتستقرّ فيه وقد تحولت إلى قطعة متجمدة من الدّم ، ثم تتطور إلى قطعة من اللحم مصورة فيها معالِمُ الإنسان ، أو غير مصورة المعالِم ، ليبين لنا الله قدرته على الإبداع فى التكوين والتغيير من حال إلى حال ، وبمشيئته تعالى يُسْقِطُ من الأرحام ما يشاء وَيُقِرُّ بها ما يشاء ، حتى تكتمل الشهور التسعة المقدرة لمدة الحمل فى العادة (أو أكثر أو أقل) ، ليخرج الطفل من رحم أمه بشراً سوياً مكتمل الخلق حاملاً لكل الصفات الإنسانية ، وفى ذلك قوله تعالى من سورة الحج: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ**

---

(١) هذا الفصل بالكامل (بدون الحواشى السفلية) منقول بتصرف عن كتاب (معجم البيان الحديث - قصص الأنبياء في القرآن الكريم) سميح عاطف الزين الصفحات (٣٩ - ٥٧) .

زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[1]

ونستطيع أن نحدد المراحل والأطوار التى يمر بها الحمل حسب السياق القرآنى الوارد فى سورة الحج كما يلي:

(١) النُطفة: وهى نطفة يقذفها جهاز الرّجل التناسلى من خلال القضيب فى مهبل المرأة لتتلقفها نطفة الأنثى ، **والنطفة نوعان:**

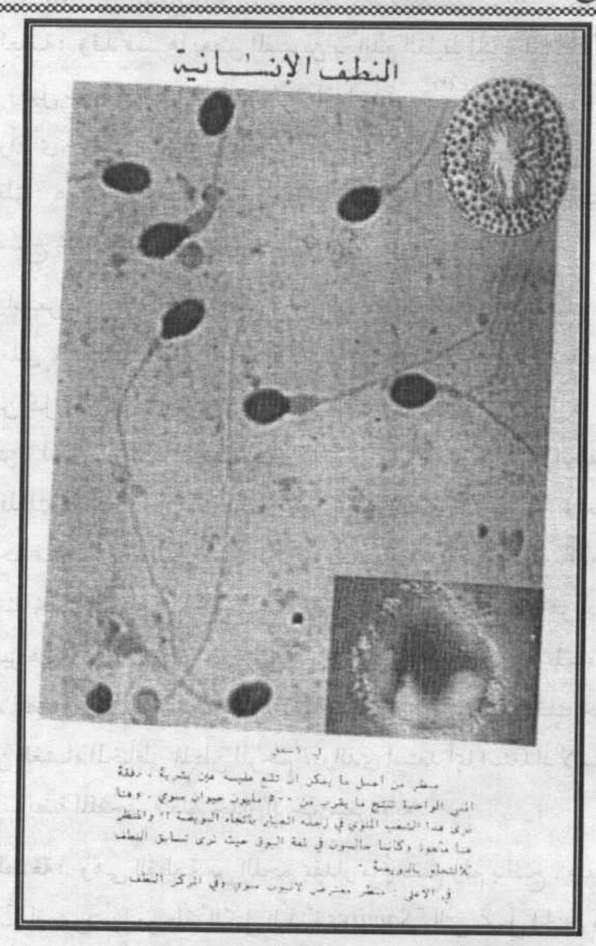
النطفة المذكرة "نطفة الرّجل": وهى الحيوانات المنوية الموجودة فى سائل الرجل المنوى "المني" المتدفق من قضيبه .

النطفة المؤنثة "نطفة الأنثى": وهى البويضة التى يفرزها مبيض المرأة مرَّة كل شهر .

أمّا المني: فهو لفظ يطلق على الإفرازات التناسلية للرجل ، ويتكون من الحيوانات المنوية "النطفة" والسائل المنوى الحامل لتلك الإفرازات ويغذيها .

ومتى اختلطت مياه الرجل بمياه المرأة، يتم تلقيح بويضة المرأة من الحيوان المنوى للرجل فيكونان "النطفة الأمشاج" أو "البويضة الملقحة*Fertilized Ovum*"

(١) الحج: (٥ - ٧) .



الجهاز التناسلى المذكريتكون من مصنع للنطف "*Spermatozzons*" التى يحملها السائل المنوى من خلال المني، والتى يقذفها جهاز الرجل التناسلى من خلال القضيب فى مهبل المرأة لتتلقفها نطفة الأنثى، ليتم التلاقح المنتج للإنسان..

(٢) العلقة: وقد فسَّرَها بعض المفسرين بـ "الدّم الغليظ المتجمد *Colt*"[١] وقال ابن الجوزي: وقيل سميت علقة لرطوبتها وتعلقها بما تمر به[٢]. وجاء فى "المصباح المنير": علقت المرأة أى حبلت. وجاء فى "لسان العرب": علق بالشىء عَلَقاً وعلقه: نشب فيه، والعلق: هو الدّم الجامد الغليظ. **وقال الأطباء:** العلقة هى المرحلة التى تعلق فيها النطفة الأمشاج بجدار الرحم وتنشب فيه[٣].

وفى استعراض معاجم اللغة العربية نرى أنّ لفظ العلقة يطلق أساساً وعادةً على ما ينشب ويعلق، وكذلك تفعل العلقة إذ تنشب فى جدار الرّحم وتنغرز فيه محاطة بالدّم المتجمد من كل حياتها. ويذكر الأطباء أنّ حجم العلقة عند بدأ انغرازها لا يزيد على ربع مليمتر، **لذا** ندرك لماذا أصرَّ بعض المفسرين القدامى على أنّ العلقة هى الدّم الغليظ، فذلك ناتج عن الملاحظة بالعين المجردة وهو تفسير صحيح، . فالعلقة الملتصقة بجدار الرّحم متعلقة به والتى لا تكاد تُرى بالعين المجردة هى محاطة بالدّم الغليظ غير منفصلة عنه بحيث يراه هكذا كل ذى عينين. **لذا** فإنَّ وصف العلقة هو أدقُ وصف، وأهم ما يميز هذه المرحلة من مراحل تخلق الجنين ونموه، وقد وصفها علماء الأجنّة بأنها "مرحلة الالتصاق والانغراز *Attachment and Implation*" وذلك حينما تقترب العلقة من الغشاء المخاطى المبطن للرحم، والذى استعد أيما استعداد لاستقبال النطفة الأمشاج "البويضة الملقحة" فتعلق بجدار الرحم منغرزة به.

(٣) المُضغة: وهى القطعة من اللحم بمقدار ما يُمضغ ولم ينضج. ويفسرها بعض الأطباء بأنَّ المقصود بها مرحلة "الكتل البدنيّة *Somites*" التى تحمل الجنين وكأنه مضغة من اللحم الغير ناضج، وفى هذه المرحلة يبدو الجنين فيها وكأنَّ أسناناً انغرزت فيه

---

(١) البار - د. محمد على، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، صفحة (٢٠٢): نقلاً عن: سيد قطب فى "فى ظلال القرآن"، والمراغى فى تفسيره، وآخرين.
(٢) المصدر السابق، نقلاً عن: ابن الجوزي، زاد المسير فى علم التفسير.
(٣) البار، محمد على، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، صفحة (٢١١ - ٢٣٣).

ولاكته ثم قذفته[1] .

(٤) مخلقة وغير مخلقة : وذلك - كما ذهب إليه المفسرون - هو وصف للمضغة ، وقال بعضهم أنّ المخلقة هى المصورة ، وغير المخلقة هى غير المصورة . روى عن الحسن البصرى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : مخلقة أى تامة الخلق لا عيب فيها ولا نقص ، وغير مخلقة أى أنّ بها عيب ونقص .... وفسّرها بعضهم أنّ غير المخلقة هى "السُقط أى الجهيض *Abortive*" .

وفى موضع آخر من محكم التنزيل يقص علينا الله تعالى قصة المراحل التى بدأت بخلق آدم عليه السّلام من خلاصة الطين ، ثم يعرج إلى خلق نسله بطريق الزوجيّة والتّوالد ، الذى يكون فى أول مراحله "نطفة" من منى الرجل : **الذى هو ماء فيه كـل عناصـر الحياة الأولى** ، تستقر فى الرّحم الذى هو مكان للاستقرار حصينٌ ومهيئ لحماية تلك النطفة ، ثم صَيَّرَ النطفة بعد تلقيح البويضة والإخصاب دماً ، ثم كوَّنَ الدَّمَ بعد ذلك قطعة من اللحم ، الذى تحوّل تخلقها بعد ذلك فصارت هيكلاً عظمياً ، وكسا العظام باللحم ، ثم أتم خلقه إنساناً كاملاً لا روح فيه ، متمماً الخلق بعد نفخ الروح فيه خلقاً مغايراً لمبدأ تكوينه . فتعالى الله فى عظمته وقدرته . وفى ذلك قوله تعالى من سورة المؤمنون : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[2] .

وهنا إعلامٌ لنا بالمراحل التى تم فيها خلق الإنسان ، **فالمرحلة الأولى** هى خلق آدم عليه السّلام بالطريقة التى أعلمنا بها القرآن فى أكثر من موضع : وهو سلالة الطين . **أمّا الثانية** : فهو تَكَوّنُ كافة البشر بعد آدم بطريقة واحدة تخضع لقانون الزوجية والتلاقُح وأطوار تكون الجنين .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٣٦٧) وما بعدها ، بتصرف .
(٢) المؤمنون : (١٢ - ١٤) .

مـن سُـلالـةٍ مـن طين: وهذا نص يشير إلى أطوارالنشأة الإنسانية ولا يحددها ، فيفيد أنّ الإنسان قد مرَّ بأطوارمُسلسلة من الطين إلى الإنسان ، فالطين هو الطور الأول لتكون الإنسان ، ومنه خُلق آدم أول البشرية "الإنسان الأول ، وهذا يعنى أنَّ الطين هو أصل نشأة الجنس الإنسانى التى كانت من سلالةٍ "خلاصةٍ" من طين . . . . . وأمّا نشـأة ا لفرد الإنسانى بعد آدم ، فتمضى فى طريق آخر معروف هو ما سيحدثنا عنه القرآن بعد ذلك .

القـرار المكين: هو رحم المرأة الذى تنمو فيه النطفة الملقحة حتى تصير جنيناً ، ثـم تحافظ عليه فى بقية أطواره حتى تخرجه طفلاً كامل الخلقة سوى التكوين . . . . لذا لابد له أن يكون محروساً ومهيئاً للمحافظة على تلك النطفة . وأول شىء نلاحظه هو أنّ الرحم موضوع فى فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة مما يوفر له الحماية الكاملة من أى عدوان خارجي ، ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم ، ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو حتى أنّ حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاّثة آلآف مرة فى نهاية الحمل ، ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به ، وبإيجاز أن هناك عوامل كثيرة تحفظ الرحم فى مكانه وتجعله القرار المكين .

ولـرُبَّ سائل يتسائل: هل يخلق الإنسان من ماء الرجل أم من ماء المرأة أم من كليهما؟ وهل للمرأة ماء كما للرجل؟.

لقد وقع الخلاف والنزاع قديماً حول هذه النقطة ، كما يقول الإمام "الفخر الرازي" فى كتابه: المباحث الشرقية"[١] ، فقد نفى "أرسطو"[٢] أن يكون للمرأة مني . . . أمّا

---

(١) الرازى - فخر الدين ، المباحث الشرقية ، جزء (٢) ، صفحة (٢٤٣) . والرازى - فخر الدين ، (١١٤٩ - ١٢٠٩ م) ، فقيه ومفسر مسلم ، ولد فى الرّى بإيران ، وتوفى فى هَراة بأفغانستان ، عُرف بدفاعه الشديد عن آراء مذهب " أهل السنة " ، فطارت له شهرة واسعة . . . وضع نحواً من مائة مجلد بعضها موسوعى الطابع ، أشهر آثاره تفسيرٌ للقرآن الكريم دعاه " مفاتيح الغيب . وهو من أشهر وأوثق التفاسير .

(٢) أرسطو "أرسطوطاليس *Aristotle*" (٣٨٤ - ٣٢٢ ق . م .): فيلسوف يوناني ، تلميذ أفلاطون وأستاذ الإسكندر المقدوني . جرت فلسفته فى اتجاه مغاير لمثالية أفلاطون ، وتعاظم اهتمامها شيئاً فشيئاً بالعلم وظواهر الطبيعة . ويعتبر واحداً من أعظم فلاسفة العالم ، وقد انسحب أثره على جميع المفكرين فى عصره ممن أتى=

"جالينوس"[1] وهو أشهر أطباء اليونان القديمة فقد أكثر من التشنيع عليه فى ذلك ، مثبتاً أنّ لـلمرأة منياً ، وإن كـان يختلف عن منى الرجل فى طبيعته ، وأنه لا يقذف ولا يندفع بل يسيل على العضو المخصوص وأنه رطوبة بيضاء[2] .

أمّا العِلم الحديث فيقرر أنّ الماء الذى لا يقذف ولا يندفع بل يسيل على العضو المخصوص إنّما هو إفرازات المهبل وغدد "بارثلون" المتصلة به ، وخروج الماء من فرج المرأة هو أمر طبيعى ومشاهد عند الجماع أو الاحتلام . والإسلام يعتبره موجباً للغسل ، وعند الجماع يختلط هذا الماء بمنى الرجل . . . ويتقلص الرحم تقلصات عديدة تدفع بهذا الماء المختلط من منى الرجل وماء المرأة إلى الرحم ومنه إلى قناة الرحم ، حيث يلتقى الحيوان المنوى ببويضة المرأة ليلقحها[3] . **وبالدراسة يتضح أنّ للمرأة نوعين من الماء:**

ماء لذج يسيل ولا يتدفق وهو ماء المهبل ، وليس له أى علاقة فى تكوين الجنين ، سوى مساعدته فى سهولة الإيلاج وفى ترطيب المهبل وتنظيفه من الجراثيم والميكروبات .

ماء متدفق يخرج مرة واحدة فى الشهر من حويصلة "جراف" بالمبيض عندما تقترب هذه الحويصلة المليئة بالماء الأصفر من حافة البويضة . وفيما روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنّ ماء الرجل أبيض ، وماء المرأة أصفر**»[4] وعند تمام نموها تنفجر فتنذلق المياه على أقتاب البطن ، ويتلقف البوق "وهو فى نهاية

= بعده حتى مُنبلج العصر الحديث ، من أشهر آثاره: " الأورغانون " فى المنطق ، وكتاب السياسة ، وكتاب ما وراء الطبيعة ، وكتاب الشعر .

(١) جالينوس *Galleons* : طبيب يوناني ، لـه مذهب فى الطب يدعى " الجاليسونية *Galennism* " ، وهو يقوم على أساس القول بأنّ الأخلاط الأربعة " الدم والبلغم و الصفراء والسوداء " هى التى تقرر صحة الإنسان ومزاجه .

(٢) البار - محمد على ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، صفحة (١٢١ - ١٢٢) .

(٣) البار - د . محمد على ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، صفحة (١٢٢) .

(٤) رواه مسلم .

الرحم" البويضة فيدفعها دفعاً خفيفاً حتى تلتقى بالحيوان المنوى الذى يلقحها فى الثلث الوحشى من قناة الرحم . وهذا الماء يحمل البويضة "النطفة المؤنثة" كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية "النطفة المذكرة" . وكلاهما متدفق . . . . وكلاهما يخرج من بين "الصلب والترائب" ، أى من الغدد التناسلية المنتجة . ماء دافق يندفق من خصية الرجل يحمل النطفة المذكرة . وماء دافق يخرج من حويصلة جراف بمبيض المرأة يحمل النطفة المؤنثة [١] .

وفى الحديث الشريف:

أخرج الإمام أحمد فى مسنده: أنّ يهودياً مَرَّ بالنبى ﷺ وهو يحدث أصحابه . فقالت قريش: يا يهودى إنّ هذا يزعم أنه نبي ، فقال: يا محمد ، مم يخلق الإنسان؟ . فقال رسول الله ﷺ: **«يا يهودي ، من كل يخلق ، من نطفة الرجل ، ومن نطفة المرأة»** . فقال اليهودي: هكذا كان يقول من قبلك [٢] .

وقال العسقلاني: (المراد أنّ المنى يقع فى الرحم حين انزعاجه بالقوة الشهوانية الدافعة مبثوثاً متفرقاً فيجمعه الله فى محل الولادة من الرحم . والمراد بالنطفة المني ، وأصله الماء الصافى القليل ، والأصل فى ذلك أنّ ماء الرجل إذا لاقى ماء المرأة بالجماع ، وأراد الله أن يخلق من ذلك جنيناً هيئ أسباب ذلك ، لأنّ فى رحم المرأة قوتين: قوة انبساط عند ورود منى الرجل حتى ينتشر فى جسد المرأة ، وقوة انقباض بحيث لا يسيل من فرجها مع كونه منكوساً ومع كون المنى ثقيلاً بطبعه ، وفى منى الرجل قوة الفعل ، وفى منى المرأة قوة الانفعال ، وقيل فى كل منهما قوة فعل وانفعال ولكن الأول فى الرجل أكثر ، والثانى فى المرأة أكثر . وزعم كثير من أهل التشريح أنّ منى الرجل لا أثر له فى الولد إلآ فى عقده ، وأنه إنّما يتكون من دم الحيض ،

(١) المصدر السابق ، صفحة (١٢٣ - ١٢٤) .
(٢) المقصود بمن قبلك: أى الأنبياء .

وأحاديث الباب تبطل ذلك . وما ذكر أولاً أقرب إلى موافقة الحديث . والله أعلم)[١]

ويقول الإمام ابن القيم : (ومنى الرجل وحده لا يتولد منه الولد ما لم يماذجه مادة أخرى من الأنثى . . . إنّ الأعضاء والأجزاء والصورة تكونت من مجموع المائين ، وهذا هو الصواب)[٢] .

أمّا القرآن الكريم، فيجيب على نفس التساؤلات في مطلع سورة الإنسان:

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[٣]

قال إبن جرير الطبرى فى تفسيره:

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ إنّا خلقنا ذرية آدم من نطفة ، يعنى من ماء الرجل وماء المرأة . والنطفة كل ماء قليل فى وعاء - كان ذلك فى ركية أو قربة أو غير ذلك - وقوله **﴿ أَمْشَاجٍ ﴾** يعنى أخلاط ، واحدها مَشَجَ ومَشيج ، يقال إذا مشجت هذا بهذا أى خلطته ، وهو مشوج به ومشيج أى مخلوط . . . وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة)[٤]

وقال عكرمة : أمشاج نبتليه : ماء الرجل وماء المرأة يمشج أحدهما بالآخر ، أى ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وعن الربيع بن أنس قال : إذا اجتمع ماء الرجل وماء المرأة . وقال الحسن البصري : مشج "خلط" ماء المرأة مع ماء الرجل . وقال مجاهد : خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة[٥] . وقد قال

---

(١) العسقلاني ، فتح البارى - شرح صحيح البخاري ، مجلد (١١) ، صفحة (٤٧٩ - ٤٨٠) .
(٢) الجوزية - الإمام ابن القيم ، التبيان فى أقسام القرآن ، صفحة (٢٤٢ - ٢٥٦) .
(٣) الإنسان : (١ ، ٢) .
(٤) الطبرى - ابن جرير ، جامع البيان فى تفسير القرآن ، جلد (٢٩) ، صفحة (١٢٠) .
(٥) البار - محمد على ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، صفحة (١٩٢) .

تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١)

أما ابن كثير فيقول فى تفسيره:

(يقول تعالى مُخبراً الإنسان أنه وُجدَ بَعْدَ أن لمْ يَكُن شيئاً مذكوراً لضعفه وحقارته) ثم يستطرد مفسراً ("أمشاج" أى أخلاط ، والمشج والمشيج المختلط بعضه مع بعض)

ويقول صاحب الظلال رحمه الله:

(الأمشاج : الأخلاط . وربما كانت هذه إشارة إلى تكوّن النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاط تعنى الوراثات الكامنة فى النطفة والتى يمثلها علمياً ما يسمونه علمياً: "الجينات" وهى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ، ولصفات الجينية العائلية أخيراً . وإليها يُعزى سير النطفة الإنسانية فى رحلتها لتكون جنين إنسان لا جنين أى حيوان آخر ، كما تُعزى إليها وراثة الصفات الخاصة فى الأسرة ، ولعلها فى هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى) (٢)

وبذلك نرى أنّ غالبية المفسرين من قدامى ومحدثين متفقون على أنّ النطفة الأمشاج هى النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة ، وأنّ الخلق يتكون من نطفتيهما . ويؤكد القرآن الكريم على حقيقة حصر الخلق فى الزوجية فى أكثر من موضع فى محكم التنزيل ، أكتفى منها بما جاء فى سورة الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٣) وفى تفسير تلك الآية يقول ابن جرير الطبرى فى تفسيره: (يا أيها الناس إنّا أنشأنا خلقكم من ماء ذكر من الرجال ومن ماء أنثى من النساء ، وبنحو ذلك الذى قلنا قال أهل التأويل) . . . وروى بسنده عن مجاهد قال: (لأنَّ الله تعالى يقول من ذكر وأنثى) .

---

(١) الحجرات: (١٣) .
(٢) قطب - سيد ، فى ظلال القرآن ، مجلد (٦) ، صفحة (٣٧٧٩) .
(٣) الحجرات: (١٣) .

وقال ابن كثير فى تفسيره : (يقول تعالى أنه خلقهم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء ، أى من ذكر وأنثى)[١]

ويقول القرطبى فى تفسيره : (ذهب قوم من الأوائل إلى أنَّ الجنين إنّما يكون من ماء الرجل وحده ، ويتربى فى رحم الأم ويستمد من الدّم الذى يكون فيه .... والصحيح أنّ الخلق إنّما يكون من ماء الرجل وماء المرأة - لهذه الآية - فإنها نَصٌّ لا يحتمل التأويل ، ولقوله تعالى ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [٢] والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء ... وأما ما احتجوا بهِ فليس فيه أكثر من أنّ الله ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة ، ولم يضفها إلى أحد الأبوين دون الآخر . فدلَّ على أنَّ الماء والسُّلالة لهما "والنطفة منهما" بدلالة ما ذكرنا . وبأنَّ المرأة تُمنى كما يُمنى الرجل)[٣]

يتضح بجلاء مما تقدم أنّ ما إكتشفة الإنسان وعلومه مؤخراً (فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) قد سبقه القرآن الكريم بوضوح لا يحتمل أى تأويل أو شك . وزادت عليه الأحاديث الشريفة توضيحاً ، فقدما الأجوبة الصريحة الدقيقة لاستفسارات الإنسان وتساؤلاته . كما أنّ نجوم هذه الأمة الصحابة الكرام ومن تبعهم من المفسرين والفقهاء قد فهموا من نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف ما نفهمه نحن اليوم منهم ، ويأكد فهمنا هذه الاكتشافات العلمية .

أمّا فى سورة المرسلات ، فإنّ الله تعالى يطلب من الإنسان كل إنسان إعمال عقله والتفكر فى الخلق : للاهتداء إلى وجود الخالق المدبر المصور ، والدعوة أتت على صورة أسئلة تذكيرية هادفة لتوجه الإنسان إلى الطريقة المنتجة للتفكير: ألم يتم خلقكم من ماء مهين حقير هو النطفة "الحيوان المنوى المذكر والبويضة المؤنثة" وجعلنا تلك النطفة بعد أن تلقحت وامتزجت فى مكان آمن حصين تتمكن فيه ، فيتم الخلق والتصوير إلى وقت

---

(١) ابن كثير ، تفسير ابن كثير ، جزء (٤) ، صفحة (٤٥٤) .
(٢) الطارق : (٦ ، ٧) .
(٣) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، مجلد (١٦) ، صفحة (٣٤٣) .

محدود قرره الله تعالى؟ فقدرنا على خلقه وتصويره وإخراجه للوجود بشراً سوياً!!! فنعم الخالقون نحن المقدرون له . وبعد كل تلك الأدلة التى لا مجال لدحضها بتاتاً فالويل والثبور لكل من أنعمَ الله تعالى عليه بعقل مفكر ورغم ذلك يُكذب الحقائق ويُنكر ويكفر بنعمة الخلق والتقدير . لقد جاء هذا التساؤل والتذكير والوعيد فى سورة المرسلات: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [١]

والمقصود "بماء مهين": أى ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة البارى عز وجل وهو النطفة . أما المقصود بـ ﴿ قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ فيعنى جمعناه فى الرحم وهو قرار المائين من الرجل والمرأة ، فالرحم معد لذلك تماماً ، حافظ لما أودع فيه من من ذلك الماء . وأما قوله تعالى: ﴿ إِلَــى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ فيعنى إلى مدة معينة "تسعة أشهر أو أكثر أو أقل" . أما ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أى قررنا أو أقدرنا .

قال القرطبى فى تفسيره: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ ﴾: أى ضعيف حقير وهو النطفة - وقد تقدم - . وهذه الآية أصل لمن قال: إنّ خلق الجنين هو من ماء الرجل وحده - وقد مضى القول فيه - [٢] . ﴿ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أى مكان حريز وهو الرحم . ﴿ إِلَــى قَــدَرٍ مَّعْلُــومٍ ﴾ قال مجاهد: إلى أن نصوره ، وقيل: إلى وقت الولادة . ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أى فقررنا وقت الولادة وأحوال النطفة فى التنقيل من حالة إلى أخرى حتى صارت بشراً سوياً ، أو الشقى والسعيد ، أو الطويل والقصير) [٣]

ودعوة أخرى إلى إعمال العقل والتفكر فى صورة سؤال يحوى فى طياته التحدى والتذكير الجميل والوعيد كما يحوى التعليم أيضاً ، وإعلام بكيفية الخلق والتكوين . . . أيظن أو يحسب هذا الإنسان المُلحِد المُنكِر للبَعث أن يُترَكَ مُهملاً فلا يُحاسَب!!! أَلَم يكن ذلك الإنسان نفسه فى طور من أطوار تخلقه نطفة من منى قدر تكوينه وحفظه فى

---

(١) المرسلات: (٢٠ - ٢٤) .
(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، جزء (١٢) ، صفحة (٧) .
(٣) المصدر السابق ، جزء (١٩) ، صفحة (١٥٩ - ١٦٠) .

الرحم؟ ثم صار علقة مع دم جامد ، فخلقه الله وسواه فى أحسن تقويم!!! وجعل منه صنفى الإنسان الذكر والأنثى ، أليس ذلك الخالق المبدع المصور المصور الفعال لِما يُريد ، أليس بقادر على إعادة الأحياء ثانية للموتى بعد جمع عظامهم تارة أخرى وقد خلقهم أصلاً من عدم!!! استعمل عقلك أيها الإنسان المُنكِر للبعث ثانية والحساب ، وتفكر فى الخلق إنشاءاً من العدم ، هل من أنشأ من العدم عاجز عن إعادة الإنشاء ثانية!!! فإلى سورة القيامه : ﴿ **أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ** ﴾ (١)

وهنا لفتة طريفة ، ففى هذه الآية الشّريفة يتحدث خالق النطفة ومنشئها ، فيُعَلمنا **التمييز بين النطفة وبين المني** ، : إذ جعل **النطفة جزء من المني** .

ويفسّر ذلك حديثه عليه الصلاة والسّلام: «**من كل الماء يولد الولد ، وإذا أراد الله خلق لم يمنعه شيء**» (٢) ويتطابق هذا أيضاً مع ما جاء فى سورة السّجدة: ﴿ **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ** ﴾ (٣) والسُّلالة كما يقول المفسرون هى الخُلاصة . أى جعل نسل بنى آدم من خلاصة الماء المهين الذى هو المني . ونحن نعلم الآن أنَّ جزءاً يسيراً جداً من المنى هو اللازم لتلقيح البويضة ، أى اللازم لعملية تخلق وتكوين الولد . فالدفقة الواحدة من المنى تحمل كما يقول العِلم الحديث مائتى مليون حيوان منوي . . . والذى يقوم بالتلقيح للبويضة هو حيوان منوى واحد من هذا الكم الهائل فقط .

وعندما تحدى رأس الكفر "أمية بن خلف" رسول الله ﷺ بصلف ، منكراً البعث ومستهزئاً باعتقاد المسلمين به . أتى ذلك الكافر الملحد الرسول ﷺ بعظم حائل ففته بين يديه وقال: يامحمد أترى الله يحيى هذا بعدما أرم؟ (٤) فأجابه عليه الصلاة والسلام راداً

---

(١) القيامة: (٣٦ - ٤٠) .
(٢) صحيح مسلم .
(٣) السجدة: (٨) .
(٤) حائل: أى متفتت . وأرم: تعنى بالي .

التحدى بأعظم منه : «**نعم ، يبعث الله هذا ويميتك ثم يحييك ثم يدخلك نار جهنم**»[(١)]

ويأتى وحى السّماء مصدقاً لتأكيد رسول السّماء ، وليؤكد كفر وإلحاد أمية بن خلف ، ومؤكداً صدق إيمان المسلمين بالخلق والبعث والحساب . فيأتى السياق القرآنى فى صورة سؤال وتعجب واستهزاء ، لافتاً النظر للتفكر بالخلق وقوانينه التى إن أُعمِلَ العقل بدراستها بتمعن ورغبة صادقة فى الوصول إلى الحقيقة سيصل حتماً للجواب القاطع الغير قابل للجدل والعناد والمكابرة . أجحد الإنسان وجود الله وقدرته؟ أنسى أنا خلقناه بعد العدم وبعد أن لم يكن؟ ألا يعلم أنا خلقناه من نطفة مهينة حقيرة؟ ومع هذا إذا به مجادل شديد الخصومة مبين للحجة ، يرى بذلك أنه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً خصيماً مبيناً ، وساق لنا هذا الخصم المبين مثلاً ينكر فيه قدرتنا على إحياء العظام بعد أن تبلى . ونسى أنّا خلقناه بعد أن لم يكن إذ قال ملحداً منكراً ومستبعداً قدرتنا على ذلك : ﴿ **مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ . قل يا محمد : يحييها الذى أنشأها أول مرة من العدم ، ففى استطاعة من بدأ الخلق أول مرة أن يعيده ثانية ، إن من كان عظيم العِلم بكل ما خلق لا يعجزه جمع الأجزاء بعد تفرقها . لقد جاء هذا التحدى الرائع الجميل فى سورة يسن : ﴿ **أَوَلَـمْ يَـرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ من نُطْفَة فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَـرَبَ لَـنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾[(٢)]

إنّ هذا الرّد الذى يحمل قمة التحدي ، هو فى نفس الوقت حوار هادف ، يقوم بتعليم هذا العُتل الزنيم كيفية إعمال العقل فى المشاهدات والدلائل القاطعة للتوصل إلى الجواب الشافى لمن أراده ، وليس المكابر المجادل الخصيم المبين .

فيما رواه الإمام مسلم فى صحيحه ، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ قال : «**إنّ أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً . ثم يكون**

---

(١) النيسابوري ، أسباب النزول ، صفحة (٢٠٩) .
(٢) يسن : (٧٧ - ٧٩) .

علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله تعالى المَلَكَ فينفخ فيه الروح» .

وفى سورة السّجدة يقول المَلك الجبارالعزيز الرحيم ، أنه قد أتقن كلّ شىء خلقه ، أتقنه خلقاً متكاملاً بما فيه من الخصائص والطاقات الكامنة التى كونها فيه . أمّا الإنسان الأول فقد ابتدأ خلقه من طين : ذلك هو آدم أوّل البشر عليه السّلام . أمّا نسله وذراريه وهم كل البشر بلا استثناء فقد جعل خلقهم بعد ذلك من ماء حقير ضعيف "مهين" لا يُؤبه لـه فى العادة ، ثم قوَّمَهُ ونفخ فيه من روحه ، أى أمده بالروح التى هى سرّ الحياة ، وخلق لـه موهِباً إياه ومُزَيِّنَهُ بالسّمع والإبصار والإدراك والحس والعقل ، ليسمع ويبصر ويدرك ويعقل ويتفكر .

ومع كل تلك النِّعَم العظيمة التى لا تقدر ، فإنّ هذا الإنسان المُنعَم عليهِ بما لم يُنْعَمَ على غيره من المخلوقات الكثيرة ، لا يقوم بواجب الشكر لله والحمد لـه على تلك النعم إلا فى القليل النادر . حتى أنّ الملاحدة من الناس المنكرين للبعث والحساب قالوا متسائلين يعتريهم العجب : أيعقل أننا بعد أن نصبح تراباً مختلطاً وممزوجاً بأديم الأرض ومتحداً معه بحيث لا يتميز عنه ، أيعقل أننا سنعود فى خلق جديد؟ إنّ هؤلاء وأمثالهم بالحادهم لا يُنكرون البعث والحساب وحده ، بل بجميع ما بعد الحياة الدنيا "أى الآخرة" هم مكذبون . وفى هذا جاء الرّد القرآنى فى سورة السّجدة :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾[1]

بعد قرون طويلة من إتمام نزول القرآن ، وفى منتصف القرن العشرين ، توصل

---

(١) السجدة : (٦ - ١١) .

العلم الحديث إلى معرفة حقيقة ظلت مجهولة لكل الناس - إلا المسلمين الذين دونت فى كتبهم وأسفارهم نقلاً عن القرآن الكريم - وهى أنّ ماء الرجل المنوى يتكون فى عظام الظهر الفقارية ، وأنّ المرأة تنتج هى الأخرى ماءً يتكون فى عظام الصدر العلوية ، حيث يلتقى الماءان بعد ذلك "ماء الرجل وماء المرأة" من خلال الاتصال الجنسى "الجماع" فيتمازجان ويتحدان فى مقر حصين آمن حافظ "مكين" الذى هو رحم المرأة مكوناً أول مراحل تخلق الجنين الإنساني .

وقد بينت الدراسات الجنينية الحديثة أنّ نواة الجهاز التناسلى والجهاز البولى فى الجنين تظهر بين الخلايا الغضروفية المكونة لعظام العمود الفقري ، وبين الخلايا المكونة لعظام الظهر ، وأنَّ الأعضاء التناسلية وما يغذيها من أعصاب وأوعية دموية تنشأ فى موضع من الجسم بين الصلب والترائب "العمود الفقرى *Vertebral column*" و"القفص الصدرى *Thoracic cavity*" . أليس هذا الذى توصل إليه العِلم الحديث بعد أن جنّد كافة إمكاناته المادية من مختبرات وأجهزة وتجارب وتشريح وأشعة ومواد كيماوية . . . علاوة على الأطباء والعلماء والمشرحين وغيرهم . . . . أليس هو عين ما تعنيه الآية الكريمة التالية من سورة الطارق؟ أَلَمْ يَأْنِ لهؤلاء العلماء أن يطأطؤا رؤوسهم إجلالاً واحتراماً وأن تخشع قلوبهم من خشية الله وإقراراً بعجزهم أمام قدرته تعالى؟ :

﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [1].

ماء : يعنى ماءى الرجل والمرأة . دافق : متدفق ومصبوب بدفع وسرعة إلى الرحم . الصّلب : الشديد ، وباعتبار الصّلابة سمى الظهر صلباً . الترائب : ضلوع الصّدر .

ذكر القرطبى فى تفسيره عن الحسن البصرى وغيره [2] : بأنَّ الماء الدّافق يخرج من

---

(١) الطارق : (٥ - ٨) .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، مجلد (٢٠) ، صفحة (٤ - ٦) .

صلب الرجل وترائبه ، وصلب المرأة وترائبها . وذكر الألوسى فى تفسيره مثل هذا [١] .
وقد أوضح ذلك ببيان جلى الشيخ المراغى رحمه الله حيث يقول فى تفسيره للقرآن :

(وإذا رجعنا إلى علم الأجنّة وجدنا فى منشأ خصية الرجل ومبيض المرأة ما يفسر لنا هذه الآيات التى حيرت الألباب ، وذهب فيها المفسرون مذاهب شتى ، كل على قدر ما أوتى من عِلم . . . وإن كان بعيداً عن الفهم الصحيح والرأى السائد .

ذاك أنه فى الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين فى الرحم ينشأ ما يسمى "ولف" وقناته على كل جانب من جانبى العمود الفقري . ومن جزء من هذا تنشأ الخصية وبعض الجهاز البولي . . . ومن جزء آخر تنشأ الخصية فى الرجل والمبيض فى المرأة . فكل من الخصية والمبيض فى بدأ تكوينهما يجاور الكلى ويقع بين الصلب والترائب ، أى ما بين منتصف العمود الفقرى تقريباً ومقابل أسفل الضلوع .

ومما يفسر لنا صحة هذه النظرية أنَّ الخصية والمبيض يعتمدان فى نموهما على الشريان الأورطى فى مكان يقابل مستوى الكلى الذى يقع بين الصلب والترائب ، ويعتمدان على الأعصاب التى تمد كلاً منهما ، وتتصل بالضفيرة الأورطية ثم بالعصب الصدرى العاشر ، وهو يخرج من النخاع من بين الضلع العاشر والحادى عشر ، وكل هذه الأشياء تأخذ موضعها من الجسم فيما بين الصلب والترائب) [٢] .

(والآية الكريمة تحثنا على النظر والتمعن فى تخلق الإنسان من هذا الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب ، وسبب تدفقه هو تقلصات جهاز الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمنى مع تقلصات عضلات العجان ، فتدفع بالسائل المنوى بمحتوياته من ملايين الحيوانات المنوية عبر الإحليل إلى المهبل . وهذا هو سبب الرّعشة عند الإنزال . وذلك كله متعلق بالجهاز العصبى اللاإرادي ، والمسمى بـ "الجهاز التعاطفى *Sypathetic nerves*" .

---

(١) تفسير الألو سى "روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى" ، سورة الطارق .
(٢) البار - د .محمود على ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن صفحة (١٢٠ ، ١٢١) نقلاً عن تفسير المراغي .

أمّا الانتشار والانتصاب فسببه أعصاب خاصة من الجهاز العصبي اللاإرادي المسمى "نظير التعاطفي *Para Sypathetic*" وبواسطته تمتلئ الأوردة الدموية الكثيفة في القضيب فتسبب الإنتشار . وهذه الأعصاب تأتي من منطقة بين الصلب والترائب . ونرى أنّ ذلك كله موكول إلى جهاز غير إرادي ولا تتحكم فيه الإرادة حتى يخرج أمر الخلق والتخلق من كل شبهة للإرادة الإنسانية)[1] .

تقول الآية الكريمة أنّ الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ، ونحن قلنا أنّ الماء الدافق "المني" إنّما يتكون في الخصية وملحقاتها ، كما تتكون البويضة في مبيض المرأة . فكيف تتطابق تلك الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية؟ .

على هذا السؤال يجيب الدكتور محمد على البار قائلاً:

(إنّ الخصية والمبيض إنّما تتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبه ، والصلب هو العمود الفقري ، والترائب هي الأضلاع ، وتتكون الخصية والمبيض من هذه المنطقة بالضبط أي بين الصلب والترائب . ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن "خارج الجسم" في أواخر الشهر السابع من الحمل . . . . بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة ولا ينزل أسفل من ذلك . **ومع هذا** فإنّ تغذية الخصية والمبيضين بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها . . . أي بين الصلب والترائب . فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأبهر "الأورطي البطني *Aorta artery*" من بين الصلب والترائب ، كما أنّ وريد الخصية يصب في نفس المنطقة . . . يصب الوريد الأيسر في الوريد الكلوي الأيسر ، بينما يصب وريد الخصية الأيمن في الوريد الأجوف السفلي . . . وكذلك أوردة المبيض وشريانها تصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب . . . كما أنّ الأعصاب المغذية للخصية أو المبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب . . . وكذلك الأوعية الليمفاوية تصب في نفس المنطقة أي بين الصلب والترائب .

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١١٤ - ١١٦) بتصرف .

فهل يبقى بعد كل هذا شك أنَّ الخصية أو المبيض إنّما تأخذ تغذيتها ودمائها وأعصابها بين الصلب والترائب؟ . . . فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة إنّما تستقى مواد تكوينها من بين الصلب والترائب ، كما أنّ منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول ﴿ **مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ . . . فكلمة "بين" ليست بلاغية فحسب ، وإنّما تعطى الدقة العلمية المتناهيه)[١]

هذا هو التفسير العلمي ، والذى أتى مطابقاً لما ورد فى القرآن الكريم . أمّا قول بعضهم أنّ المنى يخرج من صلب الرجل ، أما ماء المرأة فيخرج من ترائبها ويتكون فى ترائبها ، فإنّ هؤلاء لم ينتبهوا إلى كلمة "بين" الواردة فى النص القرآني ، لذا فقد وقعوا فى الخطأ . ذلك الخطأ الذى وقع فيه عدد من المفسرين قد تنبه إليه الإمام ابن القيم ، حيث ورد فى كتابه "إعلام الموقعين عن رب العالمين" ما يلي: (ولا خلاف أنّ المُراد بالصّلب صلب الرجُل . واختلف فى الترائب ، فقيل المراد ترائبه أيضاً ، وهى عظام الصدر بين الترقوة إلى الثندوة . . . وقيل المراد بها ترائب المرأة . والأول أظهر لأنه سبحانه قال ﴿ **يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ** ﴾ ولم يقل "من الصلب والترائب" ، فلا بد أن يكون ماء الرجل خارجاً من بين هذين الملتقيين كما قال فى اللبن "يخرج من بين فرث ودم" . . . **وهذا لا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة، بل يُطلقُ على كل من الرجل والمرأة.** قال الجوهري: الترائب عظام الصدر بين الترقوة إلى الثندوة)[٢]

أمّا القرطبى فيقول فى تفسيره: (يخرج من صلب الرجل وترائب الرجل ، ومن صلب المرأة وترائب المرأة ، . . . وأيضاً المكثر بالجماع يجد وجعاً فى ظهره وصلبه ، وليس ذلك إلا لخلو صلبه عما كان محتبساً من الماء)[٣] . وللألوسى فى تفسيره والشيخ

---

(١) البار - د. محمد على ، خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، صفحة (١١٤ - ١١٦) ، بتصرف .
(٢) ابن القيم الجوزية ، إعلام الموقعين عن رب العالمين ، جزء (٢) صفحة (١٥٨) .
(٣) تفسير القرطبي ، جزء (٢٠) صفحة (٧) .

المراغى كذلك نفس الفهم ، وقد نبهنا إلى رأيهما فى موضع سابق من هذا الفصل .

يتضح مما تقدم أنّ تخلق الإنسان قد حصل من جراء الزوجية المتمثلة بالجماع الحاصل بين ذكر وأنثى ، فيتكون الجنين من اختلاط وتلاقح مائيهما ، وكلا المائين دافق ، وكلا المائين يخرج من بين الصلب والترائب: من الغدة التناسلية : الخصية فى الرجل ، أو المبيض فى المرأة ، وكلاهما يتكون من بين الصّلب والترائب ، كما أنَّ تغذيتهما وترويتهما بالدماء والأعصاب تأتى من بين الصُّلب والترائب . فيتضح لنا معانى الآية الكريمة فى إعجازها الدقيق الرائع : **ماء دافق من الخصية يحمل الحـــيوانات المـــنوية... وماء دافق من حويصلة جراف بالمبيض يحمل البويضة.... ومن كلاهما يتخلق الإنســـــان.**



ليس مركبة فضائية في الجو الخارجي . انه جنين في رحم امه في الاسبوع الحادي عشر!! لاحظ بدء الشكل الانساني. والزغابات المشيمية المحيطة به من كل جانب . قبل أن تصبح قطعة واحدة في اتجاه واحد . لاحظ كبر الرأس وصغر الجسم والاطراف .

ان المرحلة التي يمر فيها هي من اخطرها على الاطلاق حيث تتشكل الاعضاء والاجهزة بكافة اختصاصاتها واي خلل يطرأ عليها يعني نتائج مريعة في الكيان الانساني .

الفصل الرابع

مـدة الحمـل

إنّ أقل مدّة الحمل ستة أشهر . لما روى الأثرم بإسناده عن أبى الأسود أنه رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر فهم عمر برجمها ، فقال على : ليس لك ذلك . قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِـدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَـالُهُ ثَلاثُـونَ شَهْرًا ﴾ [2] ، فحولان وستة أشهر ثلاثون شهراً ، لا رجم عليها . فخلّى عمر سبيلها . وولدت امرأة أخرى لذلك الحد . ورواه الأثرم أيضاً عن عكرمة عن ابن عباس قال ذلك الأحول : فقلت لعكرمة أنا بلغنا أنَّ علياً قال ذلك ، فقال عكرمة : لا ما قال هذا إلا ابن عباس . وذكر ابن قتيبة فى "المعارف" أنَّ عبد الملك بن مروان وُلِدَ لستة أشهر ، وهذا قول مالك والشافعى وأصحاب الرأى وغيرهم [3] .

وظاهـر مذهب الحنابلة أنّ أقصى مدة الحمل أربع سنين، بِهِ قال الشافعي، وهو المشهور عن مالك. وروى عن أحمد أنَّ أقصى مدته هو سنتان، وروى ذلك عن عائشة، وهو مذهب سفيان الثورى وأبى حنيفة ، لما روت جميلة بنت سعد عن عائشة : "لا تزيد المرأة عن سنتين فى الحمل" ، ولأنّ التقدير إنّما يُعلمَ بتوقيف أو اتفاق ، ولا توقيف ههنا ولا اتفاق ، وإنّما هو على ما ذكرنا وقد وُجِدَ ذلك ، فإنَّ الضحاك بن مزاحم وهرم بن حيان حملت أمُ كل منهما به سنتين ، وقال الليث بن سعد : "أقصاه ثلاث سنين ، حملت مولاة لعمر بن عبد الله ثلاث سنين ." وقال عباد بن العوام : خمس سنين . وعن الزهرى قال : قد تحمل المرأة ست سنين ، وسبع سنين . وقال أبو عبيد : ليس لأقصاه وقت يوقف عليه [4] .

---

(١) البقرة : (٢٣٣) .
(٢) الأحقاف : (١٥) .
(٣) ابن قدامة ، المغنى والشرح الكبير ، جزء (٩) ، صفحة (١١٦) .
(٤) المصدر السابق ، صفحة (١١٧) .

ولـنا أنَّ ما لا نَصَّ فيه يُرجَعُ فيه إلى الوجود . وقد وُجِدَ الحمل لأربع سنين ، فقد روى الوليد بن مسلم قال : (قلت لمالك بن أنس حديث جميلة بنت سعد عن عائشة قالت : لا تزيد المرأة عن سنتين فى الحمل ، قال مالك : سبحان الله ! من يقول هذا ؟ هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان تحمل أربع سنين قبل أن تلد) وقال الشافعي : بقى محمد بن عجلان فى بطن أُمِّهِ أربع سنين ، وقال أحمد : (نساء بنى عجلان يحملن أربع سنين ، وامرأة عجلان حملت ثلاث بطون كل دفعة أربع سنين ، وبقى محمد بن عبد الله بن الحسن بن على فى بطن أُمه أربع سنين ، وهكذا إبراهيم بن نجيح العقيلي ، حكى ذلك أبو الخطاب ، وإذا تقرر وجوده وجب أن يُحكم به ولا يُزاد عليه لأنه ما وُجِد . ولأنَّ عمر ضَرَبَ لامرأة المفقود أربع سنين ولم يكن ذلك إلا لأنه غاية الحَمل ، وروى عن عثمان وعلى وغيرهما)[١]

أمّـا أكـثر الحمل عند الأطباء فلا يزيد عن شهر بعد موعده، وإلا لمات الجنين فى بطن أمه ، ويعتبرون ما زاد على ذلك خطأ فى الحساب[٢] .

أمّا الإمام على بن أحمد بن حزم الظاهرى فيقول فى "المُحَلّى" :

(لا يجوز أن يكون حمل أكثر من تسعة أشهر ، ولا أقل من ستة أشهر ، لقول الله تعالى : ﴿ **وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا** ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ **وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ** ﴾[٤] فمن ادعى حملاً وفصالاً يكون فى أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال ورد كلام الله عز وجل جهاراً)[٥] . وبعد أن ذكر مختلف الأقوال فى مدد الحمل التى قال بها الفقهاء - والتى سبق أن ورد بعضها فى بداية الفصل - بعد أن ذكر كل تلك الآراء قال : (وكل هذه

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (١١٧ - ١١٨) .
(٢) البار - د .محمد على ، خلق الإنسان فى الطب والقرآن ، صفحة (٤٥٢) .
(٣) الأحقاف : (١٥) .
(٤) البقرة : (٢٣٣) .
(٥) المصدر - ابن حزم - على بن أحمد ، المحلى ، جزء (١٠) ، صفحة (٣١٦) ، طباعة دار الفكر - بيروت .

أخبار مكذوبة راجعة إلى من لا يصدق ولا يُعرف من هو ولا يجوز الحكم فى دين الله بمثل هذا)[١] .

إلا أنَّ الجنين قد يموت فى بطن أمه ويبقى فيها أمداً طويلاً ، وقد يتكلس[٢] الجنين بعد موته ثم يقذفه الرحم بعد فترة ، وقد يقذفه على فترات متقطعة . وهذا أمر معروف عند الأطباء ومشهور لديهم[٣] . وقد نقل عن ابن حزم عن الإمام على قال : (إلا أنَّ الولد قد يموت فى بطن أمه فيتمادى بلا غاية حتى تلقيه متقطعاً فى سنين . .)[٤] .

وينفى د . محمد على البار إمكانية حدوث هذا الحمل الطويل الممتد سنيناً . . . . . حيث يذكر أنهُ قد وجدت نساء ممن كُنَّ يترددن على عيادته فى اليمن يزعمن أنَّهُنَّ حوامل لعدة سنوات . . . . وبالفحص تبين أنهن لم يَكُنَّ حوامل . . . ويعلل ذلك بأنهُ كان ذلك "الحمل الكاذب *Pseudo pregnancy*"[٥]

أمّا الغالب فى مدّة الحمل فقد حَدّدَ أحد الأطباء المسلمين مدّة الحمل ، فقد حدّدها الطبيب العربى "أحمد بن محمد البلدي" والذى عاش قبل أكثر من ألف عام فى كتابه "تدبير الحبالى والأطفال والصبيان" حيث قال : (إنّما نجد جميع من يلد من النساء يكن ولادهن فى الأيام التى فيما بين مائتين وثمانين يوماً ونصف بالتقريب ، وبين مائتين وأربعة وسبعين يوماً على التقريب)[٦]

---

(١) المصدر السابق .

(٢) يتكلس : يعنى ترسب فيه أملاح الكالسيوم فيصبح مثل الجير .

(٣) البار - د . محمد على ، خلق الإنسان فى الطب والقرآن ، صفحة (٤٥٣) .

(٤) المحلى لابن حزم ، جزء (١٠) ، صفحة (٣١٦) .

(٥) الحمل الكاذب : *Pseudopregncy* حالة سيكوسوماتية (أى جسدية نفسية) تتوهم المرأة الباحثة عن الإنجاب تتوهم أنها حامل ، وتكون مصحوبة عادةً ببعض الأعراض الطبيعية الواضحة ، كانقطاع الطمث وتضخم البطن ، وبحركة جنينية ظاهرة ، وباضطراب فى عمل الغدد الصم شبيه بذلك الذى يرافق الحمل ولكنه أقل وضوحاً .وتعتقد المرأة مع هذه أنها حامل فعلاً ، رغم تأكيد كل الفحوصات الطبية بعدم وجود الحمل . وقد يحدث لأحدى هؤلاء الواهمات بالحمل الكاذب الذى تتصور أنه بقى سنيناً . . . قد يحدث فعلاً أنها تحمل فعلاً . . .فتضع طفلاً طبيعياً فى فترة حمله ، فتتصور أنها قد حملته لسنين عدة .

(٦) البلدى -أحمد بن محمد ، كتاب تدبير الحبالى والأطفال والصبيان ، تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم محمد ، =

وهذا التحديد هو الشائع الآن ، وهو ما يقول به أطباء أمراض النساء والولادة ، أى أنَّ معدل مدّة الحمل هى ٢٨٠ يوماً ، أو عشرة أشهر قمرية ، من الممكن أن تزيد قليلاً . أمّا أقل مدّةٍ للحمل التى هى ستة أشهر ، فقد اتفق عليها الفقهاء كما ذكر ابن القيم الجوزية فى كتابه "التبيان فى أقسام القرآن" ، كما أنّ أطباء الولادة يوافقون المسلمين فى ذلك .

فتعتبر مدّة الحمل الطبيعية (٢٨٠ يوماً)، تُحسب من بدء آخر حيضة حاضتها المرأة، وبما أنَّ التلقيح وبداية الحمل يحدث عادة فى اليوم الرابع عشر من بدء الحيض تقريباً... فإنَّ مُدّة الحمل الحقيقية تكون (٢٨٠ - ١٤=٢٦٦) يوماً. أى حوالى تسعة أشهر فى الغالب وأقله ستة أشهر وأكثره سنتان [1] .

---

* الطبعة العراقية سنة (١٩٨٧) ، صفحة (١١٥) .

(١) النبهانى - الشيخ تقى الدين ، النظام الاجتماعى فى الإسلام ، صفحة (١٦٩) .

الفصل الخامس

الخلق في السُّنة الشريفة

بعد أن قمنا باستعراض بعض نصوص القرآن الكريم - المصدر الأول للتشريع - التى تتناول تفسير عملية الحمل وأطواره ، وبما أنّ السنة الشريفة - وهى المصدر الثانى للتشريع - قد تناولت ذلك مبينة وشارحة لما ورد فى القرآن الكريم ، فسنستعرض إن شاء الله بعض ما جاء فيها :

أخرج الإمام أحمد فى مسنده : أنَّ يهودياً مَرَّ برسول الله ﷺ وهو يحدّث أصحابه . فقالت قريش : يا يهودى إنَّ هذا يزعم أنه نبي . فقال لأسألنّه عن شيء لا يعلمه إلا نبي ، فقال : يا محمد ، مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ : «**يا يهودي ، من كل يخلق ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة**» . فقال اليهودي : هكذا كان يقول من قبلك . "أى الأنبياء" .

إذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكاً قال يا رب مخلقة أو غير مخلقة ، فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً [1] .

وعن أنس رضى الله عنه عن الرسول ﷺ قال : «**وكل الله بالرحم ملكاً يقول : أى رب نطفة؟ أى رب علقة؟ أى رب مضغة؟ فإذا أراد الله أن يخلق خلقاً قال : يا رب ذكر أم أنثى؟ أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك فى بطن أمه**» [2]

وعن حذيفة بن أسيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «**إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ، بعث الله ملكاً فصورها وخلق سمعها و بصرها**

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وابن رجب فى " جامع العلوم والحكم " وابن القيم فى " طريق الهجرتين " .
(٢) رواه البخارى ومسلم .

وجلدها وعظمها ، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك» [١] .

وفى رواية لعبد الله بن مسعود عن الرسول ﷺ قال: «**إنّ أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة . ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد**» [٢] .

«**ما من كل الماء يولد الولد . وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء**» [٣] .

يقول المصطفى عليه السلام لليهودى الذى سأله عن الولد: ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر ، فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنث بإذن الله ، قال اليهودي: صدقت وإنك لنبي [٤] .

وعن حذيفة بن أسيد الغفارى قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذنى هاتين يقول: «**إنَّ النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيجله الله ذكراً أو أنثى . ثم يقول يارب أسوى أم غير سوي؟ فيجعله الله سوياً أو غير سوي . ثم يقول: يا رب ما رزقه؟ ما أجله؟ ما خُلقُهُ؟ ثم يجعله الله شقياً أو سعيداً**»[٥] .

عن أنس رضى الله عنه أنّ عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبى ﷺ: من أى شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أى شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال ﷺ:

---

(١) رواه مسلم فى كتاب القدر .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) أخرجه مسلم .
(٥) أخرجه مسلم .

«وأمّا الشبهُ فى الولد فإنّ الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماءه كان الشبه له ، وإذا سبقت كان الشبه لها» [(١)] .

«إذا مكثت النطفة فى رحم المرأة أربعين ليلة جاءها الملك فاختلجها ثم عرج بها إلى الرحمن عز وجل ، فيقول: اخلق يا أحسن الخالقين ، فيقضى الله بها ما يشاء من أمره ، ثم تُدفع إلى الملك فيقول: أسَقطٌ أم تمام؟ فيبين له ، ثم يقول: يا رب أواحدٌ أم توأمين؟ فيبين له ، ثم يقول: أشقى أم سعيد؟ فيبين له ، ثم يقول: يا رب اقطع له رزقه مع أجله ، فيهبط بها جميعاً . فوَ الذى نفسى بيده لا ينال من الدنيا إلا ما قسم له»[(٢)] .

«إذا خلق الله النسمة قال مَلكُ الأرحام: يا رب أذكر أم أنثى؟ قال: فيقضى الله أمره ، ثم يقول: أى رب أشقى أم سعيد؟ فيقضى الله أمره . ثم يكتب ما أمره الله بين عينيه حتى النكبة ينكبها» [(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاري .
(٢) أخرجه اللالكائى عن عبد الله بن عمر . وذكره ابن رجب الحنبلى فى كتابه " جامع العلوم والحكم " . وذكره العسقلانى فى " فتح البارى "
(٣) أخرجه البزار عن ابن عمر .

الفصل السادس

أطوار الجنين (مراحل الحمل)

من استعراض النصوص المتعددة فى القرآن الكريم والحديث الشريف التى تعرضت لموضوع مراحل الحمل وتطور خلق الجنين الإنساني ، نستطيع أن نحدد معالم أطوار التخلق الإنسانى والتى أكدتها أيضاً مصادر علم الأجنة حديثاً ، **وهي:**

أولاً: مرحلة النطفة:

عند الجماع والقذف تنطلق ملايين الحيوانات المنوية التى تحوى "النطفة المذكرة" دافقة قاصدة الرحم لتلتقى مع "النطفة المؤنثة" التى هى بويضة الأنثى ، لتتزاوج وتختلط معها مكونة "النطفة الأمشاج" ، وهذا ما يسمونه علمياً "العلوق" أو "الإخصاب" والذى يعنى حصول الحمل .

ثانياً: مرحلة العلقة:

تستغرق المرحلة الأولى أسبوعاً كاملاً حتى تعلق هذه النطفة الأمشاج بجدار الرحم ، إذ يبدأ العلوق فى اليوم السابع بعد التلقيح بالالتصاق بجدار الرحم ، وتستغرق هذه المرحلة أسبوعين تنمو خلالها العلقة .

ثالثاً: مرحلة المضغة:

فى نهاية الأسبوع الثالث للتلقيح تبدأ المرحلة الثالثة فى الظهور ككتل بدنية

"*Somites*" ، وتتحول إلى قطعة من اللحم كمن مضغتها الأسنان ثم قذفتها ، وهى فى هذه المرحلة إما أن تكون مضغة كاملة مخلقة ، أو مضغة غير تامة الخلق "سقط" ، فيقر فى الرحم المضغة التامة ، أما الغير تامة فتسقط إجهاضاً طبيعياً .

رابعاً: مرحلة العظام:

وهذه المرحلة تستغرق الأسابيع الخامس والسادس والسابع ، إذ تتحول المضغة إلى

عظام وفى آخر هذه المرحلة تُكسى العظام باللحم وتتكون العضلات .

خامساً: مرحلة الإنشاء "التسوية والتصوير والتعديل"

وتبدأ هذه المرحلة بعد الأسبوع السابع ، إذ يتكون بالكامل تصوير الإنسان ، الذى يشمل جميع الأعضاء والأطراف ، ويدخل فى هذه المرحلة تكون المولود ذكراً أم أنثى ، إذ تتميز الأعضاء التناسلية الخارجية بحيث يمكن التمييز بين الذكر والأنثى فى نهاية الشهر الثالث .

سادساً: مرحلة نفخ الروح:

بعد نهاية الشهر الثالث ، وبعد أن يكتمل إنشاء الجنين وتصويره ، يمكن سماع أو الإحساس بتحرك الجنين إرادياً ، وهو علامة من علامات نفخ الروح فيه .

سابعاً: الـــولادة:

بعد اكتمال الوقت المقرر للجنين وهو تسعة أشهر "أو تزيد أو تنقص" يكون الجنين قد اكتمل بشراً سوياً ، فيخرج إلى الحياة إنساناً كاملاً مستقلاً كامل الصفات والأوصاف .

أما المراحل حسب ما يراه علماء الأجنة فهى كالتالي:

[١]	مرحلة البويضة الملقحة "النطفة الأمشاج"	**Fertilized ovum**
[٢]	مرحلة الحمل	**Embryo**
١.	الانغراز " العلقة "	**Implanotation**
٢.	الجنين ذو الطبقتين	**Bilaminar Germ Disc**

٣.	مرحلة الجنين ذو الثلاث طبقات	**Trilaminar Germ Disc**
٤.	الكتل البدنية " مضغة "	**Somites**
٥.	تكون الأعضاء " الإنشاء"	**Oregano Genesis**
[٣]	مرحلة الجنين	**Fetus**
[٤]	الولادة	**Accouchement**

هذه هي المراحل كما يقررها مشاهير علماء الأجنة ، في حين أنّ بعضهم يقسم المرحلة الثانية تقسيماً آخر ، ومما لا شك فيه أنّ التقسيم القرآنى لمراحل نمو الجنين الإنسانى هو أصح وأدق بكثير من وصف علماء الأجنة . . . وإن كان التقسيم القرآنى يلتقى مع كثير من تقسيماتهم كالنطفة والعلقة والمضغة . . . ولا يركز علماء الأجنة على مرحلة العلقة كما يركز عليها التقسيم القرآني . . . وكذلك التصوير والتسوية والتعديل .
على أنه يجب أن يكون واضحاً بجلاء أننا كمسلمين نأخذ بالحقيقة القرآنية فقط وبدون أى تحفظات ، وبإيمان وتصديق كاملين فى حالة التعارض بين الحقيقة القرآنية وبين النظريات العلمية .

أما نفخ الروح ، وهو أهم أقسام ما فى الإنشاء والتخلق ، فهو مما لا تفسير مادى له عند علماء الأجنة ، لذا فإنهم لا يتعرضون له فى استعراضهم لمراحل الحمل ، بل يتعمدون تجاهل الخوض فى بحثه ، ولكون تعاملهم هو مع المادة والوقائع المادية التى تخضع للاختبارات وصور الأشعة ، **فهم بالتالى ينكرون أو يتجاهلون أهم طور فى أطوار تخلق الجنين البشري، إذ لولاه لكان ذلك الجنين مجرد مادة لا يمكنها بحال التحول إلى إنسان سوى إلا بنعمة الله الكبرى التى لا تدركها عقولهم ألا وهى نفخ الروح التى بها وبها وحدها يكون سـر الحياة.**

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فى مسألة الخلق والإنشاء ، والذى أشكل فهمه على

جهابذة علماؤهم وكبراؤهم سنفرد له بحثاً خاصاً باسم "الحياة والروح" [(١)] .

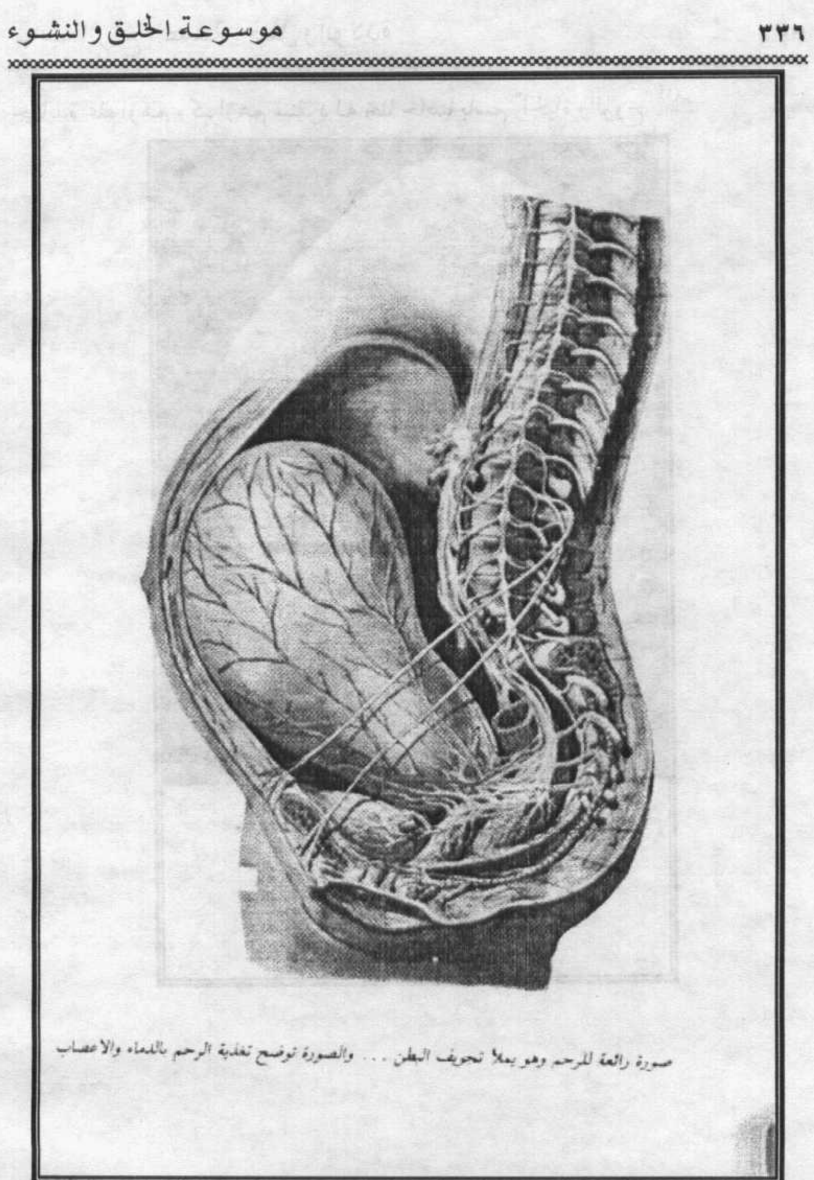


يلاحظ في الاعلى المشيمة التي تمثل اجهزة الجنين مجتمعة فهي للتنفس والتغذية والتصفية والافراز والافراغ .. كما تراه مغلف بحجب شفافة رقيقة ثلاث (الامينوسي - الكوريوني - والساقطة)

ان معظم اجهزة الجنين اكتملت في العلق وهو يمشي الآن في اتجاه زيادة الوزن ...

---

(١) يمكن الرجوع إلى بحث " الحياة والروح " وبحث " الموت " فى الباب الخامس .



صورة رائعة للرحم وهو يملأ تجويف البطن ... والصورة توضح تغذية الرحم بالدماء والأعصاب

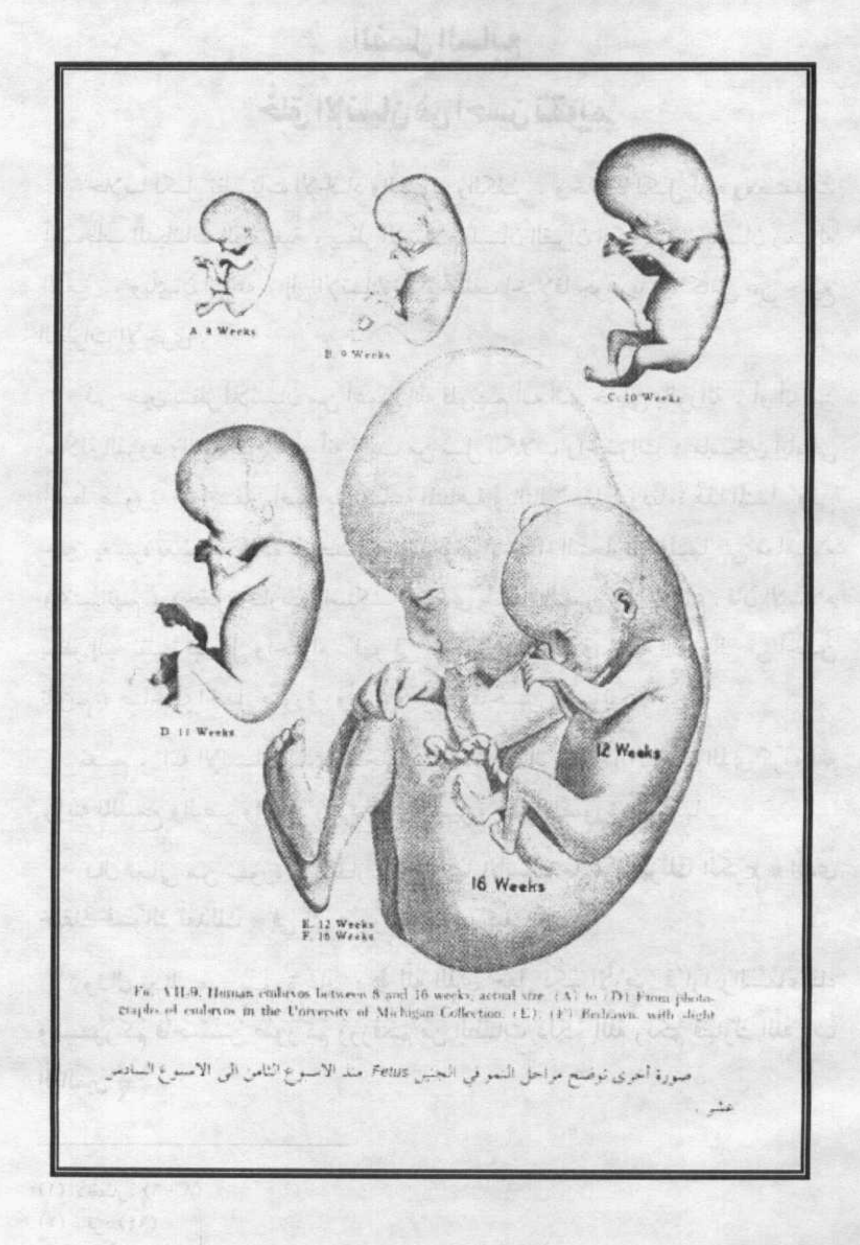


Fig. VII-9. Human embryos between 8 and 16 weeks, actual size. (A) to (D) From photo-graphs of embryos in the University of Michigan Collection. (E), (F) Redrawn, with slight

صورة أخرى توضح مراحل النمو في الجنين *Fetus* منذ الاسبوع الثامن الى الاسبوع السادس عشر .

الفصل السابع

خُلِقَ الإنسان فى أحسن تقويم

خلافاً لكل نظريات الإلحاد والشرك والكفر ، وخلافاً لكل آراء ومعتقدات أصحاب الديانات الوضعية ، ينظر الإسلام بلسان القرآن الكريم ، وبلسان رسوله الأمين ، وبأيمان أتباعه ، إلى الإنسان نظرة تختلف اختلافاً جوهرياً وبالكامل عن جميع النظرات الأخرى .

فى حين ينظر للإنسان من أعمى الله قلوبهم أنه آثم خاطئ بالوراثة ، أو أنه من سلالة القرود والسعادين ، أو أنه قريب من نسل الكلاب والحشرات ؛ ماسخين إياه فى أحط صورة ؛ واصفين أصله بالوضاعة المتناهية وبالتالى حقارة ودناءة هذا المنشأ . وفى حين يعتبره بعضهم مادة للبحث يستخدمونها لإجراء التجارب عليها فى معاملهم ومختبراتهم ، وحقل تجارب واستكشاف لدى علماء النفس والاجتماع . فإنَّ الإسلام ينظر إليه نظرة تبجيل واحترام . فهو فى نظر الإسلام مخلوق خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم ، صاحب أجمل صورة . وأنّ الله صوره فأحسن التصوير .

نعم ، إنه الإنسان الذى سجدت له ملائكة الرحمن ، الإنسان الذى كرّمه الله وزينه بالسمع والبصر والفؤاد والإدراك والتمييز وحُسن الصورة وجمالها .

قال تعالى من سورة الانفطار : **﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ ﴾** (١)

وقال تعالى من سورة غافر : **﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾** (٢)

---

(١) الانفطار : (٦ - ٨) .
(٢) غافر : (٦٤) .

وقال تعالى من سورة التغابن: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١)

ومن سورة المُلك: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (٢)

ومن سورة التين: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٣)

ومن سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٤)

وفى تفضيل الله تعالى الإنسان على غيره من المخلوقات يقول محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره: (إنَّ التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوانات بالفم ، وروى عن ابن عباس والكلبى ومقاتل نفس ذلك ، وقال الضحاك: كرّمهم بالنطق والتمييز ، وقال عطاء: كرّمهم بتعديل القامة وامتدادها ، وقال يمان: بحُسن الصورة)(٥) وله أيضاً: (بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم) وقال آخرون: (بالكلام والخط ، وقيل بالفهم والتمييز)(٦)

وقال القرطبى فى تفسيره مُرجحاً: (والصحيح الذى يعول عليه أنَّ التفضيل إنّما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف ، وبه يُعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رُسُله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بُعِثت الرّسُل وأرسلت الكتب)(٧)

---

(١) التغابن: (٣) .
(٢) المُلك: (٢٣ ، ٢٤) .
(٣) التين: (٤) .
(٤) الإسراء: (٧٠) .
(٥) تفسير القرطبي ،مجلد (١٠) صفحة (٢٩٤) أيضاً: تفسير الطبري ،مجلد (١٥) ، صفحة (١٢٦) .
(٦) المصدر السابق .
(٧) تفسير القرطبي ، مجلد (١٠) ، صفحة (٢٩٤) .

أما ابن كثير فيقول في تفسيره : (يخبر الله تعالى عن تشريفه لبنى آدم وتكريمه إياهم فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، كقوله تعالى ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾[1] ، أن يمشى قائماً منتصباً على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه به ذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية . . . .)[2] .

وقال العلامة الشيخ تقى الدين النبهاني ، فى كتابه "التفكير" : (إنَّ الإنسان هو أفضل المخلوقات على الإطلاق ، حتى لقد قيل - وهو قول حق - إنَّه أفضل من الملائكة ، والإنسان فضله إنّما هو فى عقله ، فعقل الإنسان هو الذى رفع شأن هذا الإنسان وجعله أفضل المخلوقات)[3]

وأورد محمد على الصابونى فى تفسيره : (أى لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات : بالعقل والعلم والنطق وتسخير جميع ما فى الكون لهم . . . وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك)[4]

وأمّا صاحب الظلال فيقول : (ذلك وقد كرّم الله هذا المخلوق البشرى على كثير من خلقه ، كرّمه بخلقته على تلك الهيئة ، بهذه الفطرة التى تجمع بين الطين والنفخة ، فتجمع بين الأرض والسماء فى ذلك الكيان ! ! وكرمه بالاستعدادات التى أودعها فى فطرته ، والتى استأهل بها الخلافة فى الأرض ، يغير فيها ويبدل ، وينتج فيها وينشئ ، ويركب فيها ويحلل ، ويبلغ فيها الكمال المقدر للحياة . . . . . وكرّمه بتسخير القوى الكونية له فى الأرض وإمداده بعون القوى الكونية فى الكواكب

(١) التين : (٤) .
(٢) تفسير ابن كثير ، مجلد (٣) ، صفحة (٥٢) .
(٣) النبهانى - الشيخ تقى الدين ، كتاب " التفكير " ، صفحة (٥) .
(٤) الصابونى - محمد على ، صفوة التفاسير ،مجلد (٢) ، صفحة (١٧٠) .

والأفلاك ..... وكرّمه بذلك الاستقبال الضخم الذى استقبله به الوجود ، وبذلك الموكب الذى تسجد فيه الملائكة ويعلن فيه الخالق جلّ شأنه تكريم الإنسان)[1]

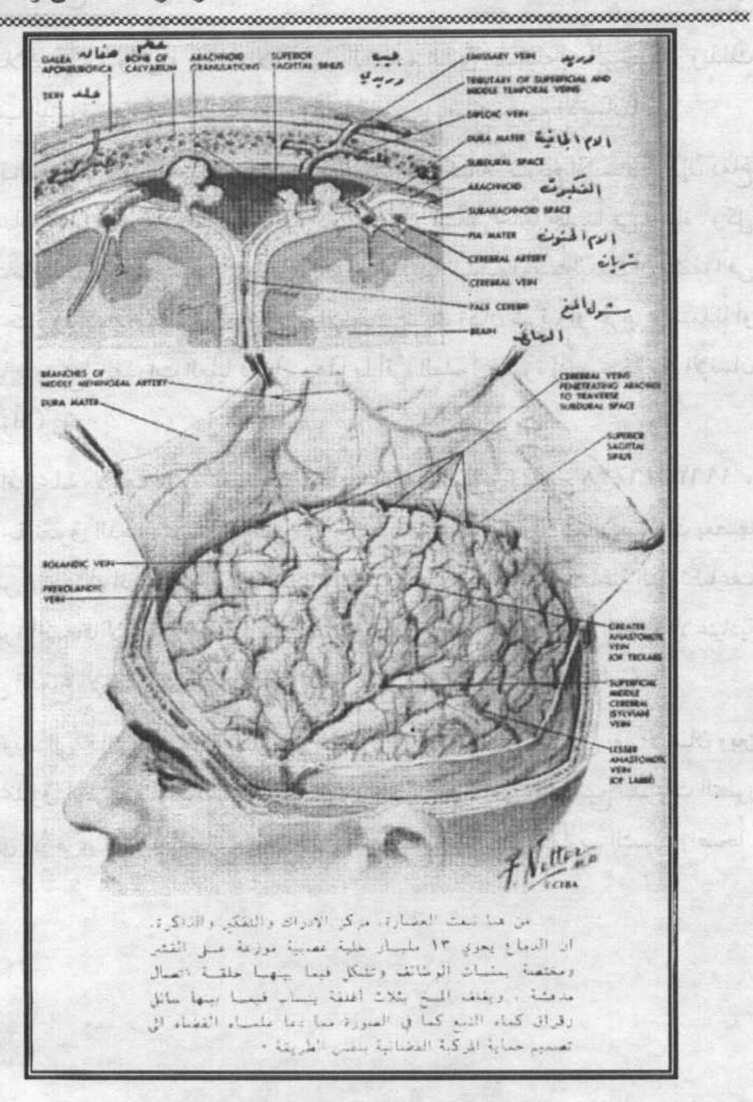
قال عالِم التطور "ميلرش *Mellersh. H*" فى كتابه "تاريخ الإنسان" : (إنّ دماغ الإنسان يختلف عن أدمغة بقية الحيوانات ، وهو يشكل حدثاً جديداً فى الحياة . وكل الأجناس البشرية تتمتع بهذه المزية ... فأقوام استراليا البدائيون يستطيعون أن يتثقفوا فى بحر جيل واحد ، وهذا يدل على أنّ الإنسان سواء أكان شرقياً أو غربياً ، متمدناً أو بدائياً ، يتمتع بالقدرات العليا ذاتها . وهذا ما أقرّه العِلم! فالهوّة إذاً سحيقة بين الإنسان والحيوان)

أمّا مجلة "لايف *Life*" فقد كتبت فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٣/٠٦/٢٨ ، شارحة تفوق الدماغ الإنسانى تقول: (لخلايا الدماغ العصبية آلاف الاتصالات بعضها ببعض ، وهناك اتصالات إضافية بفضل الكمية العليا من القشرة الدماغية التى تضاعف القدرة أضعافاً لا نهاية لها على استقبال وتحليل المعلومات . وهذه القدرة الاعتيادية تجعل الدماغ الإنسانى بمنزلة رفيعة لا تُدانى بالنسبة إلى باقى الكائنات الحية)

وبالتالى فالهوة سحيقة جداً بين الإنسان وبين الحيوان ، أو حتى بين الإنسان وبين أى مخلوق آخر ، فلو كانت نظرية النشوء والارتقاء المادى أو جميع نظريات التطور المادى الأخرى صادقة لما كانت تلك الهوة السّحيقة ، بل لكان التقارب النسبى واضحاً .

---

(١) قطب - سيد ، فى ظلال القرآن ،مجلد (٤) ، صفحة (٢٢٤١) .



من هنا تنبعث الحضارة، مركز الادراك والتفكير والذاكرة. ان الدماغ يحوي ١٣ مليار خلية عصبية موزعة على القشر ومختصة بشتى الوظائف وتشكل فيما بينها حلقة اتصال مدهشة ، ويغلف المخ بثلاث أغلفة ينساب فيما بينها سائل رقراق كماء النبع كما في الصورة مما دعا علماء الفضاء الى تصميم حماية المركبة الفضائية بنفس الطريقة .

يقول علماء التطور المادى بوجود مراحل للذكاء ، ولكننا لا نعلم بوجود ذلك مطلقاً ، بل إنّ ما نعلمه "أنَّ ٩٠٪ من الناس أذكياء ، فعامة الناس أو أكثرهم أذكياء ، والنادر هم البلداء أو الأغبياء ، وهذا النادر لا حكم لـه . " وهذا الرأى هو ما قال به

العلامة النبهاني في كتابه "سرعة البديهة"[١]:

كما يزعم علماء التطور المادى بأنّ الإنسان المعروف باسم "إنسان ما قبل التاريخ" والذى يدّعون أنه انقرض كان يمثل الحلقة الوسطى . فلماذا عاشت هذه الحلقات الدنيا مثل القردة بينما انقرض إنسان ما قبل التاريخ ، مع العِلم أنّ المفروض فيه حسب منطوق ومفهوم نظرياتهم أن يكون أرقى من القردة بكثير وأصلح للبقاء؟ وما الدليل على ذلك إن وُجد؟ .

ويقول داروين: **(قد يكون للإنسان عذره فى أن يشعر بشيء من الكبرياء لأنه ارتقى إلى ذروة السّلم العضوي، ولو أنّ ذلك الارتقاء لم يكن نتيجة لجهده الخاص. وإذا كان الإنسان قد ارتقى إلى مكانه الذى يحتله الآن، ولم يوجد فى الأصل ومنذ البداية فى هذا المكان فإنَّ ذلك خليق بأن يعطيه بعض الأمل فى مصير أفضل فى المستقبل البعيد... "ومع ذلك"... ورغم كل هذه القوى المثيرة فلا يزال الإنسان يحمل فى هيكله المادى وصمةً لا يمكن محوها تشير إلى أصله الوضيع)**[٢]

وصمة الأصل الوضيع !!!! هكذا ينظرون للإنسان وأصله ، ونحن نقول ومعنا كل الأدلة الدامغة التى تؤكد صحة قولنا ؛ وتنفى نفياً قاطعاً ادعاءات وترهات داروين والتى نسجها من خياله الواسع!!!! نقول: نعم ، لقد خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم . . . إنّه الإنسان العاقل ، الذى علمه الله ، وزينه بالعقل والإدراك . إنّه الإنسان الأول "آدم عليه السّلام" الذى هو نفس الإنسان الحالى بجميع أوصافه التى نراها وندركها . لم يتبدّل ولم يتغير ولم يتطور . وله أن يفخر بأصله بحق ، وله أن يفخر بأنّ الله قد فضله على جميع مخلوقاته ، إذ اختاره من دون المخلوقات جميعها ليهبه العقل المميز ، وأن يُسّخِرَ له ولمنفعته كل ما خلق . الإنسانُ الذى خلقهُ الله فى أحسن تقويم .

---

(١) النبهاني - الشيخ تقى الدين ، سرعة البديهة ، صفحة (٢٣) .
(٢) دورية " عالم الفكر " ، المجلد الثالث ، العدد الرابع (١٩٧٣) ، صفحة (١٥٢) .

الفصل الثامن

من هو الأصلح للبقاء؟

إنَّ الخلود فى هذه الحياة الدُنيا ليس هدفاً للمسلم ، وليس غاية يُسعى لتحقيقها ، فا لمسلم يعتبرها دار امتحان ومعاش وعبادة ؛ وهى دار ممر إلى حياة الخلود التى لا يموت الإنسان فيها ولا يشقى ، فعقيدة المسلم أنَّ الإنسان قد وُجدَ فى هذه الحياة الدنيا فترة من الزمن ليعبد الله ويُقدسه ، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾[1] .

أمّا فكرة "الصراع" فهى فكرة استعمارية كافرة نشأت وأنشأت فى عصر النهضة الاستعمارية ، تلك النظرية التى تعتمد على القوة كوسيلة لغلبة القوى على الضعيف ، فهى شريعة الغاب التى سادت فى الحروب الاستعمارية وانطبعت فيها العقلية الجاهلية .

والصراع لغلبة القوى على الضعيف هى فكرة مادية لا أخلاقية ، تهدف إلى الاستيلاء على موارد الغير بالقوة والعنف ، وبسبب حمل المجتمعات الجاهلية لتلك الفكرة كانت الحروب العالمية والثورة الفرنسية ، كما كانت السبب فى ظهور الفاشية والنازية والشيوعية والقومية ؛ ولنفس السبب قامت الحروب الصليبية وغزواتها على بلاد المسلمين . **وبهذا** المنطق احتلت روسيا الشيوعية أفغانستان المسلمة .

وما الحرب التى دارت رحاها حديثاً ، ولا تزال آثارها ومصائبها إلى اليوم وفى هذه اللحظات على أرض الإسلام من أراضى الخليج العربى والتى أسموها "حرب الخليج" أو "عاصفة الصحراء" أو "حرب تحرير الكويت" ، والتى قادتها قوى الكفر والشر بقيادة رأس معسكر إبليس الولايات المتحدة وغيرها من الدول الصليبية الكافرة مثل رؤوس الكفر والحقد بريطانيا وفرنسا ، إلا صراع لتحقيق غلبة القوى المتغطرس المتمثل فى الدولة العظمى الأولى وحليفاتها ، على الضعيف المحدود القوة المتمثل فى العراق ،

---

(١) الذاريات : (٥٦) .

للاستيلاء على خيرات وموارد بلا د المسلمين ، ولإجبار المسلمين على الخنوع لصلف وغطرسة الكفرة . ومما يعزز هذا ما نراه من تصرفات حاقدة بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، المتمثلة فى استغلال اسم "هيئة الأمم" و "مجلس الأمن" وما يسمى بـ "الشرعية الدولية" لتركيع وتجويع شعب العراق المسلم وإذلاله ، وقتل الشيوخ الرّكع والأطفال الرّضع والبهائم الرّتع ، وإهلاك الزرع والحرث والنسل . يُساندهم فى ذلك كل قوى الشر والكفر والعدوان فى شرقى العلم وغربيه على اختلاف مللهم ونحلهم وعقائدهم!!!!

وعلى إثر تفجيرات يوم الثلاثاء المشهود ٢٠٠١/٠٩/١١ ، فى مدن نيويورك وواشنطن الأمريكيتين ، هذا الحادث الذى أظهر عجز الدولة العظمى عن حماية بلادها ورعاياها ، وكشف البرقع الشفاف من الجبروت والخيلاء الذى يخفى هوان وعوار تلك الدولة العظمى وقلة حيلتها ، فقام رئيس الولايات المتحدة الأمريكية "بوش الابن" بالسير على نهج وسلف وجبروت أباه ، وبأسلوب رعاة البقر الشائع فى أمريكا *Cowboy* ، فأعلنها حرب صليبية حاقدة كافرة ضد الإسلام والمسلمين ، بادعاء محاربة الإرهاب ، فجَيَّشَ الجيوش وحَشدَ الحُشود ، وجمع دول "أصحاب الفيل" فى تحالف آثم حقود ضمّ دول الصليب الحاقد جميعاً من بريطانيا إلى فرنسا إلى إيطاليا الذى استعرض حاكمها عضلاته واستغلها فرصة لمهاجمة حضارة الإسلام ، وبقية دول الصليب بلا استثناء ، كما ضم هذا التحالف الكافر دول الكفر الأخرى كروسيا الأرثوذكسية واليابان الوثنية ، وقد قام هذا التحالف أيضاً باسم "الشرعية الدولية" وضم فيه معظم الدول القائمة فى العالم الإسلامى عرباً وعجماً بمن فيهم حاكم السودان صاحب العمامة البيضاء والذى أوهم سذج ورعاع الأمة يوماً أنه إمام المسلمين وخليفتهم!!! ومن شابه منهم أبو جهل وأبو لهب وأبو رغال وأرناط وشاور ، والهدف المُعلن كان مكافحة الإرهاب ولقتل الشيخ أسامة بن لادن رئيس تنظيم القاعدة ، للشك بلا دليل ثابت فى اشتراكه فى تدبير الحادث اللهم إلا الظن والهدف الحاقد ، ولمعاقبة دولة أفغانستان لحمايتها له . ومما يثبت كذب ادعائهم هذا إعلان

كبرائهم استمرار الحرب لمدة طويلة ، وإعلانهم أنها ستطال شعوب ودول ومنظمات وجمعيات عدة كلهم عرب ومسلمين ، وتهديدهم كل دول العالم بأسلوب هوليودى بأن من لم ينضم معنا فهو مع الإرهاب!!!

وصب أصحاب الفيل جام غضبهم على أصحاب العقيدة والمبدأ ، وأمطروهم خلال مدة تقارب الشهرين بل تزيد ، بوابل من حمم النار والقنابل المدمرة على اختلاف أنواعها ، المحرمة فى قوانينهم وغير المحرمة على السواء ، تصبها عليهم أحدث الطائرات الحربية ، والمنطلقة من مطارات وقواعد حربية فى بلاد المسلمين ، فدمروا البلاد ، وهدموا المساجد والمصحات ، وقتلوا الأطفال والشيوخ والجياع العراة ، وشردوا الناس الذين هاموا على وجوههم فى الفيافى والقفار هاربين من البلاء إلى الضياع ، وارتكبوا كل أنواع المنكرات ، وقاموا بأبشع أنواع الإرهاب الذين يدعون محاربته ، وكشفوا عن مكنون الغل والحقد الذى تخفيه نفوسهم . حتى امتد غلهم وحقدهم إلى مواطنيهم من حملة الجنسية الأمريكية من المسلمين فاعتدوا عليهم بالقتل والسجن والتعذيب ومصادرة الأموال وتحريق البيوت وكشف عورات النساء ، وكل ما يعد مخالفاً لقوانينهم ومبادئهم ، وداسوا الحرية الشخصية للأفراد أمام صنمهم المعبود "تمثال الحرية" .

والهدف الحقيقى لهذه الحملة الصليبية الحاقدة الكافرة والتى قادها رعاة البقر ، هو بسط سيطرتهم وجبروتهم على مدن العالم الإسلامي ، لاستغلال مواردهم ونهب خيراتهم ، وسرقة أموالهم ، (وقد فعلوها علانية بتدخلهم فى ودائع الأشخاص والهيئات فى بنوك العالم ، ومصادرة ما يشاءون منها خلافاً لقوانينهم وتشريعاتهم ، قوانين الصليب والغاب وقوانين رعاة البقر ، واعتداءً صارخاً على الملكية الفردية) . وللحيلولة بين هذه الأمة الكريمة وبين نهضتها وبعثها من مرقدها . إنّه الصراع بين الحق والباطل .

وأخيراً قيام إمبراطورية الشر "الولايات المتحدة الأمريكية" وحليفاتها بتاريخ ٢٠/ ٣/٢٠٠٣م بشن حرب صليبية غاشمة على العراق ومن ثم احتلاله بالكامل يوم ٩/٤/

٢٠٠٣ م واستعماره بعد معركة صبوا بها جميع أنواع وحمم الأسلحة المتطورة الفتاكة من قنابل انشطارية جهنمية وصواريخ محتوية اليورانيوم المنضب والغير منضب على السواء ، فدمروا البلاد وقتلوا العباد ومثلوا بجثثهم ، ونهبوا الخيرات وأهلكوا الحرث والنسل ، وروعوا الناس ، وهتكوا الأعراض ، وعاثوا فى البلاد الفساد ، يساندهم سراً وعلانية جميع دول الصليب الأوروبية بما فى ذلك فرنسا وألمانيا وروسيا علاوة على بريطانيا وأسبانيا واستراليا . . . كما شاركهم وساعدهم فى ذلك صراحة كل المحافل السياسية العالمية و منها الأمم المتحدة ومجلس الأمن وسكرتير عام الأمم المتحدة ومنظمة الصليب الأحمر ومنظمات حقوق الإنسان وجامعة الدول العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامى ووفود الدول العربية فى الأمم المتحدة ، وحجتهم فى ذلك عن "أسلحة الدمار الشامل" التى ليس لها وجود!!!!

لم تعتمد صراعاتهم مبدأ عدل يسعون لنشره ، أو إصلاحاً يعملون لتحقيقه ، أو دعوة حق يحملون لوائها ، بل من أجل المادة والاستعمار والتسلط ، والتحكم فى مصائر البشر ومصادر رزقهم وعيشهم ، واستغلالهم ونهب أموالهم وموارد بلادهم وخيراتها .

[وأصل فكرة الصراع هى نظرة التفكير الرأسمالى بالعيش ، وما صاغ به الحياة الإنسانية كلها من صياغة معينة ، تُرى ما جلبت هذه الصياغة للحياة الإنسانية كلها من شقاء وتعاسة ، وجعل الإنسان يقضى حياته كلها يركض وراء الرّغيف . وكيف جعلت العلاقات بين الناس علاقات خصام دائم ، هى علاقة الرّغيف بينى وبينك آكله أنا أو تأ كله أنت ، فيستمر بيننا الصراع حتى ينال أحدنا الرّغيف ويحرم منه الآخر ، أو يعطى أحدنا ما يبقيه ليوفر باقى الرّغيف للآخر ويزيد من خبزه . **فنظرة واحدة لهذه الصياغة التى صاغها التفكير الرأسمالى للحياة تُرى كيف جعلت الحياة الدنيا دار شقاء وتعاسة، ودار خصام دائم بين الناس.**

وذلك بأنّ التفكير الرأسمالى بالعيش ، وإن كان قد بناه على فكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة ، أى وإن كان بناه على فكرة كلية أى نظرة معينة فى الحياة ، **فإنّه**

وإن حقق نهضة الشعوب والأمم التى سارت على هذا الطراز من التفكير بالعيش، فإنّه أشقى تلك الشعوب والأمم، وأشقى الإنسانية بأجمعها . فهو الذى خلق وأوجد فكرة الاستعمار والاستعباد والاستغلال . وهو الذى أتاح لأفراد أن يعيشوا فى مستوى هيأ لهم أن يأخذوا الرسائل التى تأتيهم على طبق من ذهب يقدمه إليهم الخدم ، أى العبيد ، وحرم أفراداً حتى من أن يكونوا خدماً وعبيداً لأبناء عائلاتهم أو عشيرتهم أو أمتهم يستطيعون أن ينعموا بفضلات العيش وفتات الموائد . وفى أمريكا الغنية المتغطرسة ، وإنجلترا التى لا تزال تحلم بأمجاد الإمبراطورية المتناهية الأطراف ، وفى فرنسا التى يسبح خيالها بسراب العظمة والمجد ، نماذج عديدة من تلك الحياة ، فضلاً عما فعلته فكرة الاستعمار والاستغلال فى غير أوروبا وأمريكا من استعباد ومص دماء . وكل هذا إنّما كان لأنّ التفكير بالعيش ليس تفكيراً مسؤولاً ، أى ليس تفكيراً فيه المسؤولية الحقيقية ، حتى وإن كانت تظهر فيه أحياناً المسؤولية عن العائلة والعشيرة أو القوم أو الأمة ، ولكنه فى حقيقته خالٍ من المسؤولية ، لأنه ليس فيه إلا ما يضمن الإشباع][1] .

لقد استغل دعاة العنصرية نظرية "داروين" فى القول ببقاء الأصلح ، مبرراً لاضطهاد الشعوب الملونة ، وغالوا فى ذلك حتى أنكروا حق النفس السّوداء - نسبة إلى لون البشرة - فى الوجود على نحو ما عبر عنه "مونتسيكو" فى كتابه ، وفى ذلك يقول "الدكتور محمد بدوي" فى كتابه "كتاب التطور" : (استطاع العنصريون أن يتخذوا من نظرية داروين البيولوجية أساساً لنظرية اجتماعية داروينية ، بمعنى أنهم نادوا بما يسمى بالاختيار الاجتماعى ليقابل مبدأ الاختيار ، ومن ثم فإن المجتمع يختار أصلح من يقود هذه المجتمعات فى امتياز بعض الشعوب على بعضها الآخر) .

وفى طريقة تعامل بيض البشرة من الشعوب الصليبية الوافدة حديثاً إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، الدولة الأولى فى العالم ، وقائدة ما يسمى بالعالم الحر ، ورائدة

---

(١) النبهانى - الشيخ تقى الدين ، كتاب " التفكير " صفحة (٧٨ - ٧٩) .

الديمقراطية العفنة ، تلك الدولة التى تتبجح وتتباهى بأنها بلد الحريات ، مع أهل البلاد الأصليين سود البشرة "الزنوج" ، أبشع صور لتلك النظرة ووصمة عار لا تمحى فى جبين عالم القرن العشرين وفى جبين ذلك النظام الديمقراطى الفاسد العفن . كما يماثلها ويقاربها فى البشاعة والانحطاط عنصرية المستعمر الصليبى الكافر تجاه الأفارقة سود البشرة فى بلادهم المحتلة فى جنوبى أفريقيا ووسطها وشرقها وغربها وشمالها ، وفى مناطق متعددة من العالم ، والمصائب التى حلت بهم من المستعمر الكافر إنجليزى وفرنسى وإيطالى وأسبانى وبرتغالى وهولندى ومن كل هؤلاء الكفرة على اختلاف جنسياتهم سواء بسواء . تلك العنصرية الرعناء التى تنظر إلى هؤلاء الناس وتعاملهم على أنهم ليسوا نوعاً من البشر الذى ينتمون إليه . وفى هذا يقول "جوان توماس" فى كتاب "خرافات عن الأجناس" :

(إنَّ الاستعمار يحاول تبرير القول بأنَّ الزنجى ليس أحط من الرجل الأبيض فحسب، بل أنه لا يختلف إلا بقدر يسير عن الحيوان وإنّ نظرية داروين الخاصة ببقاء الأصلح رَحَبَ بها البيض واعتبروها وسيلة لتدعيم سياسة التوسع والعدوان على حساب الشعوب المنحطة. وبناء على ذلك اعتقد الأبيض أنَّ استعباد أو إفناء المجموعات البشرية المنحطة بواسطة الرصاص الأوروبى ليس إلا تنفيذاً لنظرية استبدال مجتمعات منحطة بأخرى راقية .

لقد رَحَّبَ الماديون بفكرة داروين لأن عقيدتهم تقوم على العنف وصراع الطبقات ، ولم يكن الدّافع لتبنى نظرية داروين الأدلة العلمية - فهى أبعد عنها - وإنّما كان مذهبهم السياسي ، علاوة على أنَّ نظرية نشوء الإنسان من الحيوان تلائم النظرة المادية الشيوعية .

لقد ذكر القرآن الكريم أنّ الصلاح هو سبب بقاء الأمم والحضارات فى الدنيا ، وسبب تغلب الضعفاء العقائديين المتقون على الأقوياء الكفرة . وأنّ الفسق والفجور والضلال والعصيان والكفر والإلحاد والشرك والوثنية والجاهلية هم سبب الهلاك

والزوال وانتقام الله ، وفى ذلك قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ (١)

هذه النظرة التى طرحها الإسلام بمفاهيمها وقيمها الإنسانية الكريمة عن النزاع القائم فى الحياة الدنيا . فرفع الإنسان فكرياً وسلوكياً عن مستوى الغاب وشريعته التى تنادى بالبقاء للأقوى ، إلى المستوى الإنسانى الفاضل الذى ينادى بالبقاء للصالح فعلاً . فهلاك الأمم والشعوب واندثارها هو بسبب الذنوب والمعاصى والآثام ، منذ خلق الله الأرض ومن عليها ، وإلى أن يرثها ومن عليها ، وفى ذلك قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢) وقوله تعالى من سورة الكهف : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (٣) وقوله تعالى من سورة يونس : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ (٤)

وليس ببعيد عن أذهاننا قصة فرعون حين علا وتغطرس وتجبر ببنى إسرائيل ، ولم يكن المنتصر فيها القوى الجبار المتغطرس ، بل كان المنتصر الفئة المؤمنة المستضعفة . وفى ذلك قوله تعالى من سورة يونس : ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

---

(١) آل عمران : (١٠ - ١٣) .
(٢) الأعراف : (١٠٠ - ١٠١) .
(٣) الكهف : (٥٩) .
(٤) يونس : (١٣) .

وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (١)

لقد قصَّ علينا القرآن الكريم كيف أهلك الله تعالى قوم نوح بالإغراق ، وكيف انتقم وأهلك قوم لوط ، وكيف انتقم من الفراعنة وكل الجبابرة العتاة ، وقصّ علينا من أمثال العذاب والهلاك فى الدنيا التى سلطها الله تعالى على الكفرة العتاة الظلمة ، علّ ذلك يكون عبرة لكل معتبر . ولنتمعن فى هذه الآيات البينات من سورة الأنبياء : **﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾** (٢) وقال تعالى من سورة الحاقة : **﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾** (٣) وقصص أخرى من قصص الهلاك ومع سورة الفجر : **﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾** (٤) وصورة أخرى هى الهلاك بالمطر ومع سورة النمل : **﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوا**

---

(١) يونس : (٩٠ - ٩٢) .
(٢) الأنبياء : (٧٦ - ٧٧) .
(٣) الحاقة : (٤ - ٨) .
(٤) الفجر : (٦ - ١٣) .

آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ (١)

أما المسخ فقد سلطه الله تعالى على قوم من اليهود لعصيانهم أمر الله بصيدهم الحيتان فى السّبت وقد حُرّم عليهم ذلك ، على قول ابن عباس فى رواية عكرمة الواردة فى كتاب "المستدرك" ، إذ مسخهم الله قردة جزاءَ عصيانهم لأوامر الله تعالى ، وفى ذلك قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾(٢) .

[وقصة المسخ تلك فى جماعة من يهود كانوا يسكنون فى إيلات فى خليج العقبة ، فحرّم الله تعالى عليهم الصيد يوم السبت ، فكانت الحيتان تأتيهم ظاهرة مشرعة بكثرة يوم سبتهم ، فإذا كان بقية الأسبوع اختفت ، وذلك امتحان لهم من ربهم . فابتدأ نفر منهم بوضع الشباك لها يوم الجمعة ويمسكوا بها يوم السبت ليأخذونها يوم الأحد تحايلاً على أمر الله . فلما ظهر فيهم هذا الأمر انقسموا إلى ثلاث طوائف: **طائفة** تحايلت على أمر الله . . . **وطائفة** نهت عن المنكر . . . **وطائفة** سكتت . . . ، **وكان** ابن عباس رضى الله عنهما يرى أنّ

(١) النمل: (٥٤ - ٥٨) .
(٢) الأعراف: (١٦٣ - ١٦٦) .

الذين نجوا هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر منهم فقط ، ويرى أنَّ الذين سكتوا وقالوا لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً مع الهالكين . . . ثم يبكي خشية أن يكون من الذين رأوا المنكر فلم ينهوا عنه وذلك في أيام بني أمية . . . فجاء مولاه عكرمة وأقنعه بأنّ الذين كرهوا وسكتوا هم الناجون ، فسر بذلك رضي الله عنه . . . وأما الطائفة الثالثة فقد مسخها الله قردةا[(١)]

فيما روى من سؤال عائشة رضي الله عنها عن القردة هل هي ممن مسخ الله من يهود؟ فقالت ، قال رسول الله ﷺ: **«ما جعل الله لمسخ من نسل»** [(٢)]

وفيما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لمن سأله عن القردة والخنازير هل هي مسخ؟ قال: **«إنَّ الله لا يهلك قوماً أو يعذب قوماً فيجعل لهم نسلاً ، وإنّ القردة والخنازير كانوا من قبل»** [(٣)] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: **«لم يعش ممسوخ قط أكثر من ثلاثة أيام ولا يأكل ولا يشرب»** [(٤)] .

وقد ورد ذكر المسخ من أشراط الساعة عن ابن عمر مرفوعاً: **«يكون في أمتي خسف وقذف»** [(٥)]

وفيما رواه أبو أمامة: **«ليبيتن أقوام من أمتي عن أكل ولهو ولعب ، ثم ليصبحن قردة وخنازير»** [(٦)] وفي حديث آخر برواية عبد الله بن مسعود رضي

---

(١) تفسير ابن كثير ، (٢: ١٥٨) - تفسير الطبري ، (١٣: ١٨٥) - تفسير القرطبي ، (٧: ٣٠٦) - في ظلال القرآن ، (٩: ١٣٨٣) .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل .

(٣) صحيح مسلم .

(٤) صفوة التفاسير ، (١: ٤٧٩) .

(٥) رواه الحاكم ومسلم وأحمد بن حنبل .

(٦) رواه الطبراني .

الله عنه : «**بين يدى الساعة مسخ وخسف وقذف**»[(١)] .

وفيما روته عائشة أنه عليه الصلاة والسلام قال : «**يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف**» . قيل يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : «**نعم إذا كثر الخبث**»[(٢)] .

فنسألك اللهم ونجأر إليك بالدعاء متوجهين إليك مبتهلين وقد خلقتنا فى أحسن تقويم ، وأكرمتنا بجمال الخَلق وحُسْن الخُلق وأنعمت علينا بنعمتى العقل والإسلام ، أن تلطف بنا فيما جرت به المقادير ، وأن تثبت قلوبنا على التقوى والإيمان ، وأن تُبعد عنا شرّ انتقامك الحق ، ونبرأ إليك ربنا من سفهاء قومنا ، سواء منهم من ألحد أو شكك فى جلالك ، أو من أشرك بك أو كفر ، ومن اتبع خطوات الشيطان من أنس وجان .

ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ولا تحملنا ما لا طاقة واعف عنا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فاهدنا الصراط المستقيم وأنر دربنا وأعنا على حمدك وشكرك وحسن عبادتك، وأهلك الكفرة أعداءنا وأعدائك وانتقم منهم انتقام العزيز الجبار.

(١) رواه ابن ماجه .
(٢) رواه الطبراني .

الفصل التاسع

النَّسب

ا قتضت الحكمة الإلهية أن تكون المرأة محل الحمل والولادة ، لذلك وجب أن تقتصر في التزوج برجل واحد ، ومُنِعت من التزوج بأكثر من زوج "الجمع بين الأزواج" ، وقد حُرِّم ذلك حتى لا يختلط النّسب بحيث يُمَكنَ كل شخص أن يعرف من انتسب إليه ، لذا فقد عنى الشرع بثبوت النسب وبيّن حكمه أتم بيان . والله تعالى حين نهى عن جعل العصبية القبلية أن تكون الرابطة بين أبناء الأمة الإسلامية ونهى نهياً جازماً عن تحكيمها فى العلاقات بين الناس ، إلا أنه فى نفس الوقت أمر بصلة الأقارب وبرهم [١] .

روى أنَّ رجلاً سأل النبى ﷺ: من أبر؟ فقال: «**أمك وأباك وأختك وأخاك**» [٢] . وفى لفظ آخر: «**ومولاك الذى هو أدناك حقاً واجباً ورحماً موصولا**» .

وعن أسماء بنت أبو بكر قالت: أتتنى أمى وهى مُشركة فى عهد قريش ومدتهم إذ عاهدوا الرسول مع ابنها ؛ فاستفتيت الرسول ﷺ ، فقلت: إنَّ أمى قدمت وهى راغبة . فقال: «**صلى أمك**» [٣] .

والأقارب رتبوا حسب الأحكام الشرعية إلى قسمين:

أصحاب الفروض والعصبات: وهم الذين يمكن أن يرثوا الشخص حال وفاته .

أولوا الأرحام: وهم من لا سهم لهم فى الميراث وليسوا عصبة . وهم عشرة: الخال والخالة ، الجدة لأم ، ولد البنت وولد الأخت ، بنت الأخ ، بنت العم ، العمة ، العم لأم ، ابن الأخ لأم ، ومن أدلى بأحد منهم ، وهؤلاء لم يجعل الله لهم

---

(١) النبهانى - الشيخ تقى الدين ، النظام الاجتماعى فى الإسلام ، صفحة (١٨٣) .

(٢) رواه البخارى وابن ماجة وأحمد بن حنبل .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه .

نصيباً فى ميراث الشخص مطلقاً ولا تجب نفقة أى منهم على الشخص .

إنّ الله قد أمر بصلة الأقارب جميعاً وصلة الرّحم تشمل كل واحد من الأرحام سواء أكان رحماً محرماً أم رحماً غير محرم ، من العصبة أو ذى الأرحام ، فإنهم كلهم يصدق عليهم أنهم ذوو أرحام [١] .

وقد وردت عدّة أحاديث تحث على صلة الرَّحم وتبين أحكامها ، فقد قال ﷺ: **«لا يدخل الجنة قاطع رحم»** [٢] . وعن أنس بن مالك أنّ الرسول ﷺ قال : **«من أحَبَّ أن يُبْسَطَ له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه»** [٣] وقال عليه الصلاة والسلام: **«ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها»** [٤] .

لــذا فقد تقيد المسلمون بصفاء أنسابهم وحالوا دون اختلاطها ، كما اهتم المسلمون بعلم الأنساب ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أشهر من عنى بتسلسله من السّلف ، ودوّن السابقون العديد من المؤلفات فى علم الأنساب شارحة تسلسله من آدم أبو البشر عليه السلام إلى أيامهم ، وتبعهم من تبعهم إلى يومنا هذا . وقد اهتم المسلمون بهذا العلم ، وتسابقت القبائل والعائلات للاحتفاظ بأنسابهم ومصادرها ، كما اهتمت المحاكم الشرعية بتدوين الأنساب فى سجلاتها ، وبالأخص ما يتم بواسطته تنظيم توزيع الإرث على أصحاب الفروض .

ولا خفاء أنّ المعرفة بعلم الأنساب هى من الأمور المطلوبة ، والمعارف المندوبة ، لما يترتب عليها تنفيذ بعض الأحكام الشرعية ، وذلك لقوله ﷺ: **«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»** [٥] . **وقــد ورد الحث على العلم بها اعتبارها فى عدّة مواضع منها:**

---

(١) النبهاني ، المصدر السابق .
(٢) رواه مسلم وأحمد بن حنبل فى مسنده .
(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد بن حنبل .
(٤) رواه البخارى والترمذي .
(٥) رواه الترمذي .

العلم بنسب النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنّه النبى القرشى المولود بمكة من نسب شريف ؛ فلا بدّ لصحة الأيمان من معرفة ذلك ، ولا يعذر مسلم فى الجهل بنسبه الشريف . وقد ورد فى السيرة الشريفة قوله : **«أنا النبى لا كذب أنا أبن عبد المطلب»**

العلم بنسب الأنبياء السابقين ومعرفة قرابة بعضهم لبعض .

معرفة الأقارب بعضهم بعضاً ، ومعرفة درجة القرابة ، حتى يتم بذلك صلة الرحم .

التعارف بين الناس حتى لا يُعزى أحد إلى غير آبائه ، ولا ينتسب إلى غير أجداده . لقوله تعالى: **﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾**(١) وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: **«من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»**(٢) وعن أبى عثمان النهدى عن سعد وأبو بكرة عن الرسول ﷺ قال: **«من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجَنَّة عليه حرام»**(٣) وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: **«أيما امرأة أدخلت على قوم نسباً ليس منهم فليست من الله فى شىء ؛ ولن يُدخلها الله الجنة ؛ وأيما رجل جحد إبنه وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين»**(٤) ولقوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾**(٥) .

---

(١) الأحزاب: (٤ ، ٥) .
(٢) رواه ابن ماجه .
(٣) رواه ابن ماجة .
(٤) رواه الدارمي .
(٥) الحجرات: (١٣) .

على هذه المعرفة تترتب أحكام الوراثة فيحجب بعضهم بعضاً ، وأحكام الأولياء فيقدّم بعضهم على بعض ، وأحكام الوقف الذى إذا حصر الواقف بعض الأقارب أو الطبقات دون الآخر ، وأحكام العاقلة فى الدّية حتى تُضرب العاقلة على بعض العصبات دون الآخر ، فلولا معرفة الأنساب لفات إدراك تلك الأمور وتعذر الوصول إليها .

اعتبار النسب فى كفاءة الزوج والزوجة فى النكاح على مذهب الشافعى وغيره .

مراعاة النسب الشريف فى المرأة المنكوحة لحديث الرّسول ﷺ: «**تنكح المرأة لأربع: لدينها وَحَسَبِها ومالها وجمالِها**»[1] .

التفريق بين جريان الرّق على العجم دون العرب على مذهب من يرى ذلك ، وهو أحد القولين للشافعي .

---

(١) رواه البخارى وأبو داوود والنسائى وأحمد بن حنبل والإمام مالك فى الموطأ .

طبقـــات الأنســـاب

ذهب بعض الفقهاء إلى كراهية رفع النسب ، وذهب بعضهم إلى تكذيب من يرفعه إلى أبعد من عدنان ، ألا أنَّ كثيراً منهم مثل: البخاري ، ابن إسحاق ، والطبرى قد ذهبوا إلى جواز الرّفع فى الأنساب احتجاجاً بعمل السَّلف ، فقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى علم الأنساب بالمقام الأول والجانب الأعلى ، وذلك كما يقرر "البغدادي" صاحب "سبائك الذهب" أدلَّ دليل وأعظم شاهد على شرف هذا العلم وقدره لإقرار الرسول ﷺ(١) .

والعرب ترجع أصولهم إلى أحد أصلين: عدنان وقحطان. وقسّم النسابون العرب إلى ستة طبقات:

١. الشَّعْب: **وهم مجموعة الناس المنتسبون إلى أرومة واحدة؛ والعرب كلهم شعب واحد، ويُعَرَّف الشعب عندهم أنه النسب الأبعد كعدنان، والجمع شعوب.**

٢. القبيلة: **وهى ما انقسم من الشّعب كربيعة ومضر، وسميت قبائل لتقارب الأنساب فيها، والجمع قبائل.**

٣. العمارة: **وهى ما انقسم من أنساب القبائل كقريش وكنانة، والجمع عماير.**

٤. **والجمع بطون، كبنى عبد مناف وبنى مخزوم.**

٥. **والجمع أفخاذ وفخوذ، كبنى هاشم وبنى أمية**

٦. الفصيلة: **والجمع فصائل، كبنى العباس وبنى عبد المطلب.**

---

(١) البغدادي ، سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ، صفحة (٧) .

وهذا الترتيب هو المعتمد لدى كثير من أصحاب هذا العلم مثل : البغدادى فى "سبائك الذهب" والماوردى فى "الأحكام السلطانية" والزمخشرى فى تفسيره ، وغيرهم[١] وقال النووى فى "تحرير التنبيه" : وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة . وقال الجوهري : وعشيرة الرجل رهطه الأدنَوْن . وروى أبو عبيد عن ابن الكلبى عن أبيه : تقديم الشعب ثم القبيلة ثم الفصيلة ثم العمارة ثم الفخذ . وأضاف بعضهم طبقة سابعة على ما ذكر وهى "الحي" جمعها أحياء وهى أقسام كل الفصائل[٢] .

جاء فى "لسان العرب" : فخذ الرجل نفره من حيه الذين هم أقرب عشيرته إليه ، والجمع فخوذ وأفخاذ ، وهو أقل من البطن . وأولها الشعب ثم القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ، وهى القطعة من أعضاء الجسد . وأمّا الذى فى الحديث : أنّ النبى ﷺ لما أنزل عليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [٣]بات يُفخِذُ عشيرته أى يدعوهم فخذاً فخذاً . يقال فَخَذَ الرّجلُ بنى فلان إذا دعاهم فخذاً فخذا . ويقال : فَخَذْتُ القوم عن فلان أى خذلتهم . وفخذت بينهم أى فرقت وخذلت [٤] .

---

(١) ،(٢) المصدر السابق .

(٣) الشعراء : (٢١٤) .

(٤)ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الثالث ، الصفحات (٥٠١ - ٥٠٢) .

التفاخر بالأنساب

لقد اهتم الإسلام بحفظ الأنساب ، ومعرفة ما يتحقق بمعرفته تحقق بعض المعارف الشرعية ، وتنفيذ بعض الأحكام الشرعية على ما ورد سابقاً ، فوجب حفظ الأنساب وصيانتها وعدم ضياعها . إلا أنه قد ذمَّ وحرّم التفاخر بالأنساب ، ونهى عن العصبية القبلية أن تكون الرابط بين المسلمين . قال رسول الله ﷺ: **«كلكم بنو آدم ؛ وآدم من تراب ؛ ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان»** [(١)] .

وفى الترمذى أنّ الرسول ﷺ خطب بمكة فقال: **« . . يا أيها الناس: إنَّ الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعاظمها بآبائها ، فالناس رجلان: رجل بر تقى على الله ، ورجلٌ فاجر شقى هيّن على الله ، والناس بنو آدم وآدم من تراب»** [(٢)] وينسب لعلى كرّم الله وجهه : [(٣)]

أبوهـــم آدم وأمهـــم حـــــواء ::: الـــناس مـــن جهة التمثيل أكفـــاء
وأعظـــم قـــد خلقـــت وأعضـــاء ::: نفـــس كـــنفس وأرواح مشاكلـــة
يفاخــــرون بـــه فـــالطين والمـــاء ::: فـــإن يكـــن لهم من أصلهم حسب
عـــلى الهـــدى لمـــن استهدى أدلاء ::: مـــا الفضـــل إلا لأهل الفضل إنهم

وفى تفسير قوله تعالى من سورة الحجرات: **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾** [(٤)] ، يقول "شيخ زاده" : (والمعنى أنَّ الحكمة التى من أجلها جعلكم شعوباً وقبائل هى أن يعرف بعضكم نسب بعض ولا تنسبه لغير آبائه ، لا أن تتفاخر بالأنساب والأجداد ، والنسب وإن كان يُعتبر عُرفاً وشرعاً حتى لا تتزوج الشريفة بالنبطي ، إلا أنه لا عبرة به عند ظهور ما هو أعظم قدراً منه وأعز وهو

(١) رواه أبو بكر البزار فى مسنده من حديث حذيفة .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) تفسير القرطبي: ١٦ : ٢٤٣ .
(٤) الحجرات: (١٣) .

الإيمان والتقوى ، كما لا تظهر الكواكب عند طلوع الشّمس)[١] . لذا فيقتصر فى معرفة الأنساب على ما أمر الشرع بمعرفته فقط ، دون التفاخر بذلك ، وذلك لقوله ﷺ: **«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم»**[٢] **ولقوله أيضاً: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام ما فقهوا»**[٣] .

إنَّ التفاخر بالأنساب هى عادة جاهلية مقيتة ممجوجة شرعاً درجت فى الجاهليتين الأولى والمعاصرة ، فقد تباهى الإغريق بأصولهم ، واعتبر الجرمان أنّ نسبهم هو أرفع الأنساب على الإطلاق وكذا العبرانيون ، وارتبط العرب بقبائلهم وتفاخروا بالانتساب إليها ، وهذا التفاخر هو العصبية القبلية الموصلة إلى أدنى الروابط البشرية وأحطها على الإطلاق ألا وهى "الوطنية والقومية" ، وقد حرّم الإسلام ذلك معتبراً إياها من دواعى الجاهلية النتنة لما تقدم ولقوله ﷺ: **«دعوها فإنها جيفة منتنة»** معتبراً أنّ ما يُفتخر به هو التقوى وصالح الأعمال وليس النسب .

---

(١) شيخ زادة ، حاشية شيخ زاده على البيضاوي ، ٣: ٣٧٥ .
(٢) رواه الترمذي .
(٣) رواه البخارى والنسائي .

شجرة النسب

لقد اهتم المسلمون بمعرفة وحفظ الأنساب ، وكتبوا العديد من الكتب والموسوعات والمعاجم فى هذا العلم ، ولقد حوت أمهات الكتب ومشاهيرها تفصيلاً شاملاً لأنساب الناس عموماً والعرب تخصيصاً ، بحيث رفعها بعضهم إلى آدم عليه السلام ، وكان أكثر ما أولوه من عناية واهتمام نسب الرسول ﷺ وآل بيته الأشراف الأطهار ، كما اختصّ بعضها بأنساب طبقات وشرائح معينة من مشاهير المسلمين كالصحابة والخلفاء والفقهاء والرواة والمفسرين والنُحاة والقضاة والأدباء والشهداء وقادة الفتح وغيرهم . . .

كما حوت سجلات ووثائق المحاكم الشرعية فى أُمهات المُدُن الإسلامية تفصيلاً لأنساب المسلمين[1] واهتمت نقابات الأشراف بتدوين أنساب آل البيت وأعقابهم من زمن رسول الله ﷺ حتى يومنا هذا[2] واهتمت العائلات بتدوين وتوثيق أنسابها وإشهاد الشهود من قضاة وشيوخ ومشاهير الناس عليها ، وتسجيلها فى المحاكم والمؤسسات والدوائر المختصّة[3] ، منها ما تم طباعته ونشره وتوزيعه على الناس ، أو على المكتبات العامة ، ومنها ما بقى كمخطوطات احتفظ بها أصحابها لأنفسهم دون نشر لسبب أو لآخر .

ونسب آل الشرباتى على سبيل المثال قد تم استخراجه من سجلات ووثائق "محكمة صفد الشرعية" حيث كان مدوناً فى سجلاتها تحت اسم "نسب السادات السّعدية والبهجة السّنية" إلى أن قام نفر خير من أفراد العائلة باستخراجه وتصديقه وإشهاد الشهود عليه[4] وتم الاحتفاظ به كمخطوطة موثقة فى خزائن بيوتهم دون نشر عشرات

(١) الملاحق : انظر النموذج (١٣ - ١٤ - ١٥) .
(٢) الملاحق : انظر النموذج (١٢) .
(٣) الملاحق : انظر النموذج (١٤ - ١٥) .
(٤) كتاب " نسب آل الشرباتى الشيبانى " للمؤلف . (تحت الطبع) .

السنين إلى الآن ، حيث قامت العائلة مؤخراً بفتح واستعراض محتويات هذا النسب الشريف "المخطوطة المستوفية التصديق" وعهدت إلى بإكمال ما استجد من أنساب بعد ذلك وإلحاقها بالأصل حسب القواعد والأصول المتبعة . فأدعوه تعالى أن يوفقنى على إنجاز هذا العمل بالصدق والحق خير إنجاز[١] .

وقد درج الناس على إطلاق مصطلح "شجرة النّسب" على الوثائق الخاصة بتسلسل أنسابهم ، واستكمالاً للفائدة فقد آثرت أن يلحق بهذا البحث أنساب آل البيت وأنساب بعض مشاهير الصحابة وقادة الفتح أعلام الإسلام ونجومه ، علماً أنّ فى حوزتنا مراجع مفصلة لمعظم أنساب الناس بتسلسل فريد يتصل بآدم عليه السلام ، إلا أنّ موضع تفصيلها ليس هذا البحث المحدود الهدف .

---

(١) وثيقة نسب آل الشرباتى "مخطوطة" . - نسب السادات السعدية والبهجة السنية ، محكمة صفد الشرعية ، سجل١ ، صفحة ٢٤٩ ، عدد ١٠٨ . - البغدادي ، سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب ، الصفحات (١٠ - ١٢) .

الملاحــق

نماذج ووثائق وشهادات ومستندات النسب

نسب الناس من آدم إلى نوح عليهما السلام .

نسب الناس من نوح إلى إبراهيم عليهما السلام .

نسب الناس من إبراهيم عليه السلام إلى إلياس .

نسب الناس من إلياس إلى قصى بن كلاب .

نسب قريش من قصى بن كلاب .

نسب بعض مشاهير الصحابه وقادة الفتح .

نسب بنى أمية بن عبد شمس "الخلفاء" .

نسب أعقاب العباس بن عبد المطلب والخلفاء العباسيون .

نسب بنو شـيبه " الحجبه " من أعقاب عثمان بن طلحة .

نسب آل الشرباتى الشيبى حتى قدوم الخليل .

نسب آل الشرباتى الشيبى سكان محلة القزازين / الخليل .

صورة شهاده نسب صادرة عن نقابة الأشراف بمصر .

صورة حجة نسب صادره عن محكمة القدس الشرعية .

صورة تصديق محكمة صفد الشرعية على صحة نسب السادات السعدية .

صورة تصديق محكمة الخليل الشرعية على صحة نسب آل الشرباتي .

نموذج قصيدة مدح "للمبحرين المخلصين منارة" . مع ملاحظة أنّ ناظم القصيدة لم يتناول النسب الشريف فى مدحه ، على طريقة المسلمين بالامتناع عن التفاخر به .

[١] نسب الناس من آدم إلى نوح عليهما السّلام

آدم، نبى الله وأبو البشر عليه السلام: أبو البشر وأول من خلق الله منهم ، اختلف بسبب تسميته بهذا الاسم ، فذهب قوم إلى أنه بسبب خلقه من أدومة الأرض ، وذهب آخرون إلى أنها اشتقت من كلمة "أدمة" بسبب سمرة اللون ، وُلِدَ له أربعين ولداً فى عشرين بطناً من زوجته حواء . يقال أنه عاش ألف سنة ، ودفن فى جبل أبى قبيس ، والله أعلم .

شـــيت بن آدم: كان أجود أبناء آدم عليه السلام وخليفته فى الأرض ، وإليه انتهت أنساب الناس . وهو أول من تكلم العبرية ، وأول من لبس القلنسوة . والله أعلم .

آنوش بن شيت: ويسمى أيضاً "يانش" . استخلفه شيت أباه بسياسة المُلك . يقال أنه أول من غرس النخل . مات وعمره تسعمائة وستة وستين عاماً . والله أعلم .

قيـــنان: ويسمى أيضا "قَيْنَن" . كان رجلاً صالحاً تقياً . خلف والده آنوش . ويقال أنه اشترك مع ولد أبيه فى قتال الجان لتمردهم عليه . عاش سبعمائة وعشرين سنة . والله أعلم .

مهلائـــيل: ويسمى أيضاً "مهليل" . حلف أبيه بالرياسة . ويقال أنّ فى زمنه ترك بعض أولاد آدم الجبل المقدس واشتغلوا باللهو ومغازلة بنات قابيل . عاش تسعمائة وخمسة وعشرين سنه . والله أعلم .

اليارد: ويسمى أيضاً "يرد" . كان تقياً صالحاً . وإليه انتقلت الرياسة عن والده والله أعلم .

إدريس عليه السلام: ويسمى "أخنوخ" . أول من خطّ بالقلم وأول من جاهد فى سبيل الله . وأول من بنى المدن . يقال أنه عاش ثلاثمائة وخمسين سنه ، والله أعلم .

متوشـــلخ: خليفة أبيه إدريس فى رياسة الناس . قيل أنه أول من ركب الخيل . عاش تسعمائة وثمانين سنة ، والله أعلم .

لامــــك: ويسمى "لَمَك" . كان تقياً صالحاً . وفى زمنه كثرت الجبابرة من ولد قابيل . عاش ثمانمائة سنة ، والله أعلم .

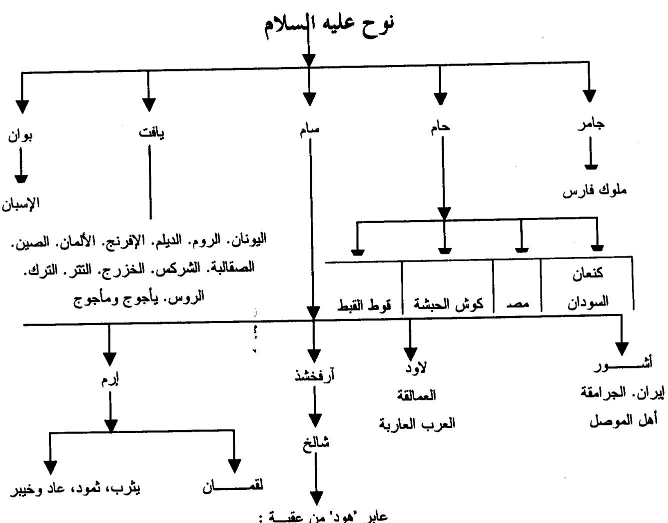
نــوح عليه السلام: رسول الله ﷺ ، أول نبى بعد إدريس عليه السلام ، وأول نذير من الشرك لأهل الأرض ، وأول نبى عُذِّبَ قومه لمخالفة دعوته ، وهو صاحب السّفينة المعلوم خبرها وإغراق قومه بنص القرآن الكريم . يقال أنه عاش ألف وأربعمائة وثمانين سنة ، والله أعلم .

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا ﴾[1] .

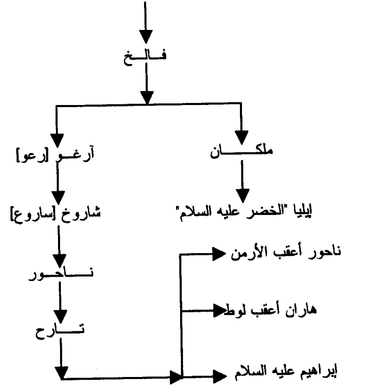
---

(١) نوح : (٢٦ - ٢٨) .

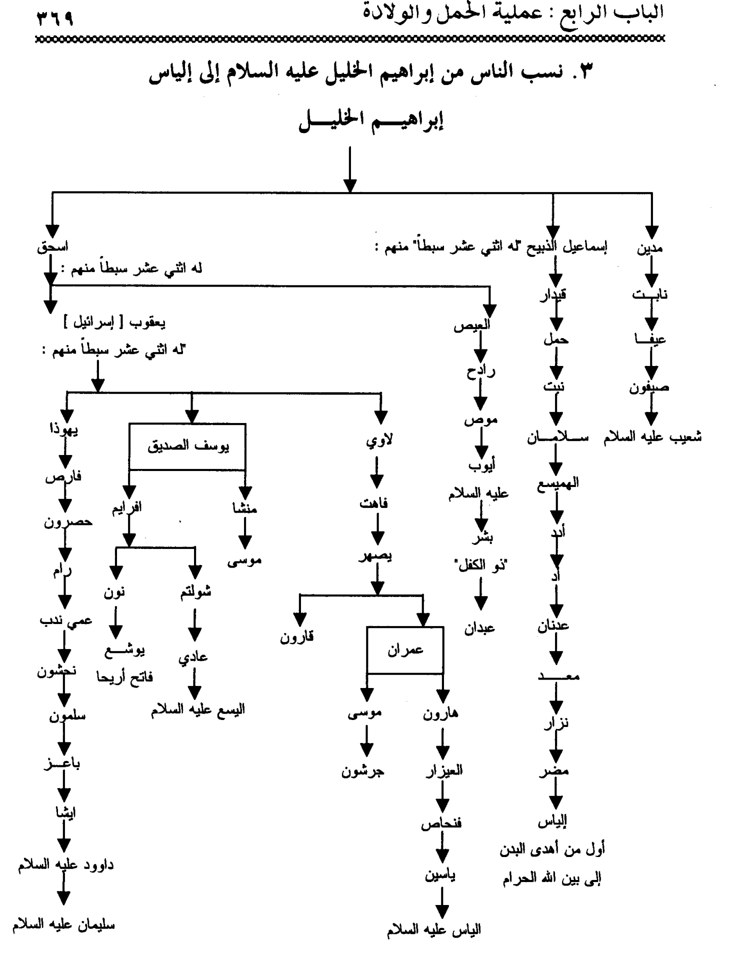
٢. نسب الناس من نوح إلى إبراهيم عليهما السلام



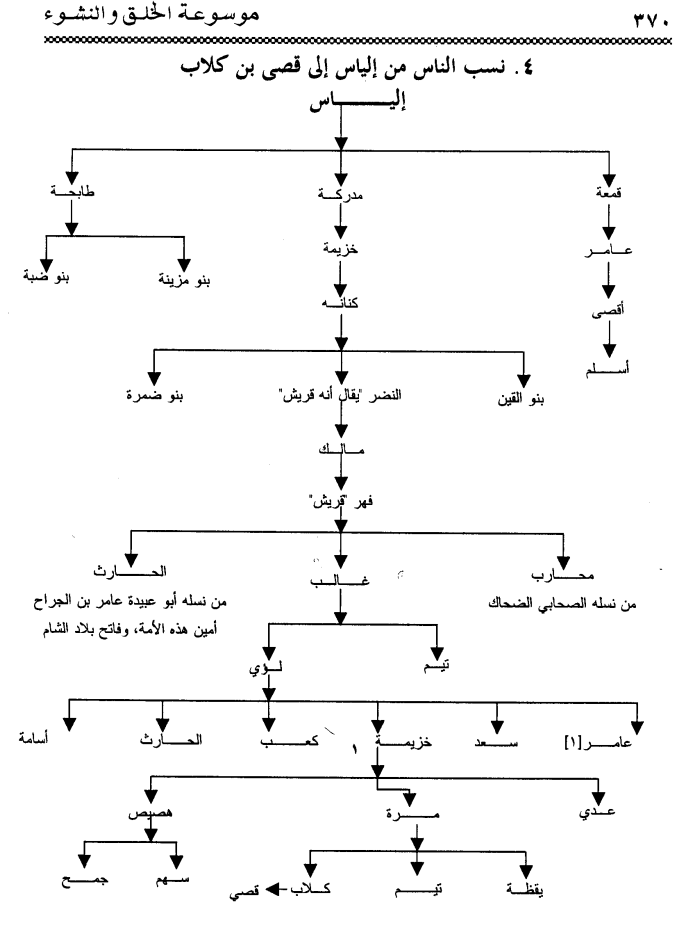
عابر "هود" من عقبــة :
يشجب، يعرب، جرهم، قحطان، حمير، سبأ، حضرموت، اليمن، يقظان، كهلان، بنو شيبان، بنو لحيان.



٣. نسب الناس من إبراهيم الخليل عليه السلام إلى إلياس

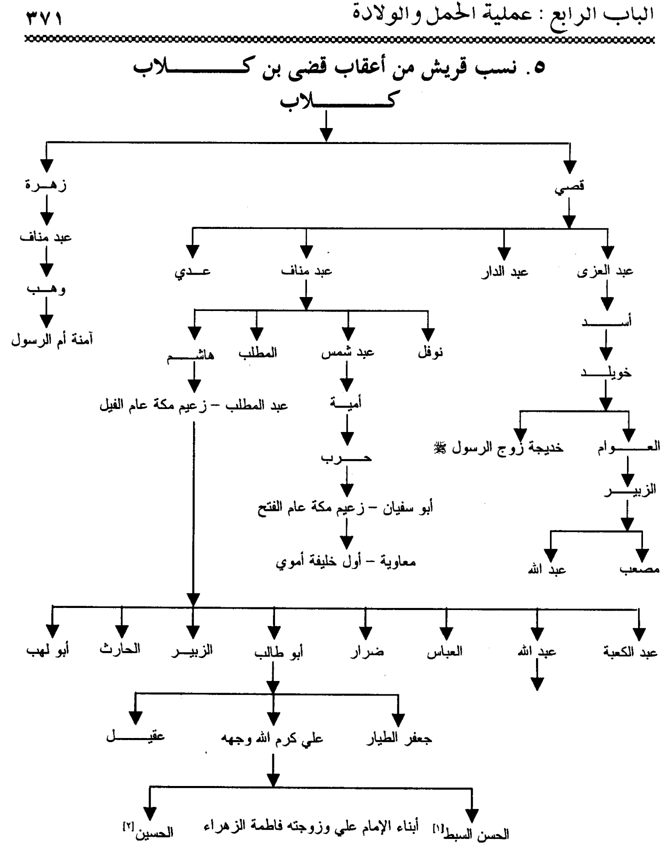


٤. نسب الناس من إلياس إلى قصى بن كلاب



(١) من نسل عامر: ابن أم مكتوم مؤذن الرسول ، وسهيل بن عمرو الذى مثل قريش فى صلح الحديبية ، وعبد الله ابن أبى السرح أخو عثمان بن عفان فى الرضاعة ، وعمرو بن ود العامرى فارس العرب .

٥. نسب قريش من أعقاب قصى بن كـــــــــلاب

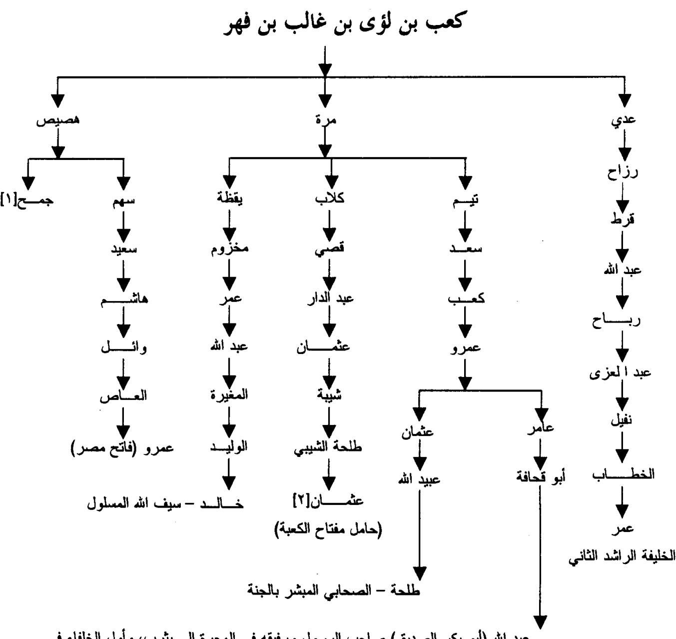


---

(١) من أعقاب الحسن السبط : السليمانيون ، الثعالبة ، الأدارسة ، والعثمانيون العمريون .

(٢) الحسين السبط أعقب على زين العابدين ، الذى أعقب محمد الباقر ، الذى أعقب جعفر الصادق ، الذى أعقب موسى الكاظم ، الذى أعقب على الرضا ، الذى أعقب محمد الجواد ، الذى أعقب على الهادي ، الذى أعقب حسن العسكري ، الذى أعقب محمد المهدي . . . رضى الله تعالى عنهم جميعاً .

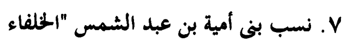
٦. نسب بعض مشاهير الصحابة وقادة الفتح



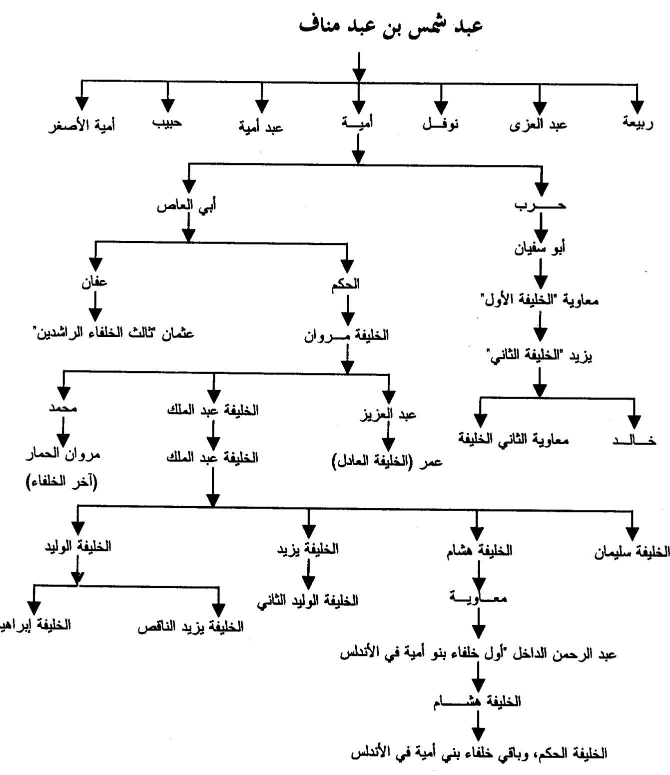
---

(١) من أعقاب جمح: عدو الله أمية بن خلف، وأبى بن خلف.

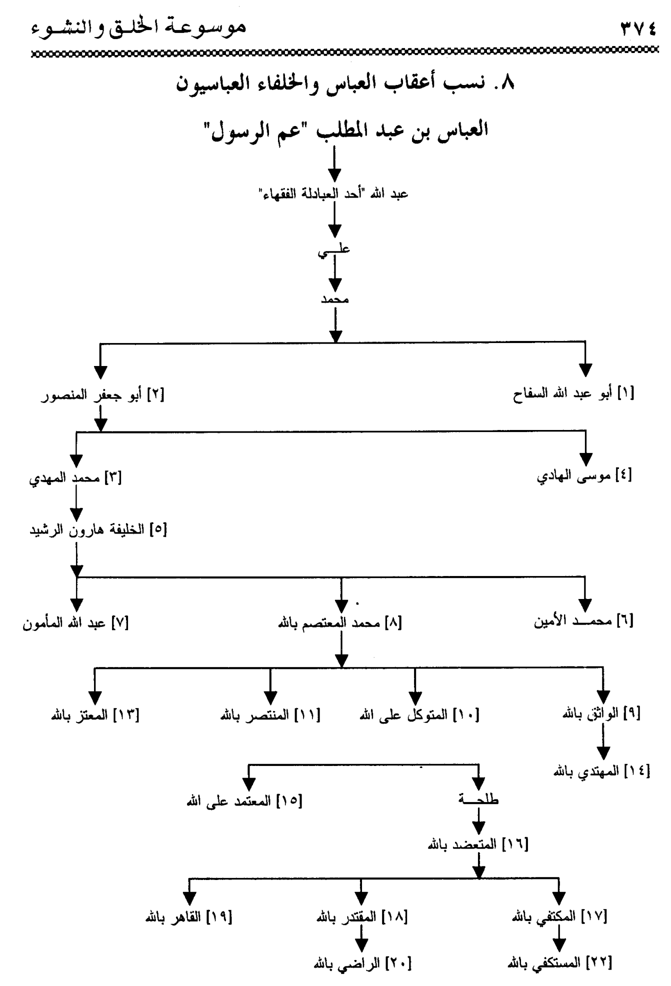
(٢) لما فتحت مكة فى ٢٠ رمضان للسنة الثامنة للهجرة، لم ينقل إلى الإسلام من مناصب بيت الله الحرام إلا سقاية الحاج من زمزم، وجعلها ﷺ لعمه العباس بن عبد المطلب، وسدانة الكعبة الشريفة، وأقرها ﷺ فى عثمان طلحة وأبنائه من بعده، خالدة تالدة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، لا يأخذها منهم إلا ظالم، ولا تزال فى عقبه إلى الآن.



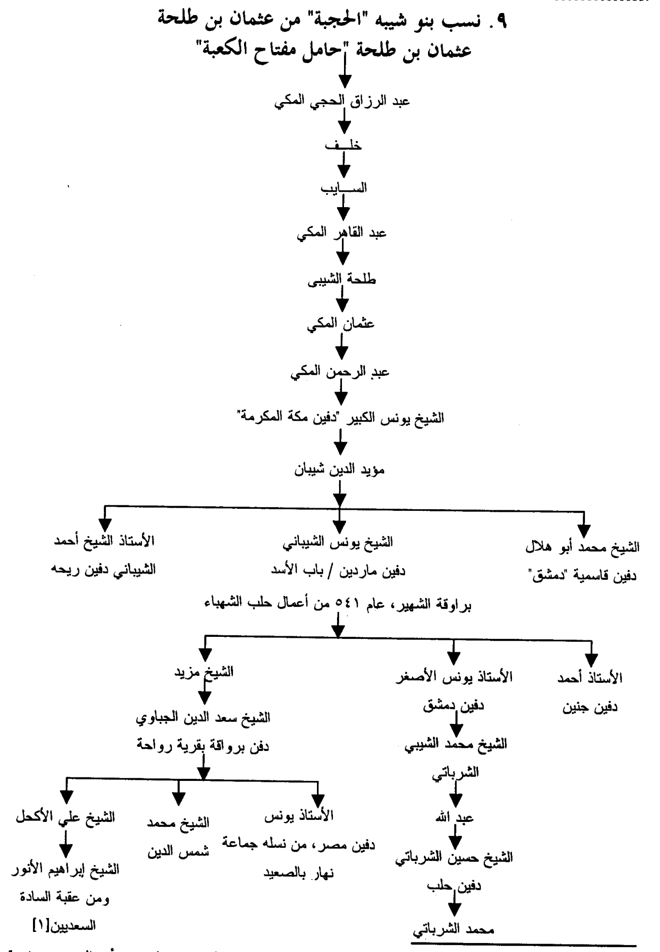
٧. نسب بنى أمية بن عبد الشمس "الخلفاء



٨. نسب أعقاب العباس والخلفاء العباسيون

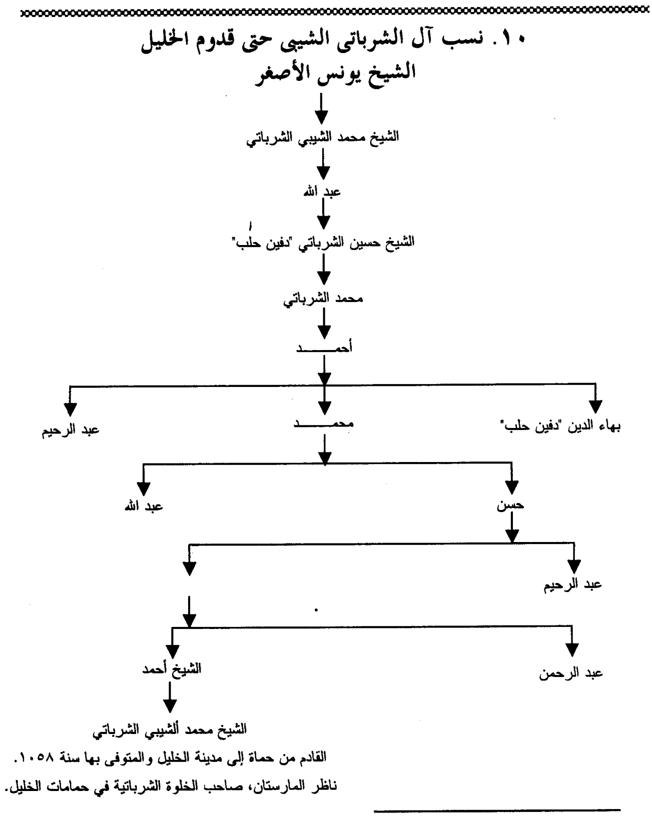


٩. نسب بنو شيبه "الحجبة" من عثمان بن طلحة



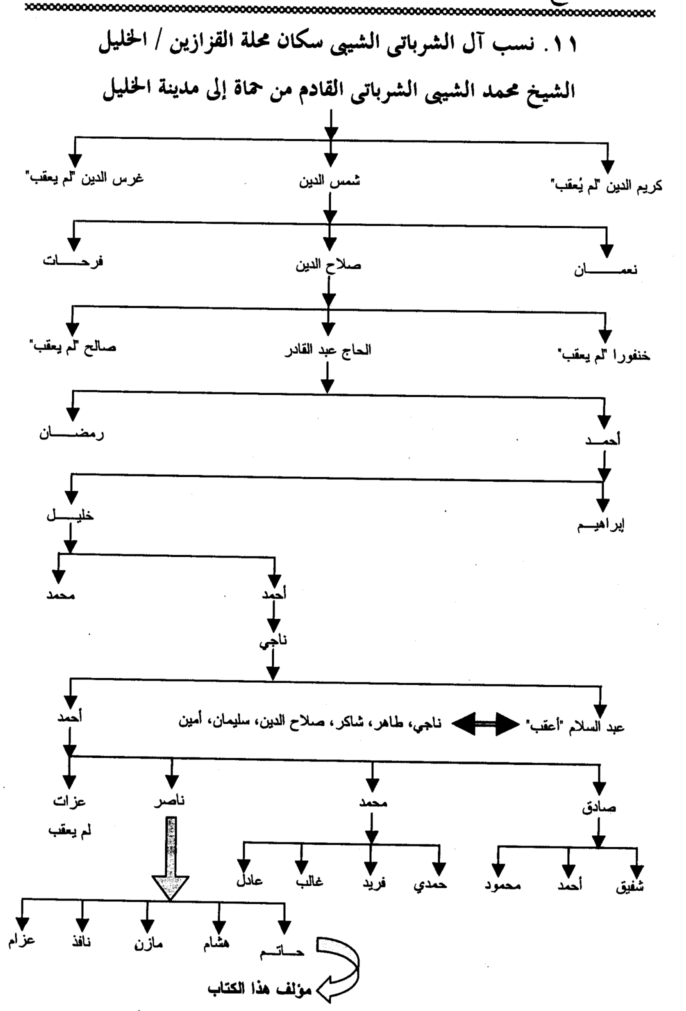
(١) الشيخ إبراهيم الأنور بن الشيخ على الأكحل ، ومن نسله [السعديون] سكان قرية المزار من أعمال جنين ، نسبة

١٠. نسب آل الشرباتي الشيبي حتى قدوم الخليل

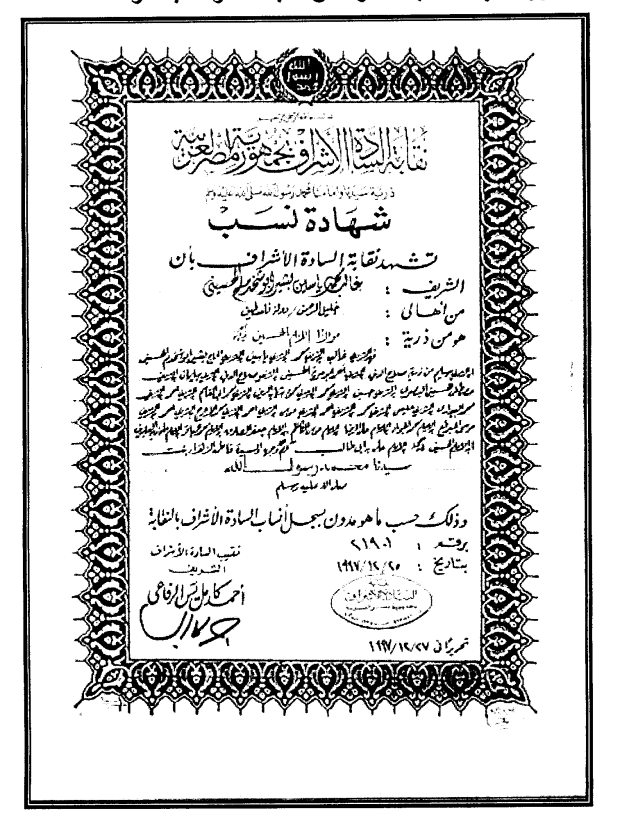


=إلى المتصوف الشهير الشيخ سعد الدين الجباوى المتوفى سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م ، وهو من أهل جبا من أعمال القنيطرة فى الجولان ، ومن السادة السعديين آل كمال والسعدى فى صفد وعكا وجنين وسيلة الحارثية ، من مشاهيرهم الشهيد الشيخ [فرحان السعدي] المعروف بتقواه وبطولته ، كان رحمة الله بطليعة المجاهدين فى فلسطين ، نفذ به الكفرة الصليبيين الإنجليز حكم الإعدام شنقاً فى ٢٧ رمضان ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م ، زمن انتدابهم البغيض على فلسطين وهو صائم وقد تجاوز الثمانين ، منهم قوم بصعيد مصر يعرفون بجماعة [نهار] فى سفط وما يليها .

١١. نسب آل الشرباتي الشيبي سكان محلة القزازين / الخليل



[١٢] صورة شهادة نسب صادرة عن نقابة الأشراف بمصر



نقابة السادة الأشراف بجمهورية مصر العربية

ذرية سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

شهادة نسب

تشهد نقابة السادة الأشراف بأن

الشريف : غالب محمد ياسين البشير أبو محمد الحسيني

من أهالي : خليل الرحمن / دولة فلسطين

هو من ذرية : مولانا الإمام الحسين [illegible]

[illegible]

سيدنا محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

وذلك حسب ما هو مدون بسجل أنساب السادة الأشراف بالنقابة

برقم : ٢١٩٠١

بتاريخ : ١٩٩٧/١٢/٢٥

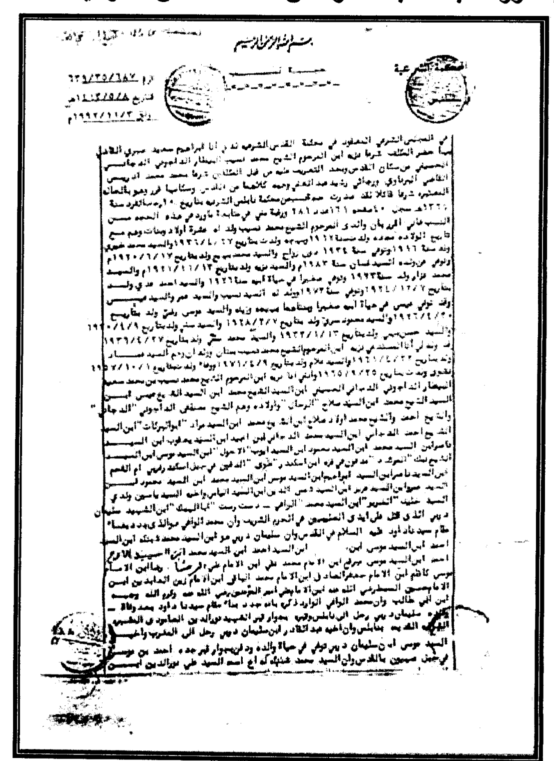
نقيب السادة الأشراف

الشريف

أحمد كامل ياسين الرفاعي

تحريراً في ١٩٩٧/١٢/٢٧

[١٣] صورة حجة نسب صادرة عن محكمة القدس الشرعية

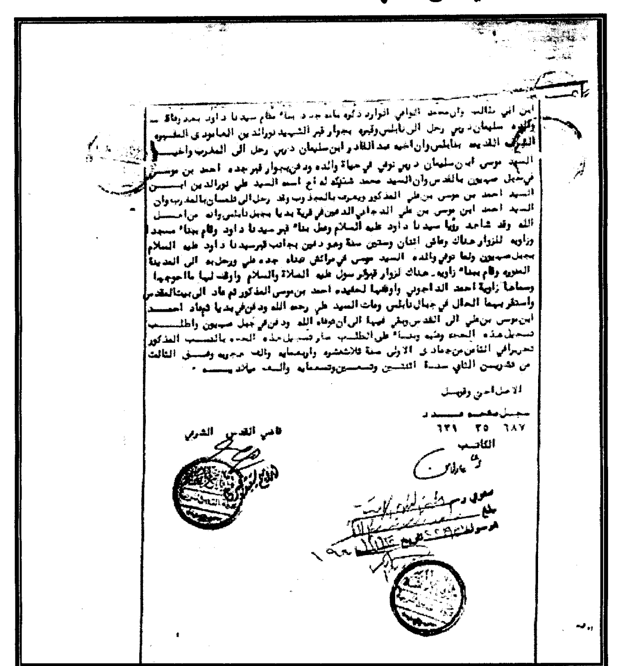


بسم الله الرحمن الرحيم

المحكمة الشرعية

حجة نسب

الصفحة الثانية من الشهادة



ابن ابي طالب وان محمد البواني الوارد ذكره باسم جده ... مقام سيدنا داود بعد وفاة
والده سليمان دريس رحل الى نابلس وقبره بجوار قبر الشهيد نورالدين العامودي المشهور
البلدية القديمة بنابلس وان اخيه عبد القادر ابن سليمان دريس رحل الى المغرب واخيه
السيد موسى ابن سليمان دريس توفي في حياة والده ودفن بجوار قبر جده احمد بن موسى
في جبل صهيون بالقدس وان السيد محمد شنيك له اخ اسمه السيد علي نورالدين ابن
السيد احمد بن موسى بن علي المذكور ويعرف بالمجذوب وقد رحل الى تلمسان بالمغرب وان
السيد احمد ابن موسى بن علي الدجاني الدفين في قرية بديا بجبل نابلس وانه من اهل
الله وقد شاهد رؤيا سيدنا داود عليه السلام وطلب بناء قبر سيدنا داود وقام ببناء مسجد
وزاويه للزوار هناك وعاش اثنان وستين سنة وهو دفين بجانب قبر سيدنا داود عليه السلام
بجبل صهيون ولما توفي والده السيد موسى في مراكش عاد جده علي ورحل به الى المدينة
المنوره وقام ببناء زاويه هناك لزوار قبر الرسول عليه الصلاة والسلام وارقف لها ما احوجها
وسماها زاوية احمد الدجاني واوقفها لحفيده احمد بن موسى المذكور ثم عاد الى بيت المقدس
واستقر بهما الحال في جبال نابلس ومات السيد علي رحمه الله ودفن في بديا ثم عاد احمد
ابن موسى بن علي الى القدس وبقي فيها الى ان توفاه الله ودفن في جبل صهيون واطلب
تسجيل هذه الحجة وبناء على الطلب صار تسجيل هذه الحجة بالنسب المذكور
تحريرا في الثامن من جمادى الاولى سنة ثلاثمئه واربعمائه والف هجريه وفق الثالث
من تشرين الثاني سنة اثنين وثمانين وتسعمائه والف ميلاديه .

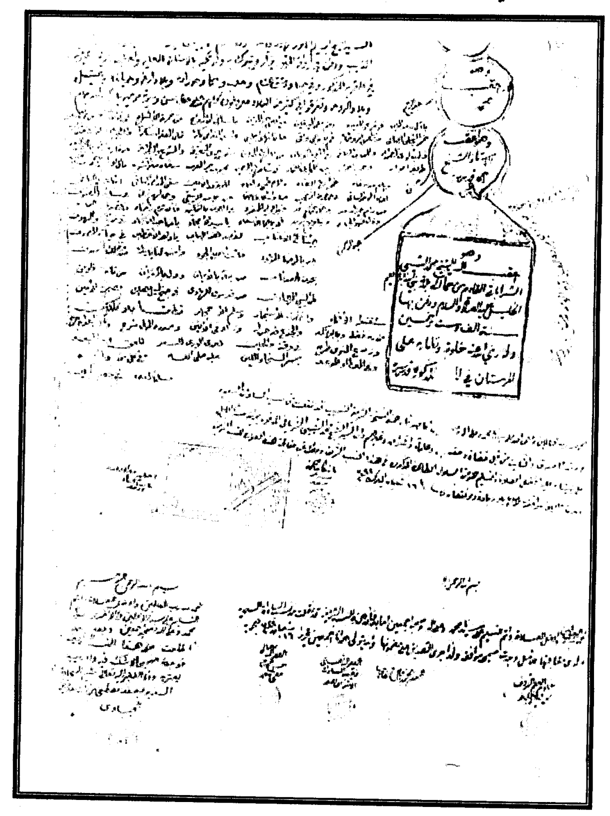
الاصل امين وقيد

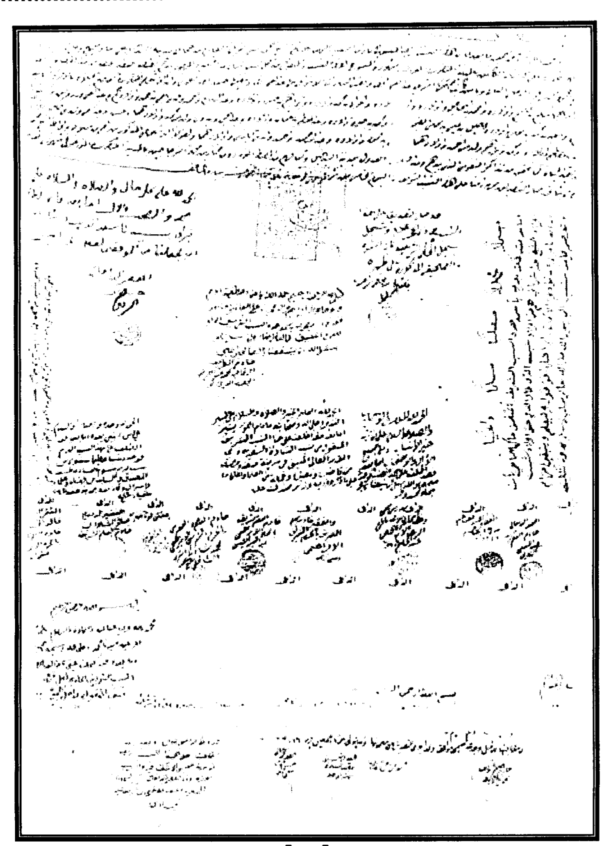
سجل محمد ...
٦٨٧ ٣٥ ٦٣١

الكاتب

قاضي القدس الشرعي

[١٤] صورة تصديق محكمة صفد الشرعية على صحة نسب السادات السعدية





[١٥]
صورة تصديق محكمة الخليل الشرعية على صحة نسب آل الشرباتي



للمبحرين المخلصين منارةٌ للسائرين إلى الهدى بثبات

الباب الخامس

الفصل الأول : الإدراك الفكرى والتمييز الغريزى

١. عملية الإدراك الشعورى.

٢. الاسترجاع ونقل المعلومات.

٣. تجارب الإنسان الأول.

٤. المعلومات السابقة وحتميتها.

٥. التفكير وعوامله الأربعة.

٦. التمييز الغريزى فى الحيوان.

الفصل الثانى

الحياة والموت والأحكام الشرعية المتعلقة بهما

١. وقفة مع التطورات العلمية

٢. الحياة والروح

٣. الأحكام الشرعية المتعلقة بالجنين

٤. الموت

٥. الأحكام الشرعية التى تترتب على انتهاء حياة الإنسان

* استعمال أجهزة الإنعاش الطبية الحديثة

٦. الاستنساخ

٧. نقل الأعضاء

٨. أطفال الأنابيب

الفصل الأول

الإدراك الفكرى والتمييز الغريزى

رداً على ما يطرحه علماء التطور المادى من مشاهدات شاهدوها لدى بعض الحيوانات (وخاصة القرود والسعادين) والتى أوردوها كشواهد وإثباتات على قرابة الإنسان للحيوان أو تطوره من سلالة القردة والسعادين ، نظراً لبعض المشابهة فى الأفعال والتصرفات التى شاهدوها فى قطعان القرود وأفرادها مع التصرفات البشرية ، والوارد فى فصل "على هامش نظرية التطور والارتقاء المادي"(١) . لذا فقد استحدثت هذا الباب لأبين هل هذه التصرفات الصادرة من الحيوان تعنى عقلاً وتفكيراً أم ماذا؟ . وهذا الفصل بالكامل جرى نقله مع بعض التعديلات والتصرف البسيط بالنص من كتاب "التفكير" للعلامة الشيخ تقى الدين النبهاني ، مع الاقتباس من مصادر أخرى (٢) .

[١] عملية الإدراك الشعورى:

إنّ الإدراك الشعورى هو ناتج عن الغرائز والحاجات العضوية ، والذى يحصل عند الحيوان ، كما أنه يحصل عند الإنسان أيضاً ، فيعرف من تكرار إعطائه التفاحة والحجر ، أنّ التفاحة تُؤكل والحجر لا يؤكل ، كما يعرف الحمار أنّ الشعير يؤكل وأنّ التراب لا يؤكل ، ولكن هذا التمييز ليس فكراً ولا إدراكاً ، إنّما هو رجع للغرائز والحاجات العضوية ، وهو موجود عند الحيوان كما هو موجود عند الإنسان ، لذلك لا يمكن أن يحصل فكر إلا إذا وجدت المعلومات السابقة مع نقل الإحساس إلى الدماغ بواسطة الحواس .

أما ما يشتبه على الكثيرين هو أنّ المعلومات السابقة قد تحصل من تجارب الشخص

---

(١) الفصل (١١) ، من الباب الأول .

(٢) - النبهانى - تقى الدين ، التفكير ، الصفحات: (١٩ - ٢٦) . - عبده - محمد محمد إسماعيل ، الفكر الإسلامي ، الصفحات: (٤٥ - ٥٠) و (٥٨ - ٦٠) . - الزين - سميح عاطف ، لمن الحكم؟ ، الصفحات: (٥ - ٣٣) ، ومصادر أخرى .

نفسه ، وقد تحصل من التلقى عن الغير ، فعندهم أنّ التجارب الأولى هى التى أوجدت معلومات ، فتكون التجارب الأولى هى التى أوجدت العملية العقلية . وهذا الاشتباه يُزال بمجرد لفت النظر إلى ما بين دماغ الإنسان وبين دماغ الحيوان من فرق من ناحية الربط ، وبمجرد لفت النظر إلى ما بين ما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية وبين ما يتعلق بالحكم على الأشياء ما هي .

أما الفرق بين دماغ الحيوان وبين دماغ الإنسان ، فإنّ دماغ الحيوان لا يوجد به ربط للمعلومات ، إنما يوجد به استرجاع الإحساس ولا سيما إذا تكرر ، وهذا الاسترجاع - من حيث قيام الحيوان بالفعل طبيعياً - خاص فيما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية ولا يتعداها لغيرها ، فأنت إذا ضربت الجرس وأطعمت الكلب عند ضرب الجرس ، فإنه إذا تكرر ذلك يفهم الكلب إذا قرع الجرس أنّ الأكل آتٍ ولذلك يسيل لعابه ، وكذلك إذا رأى الحمار حماره تتحرك فيه الشهوة ، وأيضاً فإنّ البقر وهى ترعى تتجنب الأعشاب السّامة والأعشاب التى تضرها . وكل هذا وأمثاله إنما هو تمييز غريزي .

وكمثال على التمييز الغريزي ، يقول د . أمين رويحة ، فى كتابه "التداوى بالأعشاب": [كنت سجيناً عند الإنجليز فى سجن سالسبورى عاصمة روديسيا الجنوبية فى جنوب أفريقية ، وذات يوم كنت وبعض الزنوج من زملائى السجناء فى مزرعة تابعة للسجن ، ومعنا عدد من الحراس الأوروبيون البيض والزنوج ، فشاهدت كلباً يطوف مهرولاً فى المزرعة متنقلاً من عشب إلى آخر يشمه ثم يغادره ، حتى وقف عند أحد الأعشاب وأخذ يأكل ، وعلى وجهه علائم الامتعاض من ثمره ، وهو حب بحجم ثمرة الجوز أصفر اللون ، وبعد أن أكل بضع حبات منه خرج من المزرعة مسرعاً ، فاستغربت هذه الظاهرة خصوصاً وأنى أعرف أنَّ الكلاب من فصيلة الحيوانات آكلة اللحوم التى لا تأكل الأثمار والأعشاب ، فأخذت بضع حبات من الثمار وعرضتها على ناظر المزرعة - وهو بويرى خبير بالزراعة - وعلمت منه أنها ثمار سامة وأنّ من أعراض التسمم بها القيء والإسهال ، فالكلب ما أكل منها إذاً إلا وهو بحاجة إلى مسهل ينظف أمعائه ، وقد اهتدى إليها بغريزته وميزها عن باقى الأعشاب الكثيرة التى

ليس لها هذا التأثير .][1] .

أما ما يُشاهَدَ مِن تعلم بعض الحيوانات حركات أو أعمالاً تقوم بها وهى لا تتعلق بالغريزة ، كالألعاب التى تقوم بها بعض الحيوانات الأليفة والمتوحشة من قفز ورقص وغيره والتى نشاهدها على حلبات ألعاب السيرك مثلاً ، فهى إنّما تقوم بذلك تقليداً ومحاكاة وليس عن عقل وإدراك . فدماغ الحيوان لا توجد فيه خاصية ربط المعلومات ، وإنّما عنده تذكر الإحساس والتمييز الغريزي . فكل ما يتعلق بالغريزة يُحسه ، وكما يحسه يستطيع استرجاع إحساسه لا سيما إذا تكرر هذا الإحساس . فما يتعلق بالغريزة يقوم به الحيوان طبيعياً سواء أحسه أو استرجع الإحساس به . أمّا ما لا يتعلق بالغريزة فلا يمكن أن يقوم به طبيعياً إذا أحسه ، ولكن إذا كرَّرَ هذا الإحساس واسترجعه فإنه يمكن أن يقوم به تقليداً ومحاكاة وليس قياماً طبيعياً .

ولا بُدّ من الانتباه إلى أنّ ما يقوم به تقليداً ومحاكاة والذى لا يعتبر قياماً طبيعياً ، لا يصبح مثل هذا العمل عادة فى جنس ذلك الحيوان يتوارثها عنه نسله ، فقيام نمر أو أسد أو حصان أو فيل أو قرد بأعمال الرّقص والقفز فى السيرك لا ينقل تلك العادة منه إلى غيره من القطيع ، كما لا ينتقل ذلك بالوراثة ليصبح عملاً من أعمال نسله ، فترويض أحد الوحوش للقيام بتلك الأعمال لا يعنى إطلاقاً ترويض جنس ذلك الحيوان وانتقاله من شراسة الوحوش إلى وداعة الحيوان الأليف .

وكمثال على الإيلاف والترويض فقد اختص الله سبحانه وتعالى جنس "الببغاء" بتقليد صوت الإنسان ، على أنّ ذلك لا يتم إلا بالترويض والإيلاف من الإنسان لذلك الطير عليها ويتقن التقليد والمحاكاة ، ومن المعلوم بداهة أنّ هذا الإيلاف يصدق على ذلك الفرد فقط ، مع القابلية الممنوحة لكافة الجنس على ذلك ، ولا يكفى تدريب فرد من هذا النوع كى يأتى جنسه مُروضاً على ذلك ، فلا بد من إيلاف وترويض وتدريب كل فرد من أفراد ذلك الجنس على تقليد الإنسان فى عادة الكلام . ورغم القابلية على

---

(١) رويحة - الدكتور أمين ، التداوى بالأعشاب ، صفحة (٦ - ٧) .

المحاكاة الممنوحة لذلك الجنس فإنّ التدريب اللازم لكل فرد من أفراد الجنس هو لازم ليصبح عملاً من أعمال الجنس وليس الانتقال بالوراثة .

ربـــط المعلومـــات :

أما فى الإنسان: فإنّ فى دماغه بخلاف دماغ الحيوان توجد فيه خاصية ربط المعلومات وليس مجرد استرجاع الإحساس فقط ، فالشخص يرى إنساناً فى بغداد ، ثم بعد عشر سنين يراه فى دمشق ، فيسترجع إحساسه به ، ولكنه لعدم وجود معلومات سابقة عنه لا يربط به أى شيء ، بخلاف ما لو رأى هذا الرّجل فى بغداد وأخذ معلومات عنه ، فإنّه يربط حضوره لدمشق بالمعلومات السابقة عنه ويدرك معنى حضوره لدمشق .

وهذا بخلاف الحيوان فإنه لو استرجع الإحساس بذلك الرّجل لا يدرك معنى حضوره ، إنّما يحس فيما يتعلق بالغرائز لديه عند رؤية ذلك الرجل . فالحيوان يسترجع الإحساس ولكنه لا يربط المعلومات ولو أعطيت له بالتعليم والمحاكاة . أمّا الإنسان فإنه خلافاً لذلك يسترجع الإحساس ويربط الإحساس بالمعلومات . فدماغ الإنسان فيه خاصية الربط واسترجاع الإحساس ، أمّا الحيوان فلا توجد لديه خاصية الربط ، وغنما يوجد لديه استرجاع الإحساس فقط .

[٢] الاسترجاع وربط المعلومات:

أما الفرق بين ما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية وبين ما يتعلق بماهية الأشياء والوقائع والحكم عليها: فإنّ ما يتعلق بالغرائز يمكن للإنسان بتكرار الإحساس أن يسترجع الإحساس ، ويمكنه بخاصية الرّبط أن يُكوّنَ من مجموع ما يحسه وما يسترجعه من إحساس معلومات ، وأن يسترجع تلك الإحساسات بمعلوماتها فيما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، ولكنه لا يمكن أن يربط هذه المعلومات فى غير ما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، أى لا يمكنه أن يربطها بالحكم على ماهية الشيء .

ولقد اشتبه على الكثيرين التفريق بين عملية الاسترجاع وبين عملية الرّبط ، فعملية

الاسترجاع لا تكون إلا فيما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، ولكن عملية الربط تكون فى كل شيء: سواء فيما يتعلق بالغرائز والحاجات العضوية أو فى الحكم على ماهية الشيء . فالمعلومات السابقة لا بد منها فى عملية الربط ، وميزة الإنسان على الحيوان إنما هى فى خاصية الربط . ولذلك فإنّ كون الإنسان يعرف من عوم الخشبة أنه يمكن أن يجعل من الخشب سفينة ، هى مثل كون القرد يعرف أنّ إسقاط الموزة من قطف الموز بعصا أو غير ذلك من الأدوات . فكل ذلك متعلق بالغرائز والحاجات العضوية ، وحصوله حتى لو تمّ بربط معلومات فهو عملية استرجاع وليس عملية ربط ، ولذلك لا يكون عملية عقلية ولا يدل على أنّ هناك عقلاً أو فكراً .

أما ما يكون عملية فكرية حقاً فإنما هو الحكم على ماهية الأشياء ، والحكم على ماهية الأشياء لا يتم إلا بعملية ربط بمعلومات سابقة . ومن هنا لا بد من وجود معلومات سابقة لأية عملية ربط حتى يوجد العقل أو الفكر ، أى حتى تكون العملية العقلية .

[٢] تجارب الإنسان الأول:

إنّ كثيراً من الناس يحاولون الإتيان بالإنسان الأول ، وكيف اهتدى من تجاربه ، ومن تكوين معلومات من تلك التجارب إلى الفكر والتفكير ، ليصلوا من ذلك إلى أنّ الواقع نفسه بانعكاس الدماغ عليه ، أو بإحساس الإنسان به ، قد جعل الإنسان يفكر وأوجد لديه عملية عقلية ، أى أوجد عنده فكراً وتفكيراً . وبالرغم مما قدمناه من أنّ هذا استرجاع وليس ربطاً ، وأنه خاص بالغرائز والحاجات العضوية ، ولا يمكن بحال أن ينطبق على الحكم على ماهية الأشياء ، كافٍ لنقضه والرد عليه .

لكن الموضوع ليس بحثاً فى الإنسان الأول ، ولا هو متعلق بفروض وتخمينات وتصورات واستنتاجات ، وإنّما هو متعلق بالإنسان من حيث هو إنسان ، فبدل أن نبحث فى الإنسان الأول ونستكشف عاداته وتقاليده فى المغاور والكهوف وعلى شواطئ البحار ومن صفحات الصخور لنقيس عليه الإنسان الحالى - الماثل شاخاً أمامنا

نشاهده ونحس به - فنقيس الغائب على الشاهد . فلننظر في الإنسان الحالي الموجود ، وندرس تصرفاته وأعماله وطريقة عيشه . وما ينطبق على الإنسان الحالي بالحس والمشاهدة ينطبق على كل إنسان كان ، حتى على ما يطلقون عليه الإنسان الأول . ولذلك لا يصح أن نعكس البرهان بل يجب أن نسوقه على الوجه الصحيح .

إنَّ الإنسان الحالي أمامنا نشاهده ونحس به ، فلنقم بإجراء العملية العقلية عليه فيما يتعلق بالحكم على ماهية الأشياء ، ثم نرى الاسترجاع والربط والفرق بينهما . فنشاهد أنَّ المعلومات السابقة لا بد منهما في الربط عند الإنسان ، إذ لا بد منها في إجراء العملية العقلية . بخلاف استرجاع الإحساس فإنّه موجود عند الإنسان كما هو موجود عند الحيوان ، وهو لا يشكل عملية عقلية ، وهو ليس عقلاً ولا فكراً ولا تفكيراً . والطفل الصغير الذي لا يعرف الأشياء وليست لديه معلومات سابقة ، والذي يمكن أن يأخذ المعلومات هو البرهان الصادق على معنى العقل .

[٤] المعلومات السابقة وحتميتها :

إنَّ العقل أو الفكر أو الإدراك بمعنى واحد ، ألا وهو الحكم على الشيء أو الحكم على الواقع ، والعقل غير موجود بتاتاً إلا عند الإنسان والجان ، إذ هو معدوم عند غيرهم من المخلوقات ، فالعملية العقلية أي عملية التفكير لا يمكن أن يقوم بها إلا الإنسان والجان . أما الغرائز والحاجات العضوية فهي موجودة عند كل من الإنسان والحيوان ، وكذلك إحساساتها فهي موجودة عند كل من الإنسان والحيوان ، ولكن كل ذلك ليس عقلاً ولا إدراكاً ولا تفكيراً ، إنّما هو تمييز غريزي ليس إلا . أمّا العقل أو الفكر فإنه يحتاج إلى دماغ فيه خاصية ربط المعلومات ، وهذا الدماغ الصالح ليس موجوداً إلا عند الإنسان والجان .

وعليه فإنَّ العملية العقلية لا يمكن أن تحصل إلا بوجود خاصية الربط ، وخاصية الربط إنما تربط المعلومات بالواقع ، ولذلك لا بد لأي عملية عقلية سواء أكانت لدى الإنسان الأول أو الإنسان الحالي من وجود معلومات سابقة عن الواقع ، ويشترط

وجودها قبل وجود هذا الواقع أمام الشخص الذى يريد أن يعقله .

من هنا فلا بد أن تكون لدى الإنسان الأول معلومات سابقة عن الواقع من قبل أن يعرض عليه هذا الواقع ، وهذه المعلومات لابد أن تصل إليه عن طريق التلقى من الغير ، أى لا بد لهذا الإنسان أن يزود بتلك المعلومات ، حتى يستطيع أن يحكم على الواقع حين يستلزم الأمر هذا الحكم ، وهذا يشير إلى قوله تعالى عن تزويد آدم "الإنسان الأول" بالمعلومات السابقة : ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا** ﴾[1] ﴿ **قَالَ يا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾[2]، ﴿ **عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[3] وعلى ذلك فالمعلومات السابقة هى شرط أساسى ورئيسى وحتمى لا بد من وجوده حتى تتحقق العملية العقلية ، أى العقل والفكر .

[٥] التفكير وعوامله الأربعة :

لقد سار علماء الشيوعية شوطاً كبيراً نحو إدراك العقل أى التفكير ، فأدركوا فى محاولتهم تلك أنّه لا بد من وجود واقع حتى تتم العملية العقلية ، وأدركوا أنه لا بد من وجود دماغ سليم "أى دماغ إنساني" حتى توجد العملية العقلية . وبذلك فقد ساروا فى أول الطريق المستقيم ، لكنهم أخطأوا التعبير فى ربط الدماغ بالواقع وعبروا عنه بالانعكاس وليس بالإحساس ، إلا أنَّهم قد انحرفوا عن الصواب كلية حين أنكروا ضرورة وجود المعلومات السابقة حتى تتم العملية العقلية ، إذ بدون توفر تلك المعلومات لا يمكن أن يتم التفكير ولا بوجه من الوجوه . وعلى ذلك فإنَّ الطريق المستقيم الذى يؤدى إلى معرفة معنى العقل معرفة يقينية جازمة هو أنه لا بد من وجود عناصر أربعة حتى تتم العملية العقلية أى حتى يوجد العقل أو الفكر :

---

(١) ، (٢) البقرة : (٣١) .
(٣) العلق : (٤) .

لابد من وجود واقع .

لا بد من وجود دماغ سليم .

لابد من وجود إحساس .

لا بد من توفر معلومات سابقة عن هذا الواقع .

فلا بد من تحقق هذه العناصر الأربعة مجتمعة ، ولا بد من تحقق اجتماعها حتى تتم العملية العقلية ، أي حتى يوجد عقل أو فكر أو إدراك . وعليه فالعقل أو الفكر أو الإدراك الذي هو الحكم على الواقع ، أو الحكم على ماهية الشيء يكون هو: "**نقل الحس بالواقع إلى الدّماغ بواسطة الحواس مع توفر معلومات سابقة يُفسَّر بواسطتها هذا الواقع**" لذا فإنَّ عدم توفر عناصر التفكير الأربعة كاملة ومجتمعة لا يؤدي إلى العملية التفكيرية . وبالتالي فلا يتم الحكم على الواقع أو على ماهية الشيء .

[٦] التمييز الغريزي في الحيوان :

نعود ثانية إلى موضوع الإدراك الشعوري أو التمييز الغريزي ، فالتمييز الغريزي يحصل عند الحيوان من جراء تكرار إحساسه بالواقع . ذلك أنّ الحيوان لديه دماغ ولديه حواس كما هو الحال عند الإنسان ، إلا أنَّ دماغ الحيوان خالٍ من القدرة على الربط . وإنّما فيه مركز للإحساس فقط ، فلا توجد عنده معلومات سابقة يربطها بالواقع أو الإحساس ، وإنَّما توجد عنده انطباعات عن الواقع ، ويستعيد هذه الانطباعات حين الإحساس بالواقع . وهذه الاستعادة ليست ربطاً وإنّما هي تحرك لمركز الإحساس من جراء الإحساس بالواقع الأول أو بواقع جديد يتصل بالواقع الأول . فيحصل من هذه الاستعادة للإحساس تمييز غريزي هو الذي يعين سلوك الحيوان نحو إشباع الغريزة أو الحاجة العضوية . ويكون هذا السلوك للإشباع أو عدم الإشباع فقط ، ولا يكون لأكثر من هذا مطلقاً .

وعلى هذا فإنَّ الذى يحصل عند الحيوان هو إحساس بالواقع فقط مهما تعدد ذلك الإحساس أو تنوع . وهذا الإحساس هو الذى يدفعه للإشباع أو عدم الإشباع . فمثلاً إذا قدمَ لِطيرٍ أو حيوان طعام فإنّه يميز فيه كونه يؤكل أو لا يؤكل ، ثم يعين سلوكه نحوه فيأكله أو يُعرِضُ عنه ، ولا يزيد على ذلك . وإذا وصل لهذا التمييز من ناحية الإشباع وقف عند حده ، فهو لا يستطيع أن يزيد على ذلك ولا يحاول أن يزيد على ذلك ، فلو قدم لحصان شعير وتراب فهو يحاول أن يختبر أيهما فيه إشباع ، فإذا وجد ذلك فى الشعير لا فى التراب تركز عنده الإحساس بأنَّ الشعير يُشبِعُ حاجته والتراب لا يُشبع ، فيقوم بعد ذلك وفى كل المرات التى يقدم له فيها طعام بترك التراب لمجرد الإحساس به ، وأخذ الشعير بمجرد الإحساس به إن كان جائعاً .

إنَّ هذا التمييز حصل عند الحيوان من تجربة حاصلة بواسطة الإحساس ، وتكفى تلك التجربة ولو لمرة واحدة ، وسواء أحصلت معه أو مع غيره مع إحساسه لما حصل مع غيره ، وسواء أكان ذلك من تجربة شيء واحد أو تجارب أشياء متعددة مختلفة ، فإنّها كلها تُحْدِث "التمييز الغريزي" ، إلا أنَّ تجربة الشيء الواحد هى التى تظهر عند الحيوان أكثر من غيرها ، وقد تحصل عنده تجارب متعددة كالتجربة على الشعير والتراب أو كالتجربة على الحلو والمر والحامض ، وقد تحصل عنده تجارب معقدة فيصدر عنه استعادة الإحساس بما يشبه التفكير ولكنه حقيقةً استعادة لما سبق أن أحسه وليس ربطاً بمعلومات .

مثال ذلك تجربة سرقة الفئران للبيض : فإنه شوهد أنَّ فأرين يذهبان إلى سوق البيض ، فينبطح أحدهما على ظهره ، ويدفع الآخر البيضة على بطن الفأر المنبطح فيقبض ذاك رجليه عليها ويسحبه الفأر الآخر من ذنبه إلى وكرهما حتى يضعا البيضة فيه ، ثم يرجعان للإتيان بغيرها على الوجه السابق .

إنَّ هذه العملية معقدة ، ولكنها نتجت عن تجارب فى استعادة المحسوسات لا عن ربط المعلومات ، وهذه التجارب لا تحصل إلا بما يحصل فيه الإشباع ، أو يتصل بما

يحصل فيه الإشباع ، فلا تحصل تجربة الفئران بغير ما يُؤكل ، لكن قد تحصل فى غير البيض مما يحصل فيه إشباع .

إنَّ هذا الذى حصل من الفأر والحصان ، وما حصل لكلب مزرعة سجن سالسبوري ، وما حصل لسعادين برهم ، وما يحصل من القرد والجمل وغيرهما ، ليس تفكيراً وإنّما هو تمييز غريزي ، وهو خاص بما يُشبع جوعات الغريزة فقط ، ولا يتعدى التمييز ، فلا يمكن أن يؤدى إلى معرفة ماهية الشيء الذى أشبع نفسه ، وما هو الشيء الذى يحصل به إشباع ، ومن هنا كان ذلك تمييزاً غريزياً وليس فكراً ولا عقلاً ولا إدراكاً .

ومثل الحيوان الطفل حين يولد فإنّه وإن كان دماغه فيه قابلية الربط ، إلا أنه لا يوجد عنده معلومات حتى يربطها بالإحساس بالواقع الجديد ليميزه ، ولذلك لا يحصل عنده لا فكر ولا عقل ولا إدراك ، وإنَّما الذى يحصل عنده تمييز غريزى فقط من حيث كون الشيء يُشبع أو لا يُشبع ، وهذا التمييز الغريزى لا يجعل عنده معرفة عن حقيقة الشيء الذى ميز الإشباع فيه ، فهو لا يعرف ما هو هذا الشيء الذى أشبع ولا يعرف ما هو هذا الشيء الذى لم يُشبع ، وكل ما يحصل عنده هو تمييز فى حدود الإشباع فقط متمثل فى هل هذا يُشبع أو لا يُشبع فقط ، فإذا عرضت على طفل تفاحة وحجر جرّب أحدهما فما يجدُ فيه الإشباع يأكله ويرمى الآخر ، فتحصل عنده من ذلك تجربة يستطيع أن يأخذ بها التفاح ويترك الحجر ، بتمييز غريزى حصل من التجربة فقط ، وذلك لأن المعلومات لم توجد عنده بعد ، فإذا وجدت عنده المعلومات استعملها استعمالاً طبيعياً لأنَّ الرَّبْطَ جزء من تكون دماغه ، فإحساسه بالشيء مرتبط بربطه المعلومات حتماً ، فيكون وجدود المفهوم عن الشيء مربوطاً ربطاً حتمياً بالإحساس به ، فيبدأ حينئذٍ عند الطفل الفكر والعقل والإدراك بمجرد وجود المعلومات اللازمة لكى يربط بها .

وعلى ذلك فالتمييز الغريزى هو: **إحساس بالواقع بواسطة**

الحــواس يحصــل مــن جــرائه تميــيز الشــيء من كونه يُشبِع أو لا يُشـبِع. بخلاف الفكر فإنَّه **نقــل الواقــع إلى الدمــاغ بواســطة الحواس مــع وجــود معلومــات ســابقة تفســر هذا الواقع. فالفكر هو حكم عــلى واقــع أو عــلى الشــيء مــا هو. والتمييز الغريزى هو تبيان أنّ الشيء يشبع أو لا يشبع لا غير.**

وعلى هذا فإنَّ كل ما شوهد ويشاهد من تمييز غريزى لدى الحيوانات إنّما هو تمييز غريزى فيما يُشبِع أو لا يُشبِع من الأشياء لا يتعداها ، وإنّ كل ذلك لا يُشكِلُ عقلاً ولا تفكيراً ، وإنَّ من السَّذاجَة الرَّبط بين تلك المشاهدات وبين طريقة التفكير فى الإنسان ، أو لإثبات وتأكيد القرابة بين القرود والإنسان ، فالتمييز الغريزى هو إدراك شعورى بلا فكر موجود فى الفأر والحمار كما هو موجود فى القرد والسعدان وكما هو موجود بكل الحيوانات بلا استثناء .

الفصل الثاني

وقفة مع التطورات العلمية

الحيـــاة والمـــوت

[١] وقفه مع التطورات العلمية :

نشرت وكالة "اسوشتيتد برس" من واشنطون الخبر التالى تحت عنوان (البيت الأبيض يعلن معارضته . عالِم أمريكى يؤكد تصميمه على بدء تجارب فى مجال الاستنساخ البشري) :

"قال طبيب من شيكاغو أنَّه مصمم على بدء العمل فى حقل استنساخ البشر على الرغم من المعارضة الواسعة النطاق لاستخدام هذه التقنية المطورة على الناس ، فيما أعلن البيت الأبيض رسمياً معارضته الكاملة لإجراء مثل هذه العمليات . وقال "ريتشارد سيد" فى مقابلة بثها راديو "ناشيونال بابلك" أمس الأول : إنَّ هدفنا ، وهدفى أنا هو إقامة عيادة استنساخ بشرية فى منطقة شيكاغو الكبرى وجعلها عيادة إخصاب مربحة .

وقال "ريتشارد سيد" : أنَّه يعتزم استخدام نفس التقنيات التى استعملها علماء اسكتلنديون عام ١٩٦٦ فى استنساخ النعجة "دوللي" وهى أول حيوان ثديى مستنسخ . وسوف تستخدم تقنيات مجهرية لعزل المادة الوراثية" DNA " من بويضة امرأة لتحل محلها مادة" DNA " مأخوذة من الشخص الذى سيتم استنساخه . وبمجرد الإخصاب فإنّ البويضة ستنقسم إلى ما بين ٥٠ - ١٠٠ خلية ، ثم يمكن بعد ذلك نقل الجنين إلى رحم امرأة وإذا نجحت التقنية فسيولد أول طفل مستنسخ بعد ٩ شهور .

وأخبر "سيد" جريدة "صن تايمز" التى تصدر فى شيكاغو أنّ هدفه الآن هو إحداث حمل مدته شهران فى أنثى خلال عامين ونصف العام .

وذكر "سيد" الذى تحدث لأول مرة عن خططه فى مؤتمر لتقنيات التكاثر عقد فى شيكاغو لصحيفة "بوسطن كلوب" أنَّه سيتوجه إلى المكسيك إذا حُظِرَ عليه إجراء تجارب فى الولايات المتحدة . وكانت لجنة قومية قد أوصت العام الماضى غداة استنساخ النعجة دوللى بأن يُصدِر الكونغرس قانوناً يحرم استنساخ البشر لأنَّ هذه التقنية تشكل مخاطر واحتمالات للتشوه وتثير قضايا أخلاقية مقلقة .

وصرح "سيد" لصحيفة "واشنطون بوست" بأنه تمكن بالفعل من تجميع عدد من الأطباء الراغبين فى العمل معه ، كما أنَّ لديه أربعة أزواج تطوعوا للاستنساخ ورفض ذكر أسماء أى منهم ، وأضاف : قلت مراراً بأنّ أحداً لا يستطيع إيقاف مسيرة العِلم ، وقد خلق الله الإنسان فى أحسن صورة ليكون خليفته على الأرض ، والاستنساخ وإعادة البرمجة هى أول خطوة نحو الاستخلاف فى الأرض ، وقال عالِم البيولوجيا من جامعة شيكاغو "هاريت هاسون" : إنَّ ريتشارد رجل لامع إلا أنه أحمق إلى حَدٍ ما ، وإذا استطاع إنسان تحقيق الاستنساخ البشرى فلن يكون سوى ريتشارد سيد .

وفى واشنطون كرَّرَ البيت الأبيض أمس معارضته الكاملة لأى اختبار حول الاستنساخ البشري ، دون أن يحدد ما إذا كان سيحاول التدخل لمنع الباحث ريتشارد سيد من بدء اختبارات من هذا النوع . وقال المتحدث باسم البيت الأبيض "مايكل ماكاري" : "إنَّ وجهات نظرنا التى تعارض بشدّة الاستنساخ سبق وعبّر عنها الرئيس بيل كلينتون بشكل واضح جداً . "ويشير ماكارى فى كلامه إلى مرسوم أصدره كلينتون العام الماضى حظر فيه استخدام الأموال الفدرالية لإجراء تجارب على الاستنساخ البشري . وكان كلينتون قد أصدر هذا المرسوم بعد إعلان ولادة النعجة "دوللي" فى مختبرات "بي . بي . إل تيرابوتيكس" الاسكتلندية فى أول عملية استنساخ حيوان بالغ"[1]

كما تسابقت عدة محافل رسمية وغير رسمية ودينية غربية وعربية فى إعلان المعارضة التامة لإجراء أى تجارب فى مجال الاستنساخ البشرى مطالبة إصدار تشريعات

(١) الفصل الحادى عشر من الباب الأول "على هامش نظريات التطور والارتقاء المادى" . صفحة (٩٥) .

صارمة لمنع ذلك . فقد وقعت ١٩ دولة أوروبية بتاريخ ١٢/٠١/١٩٩٨م . في باريس اتفاقاً يحظر استنساخ الكائنات البشرية ، وذلك خلال حفل نظم في وزارة الخارجية الفرنسية ، ويرفض الاتفاق أي استثناء لحظر تكوين كائنات بشرية مطابقة وراثياً لكائن آخر حي أو ميت ، أياً تكن التقنية المستخدمة [١] .

ويرى البروفسور "أكسيل كان" المتخصص في علم الوراثة أن تطبيق الاستنساخ إلى البشر يعني ظهور نوع جديد من البشر إلى جانب المولودين بشكل طبيعي ، أي نوع جاء بناء على رغبة أناس آخرين وطبقاً لمواصفات معينة يخشى أن تحولهم على أناس خاضعين لصانعيهم . كما يرى البروفيسور"كان" أن الاستنساخ البشري سيشكل تراجعاً بالنسبة للمجتمع وانكفاءً اجتماعياً وانكماشاً على الذات [٢] .

ويبرر مؤيدو استنساخ البشر في الولايات المتحدة وبريطانيا موقفهم بالمنفعة التي يمكن أن تُجبى منه ، مثل تعويض عائلة فجعت لفقدها طفل . . . ويقول البروفيسور"كان" : (إنَّ الخلايا البالغة التي ستستخدم في الاستنساخ ربما تكون مشوهة بسبب التلوث والأشعة الكونية أو التدخين ، وليس هناك ما يؤكد أنَّ المولود المستنسخ سيكون طبيعياً وغير مصاب بتشوهات أو أمراض أو معرض لشيخوخة مبكرة)[٣]

وإذا كان الرئيس بيل كلينتون فرض حظراً على تجارب الاستنساخ في الولايات المتحدة لخمس سنوات فإنّ قراره هذا لا يشمل المختبرات الخاصة . إلا أن وزيرة الصحة الأمريكية "دونا شلالا" أكدت أنَّ الولايات المتحدة لن تسمح للطبيب "ريتشارد سيد" الذي وصفته بأنه مجنون باستنساخ بشر على أراضيها مؤكدة أنّ العمل جارٍ لإصدار قانون بهذا الصدد [٤] .

وقد كشف كل من الدكتور "أحمد جلال الليثي" والدكتور "على عليان" أستاذ

---

(١) جريدة " القدس " / الصادرة في فلسطين يوم الخميس ٨ / ١ / ١٩٩٨ ، نقلاً عن وكالة " اسوشيتدبريس " .

(٢) جريدة القدس الصادرة بتاريخ ١٣/١/١٩٨٩ م . نقلاً عن وكالة " فرانس برس " .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

أمراض النساء والولادة بكلية الطب / جامعة عين شمس ، عن إجراء تجارب لاستنساخ البشر فى إيطاليا . فقد قالا فى تصريح لمجلة "العِلم" المصرية : أنَّ العالِم "د . أنتى نوري" أجرى عملية استنساخ بشرى فى تكتم شديد وسرية تامة بمعمله الخاص . وأنَّ هذه العملية أجريت على سيدة إنجليزية وهى حالياً حامل بهذه الطريقة[1] . ويعلق "د . محمد فريد الأسمر" أستاذ الهندسة البيولوجية والوراثية بكلية الطب / جامعة عين شمس" (إنَّ ما أعلن مؤخراً عن استنساخ النعجة دوللى والقردين فى أمريكا هو أحد تطبيقات تكنولوجيا البيولوجيا الجزئية . . . إنَّ لهذه التكنولوجيا أخطاراً ومساوئ تستدعى الحذر ووضع بروتوكولات وقوانين ملزمة . . . حيث أنّ عواقبها قد لا يمكن التحكم فيها وتؤدى إلى ما تعرف له حدود حتى الآن!!! . . . إنّه لا يمكن قبول أن تجمع البشر صفات وأشكال واحدة . . . فهذا ضد القوانين السماوية ولا نعلم هل سيكون النتاج به عيوب خلقية متضاعفة مما يؤدى إلى ظهور أمراض يمكن أن تقود إلى فناء الجنس البشرى لأنه عادة بالتزاوج بين الأفراد المتباعدين فى القرابة تخف حدة الأمراض الوراثية)[2]

ويعلق الدكتور عادل الناظر - أستاذ مساعد أمراض النساء بطب عين شمس :

(إنَّ الاستنساخ حرام شرعاً ، وهى مسألة ضد القوانين السماوية وضد الطبيعة والأخلاقيات ، وهى تكنولوجيا تشكل مفاهيم جديدة فى عالَم الحمل والولادة والتكاثر . وأعتقد أنّ قصرها على النباتات لإنتاج وتحسين المحاصيل أفضل ، وكذلك على الحيوانات للحصول على سلالات جيدة . . .)[3] .

أمّا الدكتور "أحمد جلال الليثي" - أستاذ أمراض النساء والولادة بكلية الطب / جامعة عين شمس فيقول : (نحن بلد إسلامى نرفض استنساخ البشر لأنّ هذا يُعد كفراً بالدين ومرفوض أخلاقياً واجتماعياً ، وضد كيان الأسرة وصحة الإنسان ، ومخالفة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) دورية "العِلم" المصرية ، عدد (٢٤٧) ، ابريل ١٩٩٧ ، صفحة (٤) .

(٣) المصدر السابق ، صفحة (٥) .

صريحة للشريعة والمبادئ الأخلاقية . .)[١] .

وبتاريخ ١٩/١/١٩٩٨م . أعلنت إدارة الأغذية والأدوية الأمريكية أنّ القانون الأمريكى يخولها **وحدها** تنظيم الأبحاث العلمية فى الولايات المتحدة . جاء ذلك فى تصريحات نقلتها صحيفة "واشنطن بوست" عن مسئول فى الإدارة وعقب فيها على تأكيد وزيرة الصحة "دونا شلالا" قبل عشرة أيام بأنّ الحكومة الأمريكية لن تسمح للباحث "ريتشارد سيد" بخوض مضمار استنساخ البشر كما أعلن فى وقت سابق من هذا الشهر . وقال "مايكل فريدمان" المسئول عن إدارة الأغذية الأمريكية للصحيفة أنّ : (القانون الخاص بالأغذية والأدوية ومستحضرات التجميل يخولنا تنظيم استنساخ البشر ونحن على استعداد لممارسة ذلك) وقال فريدمان "إنّ أى شخص يريد إجراء مثل هذه التجارب عليه أن يقدم طلباً إلى الإدارة التى ستبحث كل ملف بالتفصيل قبل الموافقة عليه أو رفضه . " مشيراً إلى أنّ المخالفين سيتعرضون لملاحقات قضائية [٢] .

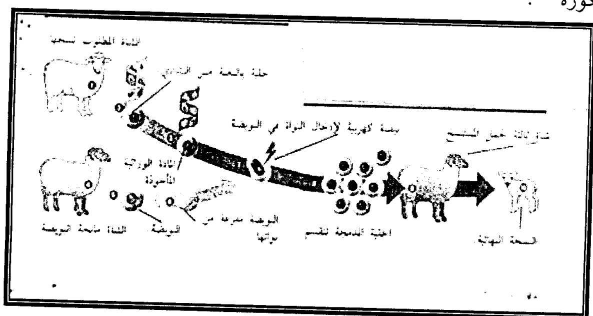
وفى نبأ من دانيا/فلوريدا نقلته وكالة "اسوشيتدبرس" ، قال العالِم الاسكتلندى الذى قاد فريق العلماء فى استنساخ النعجة "دوللي" بنجاح : أنّ التفكير فى الاستنساخ البشرى أمر مرعب ومذهل ، وأضاف "أيان دولمت" فى محاضرة قامت برعايتها جامعة "ساوت ويستيرن" : (الاستنساخ محزن بما فيه الكفاية إذا طبق على حيوانات المزرعة ولكنّ التفكير فى تطبيقه على البشر يُثير الهلع فى نُفوسنا) وقال أنّ أى محاولات لاستنساخ البشر من المحتمل أن تُسْفِرَ عن أجِنّة مُشوهة قد تموت عقب ولادتها مباشرة ، وانتقد "ديلموت" إعلان الطبيب "ريتشارد سيد" مؤخراً من شيكاغو عن خطط لإقامة عيادة لبدأ الاستنساخ البشرى خلال عامين . ووصف الفكرة بأنها خالية تماماً من الإحساس بالمسؤولية . وقال أن فريق البحث الذى ترأسه فى معهد روزلين بمدينة أدنبرة تلقى رسائل من آباء توفى أبنائهم أرادوا استنساخ أعزائهم المتوفين . وكانت إجاباتنا أننا

---

(١) المصدر السابق ، صفحة (٦) .
(٢) المصدر السابق .

بالطبع عاجزون عن ذلك [١] .

وبعد نجاح عملية الاستنساخ بولادة النعجة دوللى "اللعبة" وتصريحات العالِم الأمريكى "ريتشارد سيد" قفز الموضوع ليتصدر العناوين الرئيسية فى الصحف والمجلات العالمية ، خاصة بعد الإعلان عن إطلاق اسم "مستر جيفرسون" وهو أحد رؤساء الولايات المتحدة على أول عجل مستنسخ[٢] ففى عنوان تحت صورة "فوتى كوبي" ورد عنوان : - هل يأتى الغد بماكينة لصنع البشر؟ - وبلغت حمى المبالغات فى ذلك - أعظم من القنبلة الذرية - أفظع من اكتشاف كوبر نيكوس - أهم اكتشاف فى القرن العشرين - بدأ العلماء يخلقون الإنسان - . . إلى درجة أنّ مجلة "ايما *Imma*" الألمانية بشرت بمجتمع النحل الإنسانى الأنثوى الجديد لإزالة تسلط الذكور كما تصفه المجلة المذكورة [٣] .



---

(١) جريدة " القدس " / فلسطين ، بتاريخ ١٩٩٨/١/٢٠ ، نقلاً عن : (أ ف ب) .
(٢) جريدة " القدس " / فلسطين ، بتاريخ ١٩٩٨/١/٢٣ ، نقلاً عن : (اسوشيتدبرس) .
(٣) جريدة " القدس " / فلسطين ، بتاريخ ١٩٩٨/٢/٢٤ .



القدس

(ريمو سايد - اليتوي) الدكتور ريتشارد سيد يجيب على اسئلة الصحفيين هنا امس حول نيته اجراء تجربة لاستنساخ بشري.
صورة من اسوشيتدبرس خاصة بـ «القدس»

إنّ التطورات العلمية الهائلة التى توصل إليها العُلماء فى مجال البيولوجيا "الأحياء" ، وعلم الأجنة البشري ، والجينات ، والبيولوجيا الطبية ، والهندسة الوراثية ، وأخيراً وليس آخراً الاستنساخ البشري ، قد فاقت كلّ التوقعات وأذهلت العقول .

إنّ هذه التطورات العلمية الهائلة واستخداماتها بفضل التكنولوجيا بالغة التطور ، إن دَلت على شيء فإنّما تدل على عظمة الله وقدرته ، وحكمته وإتقان صنعه ، وأنه هو الخالق المبدع لهذه الكائنات ، وأنها لم تخلق صدفة ، لأنّ ما فيها من نظام دقيق تسير عليه ، وقوانين دقيقة تضبطها وتسيرها ، وخواص مهيأة لما تصلح له ، وما خلقت لأجله ينفى أن تكون قد خلقت صدفة ، لأنّ الصدفة لا توجِد القوانينَ الدقيقة والنظام المحكم . فالقوانين الدقيقة والنظام المحكم يقتضى وجود المنظم المبدع القدير الحكيم . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾[2] ، أى خلق كل شيء خلقاً مراعيا فيه التقدير والتسوية ، وهيأه

(١) القمر : (٤٩) .
(٢) الفرقان : (٢) .

لما يصلح لـه ، فكان خلقاً بتقدير حكيم وليس خلقاً من غير تقدير . وإنّ هذا الخلق هو خلق من عدم ، وليس إيجاداً من موجود ، لأنّ الإيجاد من الموجود ليس خلقاً .

إنّ ما توصل إليه العلماء من تطورات علمية ، ومن استخدام مدهش لهذه التطورات العلمية ، والتى ساعدهم على القيام بها والتوصل إليها التطورُ المذهل للتكنولوجيا ، سواء فى الإنسان أو الحيوان أو النبات أو الجماد ، ما هو إلا قليل من كثير مما هو موجود فى الكون من أسرار ، ومن أنظمة وقوانين تتحكم فى الأشياء وتنظم سيرها ومن خاصيات أودعها الله فى الأشياء لتكون صالحة لما خلقت لـه ، وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[1] وإنّ ما توصل إليه العلماء وما قاموا به ما هو إلا اكتشاف بسيط لبعض القوانين والأنظمة والخاصيات وإبراز لها ، وليس فيه أى خلق ، لأنه ليس إيجادا من العدم وإنّما هو إبراز لما هو موجود . وإنه كلما تقدم العِلم والعُلماء فى ذلك ازدادت الدلالة على عظمة الخالق وعلى كامل قدرته وبالغ حكمته ، وازدادت قوة الإيمان به . وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك فى قوله : ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾[2] .

إنّ هذه التطورات العلمية المذهلة التى وصلت إلى حد استنساخ النبات والحيوان ، والتى تواصل طريقها للوصول إلى استنساخ الإنسان ، قد أصبح لها حضور فى الساحة ، مما يقتضى التصدى لها من باب رعاية الشؤون والقوامة على المجتمع ، لأنّ لها مساساً بحياة المسلمين .

وهى وإن كانت نَتاجَ تجارب علمية ، والعِلم عالمى لا يختص بوجهة نظر معينة ، إلا أنّ استعمالاتها والأخذ بها تكون مبنية على وجهة النظر فى الحياة . ولكون هذه الإنجازات العلمية ظهرت فى العالم الغربى ابتداءً ، فإنّه أخذ بها باعتبارها نافعة ، على

---

(١) الإسراء : (٨٥) .
(٢) فصلت : (٥٣) .

أساس أنه يتبنى وجهة النظر المبنية على فصل الدين عن الحياة ، لأنّ الشعب هو صاحب السيادة ، ولأنّ الشعب يملك العقل القادر على إدراك المصالح والمفاسد والمنافع والمضار ، وقد جعل القيمة المادية التى هى النفعية مقياسَه فى الحياة ، وجعلها هى القيمة المعتبرة من بين جميع القيم ، ولم يُقِم وزناً للقيم الأخرى من روحية وخلقية وإنسانية . وحين يقوم بعمل يحقق منفعة له ، فإن لم يرَ أنّ فيه منفعة له فإنّه لا يقوم به ولا يعيره أى اهتمام .

لذلك فإنّهُم عندما يستخدمون ما توصل إليه العِلم ، لا ينظرون إلا إلى كونه يحقق لهم القيمة المادية ، أى يحقق لهم المنفعة ، بقطع النظر عن كونه يتفق مع القيم الروحية والخلقية والإنسانية أو يتناقض معها ، لأنّ هذه القيم ليست مقياساً للأعمال عندهم ولا اعتبار لها فى تصرفاتهم . ومقياسهم الوحيد هو القيمة المادية المتمثلة بالنفعية .

إنّ وجهة النظر الغربية الصليبية هذه سببت للعالم أشد الكوارث ، وكانت الحربان العالميتان من نَتاجها ، لأنهما أشعلتا لفرض السيطرة والاستعمار الغاشم لتحقيق المنافع واستغلال الشعوب ونهب ثرواتها . كما أنّ الحروب التى أشعلوها بعد ذلك كحرب الخليج وحرب الإبادة الصليبية التى شنوها على المسلمين فى أفغانستان هما أيضاً من نَتاج وجهة النظر الغربية تلك .

وتبنى وجهة النظر هذه لفكرة النفعية والحريات ومنها الحرية الشخصية ، انفلت سُعار الجنس ، حتى صارت المجتمعات فى العالم الصليبى الغربى كقطعان الحيوانات ، وأصبح الزنا والمعاشرة الجنسية خارج نطاق الزوجية والشذوذ الجنسى فيها أمراً عادياً ، ومسموحاً به قانوناً ، مما ترتب على ذلك كثرة أولاد الزنا وكثرة الولادات غير الشرعية ، حتى وصلت نسبتها إلى ما يزيد عن خمس وأربعين فى المائة من الولادات حسب الإحصاءات التى تنشرها الصحف فى العالم الغربى بين الحين والآخر . وهذا يعنى أنّ ما يقرب من نصف أولاد العالم الغربى أولاد زنا ، ومنهم من هم فى مراكز الحكم والقيادة والقرار . حتى عندما تم الكشف عن الفضائح الخلقية التى قام بها رئيس الدولة العظمى فى العالم الرئيس المراهق "بيل كلينتون" قامت العاصفة فى الدولة

وكادت تطيح به كرئيس دولة لا لأنه قد زاول الزنا والفاحشة ، بل لأنه كذب وأنكر قيام علاقاته مع "مونيكا" وغيرها من العاهرات . وعندما ظهر هذا الرئيس المراهق على المنصة الرئيسية لمؤتمر اللوطيون فى واشنطن فقد مر ذلك دون أى اعتراض لأنه لا ضير فى ذلك العمل المشين بناء على قاعدة الحرية الشخصية!!!!

وبذلك ضاعت القيم الروحية والخلقية والإنسانية فى مجتمعات العالم الغربى الجاهلي ، وهدمت الأسرة وقضى على العفة ، ولم يعد هناك عندهم شيء اسمه شرف ، فترتب على ذلك وعلى كثرة الولادات الناتجة عن الزنا وعن المعاشرة خارج نطاق العلاقة الزوجية ، إباحة الإجهاض قانونياً فى كثير من دول العالم الغربي . وهذا يتيح الفرصة لمن تريد من النساء أن تتخلص من حملها خاصة إن كان ناتجاً عن علاقة غير زوجية . وأخذت هذه الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة تسوقه إلى مجتمعات العالم الإسلامي ، مع تسويق فكرة تقليل النسل كما حصل فى "مؤتمر السُّكان" الذى عقد فى القاهرة ، وفى "مؤتمر المرأة" الذى عقد فى بكين ، لتصبح المجتمعات فى العالم الإسلامى مثل المجتمعات فى العالم الغربي ، ليقضى فيها على القيم والأخلاق الإسلامية الباقية فى هذه المجتمعات ، ولتهدم الأسرة ولينفلت فيها سُعار الجنس ، ما دام يُمَكِن العالَمَ الغربى وعلى رأسه أمريكا من الهيمنة على العالم الإسلامي ، ومن تركيز مفاهيمه وحضارته ووجهة نظره عن الحياة فى مجتمعات العالم الإسلامي . وقد تبين ذلك بوضوح أيضاً أثناء الحرب الصليبية على أفغانستان الهجمة الوقحة فى وسائل الإعلام التى قادتها الولايات المتحدة وبريطانيا على تقيد المسلمين هناك باللباس المحتشم للمرأة معتبرين ذلك تخلفاً وانتهاكاً لحرية المرأة وحطاً من كرامتها يجب مقاومته وإزالته بكل الوسائل ، فسارعوا من اليوم الأول لاحتلال كابول بنشر أسطوانات الغناء والإباحية والفجور ، والطلب بكل صفاقتهم المعهودة بحلق اللحى وخلع الملابس المحتشمة للمرأة .

إنّ وجهة النظر تلك هى وجهة نظر كفر ، وهى تتناقض مع وجهة النظر فى الإسلام تناقضاً كلياً . فوجهة النظر فى الإسلام تقضى أن يسير الإنسان جميع أعماله

فى الحياة وَفْقَ أوامر الله ونواهيه ، وأن يقيس كافة أعماله بمقياس الإسلام الذى هو الحلال والحرام فقط . والحلال هو ما أحله الله والحرام ما حرمه الله ، وأحكام الحلال والحرام تؤخذ من النصوص الشرعية المأخوذة من الكتاب والسُّنة وما أرشدا إليه من قياس وإجماع صحابة ، والحلال يؤخذ والحرام يُترك بقطع النظر عن المصلحة والمفسدة ، وعن المنفعة والمضرة ، لأنّ العبرة هى بشرع الله ، فالله سبحانه هو المُشرع وليس الإنسان ، وعقل الإنسان عمله فهم النصوص وليس تشريع النصوص والأحكام . لذا فينبذ نبذ النواة فتاوى مشايخ السلاطين المجترئين على دين الله والمحلين لما حرّم الله المحرمين لما أحل .

والناحية العلمية وإن كانت عالمية وغير مختصة بوجهة نظر معينة ، إلا أنّ ما يتوصل إليه العلم من نتائج ، يكون استعمالها حسب أحكام الشرع بنص صريح أو اجتهاد مستكملاً لشروطه ، فإن أباحها الشرع أخذت ، وإن حرمها تركت وحَرُمَ أخذها . هكذا يجب أن تكون نظرتنا لكل ما ينتجه العِلم .

لذا فقد تعاملنا مع موضوعات هذا الفصل على هذا الأساس ، فقد عرضناها على النصوص الشرعية ، وبذلنا الوُسع فى ذلك ، وعلى هدى النصوص الشرعية وفهمنا لها بينا ما يحل لنا أخذه وما يحرم علينا أخذه حسب ما تقتضيه تلك النصوص ، دون أى اعتبار لأى شيء آخر من مصالح ومفاسد ، أو منافع ومضار ، فالمصلحة المعتبرة عند المسلم هى ما اعتبرها الشرع مصلحة ، وأما ما لم يعتبرها الشرع مصلحة فيحرم أخذها على الإطلاق . فقد كان هذا هو الأساس فى تناولنا كافة مواضيع هذا الفصل وهى :

الاستنساخ – نقل الأعضاء – الإجهاض – أطفال الأنابيب – أجهزة الإنعاش الطبية – الحياة والموت

لقد بُذِل الوسع فى ذلك ، ونسأل الله تعالى إصابة الحكم الشرعى الصحيح فى كل ما تناولناه من أبحاث . فإن تحقق القصد فالحمد والشكر لله تعالى ، وإن خفى علينا شيء فندعو الله تعالى المغفرة والصفح ، ونسأله تعالى أن يُلهم المسلمين جميعاً الالتزام التام

بالأحكام الشرعية . والله نسأل حُسْن العمل وخير الثواب .

لقد تم نقل معظم مواضيع هذا الباب من كتاب الأستاذ عبد القديم زلوم (حكم الشرع فى . . . .) ، بتصرف . كما تم الاستئناس ببعض المصادر الفقهية التى تناولت مواضيع الحياة والموت ، ومصادر منوعه أخرى تناولت مواضيع البحث .

[٢] الحياة والروح:

الحياة فى اللغة نقيض الموت ، والحياة هى مظهر سر الحياة ، فَسِر الحياة لا يُعرَف ، ولكن الحياة تُعرَف لأنها مظهر لهذا السر ، فالشخص يعرف أنّ العود يابساً أو أخضر ، ولكن لا تعرف ما هو سر حياته ، فالحياة لها مظاهر وآثار ، تدل عليها ، **منها**: الحسّ والحركة والنمو والغذاء . والحياة تظهر فى الإنسان والحيوان والنبات ، وتظهر آثارها ومظاهرها فى هذه المخلوقات الحية الثلاثة ، غير أنّ الإنسان والحيوان فيهما القدرة الذاتية على الانتقال من مكان إلى آخر ، وهذا غير موجود فى النبات .

والحياة فى الإنسان والحيوان والنبات قائم على نظام الزوجية (أى تزاوج وتلاقح بين ذكر وأنثى) ، وهذا مضطرد وشامل لجميع هذه المخلوقات الحية ، فكلها يحصل بين الذكر والأنثى . ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾[1] ﴿ **وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾[2]

والحياة فى الإنسان تكون حياة إنسانية نامية ، وفى الحيوان تكون حياة حيوانية نامية ، وفى النبات تكون حياة نباتية نامية ، فهى مختلفة حسب كل نوع من هذه المخلوقات الثلاثة .

والحياة موجودة فى الحيوان المنوى لكل من الإنسان والحيوان ، وفى بويضات الإناث لكل من الإنسان والحيوان ، كما هى موجودة فى بيوض الطير وبعض الحيوانات كالزواحف ، كما أنها موجودة فى أجنة بذور النباتات . أما الحياة الموجودة

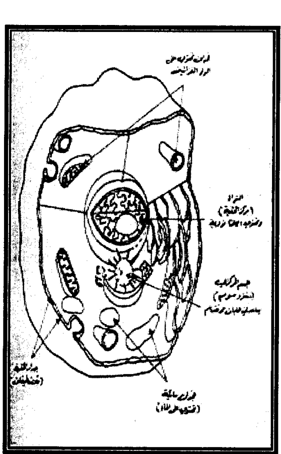
---

(١) يس : (٣٦) .
(٢) الذاريات : (٤٩) .

فى الحيوان المنوى فى كل من الإنسان والحيوان ، فكلتاهما تتميزان بالحركة والحياة ، بخلاف الحياة فى أجنة بذور النباتات إذ هى كامنة لا تظهر فيها الحركة .

والله تعالى جلت قدرته قد جعل فى الحيوان المنوى لكل من الإنسان والحيوان ، وفى بويضات إناث الإنسان والحيوان ، وفى بيوض بعض الحيوانات ، وفى بيوض الطير ، وفى أجنة بذور النباتات ، عناصر التخطيط النووى للخلية ، بحيث لا تنتج إلا نوعها من إنسان أو حيوان أو نبات ، وتكون فيها عناصر الوراثة ، تتسلسل إليها جيلاً بعد جيل .





فالحيوان المنوى للرجل ، وبويضة المرأة ، فيهما عناصر الوراثة للآباء والأجداد صعداً حتى آدم عليه السلام ، ولا يمكن بحال أن تحصل حياة إنسانية دون تلاقح بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة - يستثنى من ذلك ما اختص الله تعالى أدم وحواء وعيسى عليهم السلام - ولا ينتجان إلا إنساناً متميزاً ، ويكون هذا الإنسان حائزاً على صفات من آبائه وأجداده ، من مثل الأشكال والألوان والتكوين الخلقي .

وكذلك الحال بالنسبة للحيوان ، فإنّ حيوانه المنوى لا يمكن أن ينتجَ إلا بتلاقحه مع بويضة الأنثى من الحيوان ، وكذلك الحال بالنسبة لبيوض الطير والحيوان فلا بد فيها من لقح الذكور لها حتى تُنتج ، وأنه يوجد لكل نوع من هذه الأنواع الحيوانية مخططات جنينية أصيلة أودعها الله فى حيواناتها المنوية ، وفى بويضات إناثها وبيضها ، وبهذه المخططات العجيبة يتميز كل نوع عن الآخر بصفاته وخلقه وخواصه .

كما أنّ الله تعالى قد جعل فى بذور النباتات عناصر التخطيط النووى للخلية حسب نوع النبات ، وبهذا التخطيط يتبع سيره فى تكوين النباتات والأشجار المختلفة الثمار والأكل ، على اختلاف فى ألوانها وثمراتها وأنواعها . فبذرة القمح لا تنتج إلا قمحاً ، وبذرة الشعير لا تنتج إلا شعيراً ، كما أنّ بذرة اللوز لا تنتج جوزاً ولا بلوطاً ولا تفاحاً .

إنّ العناصر التى تتألف منها النباتات معلومة ، وكلها بلا استثناء تمتص غذاءها من الأرض من تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ، ومع ذلك تخرج مختلفة ، حتى لو زرعنا فى مساحة متر مربع من الأرض الحلو والمر والحامض والحار والسّام ، وسقيناها بماء واحد ، نجد أنّ كل صنف يخرج ثماره المختلفة المميزة عن غيره ، دون أى اختلاط أو امتزاج .

هـــذه هـــى الحـــياة... أمّا الروح فإنّها غير الحياة . . . إذ هى سر الحياة وقوامها ، وحقيقة الروح من الأمور التى لا يعلمها إلا الله تعالى ، فلا يعلمها غيره ، إذ هى من المغيبات ، ومما لا يقع عليه الحس ، لذلك لا يمكن أن تجرى عليها التجارب والاختبارات ، وفى الروح قوله تعالى : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[1]

وللروح مظاهر وآثار تدل عليها ، فالفقه والعقل والاستماع والإبصار والحركة الإرادية هى من مظاهر الروح ، ولا توجد إلا بوجود الروح ، فإذا نزعت الروح فقدت كل الآثار والمظاهر ، وقد خلق الله تعالى آدم جسداً ، ولكنه لم يتمتع بالعقل والفقه

---

(١) الإسراء : (٨٥) .

والسمع والإبصار والحركة الإرادية إلا بعد نفخ الروح فيه ، قال تعالى ﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾[1]

وفى النوم يتوفى الله الأنفس ويقبض الأرواح ، لذلك فالنائم يفقد مظاهر الروح من الفهم والإدراك والإبصار والاستماع والحركة الإرادية . وفى ذلك قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾[2] وقال رسول الله ﷺ لأصحابه حين ناموا عن الصلاة : « **إنّ الله قبض أرواحكم حيث شاء وردها حيث شاء** » .

والروح تحل فى الجنين الحي ، فالحياة فى الجنين سابقة على حلول الروح فيه ، لأنّ الجنين تكوّن مع التلاقح بين الحيوان المنوى للرجل وبويضة المرأة ، والحيوان المنوى فيه حياة قبل أن يتصل ببويضة المرأة ويتلاقح معها ليكونا جنيناً ، والحيوان المنوى الذى لا حياة فيه لا يمكن أن يتلاقح مع بويضة المرأة ويكون معها جنيناً ، وكذلك بويضة المرأة فيها حياة قبل أن يلتقى بها الحيوان المنوي ، والبويضة الفاسدة التى لا حياة فيها لا يمكن أن يلقحها الحيوان المنوي ، وبالتالى لا يمكن أن يحدث بينهما إخصاب ولا يمكن أن يكون جنيناً .

لذلك فالحياة موجودة فى الحيوان المنوى للرجل ، وفى بويضة المرأة قبل أن يحصل التلاقح بينهما ، وعند حصول التلاقح بينهما يبدأ العمل المشترك منهما فى السير لتكوين الإنسان المتميز ، فيمشج كل منهما ما عنده من عناصر التخطيط النووى مع ما عند الآخر ، وما فيهما من الخَلَق المُخلقة التى خطها الله سبحانه وتعالى للإنسان المتميز الذى سيخلق من هذا التلاقح ومن هذا الاختلاط تتكون النطفة الأمشاج . قال تعالى : ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[3] ثم تقوم

---

(١) الحجر : (٢٩) .
(٢) الزمر : (٤٢) .
(٣) الإنسان (٢) .

تلك النطفة بقدرة أودعها الله فيها بتقسيم نفسها تقسيماً بعد تقسيم ، وتبدأ الخلايا التى تكون الجنين سيرها فى تطورها من نطفة إلى علقه إلى مضغة على الترتيب الذى ورد فى القرآن الكريم ، والذى سبق لنا بيانه فى الباب السابق من هذا الكتاب . وهو ما ورد فى قوله تعالى من سورة الحج : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ﴾**[1]

وفى فترة هذا التطور من نطفة إلى علقه إلى مضغة تكون الحياة فى الجنين موجودة ولكن بدون روح ، وتكون حياة خلوية فيها خصائص الحياة المطلقة من نمو والغذاء وتشَكُّل وحركة غير إرادية ، وتختلف حياة الحياة الخلوية عن حياة النبات ، لأنّ حياة الجنين هذه حياة نامية إنسانية ، وحياة النبات فيها نامية نباتية وليس فيها جهاز حركة فعال ولا جهاز عصبى كما هو موجود فى الجنين ، وتختلف عن الجنين فى طريقة الغذاء ، فالنبات يقتات بما تمتصه من الأرض ، فيحوله بواسطة الضوء والمادة الخضراء "اليخضور أو الكلوروفيل"[2] إلى غذاء ، ويستهلك ثانى أكسيد الكربون ويفرز الأكسيجين .

وعليه فالحياة فى الجنين وفى أعضاء الإنسان لا يتوقف وجودها على وجود الروح ، فتوجد قبل وجود الروح ، وفى حالة وجودها ، وبعد فقدها عند الموت ، بدليل أنّ أعضاء الميت كالقلب والكلية والعين والأطراف يمكن أن تنقل بعد موته وخروج روحه إلى إنسان آخر قبل أن تفقد تلك الأعضاء الحياة ، غير أنها لا يكون فيها

---

(١) الحج : (٥) .

(٢) اليخضور ، الكلوروفيل *chlorophyll - Chlorophyl* : المادة الخضراء الملونة الموجودة فى جميع النباتات باستثناء الفطور وبعض النباتات الطفيلية . وهى تتألف من صبغين : الكلوروفيل الأخضر الضارب إلى الزرقة أو كلوروفيل (أ) ، والكلوروفيل الأخضر الضارب إلى الصفرة أو كلوروفيل (ب) . وكثيراً ما يشتمل اليخضور على صبغين آخرين هما الجزرين و اليصفور . -المؤمن نوراً أساسياً فى عملية التخليق الضوئى *photosynthesis* ، محولاً طاقة الضوء المشعة إلى طاقة كيميائية ومُمَكِناً النباتات من صنع المواد الكربوهيدرانية من الماء وثانى أو كسيد الكربون .

روح ، وتبقى حية مع الإنسان الآخر الذى نقلت إليه .

هذه هى حياة الجنين فى تطورها من لحظة الإخصاب إلى ما قبل نفخ الروح ، فإذا ما اكتمل سير الجنين فى تطوره من نطفة إلى علقة إلى مُضغة مخلقة وغير مُخلقة ، تحولت المضغة إلى عظام ثم كسيت العظام لحماً ، وعندها يصبح الجنين على صورة إنسان ، وبعدها يُنفخ فيه الروح ، فيصبح بذلك إنساناً سوياً ، مختلفاً عن الخلق السابق ، فيظهر فيه الإحساس ، وتصبح حركته فى بطن الأم الحامل حركة إرادية . قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾[1]

وفيما رواه الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق قال : « **إنّ أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله مَلَكاً فيُؤمر بأربع كلمات ، ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فوالله الذى لا إله غيره إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وما بينه إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة فيدخلها** »[2] ومفهوم الحديث أنّ نفخ الروح فى الجنين يكون بعد مرور مدة ١٢٠ يوم أى أربعة أشهر .

[٢] الأحكام الشرعية المتعلقة بالجنين :

لقد سَنَّ الإسلام أحكاماً شرعية بهدف المحافظة على المجتمع ، وتلك الأحكام اعتبرت كأهداف عليا للمحافظة على المجتمع وصيانته ، ومن تلك الأهداف المحافظة

---

(١) المؤمنون : (١٢ - ١٤) .

(٢) رواه الشيخان .

على النفس الإنسانية . فهل يعتبر الجنين فى بطن أمه نفساً إنسانية يجب الحفاظ عليها أم لا ؟ وباستقراء الأحكام الشرعية المتعلقة بالجنين فى بطن أمه الحامل وجد أهمها ما يلي :

أ - الإجهاض (الإسقاط).

الإجهاض مشكلة من مشاكل المجتمعات الجاهلية فى العالم الغربي ، دعا إليه فساد تلك المجتمعات وكثرة الولادات غير الشرعية الناتجة عن عمليات الزنا التى لا تُحصى ، وعن عمليات المعاشرة خارج نطاق العلاقة الزوجية ، حتى بلغت نسبة هذه الولادات خمساً وأربعين فى المائة من مجموع الولادات ، حسب إحصاءات تنشرها صحف الغرب ، وكانت هذه النسبة تنقص أحياناً وتزيد أحياناً أخرى ، حتى وصلت الزيادة أحياناً فى بعض الدول إلى نسبة سبعين فى المائة . وهذه الولادات غير الشرعية ، وجدت نتيجة انطلاق سُعار الجنس فى هذه المجتمعات الجاهلية لتبنيها عقيدة فصل الدين عن الحياة ، ولفكرة الحريات التى منها الحرية الشخصية ، التى تبيح للإنسان أن يتمتع فى هذه الحياة بجميع متع الحياة ، حتى أصبح الزنا والمعاشرة خارج نطاق العائلة "خارج العلاقة الزوجية" عادياً وأمراً مشروعاً قانونياً ، حتى أصبحت المجتمعات الغربية كقطعان الحيوانات نتيجة تلك الحرية ونتيجة هذا السُّعار الجنسي .

إنَّ كثرة الولادات غير الشرعية التى جعلت ما يُقارب نصف أولاد المجتمعات الغربية أولاد زنا ، قد دفعت كثيراً من دول العالم الغربى إلى إصدار قوانين تبيح للمرأة التى تريد أن تتخلص من حملها ، خاصة إذا كان من عمليات زنا ، أو عمليات معاشرة خارج نطاق العلاقة الزوجية بأن تُسْقِط حملها ، لأنّ الأم فى المجتمعات الغربية هى التى تتكفل بتربية أولادها الذين حملت بهم من عمليات الزنا ، أو عمليات المعاشرة خارج نطاق العلاقه الزوجية .

وقد أخذت الدول الكافرة فى العالم الغربى وعلى رأسها أمريكا ، تسوق لنا إباحة الإجهاض ، من ضمن حضارتها لتشيع الفاحشة بين المسلمين ولتهدم الأسرة ويقضى على البقية الباقية من القيم والأخلاق الإسلامية فى مجتمعات العالم الإسلامي .

هذا هو واقع الحال فى مجتمعات العالم الغربي ، أما فى مجتمعات العالم الإسلامى فإنّ الإجهاض قليل الوقوع لقلة الزنا ، ولعدم وجود المعاشرة خارج نطاق العلاقة الزوجية فيها ، وإذا حصلت عمليات إجهاض فإنّما تكون على الأعم الأغلب لإنقاذ حياة الأم .

الإجهاض فى اللغة : هو إسقاط الجنين من الرحم ، يُقال أجهضت الناقة : ألقت ولدها قبل تمام . وعرفه الفقهاء بأنه إنزال الجنين قبل أن يستكمل مدة الحمل . وعُبّر عنه بألفاظ عدة تؤدى نفس المعنى : الإملاص ، الإسقاط ، الإلقاء ، الإخراج .

ويكون الإجهاض بعمل إرادى من المرأة : بشرب دواء ، أو بحمل شيء ثقيل ، أو بحركات عنيفة ، أو بعملية إجهاض يجريها طبيب أو ممرضة أو قابلة ، كما يكون الإجهاض بفعل تعدٍ من الغير ، كما يكون لا إرادياً .

والإجهاض إما أن يكون بعد نفخ الروح فى الجنين ، وإمّا أن يكون قبل نفخ الروح فى الجنين . فإن كان الإجهاض بعد نفخ الروح فى الجنين ، فإنّه لا خلاف بين فقهاء المسلمين جميعاً فى أنه حرام ، سواء حصل من الأم أو من الأب أو من الطبيب أو من أى كان ، لأنه تعدٍ على نفس إنسانية معصومة الدّم .

وهو جناية توجب الدّية ، ومقدارها غُرّة "عبد أو أمة" ، وقيمتها عشر دية الإنسان الكامل [1] . وذلك لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾[2] وعن أبى هريرة (قضى رسول الله ﷺ فى جنين امرأة من بنى لحيان سقط ميتاً بغرة : عبد أو أمة . . .)[3] . وأقل ما يكون السقط جنيناً فيه غرة أن يتبين فى خلقه شيء من خلق الآدمي ، من إصبع أو يد أو رجل أو ظفر أو عين . وبذلك يكون إسقاط الجنين الذى نُفِخَت فيه الروح حراماً عند جميع فقهاء المسلمين دون خلاف .

---

(١) الدية : هى المال الذى يجب على الجانى بسبب الجناية ويؤدى إلى المجنى عليه أو وليه . والغرة من كل شيء أنفه ، وهى خمسمائة درهم أو مائة شاة .

(٢) الإسراء : (٣٣) .

(٣) رواه الشيخان .

أما إن كان إسقاط الجنين قبل أن تُنفخ فيه الروح ، فقد اختلف الفقهاء فى حكمه ، فمنهم من أباح الإسقاط ، ومنهم من حرَّمَ على تفصيل بالنسبة لمراحل تخلق الجنين . والذى يغلب على الظن أن الإسقاط إن حصل بعد أربعين يوماً أو اثنتين وأربعين يوماً من الحمل ، أى عند بدء تخلق الجنين فإنه يكون حراماً ، ويأخذ حكم إسقاط الجنين بعد نفخ الروح فيه من الحرمة ، ووجوب الدية التى هى عُشر دية الإنسان الكامل ، وذلك لأنه إذا ما بدأ تخلق الحمل وظهرت بعض الأعضاء فيه كاليد أو الرجل أو العين أو الظفر ، فإنه يتأكد عندها أنه صار جنيناً فى طريقه لأن يصبح بشراً سوياً ، وبذلك يكون الاعتداء عليه اعتداء على حياة إنسانيةٍ معصومة الدّم ويكون وأداً له . وقد حرّم الله ذلك . قال تعالى: ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾[1] لذا يحرم إسقاط الجنين بعد مرور أربعين يوماً ، يحرم ذلك على الأب وعلى الأم وعلى الطبيب وعلى القابلة وعلى غيرهم . ومن يقم بذلك يكون مرتكباً إثماً وقائماً بجناية ، وتلزمه دية الجنين المسقط ، وهى عبد أو أمة ، أو عُشر دية الإنسان الكامل .

أمّا إسقاط ما فى الرّحم قبل مرور أربعين يوماً على الحمل فإنه جائز ، لأنه لم يصبح بعد جنيناً ، لأنه فى مرحلة النطفة ولا ينطبق عليه حديث إسقاط الجنين . وإسقاط النطفة قبل أن تصبح جنيناً هو مثل العزل عن المرأة إذ يُتخذ العزل للحيلولة دون الحمل . والعزل هو قذف منى الرجل خارج الفرج ، والقذف خارج الفرج يؤدى إلى موت الحيوانات المنوية كما يؤدى بالتالى إلى ضياع بويضة المرأة ، وبالتالى إلى ضياع الحمل ، وقد أباحه الرسول ﷺ . عن جابر بن عبد الله قال: (كنا نعزل على عهد رسول الله ﷺ فبلغه ذلك فلم ينهنا)[2] وعن جابر أيضاً: (كنا نعزل على عهد الرسول ﷺ والقرآن ينزل)[3]

ويباح إسقاط الجنين سواء فى دور التخلق أو بعد نفخ الروح فيه ، إذا قرر الأطباء

---

(١) التكوير: (٨) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) متفق عليه .

المهرة أنّ بقاء الجنين في بطن الأم سيؤدى إلى موت الأم وموت الجنين معها ، ففى هذه الحالة يُباح إسقاط الجنين وإنقاذ الأم . وإنقاذ الحياة دعا إليه الإسلام ، ويعتبر هذا الإسقاط من قبيل التداوي ، والرسول ﷺ أمر بالعلاج والتداوي .

ب - الإملاص:

أمّا الاملاص الذى هو: إسقاط جنبن المرأة الحامل بالتعدى الجنائى علـــيها، فهو إثمٌ وجناية . وفيه الدية : عبد أو أمة ، وقيمة ذلك عُشر دية الإنسان الكامل . فقد ورد فى الصحيحين أنّ عمر بن الخطاب استشار أصحابه فى إملاص المرأة التى ضُربَ بطنها فأسقطت جنينها ، فقال المغيرة بن شعبة : (قضى رسول الله ﷺ فيه بالغرة عبد أو أمة)[1] وشهد على ذلك محمد بن مسلمة .

ت - استحقاق الميراث والوصية:

إنَّ الجنين فى بطن أمه منذ ثبوت الحمل يكتسب أهلية وجوب ناقصة كما يعبر الفقهاء عن ذلك فتصبح له بهذه الأهلية الحق فى الميراث والوصية إن وُلِدَ حياً . فإذا مات مورثه وهو فى بطن أمه لا تقسم التركة حتى يولد ، وإن قسمت يترك له النصيب الأوفر "وهو نصيب الذكر" ، فإن وُلِدَ حياً يثبت له الميراث ، فإن كان أنثى أخذ نصيب الأنثى ، وإن كان ذكر أخذ نصيب الذكر ، وإن ولد ميتاً لا يثبت له الميراث ، ويقسم الميراث أو النصيب الذى ترك تحفظاً إن كانت التركة قد قسمت على جميع الورثة دونه . عن جابر بن عبد الله والمسور بن مخرمة قالا : (قضى رسول الله ﷺ أنه لا يرث الصبى حتى يستهل)[2] وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : «**إذا استهل المولود ورث**»[3]

ث - التأثير فى عدة المطلقة والأرملة:

إذا طُلِقت المرأة أو مات عنها زوجها وثبت أنها حامل ، فإنَّ عدتها تكون بوضع

---

(١) متفق عليه .

(٢) سنن ابن ماجة (٢٧٥١) ، كنز العمال ، السنن الكبرى للبيهقي ، مجمع الزوائد للهيثمي .

(٣) سنن ابو داود ، السنن الكبرى ، المستدرك للحاكم ، شرح السنة للبغوي .

الحمل طالت المدة أو قصرت ، وبمجرد أن تلد ولو بعد يوم واحد من طلاقها أو موت زوجها فإنَّ عدتها تصبح منتهية ، ويجوز لها أن تستقبل الخطاب وأن تتزوج . وكذلك الحال فيما لو أسقطت المرأة سقطاً قد نفخت فيه الروح ولكنه قد بدأ فى التخلق وظهر فيه أعضاء الإنسان كاليد أو الإصبع أو العين أو الرجل أو الرأس ، أو إذا رؤى عِلم من رآه من الأطباء العدول أو القوابل العدول أنه لا يكون إلا خلق آدمى فإنّ المرأة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تصبح عدتها منتهية بمثل هذا السقط ، وتحل للخطاب ويجوز لها أن تتزوج ، لأنّ مثل هذا السقط يعلم أنه حمل فيدخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ **وَأُوْلَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾[1]

ج - التأخير فى تنفيذ عقوبة القتل

إذا حُكِمَ على امرأة بعقوبة القتل لأى سبب من الأسباب الموجبة القتل ، كالردة أو القتل العمد أو الزنا للمحصنة ، فإن كانت المرأة غير حامل نُفِذت فيها عقوبة القتل دون تأخير ، أمّا إن كانت المرأة حاملاً فإنَّ تنفيذ عقوبة القتل فى حقها يتأخر حتى تضع حملها ، وحتى ترضع وليدها إن لم يكن لهم من ترضعه . فقد روى هريرة أنَّ امرأة من بنى غامد قالت : يا رسول الله طهرني . قال : «**وما ذاك؟**» قالت أنها حُبلى من زنا . قال : «**أنت؟**» قالت : نعم . فقال لها : «**ارجعى حتى تضعى ما فى بطنك**» . قال : فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت ، قال : فأتى النبى ﷺ فقال : لقد وضعت الغامدية . فقال رسول الله ﷺ : «**إذاً لا ترجعها تدع ولدها صغيراً ليس من يُرضعه**» . فقام رجل من الأنصار قال : إلى رضاعَه يا رسول الله ، قال : فرجمها [2] . وروى أنَّ امرأة زمن عمر بن الخطاب زنت ، فَهَمَّ برجمها وهى حامل ، فقال معاذ : إن كان لك سبيل عليها فليس لك سبيل على حملها . فقال له عمر : عجزت النساء أن يلدن مثلك . ولم يرجمها حتى ولدت .

---

(١) الطلاق : (٤) .
(٢) رواه الشيخان .

[٤] المــــوت:

الموت لغة هو نقيض الحياة . جاء فى لسان العرب : (الموت ضد الحياة) ، وما دام الموت نقيض الحياة فإنّ مظاهره تكون مناقضة لمظاهر الحياة ، ومظاهر الحياة تبرز فى الإدراك والحس والحركة والتنفس والنمو والاغتذاء . وعليه تكون مظاهر الموت عكسها أو نقيضها ، فتبرز فى فقدان الإدراك والإرادة وفى عدم الحس وعدم الحركة وعدم التنفس وتوقف النمو والاغتذاء . فقد وردت آيات وأحاديث تدل على أنَّ الإنسان يموت عندما تقبض روحه وتمسك نفسه من قِبَل الخالق سبحانه وتعالى . قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى** ﴾[1] وقال ﷺ: «**إنَّ الروح إذا قُبِضَ تبعه البصر**»[2]

والنفس والروح لا يعلم حقيقتهما إلا الله تعالى ، وإنَّ أمر قبضهما ورجوعهما إلى خالقهما من المُغيَّبات التى لا تخضع لِلعِلم التجريبي ، وإنَّما يظهر أثر ذلك على الجسم المادى بأمارات تدل على حُصول المَوْت . والآيات والأحاديث وإن دَلت على أنَّ انتهاء حياة الإنسان يكون بقبض روحه وإمساك نفسه ، إلا أنها لم تحدد اللحظة التى تقبض فيها الروح وتُمْسَكُ فيها النفس وتنتهى فيها الحياة ، وكل ما ورد فى الحديث السابق ، وكما ورد فى قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر فإنَّ البصر يتبع الروح**»[3] لذلك فإنَّ تحديد اللحظة التى يَحْصُل فيها انتهاء الحياة يحتاج إلى تحقيق المناط فيمن ينطبق عليه أنه مات وانتهت حياته ، وهذا يحتاج للخبرة والمعرفة .

إنَّ الأطباء قبل تقدم الطب واكتشاف الأجهزة الطبية الدقيقة ، وأجهزة الإنعاش الصناعي ، كانوا يعتبرون أنَّ توقف القلب يدل على موت الإنسان وانتهاء حياته ، بينما نراهم اليوم قد رجعوا عن ذلك ، وأصبحوا يقولونَ أنَّ توقف القلب عن العمل لا يدل

(١) الزمر: (٤٢) .
(٢)صحيح مُسْلِم ، مُسْنَد الإمام أحمد ، ابن ماجه ، السنن الكبرى للبيهقي .
(٣)رواه ابن ماجة ، مسند الإمام أحمد ، الزيلعى فى نصب الراية ، تلخيص الحبير .

بالضرورة على موت الإنسان ، وهو حي ، وإنَّ عملية القلب المفتوح تقتضي توقيف القلب ، وقالوا أنَّ الذى يَدُلُ على موت الإنسان وانتهاء أجله إنما هو موت جذع المخ[1]

فإذا ما مات جذع المخ مات الإنسان وانتهت حياته انتهاءً كلياً ، ولو كان قلبه ينبض ورئتاه تتنفسان طبيعياً أو بالأجهزة . وقد يحصل موت للمخ قبل موت القلب فى حالة وقوع ضربة مباشرة على المخ أو فى حالة نزيف المخ أو فى حالة قطع جذع المخ ، وفى حالة المرض يكون توقف القلب وموته قبل توقف المخ وموته .

وقد حصلت حوادث حَيَّرَت الأطباء يتوقف فيها المخ مع بقاء أجهزة الجسم الأخرى تعمل . فقد نُشِرَ أنَّ امرأة فنلندية وَضَعَتْ طفلاً وهى فى حالة غيبوبة تامة منذ شهرين ونصف ، وكانت قد دخلت فى هذه الغيبوبة إثرَ إصابتها بنزيف فى المخ ، والغريب أنَّها قد توفيت بعد أن وَضَعَتْ طفلها بيومين ، وقد كانت فى حالة غيبوبتها تتنفس تنفساً اصطناعياً وتتغذى بالأنابيب ، وَيُنقل لها دم مرة أسبوعياً لمدة عشرة أسابيع ، وقد وضعت طفلها بصحة جيدة ووزن طبيعي .

هذا بالنسبة للأطباء ، أمّا الفقهاء فإنَّهم لا يحكمون بالموت إلا بحصول اليقين بموت الإنسان ، وقد ذكروا علامات يُسْتدَلُ بها على الموت منها : انقطاع النفس ، وانفراج الشفتين ، وشخوص العينين ، وانحراف الصدغين ، وميل الأنف ، وانفصال الزندين ، وارتخاء القدمين حتى لا ينتصبان . وإذا حصل شكٌ فى موته بأن أصابته سكتة قلبية أو صُعِقَ أو دخل فى غيبوبة تامة لأى سببٍ من الأسباب ، فإنَّه يجب الانتظار حتى يُتأكد من مَوْتِهِ بظهور أمارات المَوْت أو بتغير رائحته .

والذى يغلب على الظن ويلزمنا العمل به أنَّه لا يُحْكَمُ بالمَوتِ إلا بحصول اليقين فى

---

(١) جذع المخ : الذى هو على شكل جذع أو ساق يقع فى مؤخر المخ من أسفل ، متصل بالنخاع الشوكى فى الرقبة داخل نسيج شبكي ، وهو حلقة اتصال بين المخ وسائر أعضاء الجسم والعالم الخارجي ، بواسطته ترد إلى المخ جميع الأحاسيس ، وبواسطته توزع جميع الإشارات الصادرة عن المخ لتنفيذ المهام ، ويكون على علم بمجريات الأمور ، وهو آخر ما يتوقف فى المخ إذ أنَّ موت المخ وموت قشرة المخ يحصل قبل موت جذع المخ .

مَوْتِهِ بظهور الإمارات الدالة على الموت والتى تنتهى بها الحياة كما ذكرها الفقهاء ، لأنَّ حياة الإنسان كانت متيقنة فلا يُحْكم بزوالها إلا بيقين فلا يجوز أن يحكم بزوالها بالشَك ، لأنَّ اليقين لا يزول إلا بيقين مثله ولا يزول بالشك ، ولأنَّ الأصلَ بقاء ما كان على ما كان حتى يأتى يقين يبطله ، ولأنَّ الموت نقيض الحياة ، فلا بُدَّ من ظهور أماراته المناقضة لأمارات الحياة ، من ذهاب الإدراك والوعى وذهاب الحس والحركة ، وتوقف النمو والاغتذاء .

وعليه فإنَّ ما ذهب إليه الأطباء من أنَّ موت جذع المخ هو موت للإنسان وانتهاءٌ لحياته طبياً ، ولو بقيت فيه بعض الأجهزة الرئيسية تعمل وفيها حياة . إنَّ ما ذهب إليه الأطباء هذا لا يتطابق مع الحكم الشرعى الذى يقضى بتوقف جذع المخ وجميع الأجهزة الرئيسية ، كالقلب والرئتين والكبد ، ولا يُحكم بموت الإنسان شرعاً إلا بتوقف جميع أجهزته الرئيسية عن العمل وانتهاء جميع مظاهر الحياة فيه .

[٥] الأحكام الشرعية التى تترتب على انتهاء حياة الإنسان :

هناك حالتان تستوجبان إنزال الحكم الشرعى على كل منهما لترتب حقوق وواجبات فى كلتاهما ، وهما حالتى حصول اليقين بالموت ، وحالة عدم حصول اليقين بالموت فعلاً وإن كان المريض يُعانى سكراته ، وحكم استعمال الأجهزة الطبية للإنعاش فى الحالة الثانية أو رفعها .

(أ) فى حالة الشخص الذى يموت جذع مخه وتبقى بعض أجزائه الرئيسية تعمل ، والذى يعتبر الأطباء أنَّه مات "طبياً" ، وحالة هذا الشخص الذى وصل إلى سَكرات الموت ، والذى يطلق عليه الفقهاء أنَّه وصل إلى "حركة المذبوح" التى لم يبقَ معها إبصارٌ ولا نطقٌ ولا حركة إرادية ، ويقطع بأنَّه سيموت ولن يعيش ، فإنّ مثل هذا الشخص فى هذه الحالة تتعلق به بعض الأحكام الشرعية المتعلقة بتلك الحالة ، **وأهمها :**

أنَّه لا يرث غيره ولا يرثه غيره وهو على هذه الحالة لفقده الحياة المستقرة .

إذا جنى شخص على آخر فقطع جذع مخه أو أوصله إلى سكرات الموت ، فجاء شخص آخر فأجهز عليه ، فالقاتل هو الشخص الأول ، أمّا الشخص الثانى فلا يُعتبر قاتلاً ويُعاقب عقوبة تعزيرية لأنّه اعتدى على حُرْمَة آدمي . أمّا إذا لم يوصِل الاعتداء الأول إلى سكرات الموت إنّما أدى إلى جراح بالغة ، فالقاتل هو الثاني . ويُعاقب الأول عقوبة اعتداء .

إذا كان من وصل إلى حالة المذبوح خليفةً فلا يُعَيَن خلفاً لـه حتى يُجذم بموته .

(ب) فى حالة الجزم بالموت فَأبرز الأحكام التى تترتب على حصول اليقين بالموت هي :

وجوب الإسراع بتجهيزه من غسل وتكفين وصلاة عليه ودفنه .

الإسراع بتسديد ما عليه من ديون قبل تقسيم تركته .

الإسراع بتنفيذ وصيته قبل تقسيم تركته .

تقسيم ما بقى من تركته حسب الأنصبة التى جاءت بها النصوص الشرعية .

دخول زوجته فى العدة .

(ج) استعمال أجهزة الإنعاش الصناعية الحديثة :

إنَّ معرفة حكم استعمال أجهزة الإنعاش الطبية الحديثة ومعرفة حكم رفعها ، متوقف على معرفة حكم التداوى من حيث هو ، هل هو واجب أو مندوب أو مباح أو مكروه . وحتى نأخذ الحكم عن بينة لا بُدَّ من استعراض الأدلة الواردة فى التداوي . روى البخارى من طريق أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**ما أنزل الله داءً إلا أنزل لـه دواء**» وروى مسلم عن جابر بن عبدا لله عن النبى ﷺ قال : «**لكل داء دواء ، فإذا أصاب دواء الداء برئ بإذن الله**» وفى المسند لأحمد بن حنبل من حديث ابن مسعود يرفعه «**إنّ الله عز وجل لم يُنزل داءً إلا أنزل لـه شفاءً علمه من علمه وجهله من جهله**» .

فهذه الأحاديث الثلاثة ، فيها إخبار بأن الله سبحانه أنزل الداء ، وأنزل الدواء ، وأنَّ لكل داء دواء ، وأنَّ الدواء إذا اهتدى إليه برئ الداء بإذن الله تعالى ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله . وهذه الأحاديث فيها إرشاد بأن لكل داء دواء يشفيه ليكون ذلك حاثاً على السعي لحصول التداوى الذى يؤدى إلى شفاء الداء بإذن الله سبحانه ، فالداء منه والدواء منه والشفاء بإذنه وليس من الدواء ، وإنما جَعَلَ فى الدواء خاصية الشفاء إذا لامس الداء . وهذا إرشاداً وليس إيجابا .

روى أحمد عن أنس قال : «**إنّ الله عز وجل حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا**» وروى أبو داوود وابن ماجة عن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبى ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا : يا رسول الله أنتداوى؟ فقال : «**نعم ، يا عباد الله تداووا ، فإنّ الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاء . . . . .** » ففى الحديث الأول أمر بالتداوي ، وفى الحديث الثانى إجابةٌ للأعراب بالتداوي ، ومخاطبة للعباد بأن يتداووا ، فإنّ الله ما وضع داءً إلا وضع له شفاءً . وقد جاءت المخاطبة فى الحديثين بصيغة الأمر ، والأمر يفيد مطلق الطلب ، ولا يفيد الوجوب إلا إذا كان أمراً جازماً ، والجزم يحتاج إلى قرينة تدل عليه ، ولا يوجد فى الحديثين أية قرينة تدل على الوجوب . أما الأحاديث الثلاثة السابقة فليست إلا مجرد إخبار وإرشاد ، مما يجعل طلب التداوى فى هذين الحديثين ليس للوجوب . إضافة إلى أنه وردت أحاديث تدل على جواز ترك التداوى مما ينفى عن هذين الحديثين إفادة الوجوب . فقد روى مسلم عن عمران بن حصين أنّ النبى ﷺ قال : «**يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفاً بغير حساب**» قالوا من هم يا رسول الله؟ قال : «**هم الذين لا يَسْترقونَ ولا يتطيرونَ ولا يكتوونَ وعلى ربهم يتوكلونَ**» وروى البخارى عن ابن عباس قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أُصرع ، وإنى أتكشف ، فادع الله لي ، قال : «**إن صبرتِ فلكِ الجنة ، وإن شئت دعوت الله أن يُعافيكِ**» ، فقالت : أصبر ، وقالت إنى أتكشف فادعُ الله أن لا أتكشف . فدعا لها . فهذان الحديثان يدلان على جواز ترك التداوي . ففى الحديث الأول وصف الذين يدخلون الجنة بغير

حساب بأنهم لا يسترقون ولا يكتوون ، أى لا يتداوون بل يتركون الأمر لربهم ويتوكلون عليه فى أمورهم . والرُّقية والكى من التداوي . وقد حث الرسول ﷺ على التداوى بالرقية ، وقد رقاه جبريل ، كما أنه قال فيما رواه البخارى عن طريق ابن عباس : «**الشّفاء فى ثلاثة : فى شَرْطةِ مِحْجَم أو شُربَةِ عَسَل أو كيّةِ نار ، وأنهى أمتى عن الكي**» وفى الحديث الثانى خيّرّ الرسول ﷺ المرأة السوداء بين الصبر على الصَّرَع الموجود عِندَها ولها الجنة ، وبين أن يدعو الله لها أن يعافيها من صرعها ، مما يدل على جواز ترك التداوي . وبذلك يكون هذان الحديثان صارفين للأمر بالتداوى الوارد فى حديث إجابته للأعراب ، وفى الحديث الذى قبله على الوجوب ، ولشدة حث الرسول ﷺ على التداوي ، **يكـــون الأمـــر بالتداوى الوارد فى الأحاديث هو للندب.**

وإذا ما عرفنا أنّ حُكم التداوى هو الندب ، سَهُلَ علينا أن نعرف حكم استعمال أجهزة الإنعاش الطبية الصناعية الحديثة ، **فيكون حُكمها حكم التداوي، أى هى مـــندوبة**، خاصة لمن يرى الأطباء أنها لازمة لِتُرَكبَ على جسمه . وما دام استعمالها مندوباً ، فإنّ بقاءها مُشَغلَة على من رُكِبَت على جسمه حتى تموت أجهزة جسمه الرئيسية فليس بواجب . ومتى قرر الأطباء أنَّ المريض مات مخه فلهم أن يوقفوا تشغيل هذه الأجهزة ، وأن ينزعوها عن جسمه ، لأنَّ موت مخ المريض معناه اليأس من عودة الحياة إليه . وأنّ بقاء بعض أجهزة جسمه الرئيسية الأخرى تعمل سوف لا تُعيد لـه الحياة ، لأنها سريعاً ما تتوقف .

وبناءً عليه يكون حُكم استعمال أجهزة الإنعاش الطبية الصناعية الحديثة هو الندب. خاصة لمن رأى الأطباء أنَّها لازمة لــه. ويكون رفعها بعد موت المخ جائزاً لا حُرْمَة فيه على الطبيب، ولا يلحقه إثم بعد رفعها عنه، ولا تلحقه أية مسؤولية فى ذلك.

[٦] الاستنساخ:



البيت الابيض يعلن معارضته

عالم اميركي يؤكد تصميمه على بدء تجارب في مجال الاستنساخ البشري

١٩ دولة اوروبية تحظر الاستنساخ البشري

الاستنساخ تقدم علمي مذهل كفيل بقلب المجتمعات البشرية

السؤال الكبير

نوع جديد من البشر

٢٧٥ محاولة فاشلة

مستنسخ النعجة دوللي: استنساخ البشر مرعب ومذهل

ادارة الاغذية الاميركية تعلن انها المخولة بتنظيم استنساخ البشر في الولايات المتحدة

الاستنساخ تقدم علمي مذهل كفيل بقلب المجتمعات البشرية

باريس (أ ف ب) - يثير اعلان طبيب اميركي عزمه البدء باستنساخ بشر لمساعدة ازواج يواجهون مشكلات في الانجاب بعد اقل من عام على ولادة اول حيوان مستنسخ مخاوف من قلب تنظيم المجتمعات البشرية.

ورأى البروفسور الفرنسي العالمي اكسيل كان المتخصص في علم الوراثة ان توليد بشر طبقا لمواصفات يحددها بشر اخرون سيؤدي بلا شك الى اعادة نظر انتروبولوجية اساسية.

نوع جديد من البشر

وقال كان لوكالة فرانس برس ان تطبيق الاستنساخ على البشر يخشى ظهور نوع جديد من البشر الى جانب اولئك المولودين بشكل طبيعي، اي نوع جاء بناء على رغبة اناس اخرين وطبقا لمواصفات معينة يخشى ان تحولهم الى اناس خاضعين لصانعيهم.

الا ان البروفسور المعارض بشدة لاستنساخ البشر يرى في الوقت نفسه انه ان تم التوصل الى وسيلة لتطبيق ذلك فانه سيطبق بلا شك وان كان سيشكل تراجعا بالنسبة للمجتمع وانكفاء اجتماعيا وانكماشا على الذات.

وكشف اعلان الطبيب الاميركي ريتشارد سيد عزمه استنساخ بشر وجود اتجاهين مختلفين تماما في التعاطي مع هذا الموضوع خصوصا انه جاء بينما كان مجلس اوروبا يستعد للاحتفال بالتوقيع على نص ملزم يحظر ذلك حظرا تاما.

وقال كان ان «النص الاوروبي يقوم على احترام كرامة الانسان وحريته واستقلاليته، اما في الولايات المتحدة وبريطانيا فان المذهب النفعي هو الغالب».

منفعة

ويبرر مؤيدو استنساخ البشر في الولايات المتحدة وبريطانيا سواء من الاطباء او العلماء او القانونيين والاخلاقيين موقفهم بالمنفعة التي يمكن ان تجنى منه مثل تعويض عائلة فجعت لفقدها طفل. ويقوم هذا المنطق على اعتبار انه اذا كان من الممكن اعادة توليد الطفل نفسه عبر اخذ خلية من الاصل فما الضرر من ذلك.

ويتمسك مؤيدو استنساخ البشر ايضا بحجة تقديم خدمة الى الازواج العاجزين عن الانجاب. وهم يؤكدون ان اخذ بضع خلايا من خد رجل عاجز عن الانجاب لتوليد نسخة منه لن يسبب ضررا لاحد.

٢٧٥ محاولة فاشلة

وبانتظار تحرك السياسيين والقانونيين فان ما يحول حاليا دون البدء بتطبيق الاستنساخ على البشر هو الاخفاق الذي يمكن ان تمنى به هذه التجارب. فالفريق الاسكتلندي الذي توصل الى توليد النعجة دوللي في سكتلندا من خلية اخذت من ثدي نعجة اصبحت في ما بعد امها وشقيقتها التوأم اجرى ٢٧٥ محاولة انتهت جميعها بموت الجنين.

الا ان مختبرا اميركيا اكد انه سيعلن قريبا توصله الى تقنية جديدة تؤدي الى خفض نسبة الاخفاق بشكل كبير وتقوم هذه التقنية على زرع الخلايا المأخوذة من الاجنة ثم استنساخها.

السؤال الكبير

ويبقى السؤال الكبير المطروح هو مدى جودة الطفل الذي سيتم توليده بالاستنساخ. ويقول البروفسور كان ان الخلايا البالغة التي ستستخدم في الاستنساخ ربما تكون مشوهة بسبب التلوث والاشعة الكونية او التدهور [illegible] هناك ما يؤكد ان المولود المستنسخ سيكون طبيعيا وغير مصاب بتشوهات او امراض او معرض لشيخوخة مبكرة. واوضح كان انه من البديهيات الحرص اجراء تجارب مطولة لعشر سنوات على الاقل على الحيوانات. واذا كان الرئيس بيل كلينتون فرض حظرا على تجارب الاستنساخ في الولايات المتحدة لخمس سنوات فان قراره هذا لا يشمل المختبرات الخاصة.

الا ان وزيرة الصحة الاميركية دونا شلالا اكدت ان الولايات المتحدة لن تسمح للطبيب ريتشارد سيد الذي وصفته بانه مجنون باستنساخ بشر على ارضها مؤكدة ان العمل جار لاصدار قانون بهذا الصدد.

مستنسخ النعجة دوللي: استنساخ البشر مرعب ومذهل

دانيا - فوريدا - اسوشيتدبرس - قال العالم الاسكتلندي الذي قاد فريق [illegible]

واضاف ايان ويلموت في محاضرة قامت برعايتها جامعة ساوث ويسترن: «الاستنساخ محزن بما فيه الكفاية لا [illegible] كبير في [illegible] مفهومنا».

وقال ان اي محاولات لاستنساخ البشر من المحتمل ان تسفر عن اجنة مشوهة قد تموت عقب ولادتها مباشرة.

وانتقد ويلموت اعلان الطبيب ريتشارد سيد من شيكاغو مؤخرا عن خطته لاقامة عيادة تبدأ الاستنساخ البشري خلال عامين.

ووصف الفكرة بانها عارية تماما من الاحساس بالمسؤولية.

وقال ان فريق البحث الذي يرأسه في معهد روزلين بمدينة ادنبرة تلقى رسائل من اباء توفي ابناؤهم ارادوا استنساخ اطفالهم المتوفين.

واختتم بالقول كنت اتمنى عند قليل من الناس ليسألوا عن امكانية عودة ابنائهم ولكننا اخبرناهم اننا بالتصنيع عاجزون عن ذلك.

ادارة الاغذية الاميركية تعلن انها المخولة بتنظيم استنساخ البشر في الولايات المتحدة

واشنطن - أ ف ب - اعلنت ادارة الاغذية والادوية الاميركية ان القانون الاميركي يخولها وحدها تنظيم الابحاث الخاصة باستنساخ البشر كونها الادارة التي تشرف على تنظيم الابحاث الطبية في الولايات المتحدة. جاء ذلك في تصريحات نقلتها صحيفة «واشنطن بوست» عن مسؤول في الادارة وعقب فيها على تأكيد وزيرة الصحة دونا شلالا قبل عشرة ايام بان الحكومة الاميركية لن تسمح للباحث الاميركي ريتشارد سيد بخوض مضمار استنساخ البشر كما كان اعلن في وقت سابق من هذا الشهر. وقال مايكل فريدمان المسؤول عن ادارة الاغذية الاميركية للصحيفة ان «القانون الخاص بالاغذية والادوية ومستحضرات التجميل يخولنا تنظيم استنساخ البشر ونحن مستعدون لممارسة ذلك». وقال فريدمان ان اي شخص يريد اجراء مثل هذه التجارب عليه ان يقدم طلبا الى الادارة التي ستبحث كل طلب بالتفصيل قبل ان توافق عليه او ترفضه مشيرا الى ان المخالفين سيتعرضون لملاحقات قضائية.

١٩ دولة اوروبية / بقية

[illegible] استكمالا للمعاهدة الاوروبية حول الطب الحيوي التي وقعتها ٢٢ دولة من بين [illegible] دولة اعضاء في مجلس اوروبا.

ويرفض الاتفاق اي استثناء لحظر تكوين كائنات بشرية متطابقة وراثيا لكائن اخر حي او ميت ايا تكن التقنية المستخدمة.

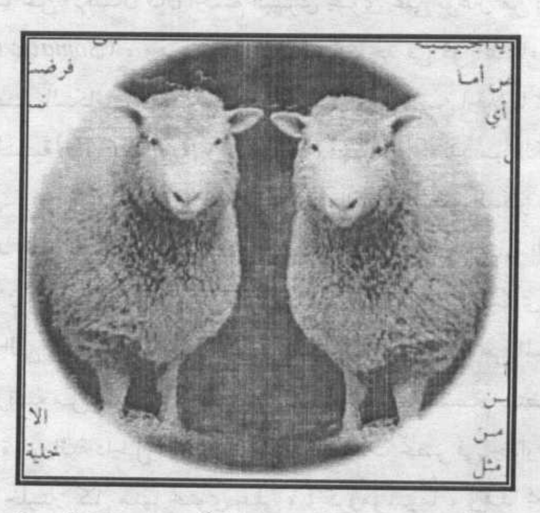
ووقع الاتفاق كل من الدنمارك واستونيا وفنلندا وفرنسا واليونان وايسلندا وايطاليا ولاتفيا ولوكسمبورغ ومولدافيا والنروج والبرتغال ورومانيا وسان مارينو وسلوفينيا واسبانيا والسويد ومقدونيا وتركيا.

١٩ دولة اوروبية تحظر الاستنساخ البشري

باريس - أ ف ب - وقعت ١٩ دولة اوروبية امس في باريس اتفاقا يحظر استنساخ الكائنات البشرية وذلك خلال حفل نظم في وزارة الخارجية الفرنسية.

ويشكل هذا الاتفاق وهو اول [illegible] قانونية دولية [illegible] نهائية من [illegible]

ما هو الاستنساخ؟



لقد نجح استنساخ النعاج، فهل يمكن استنساخ البشر؟

الاستنساخ (*Cloning*) قضية لاقت اهتمام كل المستويات العلمية والدينية وكأنه شبح قد ظهر فجأة ، ورأينا كثيراً من المجتهدين والكتاب والعلماء يُدلون بآرائهم فمنهم من أيده ومنهم من عارضه ، لذلك كان لا بد من إلقاء الضوء على هذا الموضوع وإزالة الغموض والوقوف على حقائق الأمور .

إنَّ الاستنساخ لا يزيد عن كونه عملية تجرى منذ وقت طويل فى كثير من المعامل المتخصصة فى مختلف مجالات الحياة (*Biology*) . وهو فى معناه العام ليس سوى طريقة من طرق التكاثر البدائية الشائع فى بعض الكائنات الأولية وحيدة الخلية مثل البكتيريا والخميرة والأميبا ، ولكن فى الكائنات الأكثر رقياً كالإنسان فيتم بطريقة أكثر رقياً للتكاثر تؤدى إلى حصول تباين واختلاف فى الأنواع والأشكال . هذه الطريقة تتمثل فى التزاوج بين ذكر وأنثى ، فلكى نحصل على كائن جديد لا بد من اتحاد خلية تناسلية ذكرية "الحيوان المنوي" مع خلية تناسلية أنثوية "البويضة" لإنتاج خلية ملقحة تحمل

الصفات الو راثية لكل من الذكر والأنثى معاً ، ومن هنا يحدث التباين .

ولو تحدثنا عن الإنسان فإنّ الجسم البشرى يحتوى على نوعين من الخلايا : خلايا جسدية (*Somatic Cells*) ، وهى خلايا متخصصة توجد فى كل أعضاء الجسم ما عدا الأعضاء الخاصة بالتكاثر ، حيث تحتوى على نوع آخر من الخلايا تسمى الخلايا التناسلية أو الجنسية (*Germ Cells*) وتحتوى كل منها على عدد من الكروموسومات سوف نرمز لها بالرمز "ن" والتى ينتج منها الحيوان المنوى فى الذكر والبويضة فى الأنثى ، وعند اتحاد هما تنتج خلية تحتوى على "ن+ن" أى "٢ن" . خلية الإنسان عموماً تحتوى على "٢ن" حيث "ن" تساوى ٢٣ كروموسوماً *Chromosomes* أى أن "٢ن= ٤٦ كروموسوماً" والتى تحمل فى طياتها ما يسمى بالجينات الوراثية ، وهى المسئولة عن نقل الصفات الو راثية من إنسان إلى آخر . والخلايا الجسدية تنقسم بالتضاعف حيث تتضاعف المادة الوراثية داخل الخلية "٢×٤٦" ثم يحدث تخصر فى جدار الخلية لتنقسم من جديد إلى خليتين كل منها تحتوى على ٤٦ كروموسوماً ، وهذا يحدث فى كل الخلايا الجسدية ، ولكن فى الخلايا التناسلية *Germ Cells* نجد أن كلاً من الحيوان المنوى والبويضة يحتوى كل منهما على نصف عدد الكروموسومات الموجودة فى الخلية الجسدية ، لذلك فعند التقاء الذكر بالأنثى فإنّ الخلايا الناتجة عن الانقسام تحتوى على ٤٦ من الكرموسومات "أى العدد الكامل من المادة الوراثية" ، وتسمى "الزيجوت *Zegote*" الذى له القدرة على الانقسام ليعطى جنيناً يحتوى على خلايا جنينية غير متميزة "*Undifferentiated Embryonic Cells*" التى تتطور وتتميز إلى أن تتحول فى النهاية إلى خلايا ناضجة كاملة التميز *Adult Differentiated* وتقوم بوظيفة محددة وهذا النوع من الخلايا يوجد فى الأعضاء المختلفة للجسم مثل الكبد والكلية والجلد . . . إلخ ، من هنا إذا عُدنا مرة أخرى إلى تعريف الاستنساخ فإننا يمكن أن نقول أنه من خلية واحدة *Somatic Cell* مأخوذة من عضو من الجسم وتحتوى على العدد الكامل للكروموسومات "المادة الوراثية" . وسواء كانت هذه الخلية من جنين أو من شخص ناضج فإنه يمكننا الحصول على ملايين من هذه الخلية التى يمكن أن تستمر فى

الانقسام والنمو مؤدية إلى " نسخة طبق الأصل*Carbon Coppy* " من الكائن الذى أخذت منه الخلية الأم ، وتحتوى على كل الصفات الوراثية للكائن المعطى من لون الشعر والعين والجلد . . . . إلخ .

الجينات وتنشيطها:

من الناحية العلمية فالاستنساخ من خلايا جنينية ربما يكون أسهل من الاستنساخ من الخلايا الناضجة كاملة التميز ، لأنَّ الخلايا الجنينية بطبيعتها قابلة للتخصص ، أمّا الخلايا الناضجة أى المأخوذة من كائن كامل النمو فهى خلايا تخصصت أى تحتوى على جينات متخصصة . والجينات هى مجموعة من التراكيب التى تتحكم فى وظائف الأعضاء عن طريق إفراز مجموعة من البروتينات . ففى عضو مثل الكبد نجد أنَّ بعض الجينات تكون نشطة (*Turn On*) لكى تؤدى خلايا الكبد وظيفتها ، ونفس هذه المجموعة من الجينات تكون غير نشطة (*Turn Off*) فى عضو آخر كالكلية والعكس ، فهناك جينات تكون نشطة فى خلايا الكلية وغير نشطة فى خلايا الكبد . وقد اعتقد العلماء أنَّ هذا النوع من الخلايا من الصعب إعادته إلى مرحلة الخلايا الجنينية لتعاود الانقسام والتميز من جديد لاستغلالها فى تكوين كائن جديد ، ولكن حاجة العلماء إلى استخدام خلايا معروفة الهوية كاملة التميز محددة المعالم والصفات أدت إلى محاولات عديدة لجعل هذه الخلايا تعمل وكأنَّها خلايا جنينية . ومن هنا كانت بداية "دوللي" .

عكف فريق "روزلين" باسكتلندا على دراسة الخلية ، حيث أنَّ الدكتور "ويلموت" الباحث بالمعهد ذكر أنَّ ما جعله يُقدِم على هذه التجربة هو نجاح تجارب النقل النووي(*Nuclear Transfer*) من خلية ناضجة من خلايا الضفدعة ، والتى استطاع العلماء أن يجعلوها تصل إلى مرحلة "أبو ذنيبة *Tad Pole*" ولكنه مات قبل أن يصل إلى ضفدعة ناضجة ، **وهـذه التجربة فرضت سؤالاً وهو: هل فعلاً نستطيع إعادة برمجة الخلية الناضجة (*Adult Differentiated Cell*) لتعمل كخلية جنينية *Undifferentiated Embronic Cell*» غير متميزة؟** . أثبت ويلموت وفريقه هذه الاحتمالية حيث تم استخدام خلية ناضجة من ضرع نعجة حبلى

Pregnant Ewe من سلالة فنلندية بيضاء اللون (*Finn Dorset*) ولكى يتمكن من إعادة برمجة المادة الوراثية لهذه الخلية (*Donor Cell*) كان لابد من أن نجعلها تخرج من أطوار النمو *Growth Phase*)) إلى طور الثبات والراحة (*Resting Phase, Go*) ، هذه العملية تؤدى إلى حدوث تغيرات فى تراكيب نواة الخلية وذلك يسهل عملية إعادة برمجة الجينات (*Reprogramming of Gene Expression*) .

ولكى يفعل ويلموت ذلك فقد قام بتجويع الخلايا بأن زرعها فى المعمل*In vitro* فى وسط غذائى يحتوى على نسب قليلة من المواد اللازمة لنموها لمدة خمسة أيام ، وبالتالى خرجت الخلية من طور النمو (*Gorwth Phase*) إلى طور الراحة*Go* ، بعد ذلك بدأت عمليات النقل النووى (*Nuclear Transfer*) حيث تم الحصول على بويضة (*Oocyte*) من سلالة أخرى من النعاج الاسكتلندية سوداء الوجه (*Scottish Black Face*) وفرغوها من النواة ولكن تحتوى فقط على المادة الخلوية ؛ (*Cytoplasm* ، وعندئذ وضعوا البويضة منزوعة النواة (*Recipient Ova*) مع نواة الخلية التى تم تجويعها (*Starved Donor Cell*) أى الخلية المعطية ، ثم وضعوا هاتين الخليتين تحت تأثير نبضات كهربية ضعيفة (*Electric Impulses*) جعلت البويضة المفرغة تستقبل نواة الخلية المعطية والتى تحتوى على الشفرة الوراثية الكاملة للنعجة الفنلندية ، وكذلك أدت إلى حدوث تغييرات كيميائية أدت إلى بداية انقسام الخلية (*Cell Division*) . وبالرغم من أنّ ميكانيكية حدوث عملية إعادة البرمجة لنواة الخلية المعطية غير معروفة بدقة فإنه من المحتمل أن سيتوبلازم البويضة المفرغة ربما يحتوى على عوامل مساعدة على إعادة البرمجة (*Reprogramming Factors*) ومع استمرار عمليات الانقسام والنمو تطورت الخلية إلى جنين (*Embryo*) ثم وضعه فى رحم نعجة اسكتلندية سوداء الوجه (*Scottish Black face*) ، وبعد ١٥٠ يوماً هى فترة الحمل انتهت بمولد "دوللي" وهى نسخة طبق الأصل من النعجة الأم التى أخذ من ضرعها الخلية المعطية (*Donor Cell*) .

ولا بُدَّ أن نعرف أنَّ هذه المحاولة تم إجراؤها ٢٧٧ مرة ، منها ٢٩ محاولة أدت إلى

إنتاج أجنة عاشت أكثر من ستة أيام ماتت جميعها إلا دوللى والتى كانت فى شهرها السابع وتتمتع بصحة جيدة جداً عند نشر نتيجة البحث فى المجلات العلمية والإفصاح عنه إعلامياً لغير المتخصصين ، **ولكن هل أحد يعلم هل ستظل كذلك أم أنها ستواجه مشاكل؟؟**

وهل ستعيش دوللى عمراً يماثل عمر النعجة الأم؟ أم ستعيش أقل.

حيث أنّ هذه النعجة : "دوللي" قد نتجت من خلية عمرها ست سنوات ، وهل معنى ذلك أنَّ السنوات الست ستحسب من عمرها ، عندها قد تعانى دوللى من شيخوخة مبكرة؟ وهل من الممكن أن تصاب دوللى فى وقت لاحق ببعض الأمراض الوراثية؟

فعملية النقل النووى قد يصحبها تلف فى المادة الوراثية للنواة المنقولة ، إذا حدث ذلك فإنّ دوللى من الممكن أن تُعانى من بعض الأمراض ، ولكن ذلك لم يثبت حتى الآن ، والزمن كفيل بالإجابة عن هذه الأسئلة .

ليس الأمر بجديد:

قال الله تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾[2] ، وهذا يعنى أن ذلك العلم القليل الذى أمدنا به الله تعالى ، لا بُدَّ أن نستغله لنفع البشرية ، والتجارب العلمية التى هى نتاج العلم الذى أمدنا الله به لا بد أن يكون لها احترامها ، كما لا بد أن نعطى العلماء الفرصة للبحث والتفكر والتجريب ، **والقيد الوحيد الذى يجب أن يحول دون الأخذ بنتائج العلم وتجاربه هو ألا يخالف العقيدة والأحكام الشرعية.** وبمراعاة ذلك فيجب ألا يكون عليه أى قيود أو شروط أخرى ، وقد أطلق الله للعلماء

---

(١) العلق : (١ - ٥) .
(٢) الإسراء : (٨٥) .

الحرية ليستغلوا علمهم كيفما شاءوا ومدحهم بقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾(١) كما بَيَّنَ وتحدى محاولة الوصول بغير إرادته بقوله: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ﴾(٢) وحين قال: ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾(٣) فقد وضع قيود ذلك العلم بقوله: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾(٤) وقد توعد من يخل بنظام الكون أو يأخذه الغرور حين قال: ﴿ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا ﴾(٥) وبناء عليه فلا يوجد شرعاً ما يحرم التجارب العلمية أو يتحدى الاكتشافات إلا ما خالف العقيدة منها أو ما خالف الأحكام الشرعية ، فالطب الآن يستطيع أن يتعرف على نوع الجنين داخل رحم الأم ، وقد يظن البعض أن هناك تعارضاً بين ما توصل إليه العلم وبين قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ ﴾(٦) إلا أنّ الله تعالى قال: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾(٧) إذ لا بُدَّ أن نعلم أنّ كل ما يتوصل إليه العلم ليس بمشيئتنا نحن ولكن بمشيئة الله ثم باجتهاد العلماء . وتجربة الاستنساخ التى نجحت أخيراً ليست إلا واحدة من التجارب التى يجب أن تأخذ فرصتها لنفع البشرية ، فإنّه من الممكن أن يكون لها فوائد كثيرة ، وعلى سبيل المثال فإنّ تجارب الاستنساخ لها فوائد عظيمة فى عالم النبات كإنتاج سلالات مقاومة للأمراض إلى غير ذلك من الصفات ، (٨) كما يمكن استخدامها فى

---

(١) الزمر: (٣٩) .
(٢) الرحمن: (٣٣) .
(٣) الإسراء: (٨٥) .
(٤) البقرة: (٢٥٥) .
(٥) يونس: (٢٤) .
(٦) لقمان: (٣٤) .
(٧) البقرة: (٢٥٥) .
(٨) فقد تم بفضله إنتاج سلالات جديدة من النباتات ، خاصة فى معظم أنواع الخضار "مثل البندورة والكوسا والخيار والفلفل والقرنبيط" ، حيث تم التوصل إلى سلالات "هجين *Hybrid*" تتمتع بصفات ومواصفات عالية بالنسبة لجودة ومظهر الثمار وغزارة الإنتاج . وبفضله أيضاً تم مؤخراً التوصل إلى سلالات مقاومة =

عالم الحيوان ، حيث أنه يمكن تحسين الصفات الحيوانية ، وإن شاء الله سوف يتمكن العلماء من إنتاج بويضات مستنسخة بعدد هائل لبعض الأبقار مثلاً ، وزرعها فى أرحام أبقار من سلالة أخرى لإنتاج لحوم وألبان بكميات هائلة وبصفات خاصة ، بالإضافة إلى أنه يمكن استغلال ذلك طبياً حيث أنه من الممكن جعل ألبان هذه الأبقار تحتوى على أنزيمات معينة أو عقاقير مضادة لبعض الأمراض وهذا ممكن وجائز علمياً .

وعلى مستوى الإنسان فستؤدى تجارب الاستنساخ إلى فتح المجال إلى تجارب شيطانية تؤدى إلى اختلاط الأنساب وغيرها من المشاكل الاجتماعية الخطيرة ، لذلك **فالاستنســاخ فى الإنسان هى مسألة ليست متعلقة ببحث علمى مجرد، فــلا تبحث بتاتاً على هذا الأساس. إنّما هى قضية تتعلق بوجهة النظر فى الحياة لتعلقها بأنساب الإنسان واختلاطها، مما يُلزم دراستها وبحثها بناء على وجهة النظر فى الحياة بغض النظر عن كونها بحث علمي.**

وإذا تكلمنا عن الاستنساخ فى الإنسان فإننى أقول إنّ محاولات كثيرة لاستنساخ خلايا بشرية للحصول على أجنة حدثت من أعوام مضت . ففى عام ١٩٩٣ قام علماء الأجنة فى "جامعة جورج واشنطون" باستنساخ أجنة بشرية غير مكتملة ، ثم قاموا بتقسيم هذه الخلايا إلى أجزاء زرعت فى المعمل لتنمو من جديد حتى وصلت إلى الحجم الذى يمكن وضعه فى رحم المرأة ولكن ذلك لم يتم .

فى عام ١٩٥٠ قام العلماء بتجميد خلايا ملقحة لأبقار معينة عند درجات حرارة منخفضة تحت الصفر ، وذلك لكى تنقل فى أرحام أبقار أخرى ، تلتها محاولة لنسخ

=لأمراض النبات ، وعلى سبيل المثال فقد تم التوصل فى مزروعات الكوسا والبندورة إلى سلالات قادرة على مقاومة مرض البياض الدقيقى وأمراض الفيروس المختلفة ، بالأخص نوع من الفيروس الخطير فيها ، إذ كان هذا الفيروس من الأمراض التى فتكت بمزارع الخضار فى السنوات السابقة .ومن هذه السلالات المحسنة مثلاً ما أنتجته مؤخراً " شركة بيتوسيد الأمريكية *PETOSEED. INC* "وهو نوع من سلالات الكوسا المقاومة لمرض الفيروس باسم : "*Hyb Katia Ati Virus Squash*" كما قامت الشركة المذكورة وغيرها من الشركات بإنتاج أنواع أخرى من الخضار مثل البندورة والخيار قادرة على مقاومة الأمراض ، مما يوفر على المزارعين تكاليف المقاومة الكيماوية .

ضفادع فى سنة ١٩٦٣ حيث قام العالِم "جون جارون" باستنساخ ضفادع إلى أن تطورت أفكار العلماء لاستنساخ الإنسان ، وقد أدى ذلك إلى ظهور فيلم الخيال العلمى عن استنساخ الزعيم "هتلر" ، وظهر ذلك فى فيلم "أولاد من البرازيل" فى أواخر السبعينيات .

تلت هذه الأفكار محاولات عديدة وناجحة لعمليات التلقيح الصناعي ، ففى سنة ١٩٨٣ كانت هناك أول أم تحمل فى بطنها أول طفل بالتلقيح الصناعي ، والتلقيح الصناعى هو أن يتم تلقيح البويضة بالحيوان المنوى بواسطة تقنيات معملية ، ثم يتم زرع البويضة المخصبة فى المعمل (*In Vitro*) وبعدها تنقل إلى رحم الأنثى . ولم يُحَرم الإسلام التلقيح الصناعى لأنّ الله تعالى قال : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾[1]

فالتحدى الحقيقى فى خلق الحيوان المنوى أو البويضة ، فالعلماء لا يخلقون شيئاً بل أجروا التلقيح فى المعمل ثم وضعوا الجنين داخل الرحم فقط . وأيضاً فى الاستنساخ فالعلماء لم يخلقوا الخلية بل أخذوها حية وأثروا عليها بمؤثرات جعلتها تنقسم ثم وضعوها فى الرحم فصارت جنيناً بإذن الله . إذن فهناك فرق كبير بين الخلق وبين الاستنساخ .

التحريم والتقنين

لقد أثيرت أسئلة عديدة حول قضية الخلق والاستنساخ ، منها من يفترض أنّ حواء - التى خلقها الله من أب بلا أم - استنسخت من خلية من آدم عليه السلام ، وأيضاً عيسى عليه السلام - الذى خلقه الله من أم بلا أب - استنسخ من خلية من السيدة مريم العذراء .

وهذا غير صحيح فلو كان كذلك لكانت حواء ذكراً وعيسى أنثى ، إذ لا بُدَّ أن

---

(١) الواقعة : (٥٨) .

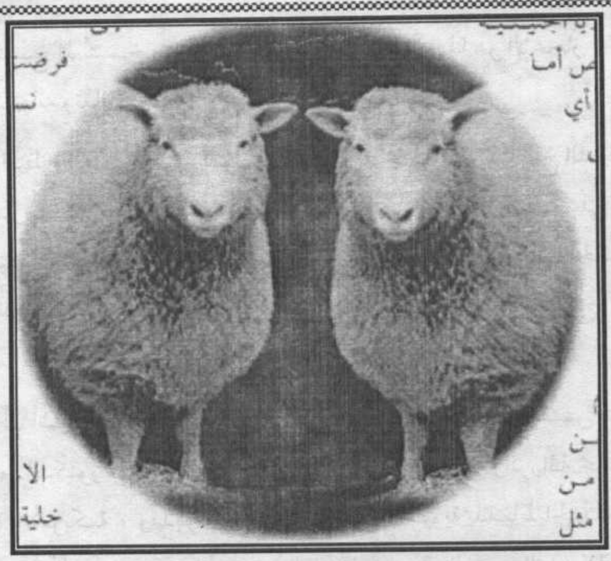
يُشابه المُسْتنسَخ المُسْتنسَخ منه ، أمّا خلق حواء وعيسى فهذا هو الإعجاز ، وتلك هى قدرة الله سبحانه وتعالى .

ومن النظرة العلمية فإننى أقول إنَّ العلماء قد نجحوا فى استنساخ النعجة "دوللي" وتحريم تجارب الاستنساخ لن يمنع من الاستمرار فى محاولة إجرائها على الإنسان ، لذلك فعلينا أن نستعد للمرحلة القادمة ، ببحثها بحثاً واعياً لإعطائها الحكم الشرعى المتعلق بواقعها . وهذا ما سنقوم به فى بحث "الحكم الشرعى فى الاستنساخ" إن شاء الله تعالى .

وأود أن أشير إلى أنَّ هذا البحث بالكامل "**الاستنساخ ما هو؟** " مقتبس بتصرف عن مقال بقلم "الدكتور عبد الفتاح محمد عطا الله" أستاذ المناعة والوراثة بجامعة "جورج واشنطون" الأمريكية ، ومدير مركز أبحاث التقنية الحيوية بدمياط الجديدة - مصر . وردت بعنوان "الاستنساخ مرة أخرى " الوارد فى دورية "العربي" العدد ٤٦٧ - أكتوبر ١٩٩٧ م .

وعن مقال أخر بعنوان "الاستنساخ آخر قنابل هندسة التناسل" بقلم "الدكتور مصطفى محمود حلمي" والمنشور فى دورية "العربي" العدد ٤٦٣ - يونيو ١٩٩٧ .

وأنوه أنَّ جميع ما ورد فى بحث "الاستنساخ ما هو؟ " هو وجهة نظر الكاتبين ، أمّا رأينا المعتمد فهو ما سيرد لاحقاً فى بحث "الحكم الشرعى فى الاستنساخ" .



ظل العلماء يعتقدون أنّ استنساخ حيوان من خلية بالغة (أى غير جنينية) يُعَدُّ أمراً مستحيلاً. فعلى الرغم من أن كل خلية تحتوى على شفرة وراثية كاملة لنسخ حيوان جديد، فإنّ هذه الشفرة ظل يعتقد فى استحالة قراءتها فى الخلايا البالغة. لكن الفريق البحثى الاسكتلندى الذى نجح فى استنساخ النعجة "دوللي" أثبت إمكان إيقاظ الشفرة الكاملة، الكامنة، اللازمة لتكوين كائن كامل. وهو إنجاز خطير. تظل تتردد أصداؤه فى آفاق الحاضر والمستقبل. - مجلة "العربي" العدد ٤٦٣ صفحة ٦٤.

الحكم الشرعى فى الاستنساخ

الاستنساخ "*Cloning*" هو إيجاد نسخة طبق الأصل عن شيء ما من الكائنات الحية نباتاً أو حيواناً أو إنساناً .

والاستنساخ الإنسانى هو: إيجاد نسخة طبق الأصل عن الإنسان نفسه ، ويتم إيجاد نسخة طبق الأصل عن الإنسان نفسه ، بأخذ خلية جسدية من جسم ذلك

الإنسان ، ثم أخذ نواة هذه الخلية وزرعها فى بويضة امرأة بعد إفراغ هذه البويضة من نواتها بعملية تشبه التلقيح أو الإخصاب الصناعي[١] يتم بموجبها إدخال نواة الخلية التى أخذت من جسد ذلك الشخص داخل البويضة المأخوذة من المرأة ، بواسطة مواد كيماوية خاصة وتيار كهربائى معين ، لكى يتم دمج نواة الخلية مع البويضة ، وبعد إتمام عملية الدمج تنقل البويضة التى دُمِجَت بنواة الخلية إلى رحم امرأة لتأخذ بالتكاثر والنمو والانقسام والتحول إلى جنين كامل ، ثم يولد ولادة طبيعية ، فيكون نسخة طبق الأصل عن الشخص الذى أخذت منه الخلية التى زرعت نواتها فى بويضة المرأة [٢] .

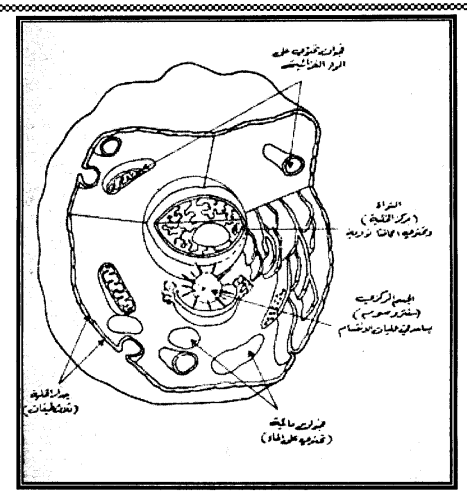
إنَّ التلقيح والإخصاب فى عملية الاستنساخ الإنسانى يكون بين خلايا الإنسان الجسدية "*Somatic Cells*" وليس الخلايا الجنسية "*Germ Cells*" . والإنسان فى جسده ملايين بل بلايين الخلايا ، كل خلية منها تحتوى ٤٦ كروموسوماً [٣] . عدا الخلايا الجنسية والتى مكانها الخصية فى الرجل والمبيض فى المرأة . وتحوى كل خلية من هذه الخلايا الجنسية ٢٣ كروموسوماً ، أى نصف كروموسومات الخلايا الجسدية .

---

(١) التلقيح أو الإخصاب fertilization : فى الحيوانات والإنسان ، اتحاد الخلية الجرثومية الذكرية " الحييوين المنوى " والخلية الجرثومية الأنثوية " البويضة " بحيث ينشأ عن ذلك بيضة مخصبة *fertilized* تُعرف فيما بعد "الزيغوت أو اللاقحة zegote " . أما الإخصاب الصناعى "*Artificial Insemination*" فهو طريقة صناعية لنقل المنى من الذكر إلى الأنثى تسهيلاً للإخصاب من غير اتصال جنسي . تستخدم على نطاق واسع فى مزارع الماشية وزرائب الدواب . وقد تستخدم على النطاق البشرى أيضاً حين يكون الإخصاب الطبيعى متعذراً .
- للاستزادة فى بحث " أطفال الأنابيب " فى نهاية هذا الفصل إن شاء الله .

(٢) للاستزادة : ارجع إلى البحث السابق " الاستنساخ ما هو؟ " - ومقال بعنوان " هل يأتى الغد بماكينة لنسخ البشر؟ الطريق إلى دوللى " مجلة " العربى " عدد ٤٦٣ ، صفحة ٧١ وما بعدها .

(٣) الكروموسومات *Chromosomes* : هى المادة الوراثية التى تحتوى جميع الصفات الوراثية للشخص .



وفى التلاقح الطبيعى يلتقى الحيوان المنوى من الرجل الذى يحتوى ٢٣ كروموسوما مع بويضة المرأة التى تحتوى ٢٣ كر وموسوما أيضاً . وعند التلاقح بين الحيوان المنوى والبويضة يصير فيها ٤٦ كر وموسوما ، (١) نصفها من الرجل ونصفها من المرأة ، فيأخذ المولود من صفات الرجل ومن صفات المرأة .

أمّا فى عملية الاستنساخ فإنَّ الخلية التى تؤخذ من جسم الشخص تكون فيها ٤٦ كروموسوما ، أى جميع الصفات الوراثية للشخص ، وبذلك يأخذ المولود الناتج عن عملية الاستنساخ صفات هذا الشخص الذى أخذت منه نواة خليته وحده ، ويكون هذا الولد نسخة طبق الأصل عنه ، مثل عملية أية ورقة على جهاز التصوير الفورى مع الألوان ، فتكون صورة طبق الأصل دون أى اختلاف .

---

(١) وهى العدد الكامل من المادة الوراثية وتسمى " الزيجوت *Zegot* " الذى له القدرة على الانقسام ليعطى جنيناً كاملاً يحتوى على خلايا جنينية غير متميزة " *undifferentiated Embryonic Cells* " التى تتحول فى النهاية إلى خلايا ناضجة كاملة التميز " *Adult Differentiated Cells* " .

إنَّ عملية التلاقح الطبيعى لا يمكن أن تتم إلا بذكر وأنثى وبالخلايا الجنسية . أمّا عملية الاستنساخ فيمكن أن تتم بوجود ذكر ، وتتم بالخلايا الجسدية لا الجنسية . وذلك بأنَّ تؤخذ خلية جسدية من أنثى - فى حالة عدم وجود الذكر - ثم تنزع نواتها منها ، والتى تحتوى ٤٦ كروموسوماً ، أى تحوى جميع الصفات الوراثية ، ثم تزرع هذه النواة فى بويضة أنثى بعد أن تفرغ هذه البويضة من نواتها ، ثم تنقل هذه البويضة إلى رحم أنثى بعد أن تتم عملية دمج نواة الخلية بالبويضة المفرغة من نواتها ، وبزرع هذه البويضة فى رحم أنثى تبدأ فى التكاثر والانقسام والنمو ، وتتحول إلى جنين ثمَّ إلى جنين كامل ، ثم تولد ، وتكون نسخة طبق الأصل عن الأنثى التى أخذت منها الخلية ، وبذلك تكون عملية الاستنساخ فى هذه الحالة قد تمت فى جميع مراحلها دون وجود ذكر .

إنَّ عملية الوراثة فى التلاقح الطبيعى للصفات تكون من ناحية الأب والأم ، لذلك فالأولاد يكونون على نسق واحد ، والتشابه بين الأولاد والآباء والأمهات وبين الأخوة يأخذ أشكالاً مختلفة من حيث الشكل طولاً وعرضاً ولوناً ، ومن حيث القدرات العقلية والنفسية الخَلقية .

أمّا الوراثة فى عملية الاستنساخ فإنها تنقل الصفات نفسها للشخص الذى أخذت الخلية منه ذكراً كان أم أنثى ، ويكون الولد نسخة طِبْق الأصل عنه فى الشكل طولاً وعرضاً ولوناً ، وفى القدرات العقلية والنفسية الخَلقية ، أى يرث جميع الصفات الخَلقية . أما الصفات المكتسبة فليست موضوعاً للوراثة ، فإن أخذت الخلية من عالِم قدير أو مجتهد كبير أو طبيب فذ فلا يعنى أن الولد سيرث هذه الصفات ، لأنها صفات مكتسبة وليست صفات خَلقية .

إنّ التوصل إلى عملية الاستنساخ كشفَ قانوناً من القوانين التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى خلايا جسم الإنسان والحيوان إذ كشفت عملية الاستنساخ أنَّ أية خلية جسدية من خلايا جسم الإنسان والحيوان فيها قابلية إنتاج أولاد إذا ما زرعت نواتها فى بويضة أنثى أفرغت من نواتها ، مثل الحيوان المنوى للذكر عندما يتلاقح مع بويضة

الأنثى .

هذا هو واقع الاستنساخ الحيواني . وهناك نوع آخر من الاستنساخ هو الاستنساخ الجنيني ، وهو إيجاد نسخة طبق الأصل من الجنين المتكون فى رحم الأم ، وبه يستطيع الإنسان أن يستنسخ عن أطفاله أثناء المرحلة الجنينية . ففى بداية تكون الجنين فى رحم الأم يستطيع الطب أن يقسم هذا الجنين إلى خليتين ، ثم إلى أكثر من ذلك ، وبالتالى إنتاج أكثر من خلية جنينية متطابقة مع الجنين ، فتولد التوائم المكونة من هذا الاستنساخ الجنيني ، ومتطابقة تطابقاً كلياً مع الجنين الذى نسخت عنه .

لقد حصل الاستنساخ فعلاً فى النباتات ، كما حصل مؤخراً فى الحيوان ، لكنه لم يحصل فى الإنسان ، فما حكم هذا الاستنساخ فى الشرع؟

إنَّ الغاية من الاستنساخ فى النبات والحيوان هى تحسين النوعية فى النبات والحيوان ، وزيادة الإنتاجية فيهما ، وإيجاد علاج طبيعى لكثير من الأمراض الإنسانية ، خاصة المستعصية منها ، بدلاً من العقاقير الكيميائية التى لها مردود مؤذٍ على صحة الإنسان .

إنّ تحسين نوعية النبات والحيوان وزيادة الإنتاجية فيهما لا حرج فيه من الناحية الشرعية ، وهو من المباحات . كما أنَّ استخدام النبات والحيوان لعمليات الاستنساخ كدواء لمعالجة أمراض الإنسان ، خاصة المستعصية منها أمر يجيزه الإسلام ، بل يندب إليه لأن التداوى مندوب وتصنيع الدواء للتداوى مندوب كذلك . فقد روى الإمام أحمد فى مسنده عن أنس قال : إن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله عز وجل حيث خلق الداء خلق الدواء ، فتداووا**» وروى أبو داود وابن ماجه فى صحيحيهما عن أسامة بن شريك قال : كنت عند النبى ﷺ ، وجاءت الأعراب فقالوا : أنتداوى؟ فقال : «**نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاء . . .**»

لذلك يجوز استخدام عمليات الاستنساخ لتحسين نوعية النباتات وزيادة إنتاجها ، كما يجوز استخدام عمليات الاستنساخ لتحسين نوعيات البقر والغنم والإبل وغيرها .

ولزيادة إنتاجية هذه الحيوانات وتكثيرها ، وجعلها صالحة لمعالجة أمراض الإنسان ، خاصة المستعصية منها .

هذا هو حكم استنساخ النبات والحيوان. أما حكم استنساخ الإنسان - على فرض أنه سيحدث إذ لم يحدث بعد - فهو كما يلي:

إن كان الاستنساخ جنينياً لخلية تناسلية تكونت فى رحم الزوجة من لقاء الحيوان المنوى لزوجها ببويضتها ، وقسمت تلك الخلية التناسلية بعملية تكثيرية إلى عدة خلايا قابلة للانقسام والنمو ، وفصلت تلك الخلايا لتصبح كل خلية جنيناً مستقلاً مطابقاً للخلية الأولى التناسلية الملقحة التى أخذت منها تلك الخلايا ، وزرعت تلك الخلايا فى رحم امرأة أجنبية ، أو فى رحم زوجة ثانية لزوج المرأة صاحبة الخلية التناسلية الملقحة ، **كان** هذا الاستنساخ لهاتين الصورتين حراماً ، لأن فيه اختلاط للأنساب وضياعاً لها ، والإسلام قد حرم ذلك .

أما إذا زرعت هذه الخلايا أو خلية منها فى رحم نفس الزوجة صاحبة الخلية التناسلية ، **فإنّ** هذا الاستنساخ يكون جائزاً شرعاً ، لأنه تكثير للجنين الموجود فى رحمها بعملية طبية لتنجب توائم متطابقة . هذا هو الحكم الشرعى فى الاستنساخ الجنيني .

أما الاستنساخ الإنسانى فإنه وإن لم يُتوصل إليه بعد ، فالعلماء يقولون إنّ التوصل إلى استنساخ الحيوان هو مقدمة إلى التوصل إلى استنساخ الإنسان .

واستنساخ الإنسان يكون بوجود ذكر وأنثى فى عملية الاستنساخ ، وذلك بأن يؤخذ خلية من جسد ذكر ، وتنزع منها نواتها لتدمج مع بويضة أنثى بعد إفراغها من نواتها ، ثم تنقل هذه البويضة بعد دمجها بنواة الخلية إلى رحم امرأة ، لتتكاثر وتنمو وتتحول إلى جنين ثم إلى وليد يكون نسخة طبق الأصل عن الذكر الذى أخذت الخلية من جسده .

كما يكون الاستنساخ بين إناث فحسب دون أن يكون معهن ذكر ، وذلك بأن

تؤخذ من خلية من جسد أنثى ، ثم تنزع نواتها لتدمج مع بويضة أنثى ، ثم تنقل هذه البويضة إلى رحم أنثى بعد دمجها مع نواة الخلية ، لتتكاثر وتنمو وتتحول إلى جنين ثم إلى وليد يكون نسخة طبق الأصل عن الأنثى التى أخذت منها الخلية من جسدها ، كما حصل بالفعل فى الحيوانات مع النعجة "دوللي" ، فقد أخذت النواة من خلية نعجة ، أخذت من ثديها ونزعت من هذه النواة عوامل اختصاصها بالثدي ، ثم وضعت داخل غلاف بويضة نعجة بعد نزع نواة هذه البويضة ، ثم زرعت هذه البويضة فى رحم نعجة لتتكاثر وتنمو وتتحول إلى جنين ثم إلى وليدة هى النعجة دوللي ، وكانت نسخة طبق الأصل عن النعجة الأولى التى أخذت الخلية من ثديها .

وهذا الاستنساخ عن الذكور أو الإناث من الإنسان ، سواء أريد منه تحسين النسل وانتخاب النسل الأذكى والأقوى والأشجع والأكثر صحة والأكثر جمالاً ، أو أريد بالاستنساخ تكثير النسل لزيادة عدد أفراد الشعب لتقويته وتقوية الدولة ، **فإنَّ هذا الاستنساخ إن حصل، سواء أريد به التحسين أو التكثير، سيكون بلاءً على العالم ومصدر شر فيه، وهو محرم لا يجوز القيام به، وذلك لما يلي:**

[١] لأنَّ إنتاج الأولاد فيه يكون عن غير الطريق الطبيعى التى فطر الله الناس عليها ، وجعلها سنة فى الأولاد والذرية . قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾[١] وقال: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾[٢]

[٢] عدم وجود آباء للأولاد المستنسخين من إناث دون أن يكون معهن ذكر ، وعدم وجود أمهات لهم عندما توضع البويضة المندمجة مع نواة الخلية فى رحم أنثى غير الأنثى التى أخذت البويضة منها ، إذ تكون هذه المرأة التى وُضِعَت البويضة فى رحمها مجرد وعاء للبويضة ليس أكثر ، وفى هذا إضاعة للإنسان ، فلا أب ولا أم ، وهو مناقض

(١) النجم: (٤٥) .
(٢) القيامة: (٣٧ - ٣٩) .

لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾[١] ولقوله تعالى: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾[٢]

[٣]ضياع الأنساب: فى حين أنّ الإسلام قد أوجب حفظ الأنساب وصيانتها . عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من انتسب إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[٣] وعن أبى عثمان النهدى قال: سمعت سعداً وأبا بكرة وكل واحد منهما يقول: سمعت أذناى ووعى قلبى محمداً ﷺ يقول: «**من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام**»[٤] وعن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول حين أنزلت آية الملاعنة: «**أيما امرأة أدخلت على قوم نسباً ليس منهم فليست من الله فى شيء ، ولن يُدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**»[٥]

فالاستنساخ لإيجاد الأشخاص المتفوقين ذكاءً وقوةً وصحةً وجمالاً ، يقتضى اختيار من تتوفر فيهم هذه الصفات من الذكور والإناث بقطع النظر عن كونهم أزواجاً أو غير أزواج ، وعن كونهم متزوجين أو غير متزوجين ، وبذلك تؤخذ الخلايا من الذكور الذين تتوفر فيهم الصفات المطلوبة ، وتؤخذ البويضات من نساء مختارات ، وتوضع فى نساء مختارات تتوفر فيهن الصفات المختارة ، فتضيع بذلك الأنساب وتختلط .

[٤]إنَّ إنتاج الأولاد بعملية الاستنساخ يمنع تنفيذ كثير من الأحكام الشرعية كأحكام الزواج والنسب والنفقات والأبوة والبنوة والميراث والحضانة والمحارم والعصبات وغيرها من الأحكام الشرعية ، وتختلط الأنساب وتضيعها ، كما أنها تخالف الفطرة التى فطر

---

(١) الحجرات: (١٣) .
(٢) الأحزاب: (٥) .
(٣) رواه ابن ماجه .
(٤) المصدر السابق .
(٥) رواه الدارمي .

الله الناس عليها فى الإنجاب . فهى عملية شيطانية شريرة تقلب كيان المجتمع .

لذلك فإنَّ عمليات الاستنساخ الإنسانى محرمة شرعاً، ولا يجوز القيام بها. قال تعالى على لسان إبليس اللعين : ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ﴾[1] وخلق الله يعنى الفطرة التى فطر الناس عليها ، والفطرة فى الإنجاب والتكاثر عند الإنسان أن تكون من ذكر وأنثى وعن طريق تلقيح الحيوان المنوى للذكر لبويضة الأنثى ، وشرع الله سبحانه وتعالى أن يكون من ذكر وأنثى بينهما عقد نكاح صحيح . وليس من الفطرة أن يتم الإنجاب والتكاثر عن طريق الاستنساخ ، عدا عن كونه يتم بين ذكر وأنثى ليس بينهما عقد نكاح صحيح .

[٧] نقل الأعضاء :

المقصود من "نقل الأعضاء" هنا هو : نقل أى عضو من أعضاء الجسم من إنسان إلى آخر ، كنقل اليد أو الكلية أو العين أو القلب ، ونقل عضو أو أكثر من إنسان حال حياته أو بعد موته إلى إنسان آخر ، **ويكون حكمه كالتالي :**

أ) نقل الأعضاء فى حالة حياة المنقول منه:

يجوز شرعاً للشخص حال حياته أن يتبرع - بمحض اختياره وإرادته - بعضو أو أكثر من جسمه إلى شخص آخر محتاج إلى ذلك العضو المتبرَّع به كاليد أو الكلية مثلاً ، وذلك لأن الشخص يملك إذا قطعت يده أو قلعت عينه من قبل إنسان آخر أن يأخذ الدِّية ، ويملك أن يعفو عن قطع يده أو قلع عينه . والعفو عن قطع اليد أو قلع العين هو تبرع بالدّية ، والتبرع بالدِّية يعنى ملكية الدِّية ، وبالتالى ملكية العضو الذى تبرع بديته ، وملكيته لأعضائه تعطيه حق التصرف فيها ، وبالتالى جواز التبرع بعضو منها لشخص آخر يكون فى حاجة لذلك العضو . وقد أجاز الله سبحانه وتعالى العفو عن القِصاص وعن الديات

---

(١) النساء : (١١٨) .

فقال : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ (١)

شروط التبرع بالأعضاء حال الحياة:

يشترط لجواز التبرع بالأعضاء حال الحياة ، أن لا يكون العضو المتبرَّع به مما تتوقف عليه حياة المتبرِّع ، كقلبه أو كبده أو رئتيه مثلاً ، لأنَّ التبرع بعضو من هذه الأعضاء يؤدى إلى موته ، فيكون قاتلاً لنفسه ، ولا يجوز لشخص أن يقتل نفسه أو يجعل غيره يقتله برضاه . قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾(٢) وقال: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾(٣) وهذا يشمل قتل نفس الغير وقتل الإنسان نفسه . وروى مسلم فى صحيحه عن طريق ثابت بن الضحاك قال: قال رسول الله ﷺ: « .... **ومن قتل نفسه بشيء عذبه الله به فى نار جهنم**» وروى البخارى ومسلم من طريق أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم** ...» .

كذلك لا يجوز للإنسان أن يتبرع بخصيتيه ، وإن لم يؤدِ التبرع بهما إلى موته ، لأن الرسول ﷺ نهى عن الخِصاء - والخصاء يؤدى إلى العقم - فقد روى البخارى من طريق عبد الله بن مسعود قال: كنا نغزو مع النبى ﷺ ليس لنا نساء ، فقلنا يا رسول الله ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك .

وينطبق هذا الحكم على التبرع بخصية واحدة ، وإن كانت لا تجعل الإنسان المتبرع بها عقيماً ، ذلك أن الخلايا الجنسية التى هى خلايا الأعضاء التناسلية ، أى الخصية عند الذكر والمبيض عند الأنثى ، هى التى تنتج الأولاد ، فنسل الإنسان إنّما يكون فى الخلايا الجنسية . ففى الخصية توجد الخلايا المنتجة للحيوانات المنوية ، فهى المصنع الذى ينتجها ، وتبقى الخصية

(١) البقرة: (١٧٨) .
(٢) النساء: (٢٨) .
(٣) الإسراء: (٣٣) .

هى المخزن ، وهى المصنع المنتج للحيوانات المنوية من خلاياها ، سواء أكانت فى صاحبها أو فى الشخص الآخر الذى نقلت إليه .

وعلى ذلك فإنّ الأولاد الذين ينتجهم الشخص الذى نقلت إليه الخصية ، تكون كروموسوماتهم أى "المادة الوراثية" من كروموسومات الشخص المتبرع بالخصية ، لأن خصيته التى تبرع بها هى التى أنتجت الحيوانات المنوية التى تمون منها الأولاد ، لذلك فإنّ هؤلاء الأولاد يرثون صفات الشخص المتبرع ولا يرثون من الشخص المتبرع له بالخصية شيئاً من صفاته ، ويكون المتبرع بالخصية من الناحية البيولوجية[1] أباً للأولاد ، لذلك لا يجوز التبرع بنقل الخصية الواحدة ، كما لا يجوز التبرع بنقل الخصيتين ، وذلك لأن التبرع بالخصيتين يؤدى إلى عقم المتبرع ، كما أن التبرع بالخصيتين أو الخصية الواحدة يؤدى إلى اختلاط الأنساب وضياعها .

إن الإسلام قد نهى وحرّم اختلاط الأنساب وضياعها ، وأمر بحفظ النسل ، ونهى عن أن ينتسب الشخص لغير أبيه . روى ابن ماجة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «**من انتسب إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**» كما روى أيضاً عن أبى عثمان النهدى قال : سمعت سعداً وأبا بكرة وكل واحد منهما يقول : سمعت أذناى ووعى قلبى محمداً ﷺ يقول : «**من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم أنه غير أبيه ، فالجنة عليه حرام**» .

كما نهى الإسلام المرأة عن أن تدخل على قومها نسباً ليس منهم ، أو أن يجحد الرجل ولده . فقد روى الدارمى عن أبى هريرة سمع رسول الله ﷺ يقول : «**أيما امرأة أدخلت على قوم نسباً ليس منهم فليست من الله فى شيء ، ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه ، وفضحه على رؤوس الأولين**

---

(١) البيولوجيا - علم الأحياء "*biology*" علم يعنى بدراسة الحياة أو الكائنات الحية فى جميع أشكالها وظواهرها . من فروعه : علم النبات ، علم الحيوان ، علم الوراثة ، علم الطيور ، علم الأسماك ، علم الحشرات ، علم الأحياء المجهري ، علم الأحياء النفسي . أما علم الوراثة "وهو أحد فروع البيولوجيا الرئيسية" فهو يبحث فى انتقال الصفات من جيل إلى آخر ويعنى بتفسير الظواهر المتصلة بهذا الانتقال .

والآخرين» .

ب) نقل الأعضاء بعد انتهاء الحياة:

إنَّ نقل عضو من شخص انتهت حياته إلى شخص آخر ، يختلف حكمه عن حكم التبرع بالعضو حال الحياة . وللوصول إلى تبين حكم نقل الأعضاء حال انتهاء الحياة يقتضى أولاً معرفة حكم ملكية جسم الميت وحكم حرمة الميت ، وحكم حالة الاضطرار .

بخصوص حكم ملكية جسم الشخص بعد أن تنتهى حياته نقول: إن جسم الشخص بعد أن تنتهى حياته لا يكون مملوكاً لأحد من البشر ، فالشخص بمجرد انتهاء حياته يخرج من ملكه وسلطانه كل شيء سواء ماله أو جسمه أو زوجته ، لذلك فإنّه لا يملك التصرف فى جسده ، فلا يملك أن يتبرع بأى عضو من أعضائه ولا أن يوصى به ، وبناء عليه لا يجوز تبرعه به ولا تصح وصيته فى ذلك .

أمّا جواز إيصائه بجزء من ماله مع كون المال سيخرج من ملكيته عند انتهاء حياته ، فذلك لأن الشارع أذِنَ للإنسان أن يوصى من ماله إلى حد الثلث دون إذن من الورثة ، وبما زاد عن الثلث بإذن منهم . وهذا الإذن من الشارع خاص بالمال ، لا يتعداه إلى غيره ، فلا يتعداه إلى جسمه ، لذلك لا يجوز له الوصية بالتبرع بعضو من أعضائه بعد وفاته .

أمّا الورثة فإنَّ الله سبحانه وتعالى قد ورثهم مال المورِّث ولم يورثهم جسمه ، لذلك فإنّهم لا يملكون التبرع بعضو من أعضائه لكونهم لا يملكون جسمه ، كما لا يملكون حق التصرف فيه ، **وشرط صحة التبرع أن يكون المتبرع والمتصرف مالكاً لما يتبرع به، وله حق التصرف فيه** . وما دام قد انتفى عن الورثة حق التصرف فى جسم مورثهم الذى انتهت حياته فيكون حق التصرف فى جسمه منفياً عن غيرهم مَهما كان موقعهم من باب أولى . وعليه فلا يملك الطبيب أو الحاكم أن يتصرف بأى عضو أو أعضاء

من انتهت حياته لنقله إلى شخص آخر فى حاجة إليه .

أما حكم حرمة الميت وإيذائه ، فإنّ الله سبحانه وتعالى قد جعل للميت حرمة مصونة مثل حرمة الحي ، وجعل إيذاء الميت مثل إيذاء الحي . فعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «**كسر عظم الميت ككسره حياً**»[١] وعن عمرو بن حزم الأنصارى قال : رآنى رسول الله ﷺ وأنا متكئ على قبر فقال : «**لا تؤذ صاحب القبر**»[٢] وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «**لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرقه خير له من أن يجلس على قبر**»[٣]

فهذه الأحاديث تدل دلالة واضحة على أنّ للميت حرمة الحي ، كما تدل على أن التعدى على حرمة الميت وإيذاءَه مثل التعدى على حرمة الحى وإيذاءَه ، فكما لا يجوز التعدى على الحى بشق بطنه أو قطع عنقه أو قلع عينه أو كسر عظمه ، فكذلك لا يجوز التعدى على الميت بشق بطنه أو قطع عنقه أو قلع عينه أو كسر عظمه . وكما يحرم إيذاء الحى بشتم أو ضرب أو جرح ، فكذلك يحرم إيذاء الميت بشتم أو ضرب أو جرح ، إلا أنّ التعدى على الميت بالكسر أو القطع أو الجرح لا ضمان فيه ، كما يُضمَن ذلك فى التعدى على الحي ، لأن رسول الله ﷺ لم يُضمّن من كسر عظم ميت أمامه وهو يحفر القبر شيئاً ، واكتفى بأمره بدس العظمة فى التراب ، وبين له أنّ كسر عظم الميت مثل كسر عظم الحى فى الإثم فقط .

إنّ قلع عين الميت أو شق بطنه لأخذ قلبه أو كليته أو كبده أو رئتيه لنقلها لشخص آخر هو فى حاجة إليها يعتبر تمثيلاً بالميت ، والإسلام نهى عن المُثلة . عن عبد الله بن زيد الأنصارى قال : «**نهى رسول الله ﷺ عن النُّهبى والمُثلة**»[٤] وعن صفوان بن عسال

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان .
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل .
(٣) رواه مسلم والإمام أحمد .
(٤) رواه البخاري .

قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سرية فقال: «**سيروا باسم الله ، وفى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا وليداً**»[(١)]

حالة الاضطرار:

حالة الاضطرار هى الحالة التى أباح الله فيها للمضطر الذى فقد الزاد وأصبحت حياته مهددة بالموت، أن يأكل مما يجده من المطعومات التى حرمها الله: كالميتة والدَّم ولحم الخنزير وغير ذلك . فهل فى هذه الحالة يُباح نقل عضو من أعضاء الميت لإنقاذ حياة شخص آخر يتوقف بقاء حياته على نقل العضو إليه؟

وللجواب على ذلك لا بُدَّ من معرفة حكم الاضطرار لنتوصل إلى حكم نقل الأعضاء من شخص انتهت حياته إلى شخص آخر فى حاجة إليها .

أما حكم الاضطرار:

فإن الله سبحانه وتعالى قد أباح للمضطر الذى فقد الزاد وأصبحت حياته مهددة بالموت أن يأكل ما يجده من المطعومات التى حرَّم الله أكلها ، حتى يحفظ حياته ، كالميتة والدّم ولحم الخنزير وغير ذلك من كل مطعوم حرّم الله أكله . قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ** ﴾[(٢)] فللمضطر أن يأكل مما يجده من هذه المطعومات المحرمة ما يسد رمقه ويبقى حياته ، فإن لم يأكل منها ومات يَكن آثِماً وَيَكن قاتلاً لنفسِهِ ، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾[(٣)] .

وبناءً على ما تقدّم من حكم الاضطرار ، فهل يمكن أن يطبق هذا الحكم على حالة

---

(١) رواه أحمد وابن ماجة والنسائي .
(٢) البقرة: (١٧٣) .
(٣) النساء: (٢٨) .

نقل الأعضاء من شخص انتهت حياته إلى شخص آخر محتاج إليها لإنقاذ حياته بطريق القياس؟ (١)

والجواب على ذلك فيه نظر ، إذ أنّ شرط تطبيق حكم القياس فى هذه المسألة يقتضى أن تكون العلة الموجودة فى الفرع المقيس - الذى هو فى حالة نقل الأعضاء - مشاركة لعلة الأصل المقيس عليها - الذى هو حالة الاضطرار لمن فقد الزاد - إمّا فى عينها أو فى جنسها ، لأنّ القياس إنّما هو تعدية حكم الأصل إلى الفرع ، بوساطة علة الأصل ، فإذا لم تكن علة الفرع مشاركة لها فى صفة عمومها ولا فى صفة خصوصها ، لم تكن علة الأصل موجودة فى الفرع ، وبذلك لا يمكن تعدية حكم الأصل إلى الفرع .

وهنا بالنسبة لحالة نقل الأعضاء ، فإنّ هذه الأعضاء المنقولة ، إمّا أن تكون من الأعضاء التى يتوقف عليها إنقاذ الحياة بغلبة الظن : كالقلب والكبد والكليتين والرئتين ، وإمّا أن تكون من الأعضاء التى لا يتوقف عليها إنقاذ الحياة : كالعين والكلية الثانية لمن عنده كلية صحيحة واليد والرجل وأمثالها .

أمّا الأعضاء التى يتوقف على نقلها إنقاذ حياة الإنسان بغلبة الظن، ففيها ناحيتان:

الأولى: أنّ العلة الموجودة فيها - والتى هى إنقاذ الحياة وإبقاؤها - غير متأكدة

---

(١) إن مما ابتلى به المسلمين حديثاًظاهرة تأويل النصوص الشرعية إلى غير ما نصت عليه ، وقد درج قسم من أشباه العلماء على تبرير القيام ببعض ما حرم الله بحجة الاضطرار ، دون إعمال شروط القياس الصحيحة فى ذلك ، وذلك اجترء منهم على شرع الله واتباعاً للهوى ، ولإرضاء أسيادهم من الحكام والكفار . - ومن الفتاوى الشاذة فى ذلك كان ما قام به فريق من "مشايخ السلطان "أصحاب العمائم واللحى والألقاب الجامعية من فتوى نشرتها وسائل الإعلام بجواز أن يقاتل المسلم الأمريكى إخوانه المسلمين فى أفغانستان فى صفوف الجيش الأمريكى فى الحرب الصليبية المعلنة على الإسلام والمسلمين بحجة الاضطرار لئلا يحرموا من تلك الجنسية ، ولكى يتاح لهم الاستمرار فى العيش فى بلاد الكفار ، ونسوا أو تناسوا بأن الشرع يحتم عليهم ترك العيش فى بلاد الكفار إذا تسبب ذلك فى فتنتهم عن دينهم ، لا ارتكاب الكبائر بقتال إخوانهم فى جيش الكفار فى سبيل السماح لهم بالعيش فى بلاد الكفر!!!! .

الحصول كما هي في حالة الاضطرار ، لأنّ أكل المضطر لما حرّم الله أكله من المطعومات يؤدى حتماً إلى إنقاذ حياته ، غير أنّ نقل القلب أو الكبد أو الرئتين أو الكليتين لا يؤدى حتماً إلى إنقاذ حياة من نقلت هذه الأعضاء إليه ، فقد يحصل الإنقاذ وقد لا يحصل . والوقائع الكثيرة التي حصلت مع من نقلت إليهم هذه الأعضاء تثبت ذلك . ولهذا فالعلة غير مكتملة .

أما الناحية الثانية ، فتتعلق بشرط آخر من شروط الفرع في القياس ، وهو أن يكون الفرع خالياً من مُعارِضٍ راجح يقتضي نقيض ما اقتضته علة القياس . وهنا في الفرع - وهو حالة نقل الأعضاء - فقد ورد نص راجح يقتضي نقيض ما اقتضته علة القياس ، وهو تحريم الاعتداء على حرمة الميت أو إيذائه أو التمثيل به ، وهو نقيض ما اقتضته علة نقل الأعضاء من الجواز .

وبناءً على هاتين الناحيتين، فإنه لا يجوز نقل الأعضاء التي يتوقف على نقلها إنقاذ الحياة: كالقلب والكبد والكليتين والرئتين من شخص فقد الحياة، وهو معصوم الدّم، مسلماً كان أو ذمياً أو معاهداً أم مستأمناً إلى شخص آخر تتوقف حياته على نقل الأعضاء إليه.

[٨] أطفال الأنابيب:

إنَّ عملية التلقيح بواسطة الأنابيب بين الحيوان المنوى للزوج والبويضة للزوجة ، هي عملية علاج طبي لتمكين إيصال الحيوان المنوى للزوج إلى بويضة الزوجة ، ليلقحها في غير مكان التلقيح الطبيعي ، ومن ثمَّ وضع البويضة الملقحة في رحم الزوجة بعملية ، حتى يتم الحمل طبيعياً في الرحم .

والأصل أن يتم التلقيح طبيعياً في الرّحم بالطريق الطبيعي التي فطر الله سبحانه الناس عليه ، لكن إذا تعذر التلقيح بالطريق الطبيعي ، [1] فهذا التعذر يمكن تلافيه عن

(١) بأن كانت القناة التي تسير فيها البويضة إلى رحم الزوجة مسدودة أو تالفة ، ولم يُتمكن بالعلاج من فتحها أو إصلاحها ، أو كانت الحيوانات المنوية للزوج ضعيفة أو قاصرة عن أن تصل إلى رحم الزوجة لتلتقى فى=

طريق علاج لإحداث تلقيح فى غير المكان الطبيعى بين الحيوان المنوى للزوج وبين بويضة الزوجة ، بعد تمكين الحيوان المنوى للزوج من الوصول إلى بويضة الزوجة ، وتلقيحها فى أنبوب يخضع لنفس ظروف الرحم الطبيعية ، ومن ثم تنقل البويضة الملقحة إلى مكانها الطبيعى فى رحم الزوجة ، ليتم الحمل الطبيعى فيه ، ومن ثمَّ الولادة .

هذه العملية هى عملية طبية علاجية ، وهى جائزة شرعاً ، لأنها علاج لتحقيق ما ندب الإسلام إليه ، وهو التناسل والتكاثر ، والذى هو هدف أساسى من أهداف النكاح . عن أنس أنَّ النبى ﷺ قال : « . . . **تزوجوا الودود الولود ، فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة**» [١] . وعن عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله ﷺ قال : «**أنكحوا أمهات الأولاد فإنى أباهى بكم يوم القيامة**» [٢] .

فإذا حصل العلاج لإيجاد التلقيح والحمل والولادة طبيعياً ، ولم يُثمر ذلك العلاج ، وكان بالإمكان إحداث التلقيح فى غير مكانه الطبيعي ، ثمَّ إعادة البويضة الملقحة من الزوج إلى مكانها الطبيعى فى رحم الزوجة ليتمَّ الحمل جاز ذلك ، لأنَّ العلاج مندوب إليه ، ولأنَّ فيه تحقيقاً لما ندب الإسلام إليه من التناسل والتكاثر . وفى العادة لا يُلجأ لهذا العلاج لإحداث التلقيح غير الطبيعي ، إلا إذا تعذر إحداث التلقيح الطبيعى فى رحم المرأة ، بين بويضتها وبين الحيوان المنوى لزوجها . ويُشترط لجواز هذا التلقيح غير الطبيعى فى الأنبوب لإنتاج النسل أن يكون هذا التلقيح بين الحيوان المنوى للزوج وبويضة الزوجة فقط ، وأن توضع بويضة الزوجة بعد تلقيحها فى الأنبوب بالحيوان المنوى للزوج فى رحم الزوجة .

=البويضة فيه ، ولم يتمكن العلاج من تقويتها ، أو إيصالها إلى رحم الزوجة لتلتقى بالبويضة فيه ، مما يؤدى إلى تعطيل النسل والتكاثر الذى حض الإسلام عليه ورغب فيه ، وندب المسلمين إليه .

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند .

(٢) المصدر السابق .

ويحرم أن توضع فى رحم امرأة أخرى غير الزوجة ، وهو ما يسمونه بالحمل عن الغير . كما يحرم أن يكون هذا التلقيح غير الطبيعى فى الأنبوب بين الحيوان المنوى للزوج وبويضة غير الزوجة ، حتى لو وُضِعَت البويضة بعد تلقيحها فى الأنبوب فى رحم الزوجة ، كما يحرم هذا التلقيح بين منى غير الزوج وبويضة الزوجة ، حتى لو وضعت البويضة بعد تلقيحها فى الأنبوب فى رحم الزوجة .

فكل هذه الصور الثلاث محرمة شرعاً ، لأنَ فيها اختلاطاً للأنساب وضياعاً لها ، وهو محرم شرعاً . وهذه الصور الثلاث تشبه الحمل والإنجاب بطريق الزنا ، سوى أنَّه لا إيلاج فيها ، لذلك لا تُحَدّ[1] المرأة ولا الرجل للقيام بهذه العمليات ، ولكن توقع عليهما عقوبة التعزير ، وتقديرها متروك للقاضي .

عن أبى هريرة أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول حين أنزلت آية الملاعنة : «**أيما امرأة أدخلت على قوم نسباً ليس منهم فليست من الله فى شيء ، ولن يُدخِلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه ، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين**»[2]

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من انتسب إلى غير أبيه ، أو تولى غير مواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[3] .

---

(١) أى لا يقام عليها حد الزنا .

(٢) رواه الدارمي .

(٣) رواه ابن ماجة .



صورة للطفلة لويز براون التي أسموها طفلة الأنبوب والتي ولدت في ٢٥ يولية ١٩٨٠ نتيجة تلقيح بويضة أمها في أنبوب في ١٠ نوفمبر ١٩٧٧ وأعيدت البويضة الملقحة الى رحم أمها ليزلي براون في ١٢ نوفمبر ١٩٧٧ حيث نمت نموا طبيعيا

[المراجع والمصادر]

[١] المصادر العربية

١. القرآن الكريم.

٢. ابن الأثير – الإمام أبي السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجوزي.
– جامع الأصول من أحاديث الرسول. طبعه (٤) ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م.

٣. ابن أنس – الإمام مالك بن أنس.
– موطأ الإمام مالك، دار الحديث – القاهرة.

٤. ابن الجوزي – زاد المسير في علم التفسير.

٥. ابن حجر العسقلاني – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
– فتح الباري بشرح صحيح البخاري. دار الفكر – بيروت.

٦. ابن حنبل – الإمام أحمد بن حنبل.
– مسند الإمام أحمد بن حنبل، تعليق الألباني. طباعة بيروت.

٧. ابن حزم – علي بن أحمد.
– المحلى، طباعة دار الفكر – بيروت.

٨. ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون المغربي.
مقدمة بن خلدون، كتاب التحرير – ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦م.

٩. ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم.

١٠. ابن رشد – أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد القرطبي.
– بداية المجتهد ونهاية المقتصد، الطبعة السادسة – دار المعرفة– بيروت.

١١. ابن عساكر، تاريخ ابن عساكر.

١٢. ابن العماد – أبو الفلاح عبد الحي بن علي بن كثير بن العماد.
– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٦) أجزاء، طباعة بيروت.

١٣. ابن خلكان – أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر الشافعي.
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، (٦) أجزاء – طباعة القاهرة – ١٩٤٨.

١٤. ابن قدامة – موفق الدين أبي محمد أحمد بن قدامة المقدسي.
- المغني والشرح الكبير على متن المقنع، دار الفكر – بيروت.

١٥. ابن قتيبة – أبي عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري.
- تفسير غريب القرآن، دار الكتب العلمية – بيروت – ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٦. ابن قيم الجوزية – شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الحنبلي.
- التبيان في أقسام القرآن.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين.
- طريق الهجرتين.

١٧. ابن كثير – أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
- تفسير ابن كثير، دار زهران – القاهرة.
- البداية والنهاية، مكتبة المعارف – بيروت – الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ.
- قصص الأنبياء، المكتبة التوفيقية – القاهرة.

١٨. ابن مسكويه – أبي الفداء علي بن أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن.
- الفوز الأصغر.
- تهذيب الأخلاق.

١٩. ابن منظور – جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري.
- لسان العرب، دار الفكر – بيروت، ودار صادر – بيروت.

٢٠. ابن الهمام – محمد بن عبد الواحد السيواسي السكندري.
- شرح فتح القدير، طبعة ثانية – ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، – دار الفكر – بيروت.

٢١. أبو داوود – سليمان بن الأشعث السجستاني.
- صحيح سنن المصطفى، دار الكتاب العربي – بيروت.

٢٢. أبو زيد – أحمد.
- نوابغ الفكر الغربي "تايلور"، دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٥٨.

٢٣. "إخوان الصفا".
- رسائل إخوان الصفا، الرسالة العاشرة. المجلد الرابع - طبعة بومباي.

٢٤. إسماعيل - محمد محمد إسماعيل عبده.
- الفكر الإسلامي. مكتبة الوعي - بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م.

٢٥. الألوسي - شهاب الدين السيد محمود الألوسي.
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، المطبعة المنيرية - القاهرة ١٢٧٠هـ.

٢٦. أنيس - د. إبراهيم أنيس وآخرين.
- المعجم الوسيط، الطبعة الثانية - دار الفكر - بيروت.

٢٧. البار - محمد علي البار.
- خلق الإنسان بين الطب والقرآن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م.
الدار السعودية للطباعة والنشر - جدة.

٢٨. بارنيت - لنكولن بارنيت.
- العالم وأينشتاين، ترجمة محمد عاطف البرقوقي، طباعة القاهرة.

٢٩. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري.
- صحيح البخاري، طبعة دار الشعب - مصر.

٣٠. بدران - د.عدنان بدران وآخرين.
- البيولوجيا، علم الحياة، طباعة وزارة التربية والتعليم - عمان - الأردن.

٣١. البدري - المُلا عبد العزيز البدري.
- حكم الإسلام في الاشتراكية، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

٣٢. بدوي - د. محمد بدوي.
- التطور، طباعة مصر.

٣٣. البلدي، أحمد بن محمد بن يحيى البلدي.
- تدبير الحبالى والأطفال والصبيان... تحقيق: د. محمود الحاج قاسم محمد.
الطبعة الثانية - ١٩٨٧ - سلسلة خزائن التراث - بغداد.

٣٤. البستاني.
- دائرة المعارف العربية.

٣٥. البطراوي، د. أحمد البطراوي.
- الجنس البشري في معرض الأحياء، سلسلة الألف كتاب المصرية - العدد (٦٢) ١٩٥٨م.

٣٦. البعلبكي - منير.
- موسوعة المورد العربية، طبعة أولى - دار العلم للملايين - بيروت.

٣٧. البغدادي - الشيخ أبو الفوز محمد الأمين البغدادي الشهير بالسويدي.
- سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، دار القلم - بيروت.

٣٨. البغوي.
- المصباح المنير.

٣٩. أبو بكر - أمين مسعود أبو بكر.
- "قضاء الخليل ١٨٦٤ـ١٩١٨م."

٤٠. تيلور - د. كينيث تيلور.
- التطور حقيقة أم نظرية، تعريب: سعيد باز، مطبوعات الشرق الأوسط - بيروت - لبنان.

٤١. الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي.
- سنن الترمذي، مطبعة الصاوي - القاهرة - الطبعة الأولى ١٣٥٣هـ.

٤٢. التل - الكولونيل عبد الله التل.
- جذور البلاء، طباعة بيروت.

٤٣. توماس - جوان توماس.
- خرافات عن الأجناس.

٤٤. الثعالبي - أبي اسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري الثعالبي.
- قصص الأنبياء المسمى بالعرائس، مكتبة الجمهورية المصرية - القاهرة.

٤٥. الجاحظ – أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.
– كـــتاب الحيوان، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـــ.

٤٦. جامبو – جورج جامبو.
– تاريخ الأرض.

٤٧. جراي – جيمس جراي.
– العلم يزحف.

٤٨. الجزيري – عبد الرحمن الجزيري.
– الفقه على المذاهب الأربعة، دار الفكر – بيروت.

٤٩. جلبي– د. خاص كنج جلبي، الطب محراب الإيمان، مؤسسة الرسالة ١٣٩٩هـــ/ ١٩٧٩م.

٥٠. الجميلـــي – د. السيد الجميلي، الإعجاز الطبي في القرآن، الطبعة الأولى – دار مكتبة الحياة – بيروت.

٥١. الجندي – أنور الجندي.
– أخطاء المنهج الغربي الوافد. دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٧٤م.
– سقوط نظرية داروين، دار الاعتصام بمصر.
– شبهات التغريب في غزو العالم الإسلامي، المكتب الإسلامي ١٣٩٨هـــ.
– مفاهيم العلوم الاجتماعية.

٥٢. جولدزبي – ريتشارد م. جولدزبي.
– البيولوجيا، الجزء الأول، ترجمة: مجمع اللغة العربية الأردني– طباعة عمان.

٥٣. جينز – سير جيمس جينز.
– عالم الأسرار.

٥٤. الحاكم النيسابوري – أبي عبد الله محمد النيسابوري.
– المستدرك على الصحيحين، طبعة الرياض.

٥٥. حتي – د. يوسف حتي.
– قاموس حتي الطبي، مكتبة لبنان – الطبعة الرابعة ١٩٨٠م.

٥٦. حداد – إبراهيم حداد.
– الشيوعية والديموقراطية في الشرق والغرب، دار الثقافة – بيروت ١٩٥٨.

٥٧. حقي – د. إسماعيل حقي.
– خلق لا تطور.

٥٨. خان – وحيد الدين خان.
– الإسلام يتحدى، تعريب: ظفر الإسلام خان، الطبعة الثانية – بيروت.

٥٩. خليل – د. فؤاد خليل وآخرين.
– عِلم الحيوان العام، "لطلبة الجامعات والمعاهد العليا"، مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – الطبعة الرابعة ١٩٧٦م.

٦٠. دار مكتبة الحياة.
– الرجولة والزواج، دار مكتبة الحياة – بيروت "المجموعة الجنسية"

٦١. داروين – تشارلس داروين.
– أصل الأنواع، ترجمة: محمد إسماعيل مظهر، مكتبة النهضة– بيروت وبغداد.

٦٢. الدباغ – مصطفى مراد الدباغ.
– بلادنا فلسطين، الجزء الثالث، رابطة الجامعيين – الخليل.

٦٣. الرازي – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.
– مختار الصحاح، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني – بيروت ١٩٦٧.

٦٤. رويحة – د. أمين رويحة.
التداوي بالأعشاب، طباعة دار الأندلس، بيروت.

٦٥. رينان – أرنست رينان.
– تاريخ الأديان.

٦٦. ريتشارد – ايفانز ريتشارد.

الأنثربولوجيا الاجتماعية، ترجمة: أحمد أبو زيد، طباعة الإسكندرية ١٩٥٨.

٦٧. الزركلي – خير الدين بن محمود بن محمد بن علي الدمشقي.
– الأعلام (١٠) أجزاء، طباعة القاهرة ١٩٥٤ – ١٩٥٦.

٦٨. زلوم – عبد القديم يوسف زلوم.
– حكم الشرع في .... دار الأمة – بيروت، طبعة أولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٦٩. زاهدة – عطية عبد المعطي زاهدة.
– أصحاب الكهف والرقيم، طباعة القدس ١٩٧٧.

٧٠. الزين – سميح عاطف الزين.
– معجـــم البـــيان الحديـــث. "قصص الأنبياء". طبعة أولى، دار الكتاب اللبناني– بيروت.
– معجـــم البيان الحديث. "تفسير مفردات القرآن الكريم". طبعة أولى، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٠.

٧١. زينو – المهندس حسن زينو.
– التطور والإنسان.

٧٢. سابق – الشيخ سيد سابق.
– العقائد الإسلامية. طبعة ثالثة، دار الكتب الحديثة – القاهرة.

٧٣. السباتين – يوسف أحمد محمود السباتين.
– العقيدة الإسلامية وأثرها في حياة المسلمين، الطبعة الأولى، ١٤٥٥ هـ.

٧٤. السرخسي – شمس الدين السرخسي.
– المبسوط، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٧٥. ستوكلي ـــ جيمس ستوكلي .
ـــ العلم يَزحف . ترجمة : محمد الشحات .

٧٦. سوليفان – ج. سوليفان.
– حدود العلم، الدار العلمية – بيروت، ١٩٧٢.

٧٧. سينوت – أدموند و. سينوت.
– حياة الروح في ضوء العِلم. ترجمة: إسماعيل مظهر، ١٩٦٠.

٧٨. الشهابي – الأمير مصطفى محمد سعيد الشهابي.
– معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية، مكتبة لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨.

٧٩. الشويكي – محمد الشويكي.
– الواضح في إبطال المصالح، الطبعة الأولى، القدس، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٨٠. الصابوني – محمد علي الصابوني.
– صفوة التفاسير. المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة.

٨١. الطبري – محمد بن جرير الطبري.
– جامع البيان في تفسير القرآن، طباعة بيروت.

٨٢. عوده – عبد القادر عوده.
– التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة.

٨٣. عويضة – محمود عبد اللطيف عويضة.
– حمل الدعوة الإسلامية، واجبات وصفات. دار الأمة – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦.

٨٤. الغزالي – أبي حامد محمد بن محمد الغزالي.
– إحياء علوم الدين، دار المعرفة – بيروت.

٨٥. الغزي – نجم الدين الغزي.
– الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة. دار الآفاق الجديدة – بيروت، ١٩٧٩.

٨٦. الفخر الرازي – محمد فخر الدين الرازي.
– التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" طباعة بيروت.
– المباحث الشرقية، طباعة بيروت.

٨٧. الفيروز أبادي – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي.
– القاموس المحيط. دار الجيل – بيروت.

٨٨. قايماز – محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي التركماني الفاروقي.
– كتاب الكبائر، دار الكتب العلمية – بيروت.

٨٩. القرطبي – محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي.
– الجامع لأحكام القرآن، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني. الطبعة الثانية.

٩٠. القزويني – زكريا القزويني.
– عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، الطبعة الثالثة، دار الآفاق الجديدة – بيروت.

٩١. القزويني – محمد بن يزيد القزويني، الشهير بابن ماجة.
– سنن ابن ماجة، تعليق: محمد فؤاد عبد الباقي. مطبعة الحلبي بمصر.

٩٢. قطب – سيد قطب.
– في ظلال القرآن، الطبعة التاسعة، دار الشروق – بيروت.
– خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق – بيروت.

٩٣. قطب – محمد قطب.
– جاهلية القرن العشرين، دار الشروق – بيروت.

٩٤. القلقشندي.
– نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، طباعة القاهرة، ١٩٥٩.

٩٥. كلارك – د. كلارك.
– أدلة المستحاثات على تطور الإنسان.

٩٦. الكلبي – أبي المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.
– جمهرة النسب. "رواية السكري عن ابن حبيب". تحقيق: د. ناجي حسن. عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/١٩٩٣م.

٩٧. ماكسويل، المدعي العام الفرنسي ماكسويل.
– الظواهر النفسية.

٩٨. المالكي – المحامي عبد الرحمن المالكي.
–نظام العقوبات. الطبعة الأولى، مكتبة الوعي – بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

٩٩. محكمة صفد الشرعية. "سجل ١" صفحه (٢٤٩) (١٠٨)
"نسب السادات السعدية والبهجة السنية".

١٠٠. محكمة الخليل الشرعية. "سجل ١٩" ، ح٢، ٥، ذ

١٠١. تفسير المراغي.

١٠٢. موريسون. أ. كريسي موريسون.
– العلم يدعو للإيمان. ترجمة: محمود صالح الفلكي. الطبعة الأولى ١٩٥٨، دار القلم.

١٠٣. مونسما – جون كلوفر مونسما.
– الله يتجلى في عصر العلم. ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان. مؤسسة الحلبي بمصر ١٩٥٨.

١٠٤. ميلرش. تاريخ الإنسان.

١٠٥. النبهاني – الشيخ تقي الدين النبهاني.
– التفكير. الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
– سرعة البديهة. الطبعة الأولى، بيروت، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
– الشخصية الإسلامية "الجزء الأول". الطبعة الثانية، القدس، ١٣٧٢هـ.
– نظام الإسلام. الطبعة الخامسة، القدس، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
– النظام الاجتماعي في الإسلام. الطبعة الرابعة، دار الأمة – بيروت.
– النظام الاقتصادي في الإسلام. الطبعة الرابعة، دار الأمة – بيروت.

١٠٦. النجار – عبد الوهاب النجار.
– قصص الأنبياء. الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

١٠٧. نسب آل الشرباتي الشيبي. "مخطوطة"

١٠٨. نصر الله – د. محمد عزت نصر الله.
– الرّد على صادق العظم. طبعة أولى، بيروت، ١٩٧٠م.

١٠٩. النوري – محمد الموسوي النوري.
– عرض نظرية داروين وتطورها. الطبعة الأولى، كربلاء.

١١٠. النووي – محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي.
– صحيح مسلم بشرح النووي. دار الفكر – بيروت.

١١١. النيسابوري – مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.
– الجامع الصحيح "صحيح مُسْلِم". دار المعرفة – بيروت.

١١٢. هال – و.ج. هال و ج.ب. مرغام.
– معجم البيولوجيا. ترجمة: هلا فلاح الخنساء. نشر "أكاديميا " بيروت.

١١٣. هاولز – وليام هاولز.
– مــا وراء الــتاريخ. تــرجمة: أحمد أبو زيد. مؤسسة فرانكلين بالاشتراك مع مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٥م.

١١٤. وجدي – محمد فريد وجدي. دائرة المعارف العربية.

١١٥. ولاس – روسل ولاس. عالم الحياة.

١١٦. ويتكرز – شامبرز ويتكرز. الشهادة.

١١٧. الشرباتي – حاتم الشرباتي. نسب آل الشرباتي الشيباني (تحت الطبع).

****

[٢] المصادر الأجنبية

.١١٨ A.M. Winchester :
- Biology Ama Its Relation to Man .

.١١٩ Ashley Monaga :
- Les Premiers Ages de L Homme.

.١٢٠ Charles Darwin :
- The Origin of Species .

.١٢١ Cresy Morrison :
- Man does not stand alone .

.١٢٢ Bier :
- Charles Darwen.

.١٢٣ F. Marsh :
- Evulation or special Creation .

.١٢٤ Gorge Gaylord Simpson .
- La Geographia de L Hommme.

.١٢٥ Hall S. Lesser :
- Review textin Biology .

.١٢٦ B.F., B.B., Vance Miller :
- Biology for you .

.١٢٧ H.W. Dowdesweel :
- The Mechamnism of Evolution .

.١٢٨ Ivar Lissner :
- Dieu e tait De ja La .

.١٢٩ John Rostan :
- Evolution .

.١٣٠ Julian Huxley :
- Evolution as a Process.

.١٣١ John Clover Monma :
- The Evidence of God .

.١٣٢ Jean Baptiste De Mont :
- Chevalier de Lamark .

.١٣٣ Osborn :
- From the Yreeks to Darwin .

.١٣٤ Robert L. Lehrman :
- The long road to Man .

.١٣٥ Rute Ford Platt :
- Le flave de vie .

.١٣٦ T. Dobzhansky :
- Genetics and the origin of Species .
- The Biological Basis of Human Freedon.

.١٣٧ Waheeddin Khan :
- Iume Jadeed ka challenge .
- The Mysterious Universe .

.١٣٨ - World book Encyclopedia ١٩٦٦ .

.١٣٩ Millton , Mark , A. Hull , S. Lesser .
- Review text in Biology .

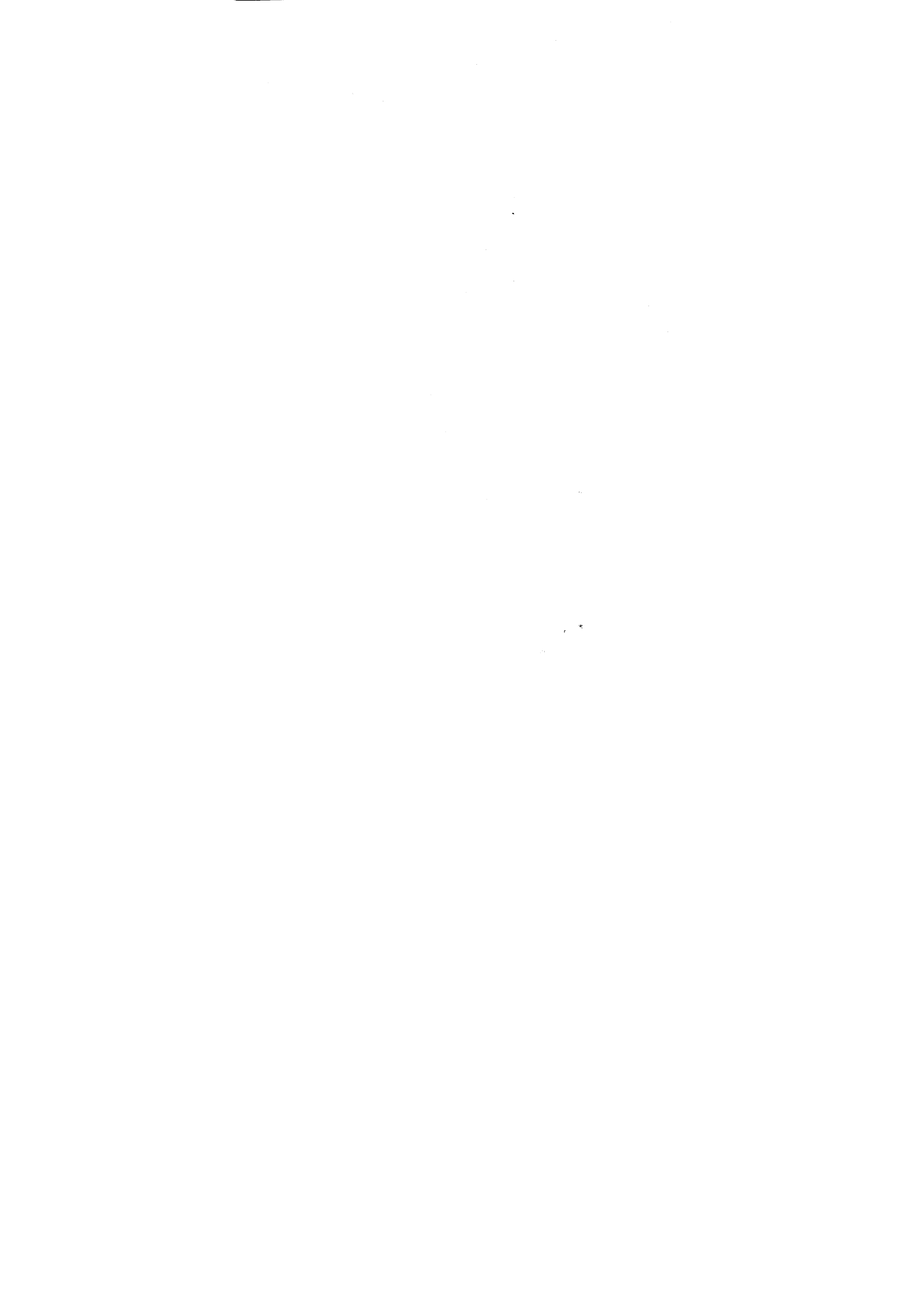
.١٤٠ Downs , R. :
- Books that changed the World . Menetor books , N.Y. ١٩٥٦ .

.١٤١ Hofstadter , R.,
- Social Darwinism in American Thought .

.١٤٢ Lewontin , R.C., :
- The Cocept of Evolution in International Encyc lopedia of social science ,
Ant. evolution .

كما تمّ الاقتباس عن عدد من الدوريات والجرائد والمجلات ، وقد أشير إليها في مواضعها

****



الفهـــرس

****